موسوعة تاريخ

الأدب والنقد والحكمة العربية

موسوعة تاريخ

الأدب والنقد والحكمة العربية

عصر الانحدار

(عصر الدول المتتابعة)

(وإبان الحروب الصليبية)

- ١ -

المجلد الثامن

المؤلف

حسين علي الهنداوي

الموسوعة مسجلة في:

١ – مكتبة الإسكندرية

٢ – مكتبة بيت الشباب في الشارقة

٣ – مكتبة جمعة بن ماجد – الإمارات

٤ – مكتبة الفهد الوطنية

٥ – مكتبة بن ادريس المغرب – مراكش

٦ – مكتبة بن باديس – الجزائر

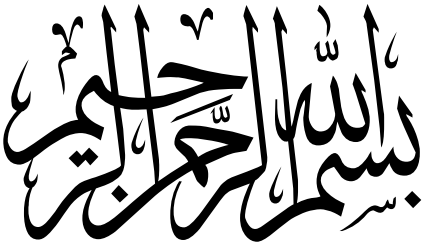

ترجمة صاحب الموسوعة

حسين علي الهنداوي

أ – أديب وشاعر وقاص ومسرحي وناقد وصحفي

ب – له العديد من الدراسات الأدبية والفكرية

ج – نشر في العديد من الصحف العربية

د – مدرس في جامعة دمشق – كلية التربية – فرع درعا

هـ – ولد الأديب في سوريا – درعا عام ١٩٥٥ م

و – تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي في مدينة درعا

ح – انتقل إلى جامعة دمشق كلية الآداب – قسم اللغة العربية وتخرج فيها عام ١٩٨٣

ك – حائز على إجازة في اللغة العربية

ص – حائز على دبلوم تأهيل تربوي جامعة دمشق

ع – عمل محاضراً لمادة اللغة العربية في معهد إعداد المدرسين – قسم اللغة العربية في مدينة درعا

ف – انتقل إلى التدريس في المملكة العربية السعودية عام (١٩٩٤ / ٢٠٠٠) في مدينتي عنيزة وتبوك.

– عضو اتحاد الصحفيين العرب

– عضو اتحاد كتاب الانترنت العرب

– عضو تجمع القصة السورية

– عضو النادي الأدبي بتبوك

الصحف الورقية التي نشر فيها أعماله:

١ – الكويت (الرأي العام – الهدف – الوطن)

٢ – الإمارات العربية (الخليج)

٣ – السعودية (الرياض – المدينة – البلاد – عكاظ)

٤ – سوريا (تشرين – الثورة – البعث – الأسبوع الأدبي)

المجلات الورقية التي نشر فيها أعماله:

١ – مجلة المنتدى الإماراتية

٢ – مجلة الفيصل السعودية

٣ – المجلة العربية السعودية

٤ – مجلة المنهل السعودية

٥ – مجلة الفرسان السعودية

٦ – مجلة أفنان السعودية

٧ – مجلة السفير المصرية

٨ – مجلة إلى الأمام الفلسطينية

مؤلفاته:

أ - الشعر:

١ – هنا كان صوتي وعيناك يلتقيان/ ١٩٩٠

٢ – هل كان علينا أن تشرق شمس ثبير/ ١٩٩٤

٣ – أغنيات على أطلال الزمن المقهور / ١٩٩٤

٤ – سأغسل روحي بنفط الخليج / ١٩٩٦

٥ – المنشّى يسلم مفاتيح ايلياء/ ١٩٩٦

٦ – هذه الشام لا تقولي كفانا / مخطوط

ب - القصة القصيرة:

شجرة التوت / ١٩٩٥

ج – المسرح:

١ – محاكمة طيار / ١٩٩٦

٢ – درس في اللغة العربية / ١٩٩٧

٣ – عودة المتنبي / مخطوط

٤ – أمام المؤسسة الاستهلاكية / مخطوط

د – النقد الأدبي:

١ – محاور الدراسة الأدبية ١٩٩٣

٢ – النقد والأدب / ١٩٩٤

٣ – مقدمتان لنظريتي النقد والشعر / مخطوط

٤ – أسلمة النقد الأدب

هـ - الدراسات الدينية:

١ – الإسلام منهج وخلاص – الجزء الأول

٢ – الإسلام منهج وخلاص – الجزء الثاني

٣ – الإسلام منهج وخلاص – الجزء الثالث

٤ – فتاوى واجتهادات / جمع وتبويب

٥ – هل أنجز الله وعده؟

الصحف الالكترونية التي نشر بها:

١ – قناديل الفكر والأدب

٢ – أنهار الأدب

٣ – شروق

٤ – دنيا الوطن

٥ – ملتقى الواحة الثقافي

٦ – تجمع القصة السورية

٧ – روض القصيد

٨ – منابع الدهشة

٩ – أقلام

١٠ – نور الأدب

مقدمة

الأدب في عصر الدول المتتابعة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبع هداهم بإحسان إلى يوم الدين... وبعد

ما إن أحست العناصر غير العربية ممن دخل تحت لواء الإسلام في ظل الدولة العباسية بأن الإسلام يفسح المجال لأي أمة من الأمم أن يكون لها الحق في حكم المسلمين بفعل النصوص القرآنية وأحاديث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حتى أخذت تسعى للوصول إلى سدة الخلافة بطريقة أو أخرى - سواء أكان ذلك مخالفاً للشرع الإسلامي أم موافقاً له - حتى إن بعض الخلفاء العرب المسلمون أنفسهم قد أخذوا يتعصبون لأخوالهم؛ فالأمين ابن الرشيد كان يتعصب للعرب لأن أمه عربية، والمأمون تعصب للفرس لأن أمه فارسية، والمعتصم تعصب للأتراك لأن أمه تركية، وهكذا حتى ضعفت شوكة الخلافة وأصبحت العناصر غير العربية- وخاصة العسكريين- تستخدم الخلافة كمصدر لجمع المال، فطمع بالخلافة من طمع وتكالب الأعداء على الدولة العباسية سواء أكانوا من الداخل - الضباط الأتراك - أو من الخارج - الصليبيين والمغول والتتار - مما دفع الكثير من الولاة والقادة إلى الانفصال عن الدولة وتشكيل دويلات متحاربة فيما بينها.

وهذا ما أدى بالدولة العباسية إلى الانقسام، فكانت الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية والدولة المملوكية والدولة الحمدانية، وأصبح العربي يعيش تحت رحمة العناصر غير العربية. صحيح أن بعض هذه الدويلات قد حاولت الدفاع عن حياض المسلمين، إلا أنها في الوقت نفسه لم تستطع أن تجمع شظايا الدولة الإسلامية المتشرذمة تحت راية واحدة، وأصبح الأدب في حالة اعتلال ومرض لأن الولاة والقادة لم يعد لديهم أي اهتمام بفن الأدب وتراجعت حركة الشعر، فنزل الأدب من القمة إلى الحضيض وإن نشطت حركة الجمع والموسوعية حيث أخذ بعض الأدباء يجمعون شتات اللغة والأدب وعلوم النحو وهكذا.

ونشط النثر ولكنه بقي أسير المحسنات اللفظية كزينة مصطنعة كبّلت فن النثر والشعر معاً، ولم يعد الأدب نقطة الجذب – التي كانت – لدى الناس، وتسمى هذا العصر بأسماء مختلفة أدب عصر الانحدار نظراً لعدم قدرة الأدب على أخذ دوره الصحيح، أو أدب عصر الدول المتتابعة نظراً لتعاقب دول متنوعة في هذا العهد وامتهن الأدباء مهناً حضيضة كي يحصلوا على لقمة العيش، فكان منهم الجزار والقصار والدباغ ولم يعد الحكَّام يشجعون الشعراء كما كانوا في العصور السابقة، وهكذا تراجع الأدب خطوات كبيرة للوراء وأصبح الأدباء والشعراء يدورون في حلقة مفرغة وتحول الأدب إلى قضية هامشية لا قيمة له ولا مدافع عنه.

حسين علي الهنداوي
سوريا - درعا

الباب الأول

الحياة العامة

في العصر المملوكي

تقديم

يمثل عصر الانحدار (٦٥٦ هـ- ٩٢٢ هـ) الطور المغولي فترة قاتمة في أدب العرب والإسلام بعد أن كانت الخلافة العباسية منذ عهد بعيد تستظل في فيء الفرس والأتراك الذين أبقوا عليها مع تضعضع قواها وضعف سلطانها، وما لبثت أن انهارت لما هجم المغول على البقاع العربية الإسلامية، واستولوا على بغداد وذبحوا الخليفة والأعيان وقتلوا من أهلها الكثير، وألقيت الكتب في دجلة ودنست معالم الثقافة بأرجل التتار وغاضت مياه الحضارة.

- العصر المغولي ٦٥٦هـ - ٩٢٢ هـ
- عصر الحروب الصليبية ٦٥٦ هـ- ٩٢٢هـ
- عصر المماليك ٦٤٨ هـ- ٩٢٢ هـ/ ١٢٥٠ م- ١٥١٧ م
- المماليك البحرية ٦٤٨هـ - ٩٢٣هـ/ ١٣٨٢م - ١٥١٧ م
- المماليك البرجية ٧٨٤هـ - ٩٢٣هـ / ١٣٨٢م - ١٥١٧م
- العصر الفاطمي:
- العصر الأيوبي:

الباب الأول

الفصل الأول

الحياة السياسية في بلاد الشام ومصر والمغرب العربي في العهد المملوكي

يتمثل هذا العصر من الوجهة السياسية الطور المغولي (٦٥٦ هـ- ٩٢٢ هـ) الذي يبدأ بسقوط بغداد على يد هولاكو وينتهي باستيلاء سليم الفاتح على بلاد الشام، وبلاد ومصر (٩٢٢هـ -١٢١٣هـ).

بدأت دولة المماليك حياتها السياسية بوساطة شجرة الدر التي صارت زوجة للملك الصالح نجم الدين السلطان الأيوبي، وقد تولت شجرة الدر الملك بعد زوجها الملك الصالح وتزوجت بعز الدين أيبك الأمير المملوكي، وعلى الرغم من رفض الخليفة العباسي لفكرة تولّي امرأة الحكم وتغرير أهل مصر إلا أن شجرة الدر استطاعت بدهائها أن تحكم مصر فترة غير طويلة، وكان نجم الدين زوجها قد قوّى المماليك وأعطاهم مساكن في جزيرة الروضة، وعرفوا بالمماليك البحرية، وكان شراء المماليك يتم من الأمم التركية التي فرت من أوطانها بحر قزوين الذين فروا أمام زحف التتار من أوروبا الشمالية، وكان منهم الرومي والصليبي والتتري ودربوا على فنون القتال حتى أصبحوا القوة الضاربة ضد الصليبيين والفرنجة والمغول وأحرزوا انتصارات باهرة.

وقد استظل هؤلاء المماليك في دولتهم في ظل الإسلام وحرصوا على التمسك به ظاهراً والدفاع عن مقدساته من خلال رعاية الخلافة والحفاظ على أمور الدين ورعاية أوامره ونواهيه أمام الناس والفقهاء وإظهار التشدد في تطبيق حدود شرعه ومحاربة الخارجين عليه وبناء المدارس ودور الحديث والمدارس الشرعية منفقين عليها من أموال الدولة غير مبالين بما وضعوه فيها من الضرائب والمكوس، والذي كان على حساب لقمة العيش للعامة، واعتبروا أن من يملك القوة يملك السلطة حتى ولو كان عبداً.

لقد كان العبد المملوك ينتظم سلك الجيش ويتدرب على الفروسية وتراوده تطلعات لأن يصبح أميراً على كرسي القلعة، وقد كان الناس مغلوبين على أمرهم بسبب توالي الإرهاق والكبت والظلم، وهكذا عايشت دولة المماليك ترتع وتمرح وتنعم بالخيرات ثلاثة قرون بينما الناس يكدون ويشقون ويزرعون ويحصدون ويعانون متاعب الحياة.

١ - دولة المماليك البحرية عام ٦٤٨ هـ- ١٢٥٠م

كان مولد دولة المماليك البحرية باستيلاء شجرة الدر على السلطة، وكان انتهاؤها بموت الملك الصالح زين الدين حاجي عام ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢م.

٢ - الدولة المملوكية الثانية

وقد كانت عند تولّي السلطان الظاهر برقوق، وانتهت بآخر سلاطينهم واستمر عصر دولة المماليك البحرية قرناً ونصف تقريباً تولّى الحكم فيها خمسة وعشرون سلطاناً هم:

١ – شجرة الدر ٦٤٨ – ٦٤٨ هـ

٢ – عز الدين أيبك ٦٤٨ – ٦٥٥ هـ

٣ – المنصور علي بن عز الدين أيبك ٦٥٥ – ٦٥٧هـ ومات مقتولاً

٤ – قطز ٦٥٧ – ٦٥٨ هـ وقد مات مقتولاً

٥ – الظاهر بيبرس ٦٥٨ – ٦٧٦ هـ

٦ – بركة خان ٦٧٦ – ٦٧٨ هـ

٧ – سلامش بن بيبرس ٦٧٨ – ٦٧٨ هـ

٨ – المنصور قلاوون ٦٧٨ – ٦٧٩ هـ

٩ – الأشرف خليل ٦٨٩ – ٦٩٣ هـ ومات مقتولاً.

١٠ – الناصر محمد الأول ٦٩٣ هـ

١١ – العادل كتبغا ٦٩٤ – ٦٩٦ هـ

١٢ – المنصور لاجين ٦٩٦ – ٦٩٨ هـ

١٣ – السلطان الناصر الثاني ٦٩٨ – ٧٠٨ هـ

١٤ – بيبرس الجاشنكير ٧٠٨ – ٧٠٩ هـ

١٥ – الناصر محمد الثالث ٧١٩ – ٧٤١هـ

١٦ – الأشرف كجك ٧٤٢ هـ
١٧ – المنصور أبو بكر ٧٤١ – ٧٤٢ هـ
١٨ – الناصر أحمد ٧٤٢ هـ
١٩ – السلطان عماد الدين إسماعيل ٧٤٣ – ٧٤٦هـ
٢٠ – الكامل شعبان ٧٤٦ – ٧٤٧ هـ
٢١ – المظفر حاجي ٧٤٧ – ٧٤٨ هـ
٢٢ – الناصر حسن الأول ٧٤٨ – ٧٥٢هـ
٢٣ – الناصر حسن الثاني ٧٥٥ – ٧٦٢ هـ
٢٤ – الصالح ٧٥٢ هـ
٢٥ – المنصور ٧٦٢ هـ
٢٦ – الأشرف ٧٦٤ هـ
٢٧ – المنصور علاء الدين ٧٧٨ هـ
٢٨ – الصالح حاجي ٧٨٣ هـ

ومن هؤلاء السلاطين من لم يقم في السلطة إلا بضعة أيام أو بضعة شهور ومنهم من طالت مدته ومنهم من كان صبياً أو طفلاً يقوم بأمره نائب السلطنة، وقد غلبت على أسرة المماليك أسرة بيبرس البند قداري وأسرة المنصور قلاوون التي حكمت معظم هذه الدولة عدا فترات قليلة أي بعد وفاة مؤسسها المنصور قلاوون، وقتل خليفته الأشرف خليل حيث تولّى بعده العادل كتبغا سنة ٦٩٣هـ، وهكذا فقد تميزت الدولة الأولى بطول مدة حكم كثير من سلاطينها، فما وفَّر لها الاستقرار النسبي، وخاصة بعد انتصارها على الصليبيين والتتار، فقد هُزم قطز في عين جالوت التتار ٦٥٩هـ وهزمهم بيبرس ٦٦٦ هـ وصفّى قطز والأشرف خليل جيوش الصليبيين في المشرق، واستولوا على عكار ٦٩٠ هـ وتمتع الناس بالهدوء وعم الرخاء والسلام واهتم السلاطين بالإصلاحات الداخلية وأقبل الناس على الحياة، ومن أشهر السلاطين المهتمين بالأدب الظاهر بيبرس البند قداري الذي حكم (٢٢) عاماً شن الحملات ضد التتار والصليبيين في الشام والعراق وأرمينيا وبلاد النوبة وشمال السودان حيث كسر الموجات التترية وصفّى الجيوب الصليبية وأمن الحدود الجنوبية لمصر وحكم النوبة بعد أن استعاد نفوذها من أيدي مملكة النوبة المسيحية، وقد مدح الشعراء هذه الانتصارات، فقد قال أحد الشعراء في ذلك:

الملـــــك الظـــــاهر ســـــلطاننا نفديـــــه بـــــالأموال والأهـــــل

اقـــــتحم الممـــــر ليطفـــــئ بـــــه حـــــرارة القلـــــب مـــــن المغـــــل

وقال ابن النقيب يصف انتصار الظاهر بيبرس بفرسانه المماليك على التتار وهزيمتهم شرقاً حيث عبروا وراءهم النهر نهر الفرات وقتل منهم مقتلة عظيمة وغنم غنائم كثيرة عام ٦٥٨هـ:

ولمـــا ترامينـــا الفـــرات بخيلنـــا شـــجرناه منـــا بـــالقوى والقـــوائم

فأوقفـــت التيـــار عـــن جريانـــه إلى حيـــث عـــدنا بـــالغنى والغنـــائم

ويقول الشاعر محمد بن يوسف الهمندار:

لـــو عاينـــت عينـــاك يـــوم تزالفـــا والخيـــل تطغـــم في العجـــاج الأكـــدر

لرأيـــت ســـداً مـــن حديـــد ســـائدا فـــوق الفـــرات وفوقـــه نـــار تـــري

ورأيـــت ســـد الخيـــل قـــد بلـــغ الزبـــى ومـــن الفـــوارس أبحـــراً في أبحـــر

والظـــاهر والـــسلطان في آثـــارهم يـــروي الـــرؤوس بكـــل عـــضب أســـمر

كذلك اهتم الظاهر ببناء الجيش واهتم بالجانب الديني لتزعم مصر للمسلمين بعد بغداد حيث استدعى أحد الخلفاء العباسيين وولاه الخلافة في القاهرة، وولاه ما يتعلق بشؤون الدين واهتم الظاهر بالتمسك بأوامر الدين ونواهيه ومراعاة مظاهره ومحاربة البدع والمفاسد وتطبيق حدود الشرع الإسلامي، وتقريب الصوفية ومشايخهم بناء على تبشير الشيخ خضر الصوفي الظاهر بتولّي الخلافة قبل أن يتولاها بسنين وبنى الظاهر بيبرس المدارس لأهل السنة، وأهم ما بناه مسجده ومدرسته الظاهرية بالقاهرة سنة ٦٦٤هـ وخزانة الكتب.

ولم يعمر أبناؤه الصغار في الحكم الذي انتقل إلى المنصور قلاوون الذي تولّى الحكم في عصر الدولة الأولى، وكان أبناؤه كبار السلاطين الذين خلفوا أثار خالد من أمثال الأشرف خليل الناصر محمد الناصر حسن وقد شن المنصور قلاوون على الرغم من كونه أعجمياً لا يتقن العربية غارات ناجحة على الصليبيين وصفّى جيوشهم في ساحل الشام وصمد أمام هجمات التتار، وخلف القبة المنصورية مكاناً لتعلم القرآن الكريم وتلاوة وسماع الحديث والعلوم الدينية وكذلك بنى المارستان المنصوري لشفاء المرض وإذا كان الأشرف خليل قد فتح عكا واستولى عليها فإن الملك الناصر محمد أقوى سلاطين أسرة قلاوون وعهده أكثر عهودهم استقراراً

وازدهاراً حيث حكم خمسين عاماً بعد اضطرابات كثيرة في أول عهده وفي عهده، استولى التتار على دمشق بعد هزيمته في وادي الخازندار ٦٩٩هـ أمام غازان حيث هرب إلى مصر.

وفي عهده فتحت جزيرة أرواد ٧٠٢هـ وحدثت وقعة شقحب ٧٠٢هـ بين الناصر والتتار وكسب النصر بعد صمود مرير، وفي العام نفسه وقعت الزلزلة العظيمة بمصر والشام ومات تحت الروم أناس كثيرون وعقدت مصالحات بين الناصر والتتار من جهة والإفرنج من جهة أخرى، وأخمدت ثورات العربان بصعيد مصر وأخضع ملوك النوبة المسيحية شمال السودان وشعر الناس بالهدوء والرخاء بعد غلاء وضنك وفوضى واضطراب وبنيت المنشآت والعمائر والمساجد والمدارس ودور الصوفية، وبالغ بشراء المماليك وعظم العلم والمناصب الشرعية منهم بتقريب نصارى مصر وتمكينهم من رقاب الرعية، مما جعل أهل القاهرة يثورون عليه وشدد على اليهود وأمرهم أن يلبسوا عمائم صفر بسبب تأمرهم عليه مع غازان قائد التتار حين استولى على دمشق؛ ثم إنه كان يحارب المنكرات وعاقب مرتكبيها، وقد توفي في عام ٧٤١هـ تولّى من بعده ابنه الناصر حسن الذي كان خلالها ظالماً للرعية صادر ممتلكاتهم وسلب أموالهم ولم يتجاسر على فقد أحد وسلط الله تعالى عليه جنده وقلب قلوب رعيته فقتله أحد خواصه يلبغا الضاحكي سنة ٧٦٢هـ، ومن أهم ما خلفه المدرسة المعروفة الآن بمسجد السلطان حسن في حي القلعة بالقاهرة والتي بقيت قلعة للعلم وقد مدح شهاب الدين محمود انتصار الأشرف خليل على الصليبيين فقال:

الحمد لله ذلت دولة الصلب ... وعز بالترك دين المصطفى العربي

ما بعد عكا وقد هدت قواعدها ... في البحر للشرك فيها كف مغتصب

وقد كان هم المماليك منصباً على تصفية جيوب الصليبيين في الشام والمشرق العربي ومحاولات المماليك الأوروبية المساندة لإمارة الصليب في الشرق والوقوف أمام الطوفان المغولي وتحطيم موجات التتار، وقد حطم بيبرس قلاوون والأشرف خليل والقائد لاجين حصون الصليبيين واستولوا على عكا، واستولى بيبرس على قيسارية وقلعة أرسوس البحرية وهاجم صفد واستولى عليها وعلى أنطاكية وعقد مع طرابلس وصور وبقية المدن الساحلية معاهدات، ثم واصل قلاوون حملاته على المدن الساحلية بعد وفاة بيبرس فاستولى على اللاذقية وطرابلس.

وقام الأشرف خليل بتطهير الأرض العربية من الصليبيين بعد الاستيلاء على عكا عام(٦٩٠هـ - ١٢٩١م) كل ذلك بمناصرة العرب والمسلمين الذين رأوا في المماليك جنوداً

أوفياء في محاربة الصليبيين والتتار، ومن الطريف أن إمبراطور صقيلة كان يحب المسلمين مما جعل البابا وملك فرنسا يحضان على عزل ابنه عن العرش، ثم عادت صقيلة مصدراً للمتاعب لمصر والشام، أما قبرص ورودس فكانتا معاديتين للمماليك حيث أرسلت قبرص(٧٦٦هـ، ١٢٦٥ م) مع البندقية ورودس حملة صليبية لمصر ونهبوا الإسكندرية ثلاثة أيام، ثم هربوا عندما سمعوا بتحرك المدد من القاهرة، ورغم فشل البابا في عقد صلح مع يلبغا عاد القبارصة لمهاجمة الساحل المصري، ثم عقد الصلح بينهما بعد أن دفعت قبرص ورودس تعويضات وأعادت الأسرى المصريين وسمح للمسيحيين بزيارة كنيسة القيامة وعقد الناصر محمد علاقات ودية مع بيزنطة ومع البابا، على أن يعامل رعايا المسيحيين بالإحسان، أما التتار فقد زحفوا باتجاه بغداد التي سقطت في أيديهم ٦٥٦هـ فأوقفت المماليك زحفهم إلى الشرق بمعاونة الشعب في مصر والشام في معركة عين جالوت بقيادة قطز، وخربت بغداد، ورثاها الشعراء كما في قول تقي الدين إسماعيل بن إبراهيم:

لسائل الدمع عن بغداد أخبار ... فما وقوفك والأحباب قد ساروا

تاج الخلافة والربع الذي شرفت ... به العوالم قد عفاه إقفار

وقد أرسل هولاكو رسالة تهديد لقطز يطالبه بالتسليم فمزق قطز الرسالة وقتل الرسل وجنَّد الجنود وكانت موقعة عين جالوت ويقتل قطز على يد بيبرس البند قداري الذي تولى السلطة بعده وواصل الكفاح المغول والتقى بهم قرب حمص وانتصروا عليه في البداية، لكنهم غلبوا عندما اهتموا بالغنائم والسلب وشن عليهم قلاوون حملة شتت شملهم ومات قائد التتار منكوتمر غماً بعد أن كبا جواده، ثم مات أبغا عقب معركة حمص وخلفه أخوه فأسلم وتسمى بأحمد وقتله ابن أخيه أرغون الذي تآمر مع البابا، ثم مات أرغون وتحسنت العلاقات مع التتار، ثم فزع أهل الشام لمعاودة غازان قائد التتار تهديداته بالزحف على الشام وقال ابن الزملكاني العالم القاضي الفقيه الشاعر:

لهفي على جلق يا سوء ما لقيت ... من كل علج له في كفره فن

بالطم والرم جاؤوا لا عديد لهم ... فالجن بعضهم والسيف والحن

وانتصر الناصر عند مرج الصفر سنة٧٠١هـ وحاول غازان الانتقام ففشل، وتولى أمر التتار بعد غازان الخان أبو سعيد وكان مسلماً فعقد حلفاً مع الناصر وحاول الناصر مد سلطته لبغداد

وأفلح وضربت السكة باسمه، وخطب له على المنابر مع وجود قوة من الجيش المصري بها قام الخان المغولي أويس بطردها وقضي على آمال الناصر في مد السيطرة إلى حدود دجلة واستمر السلام حتى هبت العاصفة الجديدة بقيادة تيمور لانك في عهد السلطان برقوق في الدولة الثانية أما من جهة السودان فقد أثارت دولة المسيحية متاعب كثيرة للمماليك أثناء حروبهم للصليبيين حيث أغاروا على الصعيد وغزا داود ملك النوبة أسوان فجرد له السلطان جيشاً كسره وهرب داود، ثم ألقي القبض عليه وأرسل للسلطان بالقاهرة وفتح الله على يد بيبرس بلاد النوبة.

وبعد أن استولى داود على الملك من ابن أخيه شيكندر أعاد الملك الناصر الملك لشيكندر، ومات داود في الأسر ووضع شيكندر تحت حماية مصر بشرط:

١ – التنازل عن شمال النوبة لمصر.

٢ – إطلاق الأسرى المصريين المأسورين عند داود.

٣ – استيلاء مصر على عبيد وأموال ملك النوبة.

٤ – أن يقبل الملك الجديد للنوبة قيام مندوب مصري إلى جانبه.

٥ – دفع ضريبة القبط للمماليك ٤٠٠ عبد +٣ أفيال +٣ زرافات +٥ نمور +١٠٠ هجين+ ١٠٠ ثور + نصف الأرض المزروعة.

أخمد شيكندر الشر للمماليك وقبض على رسل السلطان قلاوون ٦٧٥ هـ فأرسل السلطان قلاوون حملتين للتأديب استولت الحملة الثانية على النوبة ٦٨٨هـ، ثم تتابعت وفود إفريقيا تحمل الهدايا للسلطان قلاوون، واستقرت الأمور، أما في الداخل فقد اعتمد المماليك على نظرية(أساس الملك القوة لا العدل)، وأصبح الوصول للوظائف الكبرى بالمال والخداع والرشاوى وقد وصل بهذه الطريقة إلى كرسي الوزارة ٧٢٩ هـ (فلّاح) بسيط هو(هلال الدولة)، وكذلك بالرشوة وصل علاء الدين بن الأثير إلى كرسي كتابة السر برشوة السلطان نفسه وإقصاء شهاب الدين بن فضل الله العمري، كذلك كانت قوة الأقباط كبيرة حيث تولى الوزارة منهم شرف الدين بن صاعد الفائزي، واتهم الناصر بمحاباة الأقباط؛ لأنهم يجمعون المال له على حساب أقوات الشعب مما جعل الثورات تقوم ضد المماليك في الشام ومصر (الزعر – الحرافيش – العربان) كثورة الأعراب ٦٨٠ هـ بين جهينة ورفاعة جنوب مصر وشرق السودان وثورة العربان ٧٠١ هـ بقيادة الأحدب العركي وانتصار السلطان الصالح

ابن ناصر عليهم، وكذلك ما حدث بالشام من ثورة بعد تضييق نائبها عليهم ٧١١ هـ وفي هذه الفترة ثار الناس على المماليك بالقاهرة وحملوا الحجارة والمقاليع وأغلق التجار دكاكينهم وأحاط العوام بالقلعة ونزل السلطان تحت رأيهم فعزل والي القاهرة.

وفي المغرب العربي في العهد المملوكي ١٢٥٠ هـ - ١٥٠٠ م

تمكنت دولة الموحدين من احتواء الغرب العربي الأندلس ٥٥٠ هـ - ١١٥٠ م، ثم تفككت وقام على أنقاضها الدولة الحفصية في تونس ودولة بني مرين في المغرب ودولة بني عبد الواد في تلمسان، وقد سعت كل دولة من الدول الثلاث لإعادة وحدة شمال إفريقيا لصالحها وأجبر الحفصيون جيرانهم على الرضوخ لهم، وقد اعترف شريف مكة بخلافتهم بعد سقوط الخلافة العباسية بزعامة المستنصر الحفصي الذي ضعف نفوذه بعد الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع ٦٦٨ هـ - ١٢٧٠ م، وتنافس أبناء الأسرة على الحكم من بعده وازداد صراع أبناء القبائل البدوية وانقسمت تونس، ثم أعاد الحفصيون الوحدة ثانية إلى تونس وعادت الحياة الاقتصادية نشيطة، وعقد الأوروبيون التجار معاهدات معها وازدهر العلم فيها وعاد الصراع حول السلطة من جديد (٩٠٠ هـ - ١٥٠٠ م)، فاحتلتها الإسبان وصرفت الدولة الزيانية جهودها للحفاظ على وجودها على الرغم من احتلال الدولة المرينية لها ومارست نشاطها التجاري الواسع وتعرضت الدولة المرينية للحرب من إسبانيا في استردادها للمدن العربية الأندلسية، ولم تر الازدهار الحقيقي إلا في عام (٧٠٠ هـ ١٣٠٠ م) تحت حكم سلاطينها الحسن بن علي وابنه عنان، ثم وقعت السلطنة فريسة للنزاعات والصراعات الإقليمية المجاورة والقبلية الداخلية، ثم تعرضت البلاد لهجمات البرتغال الذين احتلوا الكثير من مدن المغرب وازداد الأمر سوءاً بعد دخول الإسبان على خط البرتغال واحتلال أجزاء من المغرب، وقد أخفق المغاربة في استعادة وحدتهم حيث لعبت القبائل البدوية دوراً في الصراع المغربي وانتشرت اللغة العربية بين مختلف الأقاليم وعاش المجتمع المغربي استقراراً نسبياً ووقعت الهجرة الأندلسية العربية إلى بلاد المغرب وتتابع النشاط الفكري من مدارس ومساجد وظهرت الطرق الصوفية، وبدأ الغزو الأوروبي للمغرب عسكرياً وتبشيراً مع فشل ذريع في ذلك.

الباب الأول

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي

بدأت الخلافة العباسية بالتقهقر والتراجع بعد أن استحكمت سيطرة الموالي والمماليك الذين تربّوا على أيدي الخلفاء وأخذوا يتسللون إلى مناصب الدولة العليا إلى أن أصبحوا يتصرفون بمقدرات الأمة حيث استقلت بعض الأقطار عن جسم الخلافة واشتعلت نعرات كانت معاول هدم لهذه الخلافة، وزاد على ذلك الزحف الصليبي المملوء بالحقد والبغضاء والذي اجتاح المدن وأزهق الأرواح، بالإضافة إلى ما صنعه المغول والتتار والقادمون من هضبة التيبت والذين زحفوا على أرض العراق والشام كجموع الجراد فالتهموا كل ما اعترض طريقهم بعد أن اجتاح هولاكو مدينة بغداد أربعين يوماً نهب فيها المدينة وانتهكت الأعراض وألقيت ثمرات الفكر والثقافة والحضارة والعلم في دجلة الذي جرى ماؤه ثلاثة أيام مصبوغاً بالمداد الأسود.

وقد كان عام (٦٥٦هـ) إيذاناً بسقوط الخلافة العباسية، ثم تقدمت جموع التتار واستولت على حلب بالقوة، ثم على حمص وحماة وعلى دمشق صلحاً حين هزم التتار بعد معركة طاحنة، وأسس قطز في مصر والشام دولة قوية وصمد أمام غارات الفرنجة وهزم التتار مرتين أخريين عام(٦٧١هـ) وعام(٦٧٥هـ) واستقدم أحمد بن الظاهر العباسي الذي كان والده آخر الخلفاء العباسيين، وبايعه بالخلافة، وبقي المماليك يحكمون مصر والشام حتى عام(٩٢٣هـ) إلى أن استولى العثمانيون على مصر وقتلوا ملكها، ثم قام السلطان سليم الأول بخلع المتوكل على الله الخليفة العباسي، ثم أخذ منه راية الجهاد وبردة الخليفة.

ثم امتد سلطان العثمانيين إلى العراق والحجاز واليمن وتونس والجزائر وبقي العثمانيون يحكمون البلاد العربية منذ عام(١٥١٧م) إلى عام(١٩١٦م) إلى أن تقاسم الأوروبيون الوطن العربي في معاهدة سايكس بيكو.

وقد اتسم المجتمع العربي في عصور الدول المتتابعة التي تزعمها المغول والمماليك والبربر بسمات القلق وعدم الاستقرار وانتشار الطوائف والملل والنحل، والاستكانة لظلم الحاكم الذي أصبح أمره لا يخالف مطلقاً.

مثلما كانت الدولة الأيوبية(٥٦٧ – ٦٤٨ هـ ١١٧١ – ١٢٥٠ م) استجابة الإيجابية للتصدي للصليبية فإن الدولة المملوكية (٦٤٨ – ٩٢٣ هـ ١٢٥٠ – ١٥١٧ م) كانت ستجابة إيجابية لرد الغزو المغولي المتحالف مع الصليبين وبضعف الدولة الأيوبية استولى المماليك على السلطة وقتلت طوران شاه وأعلنت أمه شجرة الدر، وهي من المماليك سلطانة على البلاد واستطاع بيبرس أن يكون الملك بعد معركة عين جالوت (٦٥٨ هـ ١٢٦٠م) وقد حارب بيبرس ووضع الإمارات الأيوبية تحت سيطرته وحارب الصليبيين واستولى على حصن الإسماعيلية الحشاشين وإعادة الخلافة العباسية إلى القاهرة بعد ثلاث سنوات بعد سقوطها(٦٥٩هـ ١٢٦١م) وعادت الخطبة للخليفة في أنحاء العالم الإسلامي وأصبح المماليك حُماة الأماكن المقدسة.

ولقب بيبرس بخادم الحرمين الشريفين تيمناً بصلاح الدين حيث استرد القدس وأخرج الأشرف خليل الصليبيين من بلاد الشام، وانتهى حكم المماليك البحرية(١٣٨٢ هـ)وجاء المماليك البرجية الذي امتد إلى ١٥١٧م وتصدوا إلى المغول، وقد عانت البلاد الشامية والمصرية في عهد هذه الدولة اضطرابات داخلية تمثلت بالصراع على السلطة وغارة تيمورلنك على الشام وفرض ضرائب جديدة وانتشرت المجاعة والأوبئة وضعفت الأحوال الاقتصادية.

واستند النظام المملوكي العسكري إلى نظام إقطاعي جاء متطوراً عن النظام الإقطاعي السجلوقي حيث يعطي الضابط قطعة أرض بدل أجره من الدولة يعد الضابط مقابل ذلك فئة من الرجال للقتال بين (٥ – ٥٠٠) كل بحسب رتبته ويستند أيضاً إلى إقطاعات دينية تابعة للمساجد والمدارس والزوايا تمنح لأفراد معينين من العلماء يشرفون عليها، وقد غدت هذه الإقطاعات عرضة للبيع والاستبدال وقد اتسم المجتمع العربي في هذه الفترة بالسمات التالية:

١ – اعتزال العرب الأمور السياسية والحربية.

٢ – انصرفوا إلى الزراعة والصناعة والعلم والأدب.

أما المماليك فقد تميزوا بالصفات التالية:

١ – السيطرة على البلاد بالقوة ونشر الدسائس.

٢ – الاعتماد على الكتاب والعلماء في تنظيم أمور الدولة.
٣ – أبقوا اللغة العربية لغة الدولة الرسمية.
٤ – بناء المدارس والمساجد والمكتبات.
٥ – ساعدوا على ازدهار الحركة التأليفية.

وانقسم المجتمع في العصر المملوكي إلى سبع طبقات:

١ – أهل الدولة من السلاطين والأمراء والوزراء وأرباب السلطة.
٢ – التجار وأولي النعمة والرفاه واليسار.
٣ – الباعة ومتوسطي الحالة من التجار أهل العز.
٤ – أهل الفلح والزراعات والحرث وسكان القرى والريف.
٥ – الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والجند.
٦ – أرباب الصنائع والأجراء وأصحاب المهن.
٧ – ذوي الحاجة والمسكنة السؤّال الذين يتكففون الناس ويعيشون بهم.

وقد تمتع بالمال أصحاب الطبقة الأولى والثانية وبقيت معظم الطبقات تعيش على ما تفضل به الطبقات الأولى والثانية، واحتفظ المماليك بطوائفهم ودرجاتهم وأكثرهم من الترك والجراكسة والأكراد والتتار والروم واليونان والفرنجة، وقد حاول السلطان الناصر أن يستخدم المصريين بدل المماليك، فثار المماليك عليه ولم يسمحوا بتولي المصريين مناصب الجيش الرئيسة وقسم المماليك إلى طبقتين بحرية – برجية فسكنت البحرية جزيرة الروضة في النيل، وهم من مماليك الصالح نجم الدين الأيوبي وسكن البرجية القلعة بجبل المقطم وينسب أوائلهم إلى قلاوون وأبنائه وأحفاده.

وقد كان السلطان يكثر من شراء المماليك للجيش والخدمة والمتعة وخاصة صغارهم كما كان السلاطين يحرمون على العامة التشبه بهم في شراء المماليك وانضم إلى شراء المماليك أسرى الحرب من التتار والصليبيين والأرمن والفرنجة يدربون على فنون القتال ويترقون في الجيش ومناصب الدولة ونواب السلطان حتى وصلوا إلى السلطنة كتبغا التتري ولاجين الرومي.

وقد كان السلاطين يقربون المماليك البحرية أحياناً والبرجية أحياناً أخرى من باب المنافسة، ولكن الجميع بقوا مملوكين في نظر السلاطين فإذا مات المملوك ولو كان قائداً ورثه

سيده مع نسائه ومماليكه ويتزيّن هؤلاء المماليك بالزي المزركش، واحتفظ سلاطين المماليك بالسلطة المطلقة وإن شاوروا العلماء والفقهاء.

يعيشون عيش الرفاه في قصور مزينة وتضم القصور أماكن للأعمال الرسمية واجتماع السلطان بأهل الدولة، وتضم زوجات السلطان وسراياه وقيناته يشرف عليهن سيدة تسمى (حدق) وكان سلاطين المماليك يتزوجون من التريات السبايا وبنات الملوك حيث تزوج السلطان الناصر بنت أخي أزبك ملك التتار، وكان بعضهم يسرف في الميل للنساء كالمظفر حاجي دفع في خطبته ١٠٠ ألف دينار، وقد كان الملك المنصور محمد يدخل بين نساء الأمراء ويمازحهن ويفسق في حريم الناس، وقد يتخذ السلاطين الغلمان الصباح الوجوه للخدمة والمتعة.

وتنعّم المماليك بفاخر الثياب والحرير والديباج الموشَّى بالذهب حيث يرتدي السلطان قباء أحمر ويركب فرساً أصيلة يتفننون في قضاء أوقات اللهو كاللعب بالحمام ومنافرة الديوك ومعالجة الحجارة وركوب الحمير ومناطحة الكباش، والصيد للوحوش والطير والغزلان ويحضرون مصارعة الأوباش، وينفقون الأموال الطائلة على زواجهم وزواج أبنائهم، وكذلك كانت أحوال أمراء المماليك في ذلك، وكان من أصحاب الترف والثراء يلفا والملك شيخو حتى أن الأمراء خصصوا لترفهم من يحمل نعالهم ويسمى البشمقدار وقد كانوا يطلقون لثرواتهم وشهواتهم العنان وشاع بينهم الفسق بالغلمان، وفي سبيل هذه الشهوات ارتكبوا المظالم ونكّلوا بالناس وساموهم العسف والخسف وإذا غضبوا على العامة أعملوا بهم السيف كما صنع السلطان منصور القلاوون حيث ذهب الصالح بالطالح وعوقب من لم يجن.

وقد يرتكب السلطان الموبقات والمفاسد والمظالم فإذا ما شاخ بنى مسجداً أو مدرسة أو خانقاه للصوفية تكفيراً عن ذنبه، وكان لبعض الولاة لصوص لسرقة أموال الناس يسمى عامل الحرامية يعملون على سرقة الأسواق والمحلات فيقتلون وينهبون وينتهكون الحرمات، وشاعت فكرة تسخير العامة لأعمال البناء والجسور وشق الطرقات والترع دون أجر يسوقونهم من المساجد وخاصة بعد صلاة الفجر. وتميز المماليك بالقسوة على الناس وعلى أنفسهم وكثر القتل والتآمر والتعذيب وابتداع أنواع جديدة منه واستخدموا السم للتخلص من المنافسين وتقطيع المشتبه فيهم بالسيف وتسميرهم على الخشب والدوران به في الشوارع، وقد تحمى طاسة وتوضع على رأس المعذب أو يجلس المعذب على الدست المحمى ويضرب

الوتد في أذنه أو يدق القضيب في أضفاره، وكذلك لجؤوا إلى التعذيب بالسلخ والعصر والتكحيل وفقء الأعين، وقد استخدم المماليك بعض أبناء الشام ومصر عوناً لذلك حتى أن بعض الضباط تظاهروا بالإصلاح فيعذبون الناس ويسلبون أموالهم. يقول الشاعر شهاب الدين العرج ٧٨٥هـ منددا بتقريب السلطان الناصر القبط وتحكيمهم برقاب الناس:

وكيف يروم الرزق في مصر عاقل ... ومن دونه الأتراك بالسيف والترس

وقد جمعته القبط من كل وجهة ... لأنفسهم بالربع والثمن والخمس

وكانت الوظائف التي يشغلها رجال العلم قسمين:

أ - دينية:

١ - القضاء.

٢ - والإفتاء.

٣ - ووكالة بيت المال.

٤ - ونقابة الأشراف.

٥ - ومشيخة الشيوخ.

٦ - والخطابة.

ب - ديوانية:

١ - الوزارة.

٢ - نظر الدولة.

٣ - نظر الخاص.

٤ - نظر الجيش.

٥ - نظر بيت المال.

٦ - نظر الإسطبلات.

٧ - ونظر الأسواق.

٨ - والخزائن.

٩ - والأملاك السلطانية.

١٠ - والمواريث.

وكان للوزراء رواتبهم المبالغ فيها والطائلة غير ما يقدم لهم من اللحوم وغيرها، واغتنى الكتاب وأصبحت الدُّوى من الذهب والسكاكين المفقهة، وبلغ بعض الفقهاء والقضاة درجة من اليسار من هبات السلاطين وتشبه كبار التجار بالسلاطين، وقد قام العطارون والكحالون بمداواة الناس، وكان الشاعر محمد بن دانيال كحالاً يجلس إليه في دكانه الأدباء والشعراء والفقهاء؛ وأما الفلاحون فقد انتعشوا فترة، ثم انتكسوا لكثرة الضرائب ولشدة السنين وتوالي المحن، وكذلك أرباب وأصحاب المسكنة، فقد كانت حياتهم صعبة كذلك طلاب العلم والفقهاء والصوفية، وكذلك كانت جماعات الحرافيش والزعران والحرامية حياتهم بين السؤال والسرقة، وأما جماعة القلندرية الذين ينتمون إلى بعض الطرق الصوفية فإنهم يحلقون رؤوسهم ولحاهم وحواجبهم وشواربهم ويأكلون الحشيشة واختلط أجناس الأتراك والأكراد والجركس والروم والفرنجة وأنبتت أجيالاً جديدة.

ولم تكن المرأة في الموضوع اللائق حيث تجول الجواري في الأسواق وتعمل بعض النساء من الطبقات الفقيرة بالغزل والتطريز وخيوط الفضة والذهب، وبعضهن اشتغلن بالعلم والتدريس مثل زينب بنت مكي وزينب بنت الكمال، وبعض النساء اشتغلن بالمغاني وضروب الملاهي واحترف بعضهن البغاء بأماكن مخصوصة وعشن بين ملاحقة وتساهل، وعرف الناس ألوان الأطعمة كالدميس والصير والصحناه والبطارخ وحلاوة القمح والفول المدمس والقطايف بشراب التفاح ودهن اللوز وشراب الليمون.

أما في المآتم فكان يضربون الدفوف والدرابك وتطوف بها النسوة في الشوارع، وفي الأفراح يشعلون الشموع الكثيرة وإقامة الأعياد الدينية والقومية كعيد وفاء النيل وعيد المولد النبوي وموالد الأولياء، وعند النصارى أعياد أول يوم في السنة القبطية ويحتفلون بعيد النيروز يحملون مختلف الفواكه واللحوم والحلوى، وعيد الشهيد في منطقة شبرا حيث يجتمع الناس للهو وشرب الخمور وتتبرج الزواني، وقد حارب الظاهر بيبرس أهل البطالة والفساد من العواهر والشذاذ ومدمني الحشيش من ٦٦٤ - ٦٦٦هـ، ومن العجيب أن بعض السلاطين المماليك كانوا يضعون الضرائب على الغواني والزواني وأصحاب الحشيش والخواطئ، وقد كانت بعض النساء تحترف السرقة إلى جانب الدعارة وفشا في الناس شرب الخمر رغم معاقبة الظاهر بيبرس لشاربيها، وكذلك أقبل الناس على ضرب الحشيش في أماكن مشهورة مع ممارسة المنكرات.

الباب الأول

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية في العهد المملوكي

١ - تعد **الزراعة** في هذا العهد المصدر الأساسي في اقتصاد الناس حيث يعيش معظم الناس عليها.

٢ - وظلت **التجارة** محوراً من المحاور الاقتصادية التي تدور حولها سياسة الحكام في الشرق الإسلامي لكونها مورداً ثرياً للربح، وقد شغلت الناس التجارة في هذه الفترة بين المشرق والمغرب العربي ومع الجنوب الشرقي من آسيا مع العالم الأوروبي، وخاصة تجارة البهارات والحرائر والأخشاب، وقد جذب المماليك تجارة اليمن إليهم في عهد الدولة الرسولية وتنشطت التجارة بعد ذلك في جدة، وقد أساء المماليك باحتكار بعض المنتجات كالسكر وإجبار الناس على سعر موحد لها، ومما زاد الحالة الاقتصادية سوءاً احتكار تجارة طريق الهند من قبل البرتغاليين ومنع العرب منها.

٣ - ولم يكن **للصناعة** نصيب كبير في اهتمام الدولة المملوكية؛ لأن همها كان منصبّاً على تحصيل الضرائب دون بعث نشاط اقتصادي صناعي بين الناس. وخلفت القاهرة بغداد في النشاط الاقتصادي والتجاري والصناعي والزراعي بعد غزوات التتار، وأصبحت القاهرة العاصمة الاقتصادية، وأهم مركز للنشاط التجاري والصناعي والعمراني، وكانت مصر الفسطاط والقاهرة مدينتين، ثم دمجتا وارتكز فيهما كثير من الصناعات كصناعة الزجاج والفخار والجلود حيث كان يسكنها أصحاب المهن والحرف، وقد نزح أرباب الدولة والوزراء إلى القاهرة وتجمعوا حول حي القلعة وبنوا قصورهم، وقد كان في الفسطاط مصانع السكر والورق المنصوري ومصانع الجلود.

وقد اشتهرت أسواق القاهرة بازدحامها بالتجارة وعمرانها بمختلف السلع والصناعات يباع فيها الفراء والجوخ والسلاح ولوازم الخيل، وكان في القيسارية الصباغون والخراطون

والحدادون والخشابون والحجارون القصارون والنحاتون والسراجون والشماعون والعطارون والنحاسون والفحامون، وكذلك يباع فيها الرقيق والنحاس.

وقد ازدهرت **التجارة** بفضل طبقة من التجار أثروا على حساب الشعب، ومن خلال الاحتكار والرقيق وعلى رأسهم التاجر اليهودي عبد العزيز الكريمي كما لعب التجار دوراً أساسياً في العلاقات السياسية بين المماليك والدول المجاورة حيث لعب التاجر سكران دوراً بين الملك الناصر محمد وملك التتار تم من خلاله زواج السلطان من ابنة أخي أزبك ويرجع للتاجر مجد الدين السلامي فضل عقد الصلح بين السلطان محمد وملك التتار ٧١٣هـ، كما وأن العلاقات التجارية بين مصر والشام ودول المشرق والبحر المتوسط وأوروبا من الهند والغرب والتتار واليونان والفرنجة قائمة وأقام بعض تجار جنوة الفرنجية في مصر، وكانت للتجارة علاقات خاصة بالسلاطين والأمراء ورجال الدولة.

أما النشاط الزراعي فقد أخذ مكانة مهمة في الشام ومصر وقام سلطان المماليك بكثير من الإصلاحات الزراعية كحفر ترعة الطبرية بالجيزة سنة ٦٨٢هـ، ففرح الناس وعمرت البلاد وحاول السلطان حسام الدين لاجين حصر أرض مصر وقياسها ووضعها بسجلات لوضع الخراج عليها، وكذلك عمل السلطان الناصر روكا آخر بعد أن زاد الجند نصيبهم قيراطاً، وكذلك عمل الجسور بالجيزة وأقام القناطر لري البلاد وعم الرفاه الزراعي، وكانت أرض الصعيد وفيرة المواشي وكان الرجل في عهد السلطان الناصر محمد قلوون يمر من القاهرة إلى أسوان و يجد في كل ناحية دور للضيافة له ولدابته.

وفي الشام وحواضرها حلب ودمشق وبيت المقدس وطرابلس حصل ازدهاراً كبير بسبب وقوعها على طرق التجارة بين الشرق والغرب ووجود جاليات إفرنجية عملت بالتجارة، وأبطل في عهد الناصر كثير من المظالم والضمانات والمكوس، ولكن كثرة الحروب وإسراف السلاطين والولاه جعل الحكام يعودون لفرضها والتشديد في جبايتها حتى لقي الفلاحون من مظالم الجباة والكشافين الكثير مما جعل الكثير منهم يتركون الأرض ويهربون، وحدثت محن كثيرة كما في محنة ٦٩٥هـ في عهد كتبغا التي توفي فيها مئة وسبع وعشرون ألف إنسان، وقد وقع غلاء في عهده بسبب جفاف أصاب الأرض في الشام ومصر، وحدث غلاء آخر في عهد

الناصر محمد ٧٣٦هـ وعز القمح بل عدم من الأسواق ثم استقرت البلاد في عهده، وعادت للمحن والغلاء ٧٦٢ - ٧٧٦هـ وكان وقع الطاعون والأوباء أشد على الناس من وقع الغلاء والمجاعات وكان أشدها الطاعون العظيم ٦٣٢ - ٦٣٣هـ حيث مات في شهر واحد (واحد وثلاثون ألف) إنسان، ثم الطاعون الكبير٧٤٩ هـ ومات فيه نصف الناس حتى الطيور والوحوش والكلاب، وانتقل هذا الطاعون إلى الشام ومات فيه خلق كثير ومنهم الأعيان والعلماء والأدباء والشعراء، ومن بينهم الشاعر الكاتب الفقيه عمر بن الوردي الذي نظم في هذا الطاعون أبيات قبل موته حيث يقول:

أسفي على سكان مصر إذ غدا للطعن فيها ذات وخز ساري
الموت أرخص ما يكون بحبة لكن هذا صار بالقنطار

وهكذا كانت حياة الناس في عهد المماليك بين رخاء وعسرة وهدوء واضطراب مرة يثور الناس عليهم، وأحياناً يقضون من صراعهم على الحكم وقد يقفون موقف اللامبالاة؛ لأنه لا ناقة للشعب ولا جمل في صراع على الحكم يزيدهم بلاء وبلغ الإحساس بالتبرم والسخط مبلغاً عظيماً من هذا التغيير حتى قال شاعر في ذلك:

زماننا هذا خرا وأهله كما ترى
ومشيهم جميعهم إلى ورا إلى ورا

الباب الأول

الفصل الرابع

الحياة الفكرية في العهد المملوكي

أ - بقيت الحياة الفكرية يانعة معطاء في هذا العهد وتركزت في بلاد ما وراء النهرين من خلال تشجيع الأسر التيمورية للعلم والعلماء وفتح المدارس وحماية الدين الإسلامي السني وتشجيع الإنتاج الفكري.

ب - ومن المؤلفين في هذا العصر:

١ - ابن خلكان صاحب كتاب وفيات الأعيان ٦٨١هـ - ١٢٨٢ م.

٢ - وابن أبي أصيبعة ٦٦٨ هـ ١٢٦٩ م صاحب كتاب طبقات الأطباء.

٣ - والقفطي ٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م صاحب كتاب أخبار الحكماء.

٤ - والصفدي ٦٢٦ هـ ١٣٦٢ م صاحب كتاب الوافي في الوفيات.

٥ - وابن شاكر الكتبي ٧٦٤ هـ١٣٦٢ م صاحب كتاب فوات الوفيات.

٦ - ابن العديم الحلبي المؤرخ ٦٦٠ هـ - ١٢٦١ م صاحب كتاب تاريخ حلب.

٧ - وجمال الدين الحموي ٦٩٧ هـ ١٢٩٧ م صاحب كتاب أخبار بني أيوب.

٨ - وعلم الدين البرزالي الدمشقي ٧٣٩ هـ ١٣٣٨ م صاحب كتاب تاريخ مصر والشام.

٩ - وأبو الفداء الأيوبي ٧٣٢ هـ - ١٣٣١ م صاحب كتاب تقويم البلدان.

١٠ - وشمس الدين الذهبي ٧٤٨ هـ - ١٣٤٧ م صاحب كتاب تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الأعلام.

١١ - وابن كثير ٧٧٤ هـ ١٣٧٢ م صاحب كتاب البداية والنهاية.

١٢ - وابن حجر العسقلاني ٨٥٣ هـ - ١٤٤٩ م صاحب شرح البخاري.

١٣ - والسخاوي ٩٠٢ هـ ١٤٩٦ م صاحب كتاب الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ.

١٤ – والمقريزي ٨٤٦ هـ – ١٤٤٢ م صاحب كتاب الخطط.

١٥ – وظهر من العلماء الموسوعيين ابن فضل الله العمري ٧٤٨ هـ – ١٣٨٦ م صاحب الموسوعة الجغرافية التاريخية مسالك الأبصار في مماليك الأمصار.

١٦ – و القلقشندي ٨٢٢ هـ ١٤١٨ م صاحب صبح الأعشى في صناعة الإنشا.

١٧ – والمؤرخ الكبير ابن خلدون ٨٠٨ هـ – ١٤٠٥ م صاحب كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر.

١٨ – وابن حجة الحموي ٨٣٧ هـ – ١٤٣٣ م صاحب كتاب خزانة الأدب.

١٩ – وابن تيمية ٧٢٨ هـ – ١٣٢٨ م صاحب المؤلفات الإسلامية المشهورة.

٢٠ – وابن قيم الجوزية ٧١٥ هـ – ١٣٥٠ م صاحب كتاب الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية.

٢١ – والنووي ٦٧٦ هـ – ١٢٧٧ م صاحب كتاب تهذيب الأسماء واللغات.

٢٢ – وابن منظور المصري صاحب لسان العرب.

٢٣ – وابن عقيل صاحب المقدمة في علم النحو.

٢٤ – ومن كبار المؤرخين ابن الأثير صاحب كتاب الكامل في التاريخ.

٢٥ – وابن عساكر صاحب تاريخ دمشق.

٢٦ – ومن أصحاب الطبقات ياقوت الحموي صاحب معجم الأدباء.

٢٧ – وابن خلكان صاحب وفيات الأعيان.

ج – وقد كثرت رحلات العلماء لطلب العلم والمحاورات بين العلماء وبقيت الحياة الفكرية تقيد ذاتها وتفقد روح الإبداع والتجديد لاتجاه أصحاب الفكر نحو التقليد والجمع. تجاذب الناس في هذا العهد القاسي نزعتان هما رفيقتا أيام الشدة والعسر نزعة إباحية ونزعة زهدية وأحسوا بمرارة العيش، فمال بعضهم نحو لذائذ الدنيا يستمتعون بها غير متورعين ويكتبون عنها غير خجلين، وانصرف آخرون إلى أمور الدين يستعيضون برجاء المستقبل عن ألم الحاضر والتجأ الشعراء إلى المدائح النبوية واستشفوا بالأولياء.

د – وكان هذا العصر بمجمله وبالاً على الأدب، فقد بدد المغول نفائس المصنفات واحرقوا الكتب والمكتبات وشردوا رجال العلم وتلبدت سماء الأدب في عصر المغول وعميت البصائر وضلت القرائح لولا ومضة من ضوء تألقت لتسفر عن عبقري كابن خلدون، إذ كان هم أصحاب الأدب الجمع لا الإبداع، ويبدو أن هذا العصر كان عصر الموسوعات العظيمة نتيجة حرص العلماء على جمع أشتات العلوم بعدما فجعت الأمة في نكبة بغداد فضاع جل تراثها على أيدي المغول والتتار.

هـ – لقد غلب على العصر المملوكي سمة التخلف والضعف عند بعض الباحثين، وقد تمزقت البلاد الإسلامية التي كان يحكمها خليفة واحد وإدارة واحدة وبقيت الحركة الفكرية والأدبية الإسلامية مركزة في الشام ومصر بينما انفصل الكثير من البلاد الإسلامية عن العالم العربي والإسلامي سياسياً لا ثقافياً وأدبياً ودينياً وإن ضعفت هذه الثقافة.

و – وإذا كان الأدب العربي والإسلامي قد حظي باهتمام كبير من الدارسين في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام والعصر الراشدي والأموي؛ فإنه في عصر الدول المتتابعة أي بعد سقوط ٦٥٦ هـ لم يلق الاهتمام نفسه في العصر المملوكي وإن كان لهذا العصر الذي امتد ستة قرون في حياتنا آثار دامغة

ز – واللافت للانتباه أن الأدب العامي والفصيح في هذا العصر تداخلا واختلطا وتمازجا، حتى إنك تجد الأديب يكتب بالعامية والفصحى مما جعل الأدب يقترب من الشعب ويلتحم بحياته.

ح – ونبغ أصحاب المهن والحرف الصغيرة في الأدب عامة والشعر خاصة كالجزار والوراق والحمامي والخياط والصائغ والكمال والعطار.

ط – وتنوعت الكتابات بين الشعر والنثر والموضوعات الاجتماعية والأدبية والرسائل الديوانية والإخوانية والمقامات والتقصي وخيال الظل.

ي – وأكثر ما يلفت النظر في أدب هذا العصر الموضوعات العلمية والأدبية وإسراف الأدباء في صور البديع الحسية والمعنوية ونزول الأدب إلى موضوعات سطحية لا تصلح

للأدب كالمديح الذليل، والأحاجي وغزل بالمذكر والغلمان، والإسراف بالمجنون وموضوعات الجنس مما يشعرنا بالتقزز والاشمئزاز.

ك – وعلى الرغم من هذه الموضوعات التي يتوقف الذوق عندها؛ فإن وصف هذا الأدب بالجامد والعقيم والمنحدر ليس صحيحاً، وإن تسمية هذا العصر بعصر الانحطاط والانحدار أو عصر المماليك أو الأتراك أو عصر الأعاجم أو عصر المغول والتتار فيه ظلم وتعسف، وهو غير صحيح؛ إذ كيف نسمي هذا العصر باسم الغزاة مع أن معظم عصور الأدب لم تخل من غزوات وحروب.

ل – ولم يُظلم عصرٌ من الباحثين العرب والأجانب مثل هذا العصر مع أن القاهرة قد تألقت في هذا العصر، وكذلك ازدهرت دمشق كعاصمة ثقافية لبلاد الشام وزخرت كلتا العاصمتين بالعلماء والمصنفات وانتشرت دوائر المعارف الفكرية والأدبية وبلغ الفن أوج دقته في العمارة الإسلامية، ويكاد يكون عصر المماليك من أزهى العصور.

م – بعد استيلاء صلاح الدين على مصر وسقوط الدولة الفاطمية عمل صلاح الدين على نشر الثقافة الدينية فأكثر من المدارس واستند على علماء الدين وأغراهم بنشر هذه الثقافة ونهج خلفاؤه على طريقته وتحولت المدن الكبرى إلى مراكز نابضة بالفكر.

ن – ثم جاء المماليك من بعده واتبعوا سياسته ومكنوا لها في الشام ومصر من خلال بناء المساجد والمدارس وازدادت أهمية الشام ومصر بعد سقوط بغداد وفرار كثير من العلماء وكتبهم إليها، وورثت الشام ومصر الزعامة الدينية والسياسية عن بغداد، ومن العلماء الذين وفدوا من مشرق العالم الإسلامي الخطيب القزويني والتفتازاني والتبريزي وصفي الدين الحلي، وكانت مدن مصر محطاً للعلماء من المشرق والمغرب والأندلس كصاحب كتاب المطرب من شعر أهل المغرب وابن سراقة الشاطبي الأندلسي وسعيد علي بن موسى العالم الأديب صاحب كتاب ملوك الشعر وابن عصفور علي بن مؤمن النحوي الإشبيلي الذي أقام في حلب أستاذ ابن تيمية وابن جابر الضرير صاحب كتاب نقد الشعر وأثير الدين أبو حيان العالم النحوي الأديب المشهور والشريف الحسيني شارح مقصورة حازم القرطاجي.

ص - كما وعمرت القاهرة بدور العلم والعلماء والمكتبات ومجالس الأدب وأسواق الوارقين، وكذلك كانت دمشق تعج بالكتب وأسواقها وبنى الظاهر بيبرس المدارس في مصر والشام المسماة باسمه ودور الكتب وأقبل الناس على العلم في مدارس يقوم السلاطين بتكاليفها وشيوخها، وكانت هناك مدارس الفقه والحديث والتفسير وتعليم القرآن وازدهر الجامع الأزهر في عصر المماليك وتولى التدريس فيه كبار العلماء وألقى به ابن عطاء الله السكندري مواعظه وحكمه المشهورة وبنيت مدارس الصالحية والعزية والظاهرية والمنصورية والشيخونية ومدرسة السلطان حسن بالقلعة والمدرسة الصرغتمشية والمدرسة العاشورية.

وكان في الإسكندرية مدارس كثيرة حفلت بالكثير من العلماء من بينهم قاضي الإسكندرية ابن المنير والزاهد القباري، وكذلك كانت في الصعيد مدينة قوص وأسيوط وعرفت بأسيوط المدرسة الفائزية، ودرس فيها الحضراوي ٦٦٣هـ وابن الحطاب السيوطي وكان فيها المحدثة ست الشام بنت أبي صالح رواحة وابن الأثير القرشي وخرج منها القاضي عز الدين محمد بن أحمد إبراهيم ٧٣٥هـ وزين الدين الجعفري الأسيوطي ومحمد بن حمزة الأسفوني الفقيه الفاضل والمحدث عمر بن علي بن شرف الدين السيوطي، وفي مدينة قوص كانت المدرسة النجيبية التي تخرج منها البهاء زهير وجمال الدين بن مطروح وتولى القضاء فيها ابن دقيق العيد، وكان منها ابن اللمطي عمر بن عيسى الشاعر الأديب.

وكانت دمشق عامرة بالمدارس والعلماء ومن أشهر مدارسها دار الحديث الظاهرية ودار الحديث الأشرفية الناصرية البرانية والناصرية الجوانية، وكان الجامع الأموي جامعة للعلوم تولى التدريس به الخطيب القزويني وتقي الدين السبكي وابن كثير وحفلت حلب بالمدارس والعلماء.

ع - واهتم الناس بالعلم وشغفوا بالكتب واقتنائها كسيرة عنترة، وكتب بعض الكتبة الخط في الزواج: (مشارق الأنوار للصاغاني ومصابيح السنة للبغوي وجامع الأصول لابن الأثير وعلوم الحديث لابن الصلاح والتيسير للنووي، وزاد الاهتمام بكتاب الكشاف للزمخشري شرحاً وتعليقاً وحاربه علماء السنة).

ف – وغلب على العصر المملوكي التعليم الديني وعلى رأسها علوم القرآن والحديث والتفسير ونبغ علماء من مثل عز الدين بن عبد السلام وابن النقيب الذي صرف همته للتفسير والكواشي صاحب القراءات والتفسير وابن كثير العالم المؤرخ الفقيه المفسر والزركشي والمنذري وابن دحية الأندلسي الأصل، وقطب الدين القسطلاني وتاج الدين القسطلاني وشرف الدين القسطلاني وشرف الدين عبد المؤمن العلامة النسابة المشهور والحافظ بن علي الحلبي المصري وابن قايماز الذهبي ومغلطاي البكجري العارف بأنساب رجال الحديث والحافظ العراقي.

وفي الشام ابن الغلابسي أسعد بن المظفر والمؤرخ القاسم ابن يوسف الأشبيلي البرزالي وفتح الدين القيسراني والحافظ المزي وابن الأعز وابن الرفعة المصري وبدر الدين ابن جماعة وابنه عز الدين وابن سيد الناس وآل سبكي وزين الدين السبكي وتقي الدين السبكي وبهاء الدين السبكي وتاج الدين السبكي، ومن فقهاء الشام ابن تيمية وابن قيم الجوزية ابن كثير والبارزي وعلاء الدين القونوي وابن الأذرعي ضياء الدين والأذرعي شهاب الدين وعيسى بن عثمان الغزي وابن مفلح الحنبلي.

س – وكتب العلماء كتباً في التاريخ الإسلامي والتاريخ البشري منذ بدء الخليقة كالبداية والنهاية لابن كثير وكتب العلماء في السير العامة ككتاب وفيات الأعيان لابن خلكان وكتاب العبر في أخبار من عبر وطبقات الحنابلة لابن رجب ونكت الهميان في نكت العميان للصفدي، وقد كان بعض المؤرخين يغلب عليهم التعصب والتملق وخاصة للسلاطين، ومن أشهر المؤرخين للتاريخ العام سبط ابن الجوزي وابن الساعي وأبو الفداء وابن الغوطي وله كتاب تاريخ من آدم حتى خراب بغداد والبرازلي وابن الوردي و الذهبي وله كتاب تاريخ الإسلام وابن كثير وشهاب الدين ابن فضل الله العمري صاحب كتاب مسالك الأبصار وشهاب الدين النويري صاحب نهاية الأدب وأبو شامة صاحب كتاب الروضتين والأفودي جعفر بن ثعلب وكمال الدين بن هبة الله صاحب تاريخ حلب.

وكذلك اهتم مؤرخ العصر المملوكي بكتابة الطبقات والسير كابن خلكان والقفطي وابن شاكر وصلاح الدين الصفدي وتاج الدين السبكي فكتب ابن خلكان وفيات الأعيان وكتب

القفطي إنباه الرواة على أنباه النحاة وكتب السبكي الطبقات الكبرى والصغرى وابن رجب الحنبلي طبقات الحنابلة والعسقلاني في الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة وكتب سيرة المنصور قلاوون والسيرة المنصورية.

وكتب في علوم اللغة والنحو علماء كثيرون من أمثال ابن الحاجب صاحب الكافية والشافية والألفية لابن مالك وابن النحاس وابن مكتوم وأبي حيان الغرناطي صاحب كتاب البحر المحيط في التفسير وابن المرحل المحقق اللغوي وابن هشام الأنصاري صاحب كتاب مغني اللبيب وابن عقيل صاحب شرح ألفية ابن مالك وابن الجزري وابن عصفور ومن علماء اللغة الصاغاني وابن الصائغ وابن منظور، وكتب في العلوم العقلية الطبيعية نصير الدين الطوسي الفيلسوف عالم الرياضة والطبيعيات الفارسي كتاب المتوسطات في الهندسة وعلم الهيئة وكتاب مقدمة الهيئة وناقض الفخر الرازي وكتب التجريد في المنطق وعلم الكلام، وكتب عضد الدين الإيجي كتاب مواقف الإسلاميين في علم الكلام ومقدماته، وكان من تلاميذ التفتزاني والكرماني ووفد إلى الشام قطب الدين الشيرازي.

وجاء إلى مصر أبو بكر السنجاري وقتل بالشام ومصر عدد من المتفلسفين ابن صدقة أحمد بن محمود الحلبي الأديب لمقالاته الردية الزنديقية كما روى وحذر ابن السبكي من قراءة كتب الطوسي كما أفتى جماعة من أئمة ذلك العصر ومشايخه بتحريم الاشتغال بالفلسفة وتبع في هذا العصر أطباء وصيادلة منهم شعراء وأدباء كالدنيسري الحكيم البارع الأديب الشاعر، وقد كتب المقالة الرشيدة ودرج الأدربة في الطب والأدوية لا يضاهيه أحد في عصره في الطب والعلاج والعلوم، وله كتاب الشامل في الطب والمهذب في الكحل وكتاب الموجز، وقد شرع القانون لابن سينا.

الباب الأول

الفصل الخامس

الحياة الدينية في العصر المملوكي

أ - قسمت الأحكام في عهد المماليك إلى قسمين:

١ - **سلطة شرعية:** مستمدة من الدين الإسلامي والشريعة الإسلامية.

٢ - **وسلطة زمنية:** مستمدة من قوانين وضعية وشرائع في سياسة الحكم وتدبير الملك مستمدة من الشرائع غير الإسلامية الفارسية والمغولية.

ب - وتركوا السلطة الدينية للخليفة ومن يعاونه في تنفيذ أحكام الدين وقام الظاهر بيبرس باستقدام أحد أبناء الخلفاء العباسيين ونصبه خليفة وكان منصب قاضي القضاة يأتي بالدرجة الثانية بعد الخليفة.

ج - وجعل المماليك القضاة أربعة يمثلون المذاهب السنية الأربعة، وتولى بعض القضاة مناصب إدارية كالوزارة والتدريس، وكذلك كان منصب الخطابة مهماً ومثله منصب شيخ الشيوخ، وكان لرجال الدين غير الرسميين احترامهم سواء كانوا فقهاء أم أشراف أو عباد أو نساك أو صوفية ؟ وقد ظلت العلاقة بين سلاطين المماليك ورجال الدين بين شد وجذب يستشير السلاطين رجال الدين في الملمات والحروب ويكرمونهم ويبالغون في إقامة الحدود مع العلم أنه لم يكن الوفاق دائماً بين السلطتين الدينية والزمنية، وقد دفع العلماء الفقراء للهجوم على الحشاشين والخمارات وتدخل السلطان لحماية الحشاشين بعد أن ادعى أنه مع الفقراء.

د - وكان الفقهاء ورجال الدين يحملون لواء الثورة على المماليك خاصة بعد زيادة الضرائب، وكان المماليك لا يتورعون في التجسس واستراق السمع وتلقط أخبار الناس غير مراعين انتهاك الحرمات يهتمون بالدين مظهراً لا مخبراً وخاصة الأعياد والمناسبات الدينية كليلة النصف من شعبان وذكرى المولد النبوي وموالد الصالحين كما كان التعصب للمذاهب ظاهرة دينية بعين العلماء، وكان الشافعية أقل تشدداً من المالكية والحنابلة.

هـ - وحارب شيخ الإسلام البدع والفساد وشرب الخمر والحشيش وزيارة قبور الأولياء وارتكاب المفاسد وقطع الصخرة التي كان أهل دمشق يعتقدون أن عليها قدم النبي؛ لأنه رأى الناس يتبركون بها وأنكر على الرفاعية الصوفية طريقتها من لبس الأطواق الحديد وتلبيد الشعور وأكل الحيات، وكان العامة يهاجمون أماكن بيع الخمور والحشيش والفساد كما وأن السلاطين تعصبوا للمذاهب بحيث يقدمون العطاء لمن يتمذهب بمذهبهم، وقد يكون التوصل إلى غاية دنيوية بقلب الشخص مذهبه.

و - وقد عاب السبكي التعصب الأعمى للمذاهب.

ز - وقد عارض الذهبي الأشاعرة.

ح - وأما علماء الشيعة فقد اهتموا بالفلسفة والعلوم العقلية وكان منهم جمال الدين المطهر.

ط - وقد تميز المسلمون بلبس العمائم الزرق واليهود بلبس العمائم الصفر، وقد وقعت بينهم وبين المسلمين فتن كثيرة ففي سنة ٧١١هـ كوقعة أهل الذمة والأحداث الدامية وشبت حرائق القاهرة التي دبرها الأقباط وحرائق دمشق ٧٤٠هـ حيث شبت النار بالدكاكين والمسجد الجامع. كل ذلك والمماليك لأهم لهم إلا الحفاظ على الملك، وإن أدى ذلك إلى إفساد الرعية.

الباب الثاني

اتجاهات الشعر
في عصر الانحدار
وموضوعاته

مقدمة:

لقد رسمت تفاصيل الحياة والواقع في عصر الانحدار شعر هذا العصر بملامحها بما حوته من أحداث سياسية واجتماعية وفكرية وعقدية، وكان الإحساس بالضعف الموضوعي أبرز آثار العصر حيث ضعفت الصياغة وتهلهل البناء وقل الإبداع والابتكار وكثر الإسراف في الاهتمام بالشكل على حساب المضمون والإيغال في العامية بسبب ابتعاده عن الرؤساء والزعماء وتقربه من عامة الشعب، وذلك لكون الزعماء من الأعاجم الذين لا يفهمون هذا الشعر ولا يتذوقونه، وكان السلاطين المماليك أميل إلى الشعر العامي؛ لأنه أقرب إلى اللغة الدرامية كما عند السلطان قلاوون الذي لم يكن يجيد العربية، وقد أدى ذلك إلى تجاهل الفصحى وزهد الأدباء الكبار بها وبالشعر يقول ابن دقيق العيد:

وزهدني في الشعر أن سجيتي ... بما يستجيد الناس ليس تجود

ويأبى لي الختم الشريف رديه ... فأطرده عن خاطري وأذود

وقد كان ينفق على الشعراء من مال الصدقات بأمر قاضي القضاة، فإذا ما وقعت معركة عسكرية ذاد بها المماليك عن الإسلام وبلاده جاءت قريحة الشعراء، وقد صور ذلك إبراهيم الغزي قائلاً:

في فتية من جيوش الترك ما تركت ... للرعد كراتهم صوتاً ولا صيتا

قوم إذا قوبلوا كانوا ملائكة ... حسناً وإن قوتلوا كانوا عفاريتا

ولكن الشعر في هذا العصر كان غريباً يشعر فيه الشعراء بالاغتراب، وهذا ما دفع الشعراء أن يكتبوا في موضوعات التصوف والمديح النبوي والغزل الروحي والحنين والشكوى والابتهال وترجع أسباب غربة الشعراء في هذا العصر إلى تألب الأعداء الخارجين على بلاد المسلمين(تتار – صليبيين) والصراع بين الوجود العربي والإسلامي وكون حال المسلمين والعرب لا تسر وسيطرة الروم السلبية على الناس وعدم التمسك بالقيم الدينية، وقد قل الشعراء المحترفون وشاع النظم بين المتعلمين من قضاة وفقهاء وأصحاب حرف، ولم يرتق

الشعر في مستواه إلى رتبة الشعر الجيد واستخدم الشعراء الألفاظ والمعاني الدينية القرآنية والحديثية، ومن القصص الدينية وحياة الزهاد والصوفية، ومن ذلك قول الشهاب الحجازي في فتاة باكية تدعى جنة:

قد قلت لما أن بكت واغتدت كأزهار في روضة زاهية

جارية أعينها جارية وجنة أعينها جارية

وقد بقي الشعر الموروث ينشد في مجالس القوم مذاكرة واستشهاداً، وكانت غلبة الروح العامية على الشعر وقربه من الشعب أحد أسباب اتصاله بالمجتمع ومسايرة حياة الناس، واشتهر شعراء بقصيدة واحدة كلامية الطغرائي وتائية ابن الفارض وبردة البوصيري الميمية، ومن القصائد ما عرف بالبديعيات وهي مدائح نبوية فتحت أبواباً من البديع كبديعية صفي الدين الحلي وبديعية ابن جابر الأندلسي وبديعية ابن حجة الحموي.

الباب الثاني

الفصل الأول

أبرز أغراض الشعر في العصر المملوكي

كتب الشعراء في هذا العصر في معظم أغراض الشعر العربي وأضافوا ما استجد في عصرهم من قضايا أخرى، وأهم هذه الأغراض:

١ - الممارسة والنضال:

وهو غرض كان له من الأهمية المنزلة العظيمة بسبب صراع العرب المسلمين مع الفرنجة والتتار؛ إذ إن الشعراء حملوا على عاتقهم مهمة تحميس الجند من أجل الجهاد والنضال، وكانت المعارك التي وقعت بين المسلمين من جهة والتتار والصليبين من جهة ثانية مادة حية لهذه الأشعار والتصفح لشعر الجهاد والنضال في هذا العصر يجد كماً كبيراً من الأشعار بعضها يبكي سقوط الخلافة، وبعضها يدعو إلى الجهاد من أجل استعادتها من ذلك قول تقي الدين اسماعيل التنوخي:

لسائل الدمع عن بغداد أخبارُ ... فما وقوفك والأحباب قد ساروا

تاج الخلافة والربع الذي سرُفت ... به المعالم قد عفّاه إقفارُ

ومن ذلك أيضاً قول شهاب الدين محمود الكوفي:

إن لم تقرح أدمعي أجفاني ... من بعد بعدكم فما أجفاني

إنسان عيني مذ تناءت داركم ... ما راقه نظر إلى إنسان

وإذا كان الزنكيون والأيوبيون قد تولوا عبء الصراع مع الفرنجة، فإن المماليك قد تولوا عبء الدفاع ومنازلة المغول، وقد استطاع الملك المملوكي قطز أن يقضي على المغول ويردّ زحفهم بعد أن احتلوا حلب وحماة ودمشق، وقد قام قطز بقتل رسل المغول الذين جاؤوا

يدعونه إلى الاستسلام، وكانت عين جالوت المعركة الحاسمة؛ إذ اعتبرت من أهم معارك المسلمين، وصنفت في مصاف معركة اليرموك والقادسية والزلاقة.

ومن الشعراء الذين كتبوا الشعر في تلك الفترة الشاعر شرف الدين الأنصاري، حيث قال في مدح المنصور الثاني:

جرّدت يوم الأربعاء عزيمة ... خفيت عواقبها عن الإدراك
وأقمت في يوم الخميس مبالغا ... في الجمع بين طوائف الأتراك
قعّدت أبطال التتار بصولةٍ ... تركتهم كالصّيد في الأشراك

وقال أيضاً في الفرنجة والمغول، وقد قضى في إحدى المعارك على ثلاثة آلاف منهم وذلك في الجزيرة (٦٧١هـ):

سر حيث شئت لك المهيمن جار ... واحكم فطوع مرادك الأقدار
حملتك أمواج الفرات ومن رأى ... بحراً سواك تقله الأنهار

وقد فتح المماليك بعد الظاهر بيبرس بزعامة المنصور قلاوون طرابلس الشام، وبناها من جديد بعد أن خربها التتار وفتحت عكة من قبل الأشرف خليل بن منصور قلاوون. ولما هاجم الفرنجة الإسكندرية عام (٧٦٧هـ) وأسروا ونهبوا وقتلوا قسماً كبيراً منها، رثى شهاب الدين ابن مجلة هذا الثغر قائلاً:

أتاها من الإفرنج سبعون مركبا ... وضاقت بها العربان في البرّ والبحر

وقد صور شعر الحماسة الأحداث العامة في ذلك العصر وعبّر عن الآلام والآمال واتجه نحو التصنع والتلاعب اللفظي، وقد كان شعراء ذلك العصر يشعرون بالغربة عن أوطانهم بينما الحكام يعيشون بازدواجية، مع أن العواطف في شعر ذلك العصر كانت صادقة بسبب الأحداث الجسام.

وأهم الصفات المشتركة بين قصائد ذلك العصر:

١ - الإشادة بالفتح والفاتحين.
٢ - جعل عمل الفاتح خالصاً لله.
٣ - التهنئة بالنصر.

٤ – وصف فرح الناس بالنصر.

٥ – تصوير المدن المفتوحة.

٦ – وصف المعارك حول القلاع.

٧ – التأكد والتأكيد على إبادة الأعداء.

٨ – التفاؤل بانتصارات جديدة.

٩ – قفل القصيدة بالدعاء والثناء.

٢ - المديح:

ويتضمن هذا الغرض أنواعاً عدة:

أ - المدائح النبوية: وهي قصائد قيلت في مدح الرسول محمد عليه السلام وآل بيته، وقد ساعد على ظهورها العوامل التالية:

١ – اضطراب الأحوال السياسية.

٢ – سوء الأحوال الاجتماعية.

٣ – قلة الموارد الاقتصادية.

٤ – تكالب الطامعين بالأمة وخيراتها.

وقد دفعت هذه العوامل الناس إلى الالتصاق بالدين والاستشفاع بالرسول لتفريج الكرب مع العلم أنه من الواجب الدعاء لله تعالى، واهتم المماليك بالاحتفالات الدينية مما جعل هذا اللون من أنشط الألوان الأدبية.

وقد ذكر الشعراء معاني لهذه المدائح منها:

١ – أخبار الرسول.

٢– صفاته ومعجزاته.

٣ – الحديث عن المدينة المنورة.

٤ – ذكر آل البيت.

٥–ذكر الخلفاء الراشدين.

من ذلك ما قاله البوصيري:

أمـــن تـــذكر جـــيران بـــذي ســـلم مزجـت دمعـاً جـرى مـن مقلـة بـدم
أم هبّـــت الـــريحُ مـــن تلقـــاء كاظمـــةٍ وأومـض الـبرق في الظلـماء ومـن إضـم

وقد حذّر الشاعر في نهج بردته من هوى النفس وقال:

والـنفس كالطفـل إن تهملـه شـبّ عـلى حـــبّ الرضـــاع وإن تفطمـــه يـــنفطم
فـــاصرف هواهـــا وحـــاذر أن توليـــه نّ الهـــوى مـــا تـــولّى يُـــصْمِ أو يَـــصِمِ

ب - مدح الحكام والعظماء:

وقد سار هذا المدح على طريقة الأقدمين طلباً للعطاء والنوال ولبلوغ المراتب الوظيفية عند السلاطين، ولم تتعد معانيه الشجاعة والكرم والحكم والعلم، وقد أغار شعراء هذا العصر على معاني غيرهم واستباحوها ورجعوا إلى ظـاهرة الوقـوف عـلى الأطـلال أو الغـزل أو وصـف الطبيعة.

يقول ابن نباته مادحاً الشهاب محمود الشاعر الذي كان من كبار كتـاب الإنـشاء وكاتـب السر للملك:

إمـــامٌ إذا هـــزّ الـــيراع مفـــاخرا بـه الـدّهر قـال الـدهر: لـست هناكـا
علـــوت فأدركـــت النجـــوم فـــصفتها كلامـــاً ففقـــت القـــائلين بـــذاكا

ج - مدح الأصدقاء والأقرباء:

وغالباً ما يكون أقرب إلى الصدق وإن كانت المبالغات تغزو معانيه، وتسيطر عليه الـصنعة البديعية.

٣ - الرثاء:

نظراً للأحداث الجسام التي مرت على الأمة الإسلامية وما حصل مـن معـارك نـتج عنهـا الموت والقتل والتخريب فقد واصل شعراء هذا الغرض فن الرثاء، فقد برز في هـذا الغـرض ثلاثة أنواع:

أ - المراثي الخاصة: التي قيلت في أناس أعزاء على قلب الشاعر كما في رثاء يحيـى شرف الدين لزوجه فاطمة بنت عبد الله الموصوفة بالفضل والكرم فيقول:

وما فاطمٌ إلا من الحور أخرجت لنعرف قدر الحور ثمّت ردّت

وكما في رثاء صفي الدين الحلّي لعبدٍ مملوك له، ربّاه من صغره حتى صار كاتباً فطناً:

هدّ قلبي من كان يؤنس قلبي إذ نبذناه بالعراء سقيما

ونأى يوسفي فقد هذبت عبد مناي من حزنه وكنت كظيما

ب - المراثي العامة: وهي كثيرة تقوم على الإشادة بصفات المرثي وكريم مزاياه، من خلال المبالغة والصنعة من ذلك قول ابن نباته في رثاء الملك المؤيّد:

ليت الحمام حبا الأيام موهبة فكان يفني بني الدنيا ويبقيه

لهفي على الخيل قد وقت صواهلها حقَّ العزا فهو يشجيها وتشجيه

ج - رثاء الممالك والمدن: كما في رثاء بغداد التي سقطت بيد المغول:

إن لم تقرح أدمعي أجفاني من بعد بعدكم فما أجفاني

إنسان عيني مذ تناءت داركم ما راقه نظرٌ إلى إنسان

ومن ذلك أيضاً قول تقي الدين:

ناديت والسبي مهنوك يجرهم إلى السّفاح من الأعداء وعّار

يا للرجال لأحداث تحدثها بما غدا فيه إعذارٌ وإنذارٌ

وأيضاً قول بهاء الدين الهائي يرثي دمشق:

لهفي على تلك البروج وحسنها حفّت بهن طوارق الحدثان

كانت معاصم نهرها فضية والآن صرن كذائب العقيان

٤ - الغزل:

وهو غرض أكثر منه الشعراء في العصر المملوكي فأفردوه حيناً بقصائد مستقلة وجعلوه أحياناً في مطالع مدائحهم، وقد كان هذا الغزل يطل برأسه من خلال العتاب والرضا والافتتان والشكوى تعبيراً عن المشاعر يحمل في طياته التقليد حيناً والتجديد أحياناً أخرى، وقد انطلق شعراء هذا العصر بغزلهم من مفاهيم جمالية تقليدية غالباً وتحدث الغزل عندهم عن:

آ - وصف محاسن الحبيب: حيث شبّهوا وجهه بالبدر والشمس وشعره بالليل، ورحيق الثغر بالخمر، ونظرات العيون بالسهام والحواجب بالقسي، وقدّه بالرماح وصدغه بالعقربة. ومن ذلك ما قاله التلعفري:

لو تنطق الشمس قالت وهي صادقة ما فيَّ فيها، وما فيَّ الذي فيها

هبني أماثلها نوراً وفرط سنا من أين أملك معنى من معانيها

ب - وصف أحوال المحبين: حيث جعلوا المحبّ بحزن وشوق وصبابة، وجعلوا المحبوبة قاسية ظالمة لا تلين، وجعلوا وصلها أبعد من الثريا.

ج - الحديث عن الوشاة والرقباء: ومتاعب وعثرات الحب حيث اتهموا العذال بالبلادة، وجعلوا أعين الرقباء مخيفة نظارتها حاقدة وحاسدة، وذلك لينتهزوا الفرص ولينهلوا مما يطيب لهم.

د - الحديث التركي والمغولي والهندي والفارسي والإفرنجي والكردي والزنجي: وتغيرت معايير الجمال من العيون النجلاء الحوراء إلى العيون الضيقة.

يقول ابن نباتة:

وحبيب إليّ يفعل بالقلـ ـب فعال الأعداء بالأجداء

ضيق العين إن رنا واستمنحا وعناء تسمّع النجلاء

وأيضاً:

بهت العذول وقدر رأى ألحاظها تركية تدع الحليم سفيها

فثنى الملام وقال دونك والأسى هذي مضايق لست أدخل فيها

وكذلك وصفوا العيون الزرقاء كما في قول ابن نباتة:

وأزرق العين يمضي حدّ مقلته مثل السنان بقلب العاشق الحذر

قالت صبابة مشغوف بزرقتها دعها سماويّة تمضي على قدر

هـ - الإعراض عن ذكر الأسماء كزينب ورباب وسعدى وهند وأسماء إلى أسماء جديدة هي واقع الحال

يقول ابن نباتة:

على ضيّق العينين تسفح مقلتي ... ويطربني لا زينب وربابُ

فيا رشأ الأتراك لا سرب عامر ... فؤادي من سكنى السكون خرابُ

و - الحديث عن زيارة طيف المحبوب وخياله في المنام واليقظة:

وفي ذلك يقول الحلّي:

ما بين طيفك والجفون تواعد ... فيفي إذا خُيّرت أني راقد

إني لأطمع في الرُّقاد لأنه ... شرد يصار به الغزال الشاردُ

٥ - الوصف:

وقد تناول هذا الغرض الأحاسيس المرئية والباطنية حيث وصفوا المعارك وما يتعلق بها، والطبيعة وما تحتوي عليه والمظاهر المدنية كالأسواق والولائم والشوق والألم وآلام الجوع وتقلبات الزمان.

يقول النواجي القاهري في وصف مخدة:

هي نفع ولذة للنفوس ... وحياة وراحة للجليس

كم نديم أراحته باتكاء ... وتواضعت عند رفع الرؤوس

ومن ذلك قول أحدهم:

عجبٌ عجيبٌ عجبٌ ... بقرة تمشي ولها ذنب

ويقول ابن نباتة واصفاً الفقر:

أشكو إلى الله ما أقاسي ... من شدة الفقر والهوان

أصبحت من ذلةٍ وعُري ... ما فيّ وافٍ سوى لساني

٦ - الهجاء:

وقد برز بصورته الفردية واختفى بصورته القلبية وركّز على العيون والمثالب ومزج السخرية بذلك.

٧ - الخمريات والمجون:

انتشر شرب الخمور وأصبح نوعاً من التحضر والرقي مع أنه انحطاط وتخلف، ساعد على ذلك انتشار فلسفة انهزامية تدعو إلى الاستمتاع بالحياة قبل زوالها بسبب ما حلَّ بإنسان ذلك العصر من تشريد وقتل وتدمير وخراب، وانتشرت مجالس الخمرة في الطبيعة وزال الحياء بحيث تقام هذه المجالس مصحوبة بالرقص والغناء في المنازل أو على برك الأنهار.

يقول الشاب الظريف:

ناولينيالكأسفيالصّبح ثمّ غنّيليعلىقدحي
واشغليكفّيكفيوترٍ لا تهدّيهاإلىالسّبح

٨ - الحنين والشكوى:

وقد كثر الحديث عن هذا الغرض بسبب انتشار الفقر والحرمان وتنكر الأصدقاء وغدر الزمان، يقول ابن نباتة:

أشكو لأنعمكالتي هيللعفاةسحائب
حاليالتييرثيالعدوّ لهافكيفالصاحب

٩ - المطارحات والشتويّات والتهاني:

وقد كثرت هذه المناسبات فتبادل الشعراء قصائد الأخوّة والمحبة، من ذلك ما قاله شهاب الدين لابن نباتة:

البرق في كانونه قد نفخ والثلج في جيب الغوادي نفخ
قد زمجر الرعد بآفاقه كأنه مما دهاه صرخ

فأجابه:

ما البرق في كانونه قد مدح والغيم في كفّ الثريا قدح
أضوأ من ذهنك ناراً ولا أرق من لفظك كأساً طفح

١٠ - الطرديّات:

وهي قصائد كتبها الشعراء في الصيد ووصف الخيول والفهود والكلاب المدربة. يقول صفي الدين الحلّي في وصف صقر:

والطير في لجّ المياه تسري ... كأنها سفائن في بحر

حتى إذا لاذت بشاطئ النهر ... دعوت عبدي فأتى بصقري

من الغطاريف الثقال الحمر ... مستبعد الوحشة حجم الصّبر

١١ - الألغاز والأحاجي:

وهي أبيات تحمل لغزاً من الألغاز أو أحجية من الأحاجي من ذلك ما قاله ابن نباتة للغز في (علي):

أمولاي ما اسمٌ جليٌّ إذا ... تعوّض عن حرفه الأول

لك الوصف من شخصه سالما ... فإن قلعت عينه فهو لي

١٢ - الشعر التعليمي:

وهو من المنظومات التي قالها العلماء في علوم الصرف والنحو والبلاغة والعروض والمنطق والحديث والصرف مثل ألفية ابن مالك في النحو والصرف:

كلامنا لفظٌ مفيدٌ كاستقم ... واسم، وفعل ثم حرف الكلم

١٣ - ألوان شعرية مستحدثة:

وهو ما كتب على طريقة غير العرب أو ما اخترعوه العرب في العصور اللاحقة وأهم هذه الألوان:

آ - **الموشحات:** بصرف النظر عن كون الموشح فناً عربياً أندلسياً أو مستوحى من الشعوب الأخرى فإنه كان قريباً من الأغاني الشعبية استلطفه أهل الأندلس وكتبوا على منواله وتبعهم شعراء عصر الانحدار، وقد كان ابن سناء الملك أول من درس هذا الفن في (دار الطراز). وممن نظم في الموشحات ابن نباته وابن دانيال والتلعفري والعزازي وابن سودون وابن عربي، وعائشة الباعونية.

وقد كتب الشعراء في هذا العصر جميع موضوعاتهم على طريقة الموشحة يقول التلعفري في موشحته الدينية يرد بها على العزازي الذي يعمل بزازاً في القاهرة:

لـــيس يـــروي مـــا بقلبـــي مـــن ظـــما غـــير بـــرقٍ لائـــحٍ مـــن أضـــم

إن تبـــدّى لـــك بـــان الأجـــرع

و أثـــيلات النقـــا مـــن لعلـــع

يـــا خلـــيلي قـــف عـــلى الـــدار معـــي

وتأمـــل كـــم بهـــا مـــن مـــصرع

واحـــترز واحـــذر فأحـــداق الـــدمى كـــم أراقـــت في رباهـــا مـــن دم

ب - الزجل:

وهو فن شعبي أكثر قرباً للغناء من الموشح يعتمد على اللهجة الدارجة، وقد نشأ في أواخر القرن الرابع الهجري في الأندلس، ثم طار إلى المشرق في القرن السابع، وشاع في حفلات الأعراس وتميز بالصنعة واشتهر به الأمشاطي وصفي الدين الحلّي ومقاتل.

ج - الرباعيات:

هذا الفن مأخوذ عن الفرس من وزن (الدوبيت) وله أوزان أشهرها:

فعلن – متفاعلن – فعولن – فعلن.

ومن ذلك قول الشاب الظريف:

قاســيت بــك الغــرام والهجــر ســنين مـــا بـــين بكـــى وأنـــين وحنـــين

أرضـــيك ولا تـــزداد إلا غـــضبا الله – كـــما أبـــلى بـــك القلـــب – يعـــين

د - المواليات الشعبية:

وقد كان هذا اللون معروفاً عند العمال العبيد في بساتين مدينة واسط بالعراق، ووزنه من البحر البسيط، يتألف من بيتين وأربع قوافي على روي واحد، والأشطر الأربعة تسمى صوتاً، ثم انتقل إلى بغداد بعد نكبة البرامكة مضافاً إليه كلمة (واموليا) من ذلك قول الطيب ابن السويدي:

البـدر والـسعد: ذا شـبهك وذا نجمـك والقـد والحـسن: ذا رمحـك وذا سـهمك

والبغض والحب: ذا قـسمي، وذا قـسمك والمـسك والحـسن: ذا خالـك وذا عمـك

الباب الثاني

الفصل الثاني

أبرز خصائص الشعر في العصر المملوكي

حاول شعراء هذا العصر أن يجدوا في أساليبهم وموضوعاتهم فانخرطت أساليبهم في مذهبين:

آ - المذهب اللفظي: وقد اعتمد على التكلف والصنعة في محاولاتهم لإبراز موضوعاتهم في ثياب جديدة فاهتموا بالزخرفة اللفظية، وحاولوا أن يجعلوا البلاغة عنواناً لهم، ولكنهم وصلوا في النهاية إلى طريق مغلق تحولت الصنعة البلاغية عندهم إلى هدف بعد أن كانت وسيلة.

ب - المذهب السهل: وقد اعتنى هذا المذهب بالمعاني البسيطة والألفاظ المألوفة، وأكثر أيضاً من الصنعة فانتهى إلى الإسفاف والركاكة، وقد شاع هذا اللون بمختلف طبقات المجتمع، ولقد تناول الشعر العربي في هذا العصر كل الموضوعات وبدأ الشعراء يهجرون عمود الشعر العربي، ونهج القصيدة العربية، ويسلكون إحدى طريقتين، طريق يطرق الوضوح مباشرة دون أن يقف على الأطلال، وآخر يمهد فيه الشعراء لأغراضهم، وقد اهتموا بعلوم البلاغة والبيان والبديع وأكثروا من التشابيه والاستعارات والمجازات والكنايات من ذلك قول بحر الدين بن تميم بشخص وردة:

سبقت إليك من الحدائق وردةٌ ... وأتتك فقيل أوانها تطفيلا

طمعت بلثجك إذ رأتك فجمّعت ... فمها إليك يطالب التقبيلا

ومن التشبيهات أيضاً قول صفي الدين الحلّي:

سوابغنا والنفع والسمر والطبا ... وأحسابنا والحلم والبأس والبرُّ

هبـوب الـصّبا والليـل والـبرق والـصفا وشمس الضحى والطـور والنـارُ والبحـرُ

وقد كتب صفي الدين الحلي قصيدة جمـع فيهـا فنـون البـديع كاملـة فبلغـت مـن الحـسن البديعي بحيث حوت على مئة وخمسة وأربعين بيتاً وفي كل بيت لون بديعي.

الباب الثاني

الفصل الثالث

أهم المحسنات البديعية التي استخدمها الشعراء

١ - **التورية:** وقد أكثر شعراء هذا العصر من التورية وهي التي تعتمد على إيراد لفظ له معنيات أحدهما قريب ظاهر غير مقصود والآخر خفي وبعيد وهو المطلوب. من ذلك قول الشاب الظريف على لسان الكأس:

أدور لتقبيل الثنايا ولم أزل أجود بنفسي للنّدا في وأنفاسي
وأكسو أكف الشرب ثوباً مذهبا فمن أجل هذا لقبوني بالكاس

٢ - **الطباق:** وهو جمع بين متضادين في المعنى مختلفين باللفظ، وقد اقترنت به المقابلة. يقول ابن الوردي:

أأقتل بين جدِّك والمزاح بنبل جفونك المرضى الصحاح
فما لصباح وجهك من مساءٍ وما لمساء شعرك من صباح

٣ - **حسن التعليل:** ويعتمد على إنكار الأديب علّه شيءٍ من الأشياء صراحة أو ضمناً، ثم يأتي بعلة أدبية طريفة تناسب الغرض من ذلك قول ابن نباتة:

لم يزل جوده يجوز على الما ل إلى أن كسا النّضار اصفرارا

٤ - **مراعاة النظير:** وتقوم على الجمع بين أمر وما يناسبه في الكلام بالتقارب لا بالتضاد، من ذلك قول مجير الدين بن تميم:

لو كنت تشهدني وقد حمي الوغى في موقفٍ ما الموت فيه بمعزل
لترى أنابيب القناة على يدي تجري دماً من تحت ظلِّ القسطل

ومن المحسنات البديعية اللفظية:

٥ - **الجناس:** القائم على تشابه كلمتين لفظاً واختلافهما معنى يقول الشاب الظريف:

مثـــل الغـــزال نظـــرة ولفتـــةً مـــن ذا رآه مقـــبلاً ولا افتـــتن؟

أعـــذب خلـــق الله ثغـــراً وفـــما إن لم يكـــن أحـــق بالحـــسن فمـــن؟

٦ - **الاقتباس:** ويقوم على تضمين شيء من القرآن أو الحديث من ذلك قول ابن نباتة:

وأغيـــد جـــارت في القلـــوب فعالـــه وأســـهرت الأجفـــان أجفانـــه الوســـنى

أجـــل نظـــراً في حاجبيـــه ولحظـــه ترى الـسحر منـه قـاب قوسـين أو أدنـى

٧ - **التلاعب اللفظي:** وقد أكثر الشعراء من التلاعب اللفظي في هـذا العـصر كـالتزام لفظ معين في بداية كل بيت أو سطر أو في نهايته، أو أن تكتب أبياتاً نقرأ بيتاً منها من الشمال إلى اليمين أو من اليمين إلى الشمال دون أن يتغير معناها، أو كأن نقرأ بيتـاً مـن الـشمال إلى اليمـين مدحاً أو من اليمين إلى الشمال ذماً، أو كأن نقرأ الأبيات أفقياً وشاقولياً، أو كأن نكتـب أبيـات منقوطة، وأبيات غير منقوطة، أو أن ينظم بيت يجمع حروف الهجاء، أو كأن يستخدم الـشعر للتأريخ على طريقة حساب الجمل.

الباب الثالث

الأدب الصوفي
في عصر الانحدار

الباب الثالث

الفصل الأول

تشجيع المماليك للصوفية

اهتم المماليك بالصوفية في سواء الناس وبنى المماليك لهم الخانقاه، والرباطات لإيواء الصوفية والإنفاق عليهم وقصة السلطان لاجين مع الشيخ الصوفي محمد بن مسعود الغزني معروفة من حيث التكريم والتعظيم وليس ذلك عجباً فصرف الناس عن طريق الصوفية عن الدنيا وتزهيدهم في المال سياسة مكنت المماليك من التنعم بالحياة دون سائر الخلق إذ على الصوفية أن تدعو للسلطان وآله ليكشف عنهم الضر والبلاء ويأخذوا أجرهم من الطعام والشراب.

ومن أشهر الخانقاه الصوفية خانقاه سعيد السعداء وشيخها كبير شيوخ الصوفية تعادل مكانته مكانة قاضي القضاة وخطيب المسجد الجامع، وقد جمع السلطان بيبرس أكثر من ٤٠٠ صوفي في خانقاه واحد ينفق عليهم، وقد تأثر نظام الروابط الصوفية بنظام الرهبنة والأديرة المسيحية ويقوم شيخ الصوفية على تربية مريديه على:

١- نكران الذات.

٢- وتحمل الشدائد والضيم.

٣- والانقطاع للرياضة الروحية.

والصوفية نظام صارم في الحياة والعبادة والذكر وللصوفيين لغة خاصة بهم يتفاهمون بها، ومن أهم خواص نظامهم:

١- حلق الرؤوس.

٢- تقصير اللباس.

٣- الرقص أثناء إنشاد قصائد المدح.

٤- الانصراف عن التوكل على الله تعالى إلى التواكل.

٥- الكسل والزهادة.

٦- عدم المبالاة.

٧- والهروب بالوجدان.

٨- فلسفة احتقار الدنيا.

وانتشرت عبارات خاصة بالتصوف من مثل:

١ - بفضّك الدنيا وحبك لله.

٢ - التصوف موتك في نفسك كي تحيا في الله.

٣ - الصوفية ألا تملك شيئاً وألا يملكك شيء.

٤ - التصوف طريق الوصول لله.

ومحصل الصوفية الزهادة والقربى لله تعالى، إذ يعتبر الصوفيون أنفسهم طلاب الحقيقة وقسموا أنفسهم إلى أقطاب وأبدال وأعيان وأوراد والغيث الذي يجمعهم وهويتهم بمكة. ومن الطرق الصوفية ما يوافق الكتاب والسنة، ومنها ما يبتعد عنها إلى حد الكفر بتطاوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم على اعتبار أن الرسالات لا تقع على أهل الحقيقة، ولكنها لعامة الناس مستشهدين بقصة الخضر مع نبي الله موسى:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا قدماً وظنوه مشتقاً من الصوف

ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صافى فصوفي حتى سمي الصوفي

وقد تمكنت في الناس عقيدة الكرامات لأولياء الصوفية وما يأتونه من خوارق وكرامات ومن الناس من ادعى التصوف للعيش ولم يظفر من الصوفية إلا على لبس المرقعات وحلق الرؤوس دون التزام أخلاق الصوفية، وقد قال في هؤلاء الإمام الشافعي رضي الله عنه: (رجل أكول كثير الفضول) وقال فيهم أبو حيان: (هم أكلة بطلة سلطة لا شغل ولا مشغلة).

وقال أحد الشعراء فيهم:

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ولا بكاؤك إن غنَّى المغنونا

حتى أن بعض الصوفية أشاعت في الناس الرقص وشرب الحشيش، وقد عارض علماء السنة والحنابلة خاصة الصوفية المتطرفة وسفهوا أقوالها وميل أصحابها للرموز الغامضة المشكلة وحاربوا شطحاتهم في قول: (الحلول والاتحاد والتناسخ)، وقال السخاوي يعارض عقائد الصوفية:

ولست كمن أمسى على الحب كاذبا ... مضلاً لأرباب العقول السخيفة
يمن على الجهاد من عصبة الهوى ... بنسبته في الحب من غير نسبة
فيزعم طوراً أنه عين عينها ... ويزعم طوراً أنها فيه حلت
ويجمع ما بين النقيضين قوله ... وذاك محال في العقول السليمة

وقد كان من المتصدين لحرب (المتطرفين من الصوفية) شيخ الإسلام ابن تيمية حيث شن حرباً شعواء على كراماتهم المزعومة، وكذلك ابن دقيق العيد كان يستنكر أقوال بعض رجالهم من كون الشخص في مكان وجسده في مكان آخر وينعت صاحبه بالجنون.

وظهر من مشاهير الصوفية مجد الدين البغدادي ٦١٦هـ نجم الدين الدابة ٩٥٤ هـ السهروري ٦٣٢هـ عبد القادر الجيلاني ومحيي الدين عربي ٦٥٠ هـ ابن سبعين ٦١٤ هـ ويعد ابن عربي ظاهرياً في العبادات باطنياً في الاعتقادات أتحف الحركة الصوفية بإطارها الخيالي الفلسفي يؤمن بشمول الألوهية ووحدة الوجود ويؤمن أن الكون مظهر الله تعالى الخارجي والله تعالى سره المكنون، وأنه لا فارق بين الصفات والذات أي بين الله والكون ضمن فلسفة قوامها القول بشمول الألوهية ووحدة الوجود وحلول الألوهية في البشر ومؤلفاته النثرية والشعرية كثيرة في ذلك، وكذلك كان ابن سبعين يقول بالاتحاد ووحدة الوجود يعرف السيمياء يلتبس بذلك على الأغبياء من الأمراء والأغنياء، وقد قال في النبي صلى الله عليه وسلم:(تجمر ابن آمنة) بقوله: (ألا نبي بعدي)، ولم يفرق بين الديانات السماوية الثلاث يصف الطائفين حول البيت بالحمير حول الدار ومن مشاهير الصوفية السيد أحمد البدوي الملثم وأبو الحسن الشاذلي وأبو العباس المرسي وياقوت العرشي وابن عطاء الله السكندري ٧٠٩ هـ المشهور بالحكمة ومن أشعاره:

يـا صـاح إن الركـب قـد سـار مـسرعا ونحــن قعــود مــا الــذي أنــت صــانع
أتــرضى بــأن تبقــى المخلــف بعــدهم صريـــع الأمـــاني والغـــرام ينـــازع
وهـــذا لـــسان القـــوم ينطـــق جهـــرة بـــأن جميـــع الكائنـــات قواطـــع

ومنهم محمد بن وفاء الشاذلي وابن حجاج الأقصراتي ٦٤٢هـ وأحمد بن محمد القوصي ٧٢٠هـ وأكثر ما تميزت به الصوفية الشعر من خلال ثلاث طبقات:

١ - **الطبقة الأولى:** عبرت عن الصوفية فكرياً وفنياً كابن الفارض متأثرين بابن عربي وابن سبعين والسهروردي والحريري والشاذلي والمرسي، ومن أعلام الطبقة الأولى الششتري ٦٦٨ هـ والخيمي ٦٨٥هـ ومحمد بن إسرائيل ٦٧٧ هـ وعفيف الدين التلمساني ٦٩٠هـ

٢ - **الطبقة الثانية:** عبرت عن أعماق الصوفية ومن أعلامهم محمد بن سعيد البوصيري ٦٩٥ هـ وتقي الدين السروجي ٧٩٣هـ.

٣ - **الطبقة الثالثة:** بينما ظهر في الطبقة الثالثة ابن العجمي وابن أبي جملة التلمساني ٧٧٦هـ.

الباب الثالث

الفصل الثاني

مذاهب شعراء الصوفية

اتخذ شعراء الصوفية مذاهب مختلفة منها:

١ - **مذهب وحدة الشهود:** ويمثله نجم الدين محمد بن إسرائيل ٦٧٧هـ.

٢ - **مذهب العشق الإلهي:** مع اعتراضنا على التسمية لاختراقها الصفات الإلهية ويمثله محمد بن عبد المنعم الخيصي ٦٩٥هـ.

٣ - **مذهب عشق الجمال:** ويمثله تقي الدين السروجي ٩٦٣ هـ، ولقد كان الشعر أميز الفنون بطبيعته وأقدرها على نقل مواجد الصوفيين، فهم ينشدون الشعر في حلقات الذكر بعد أن يضعوا هذا الشعر ليغنى وينشد في هذه الحلقات، وقد كانت موضوعات الوجد والشوق والطريق تغلب على الشعر الصوفي، ولكن منذ مطلع القرن السابع الهجري نافستها المدائح النبوية، وقد مثل الوجد والشوق تقي الدين السروجي في قصيدته المشهورة.

حضروا فمن نظروا جمالك غابوا ... والكل مذ سمعوا خطابك طابوا

وابن الفارض في قصيدته:

سائق الأظعان يطوي البيد طي ... منعماً عرِّج على كثبان طي

وقصيدة عبد الغفار بن أحمد الوصي:

أنا أفتي أن ترك الحب ذنب ... آثم في مذهبي من لم يحب

ذق على أمري مرارات الهوى ... فهو عذب وعذاب الحب عذب

كل قلب ليس فيه ساكن ... صبوة عذرية ما ذاك قلب

وقصيدة تقي الدين السروجي:

يـــا مـــن شـــغلت بحبـــه عـــن غـــيره وســـلوت كـــل النـــاس حـــين عـــشقته

أنـــت الـــذي جمـــع المحاســـن وجهـــه لكـــــن عليـــــه تـــــصبري فرقتـــــه

ومثّل المدائح النبوية في الشعر الصوفي البوصيري صاحب نهج البردة النبوية المشهورة:

أمـــن تـــذكر جـــيران بـــذي ســـلم مزجـــت دمعـــاً جـــرى مـــن مقلـــة بـــدم

أم هبـــت الـــريح مـــن تلقـــاء كاظمـــة وأومـــض الـــبرق في الظلـــماء مـــن إضـــم

وقد فاقت صفات النبي في هذه الفترة القصيرة كل صفات الأنبياء ونهج نهج البوصيري كثير من الشعراء في مدح النبي صلى الله عليه وسلم نهجاً جديداً مطرزاً بالبديع حيث ضمن فيها كل بيت نوعاً من أنواع علم البديع، وقد كان شوق الصوفية للكعبة المشرفة شوقاً عارماً، وفي ذلك يقول القوصي:

دعنـــي أعفـــر جبهتـــي بقرابهـــا وأقبـــل العتبـــات مـــن أبوابهـــا

وقد يوجه الصوفيون معاني الصبابة والغرام الحسي إلى محبوبهم الأبدي، وفي ذلك يقول كتاكت المصري ت ٦٨٤ هـ:

مـــن أنـــت محبوبـــه مـــاذا يغـــيره ومـــن صـــفوت لـــه مـــاذا يكـــدره

هيهـات عنـك مـلاح الكـون تـشغلني والكـل إعـراض حـسن أنـت جـوهره

الباب الرابع

اتجاهات الأسلوب
والبناء والموسيقا
في شعر العصر المملوكي

- آ -

الأسلوب

إذا كان الأسلوب هو الطريق الذي يسلكه الأدباء في توصيل شعرهم للمتلقي، فإن شعراء هذا العصر سلكوا اتجاهات مختلفة وتيارات متباينة في توصيل معانيهم وأفكارهم ومشاعرهم.

١ - اتجاه تقليدي موروث:

تمثل في شعر القصيد المحافظ على الصياغة السابقة له بأصولها ومقوماتها، وقد سلك أصحاب هذا الاتجاه هذا المسلك الموروث عن الشعراء قبلهم في الموضوعات الجليلة كالمديح النبوي ومدح السلاطين والأمراء ووصف المعارك والانتصارات ورثاء العظماء من الناس، ومن شعرائه ابن إسرائيل في قصيدته التي مطلعها:

عسى الطيف بالزوراء منك يزور فقد نام منه كاشح وغيور

وكيف يزور الطيف صب مسهد له النجم بعد الظاعنين سمير

٢ - اتجاه بديعي:

غلب على أكثر شعراء هذا العصر، إذ كان الكتاب يبنون شعرهم على الرسائل والتراسل الإخواني والشكاوى، ومن ذلك ما قاله ابن الوكيل يستعفي من وكالة بيت المال:

إلى بابك المأمول وجهت آمالي وفي فضلك المعهود قصدي وإقبالي

وقد لعب الشعراء في هذا الفراغ بضروب البديع المتنوعة من جناس وطباق وتورية... إلخ حيث أصبحت القصائد قطعاً موشاة بضروب الصنعة.

٣ - اتجاه شعبي:

سلك فيه الشعراء سبيل الكلام الجاري وبألفاظ تحتمل الإعراب حيث يخلط كلام الشعراء بعبارات عامة أو ألفاظ دارجة.

وقد قسم الأبهيشي الشعر إلى خمسة أقسام:

١ – شعر مرقص.

٢ – شعر مطرب.

٣ – شعر مقبول.

٤ – شعر مسموع.

٥ – شعر متروك.

وهذا القسم قائم على الدرجة الفنية بغض النظر عن الموضوع أو الشكل من بناء القـصيدة أو اللغة المستخدمة.

- ب -

الموسيقا الشعرية

١ - استخدم شعراء عصر الانحدار العروض الخليلي مع التأثر بموسيقا الموشحات الأندلسية والأوزان الخفيفة الراقصة، واخترع شعراء هذا العصر أوزاناً جديدة غريبة على الأوزان العربية مثل قول البهاء زهير:

يا من لعبت به الشمول ... ما ألطف هذه الشمائل

مولاي تحق لي بأني ... عن حبك في الهوى أقاتل

ها عبدك واقفاً ذليلاً ... باليأ تمر كن من سائل

٢ - كما وإن الشعر الفصيح قد تأثر بأوزان النظم العامي كالرباعيات والدوبيت والكان كان والقوما والبليق والموشح والمواليا والزجل ومن ذلك قول ابن جابر الأندلسي الأعمى:

أي دبدبة تدبدبي ... أنا علي بن المغربي

تأدبي ويك في ... حق أمير الأدب

٣ - وكذلك مال الشعراء للمقطوعات القصيرة فاستخدموا المثنوي والرباعية والخماسية والسباعية، واشترك النظم الشعبي في الرباعية وعرفت بالدوبيت المأخوذ عن الشعر الفارسي والذي يجري على وزن الهزج، وقد نوعوا في القافية في كل أربعة أبيات وربما صرعوا البيت في القصيدة الواحدة أربعة مصاريع كل مصراع بقافية تستمر آخر القصيدة.

يقول رشيد النابلسي:

كم الحشا ... موجع على المدى ... صب الفؤاد مغرم

تبارى يلتهب ... ملذع ما خمدا ... أواره والضرم

ومنه المخمس المكون من أربع قواف متشابهات وخامة مطلقة، ومنه قول محمد الفرجوطي.

سـكن الغـرام بمهجتـي فـتحكما والقلـب مـن صـدع الغـرام تألمـا
والـدمع فـاض مـن المحـاجر عنـدما وفيـت مـن حـر الـصبابة عنـدما
عاينـت ركبانـا تـسير إلى الحـما

٥ - كما وعمد الشعراء إلى تشطير القصائد القديمة المشهورة كتشطير ابن فرحون لقصيدة الطغرائي (لا ميته)

أصـالة الـرأي صـانتني عـن الخطـل وشرعـة الحـزم ذادتنـي عـن المـذل
وحلـة العلـم أغنتنـي ملابـسها وحليـة الفـضل زانتنـي لـدي العطـل

كذلك اختلطت العامية بالفصحى في مداعبات الشعراء كقول البهاء زهير:

بروحـي مـن أسـميها بـسمتي فتنظـرني النحـاة بعـين مقـت
يـرون بـأنني قـد قلـت لحنـا وكيـف وأننـي لـزهير ومتـي
ولكـن غـادة ملكـت فـؤادي فلـم ألحـن إذا مـا قلـت سـتي

٦ - وتفنن الشعراء في استخدام شجرة البديع وما تحمله من جناس وطباق وتورية وتجنيس ومن البديع المجانس قول صدر الدين الحموي:

قـف بـالحمى ودع الرسـائل ومـن النـواحي قـف وسـائل
واجعـل خـضوعك والتـذلل في طلابتهـا وسـائل
والـدمع مـن فـرط البكـاء علـيهم جـار وسـائل

وقد شطح شعراء هذا العصر في ابتداع الصور غير المألوفة كقول القيراطي:

كـأن خديـه ديـناران قـد وزنـا فحـرر الـصيرفي الـوزن واحتاطـا
فـشال بعـضهما عـن وزن صـاحبه فـزاود مـن فتيـت المـسك قيراطـا

وربما لغوا إلى الألفاظ الموحية ومدلولاتها القريبة والبعيدة، ومن ذلك قول ابن دمرداش في مسواك:

أقـول لمـسواك الحبيـب لـك الهنـا بلـثم فـم مـا نالـه ثغـر عاشـق

فقـــال وفي أحـــشائه حـــرق الجـــوى مقالـــة صـــب للـــديار مفـــارق

تـــذكرت أوطـــاني فقلبـــي كـــما تـــرى أعللـــه بـــين العـــذيب وبـــارق

ومن ذلك التلميح والإثارة كقول ابن الصفار المارديني:

وتركـــيّ نقـــي الخـــد ألمـــى بقـــدّ مـــاس كالغـــصن الرطيـــب

لـــه شـــعر حكـــى مجنـــون لـــيلى يخـــط إذا مـــشى فـــوق الكثيـــب

٧ – كما واعتمد الشعراء الاقتباس لفظاً ومعنى من القرآن الكريم والحديث الشريف والأمثال والكلام المأثور، ومن ذلك قول عمر بن قزل:

وافى إلي وكـــأس الـــراح في يـــده فخلـــت مـــن لطفـــه أن النـــسيم سرى

لا قـــدرك الـــراح معنـــى مـــن شـــمائله والـــشمس لا ينبغـــي أن تـــدرك القمـــرا

وهكذا أكثر الشعراء من أصناف البديع حتى غلب على شعرهم.

تـاريخ الأدب والنقـد والحكمـة العربيـة
إبــان الحــروب الــصليبية

الباب الأول
الحياة العامة في هذا العصر

الباب الأول

الفصل الأول

الحياة السياسية والعسكرية

إبّان الحروب الصليبية

أيقظت فتوحات المسلمين لبعض أجزاء أوروبا كالأندلس وصقلية ومالطة وقبرص وكريت في نفوس أهل أوروبا المسيحية رغبة العودة إلى مهد المسيح بيت المقدس، حيث كانت أوروبا تعيش نظاماً اقتصادياً سيئاً قائماً على الإقطاع الذي نما بفعل تحول المال للابن الأكبر إرثاً وكثر الأمراء والنبلاء والإقطاعيون وشكلوا إمارات ومماليك لم تنج من الصراع إلا باتجاه عدد واحد تتجه إليه وتتلاقى مع نداء البابا للسواد الأعظم من العامة الذين يعيشون حالة من الفقر والحرمان ورغبة من الكنيسة في توجيه الصراع ضد المسلمين بدل أن يكون صراعاً داخلياً خاصة وأن السلاجقة المسلمون توغلوا في آسيا الصغرى وحاصروا القسطنطينية، مما اضطر الإمبراطور للاستعانة بالكنيسة في القرن الحادي عشر للميلاد بعد أن منعوا حجاج أوروبا زيارة بيت المقدس.

وهذا بدوره جعل بطرس الناسك يدعو إلى الجهاد المقدس في أوروبا وعمّم ذلك البابا أربان الثاني الذي عقد مجمعاً لرجال الدين والفرسان تعاهدوا فيه على الحرب إضافة إلى دعوة التجار إلى تأجيج الحرب، وكذلك تحول السكان المجريين إلى المسيحية وفتح الطريق بين غرب أوروبا وشرقها.

فكانت الحملة الصليبية الأولى / ٤٨٨ - ٤٩٢هـ/ ١٠٩٥ - ١٠٩٩ م/ والتي هدفها الهيمنة على بيت المقدس وشعارها الصليب واندفع الناس بتحريض من بطرس الناسك وبقيادة عدد من ملوك فرنسا وألمانيا وجيوش الدولة البيزنطية حيث استولت على عاصمة السلاجقة في الأناضول/ ٤٩٠ هـ- ١٠٩٧م / ثم دخلوا أنطاكية وطرابلس الشام وبيروت وعكا ودمشق ودخلوا بيت المقدس / ٤٩٢ هـ- ١٠٩٩م/ وحاول الفاطميون والسلاجقة

والأيوبيون أن يستنقذوا القدس ففشلوا؛ ثم جاءت الحملة الصليبية الثانية / ٥٤٢هـ - ١١٤٧ م / حيث أوقعت هزائم في الساحل الشامي، وقد أضعف - تصدي الفاطميين والسلاجقة وحاكم دمشق للصليبيين - شوكتهم فطلبوا إمداداً جديداً وكبيراً. خاصة وأن عماد الدين زنكي قد استعاد منهم حصوناً كثيرة، ثم جاءت الحملة الصليبية الثالثة/ ٥٨٥ هـ- ٥٨٨ هـ/ ١١٩٠ - ١١٩٢م/ لاسترداد الرهائن وحماية الإمارات الأخرى.

وقد دخل ضمن الحملة الثانية استعادة بيت المقدس من قبل صلاح الدين، ثم كانت الحملة الرابعة / ٥٩٨هـ - ١٢٠٢م/ التي انشغلت بثورة القسطنطينية ولم تصل للمشرق، ثم الحملة الخامسة/ ٦١٥ هـ- ١٢١٧ م/ والتي وصلت الشام وحملة أخرى لمصر / ٦١٦ هـ - ١٢١٨م/ حيث وصلت دمياط وأجلاها عن دمياط الملك الكامل/ ٦١٨ هـ - ١٢٢١م/ ثم أرسل الصليبيون حملة سادسة بطلب من الملك الكامل لمحاربة أخيه المعظم حاكم دمشق مقابل تسليم بيت المقدس لفريدرك، ولما وصلت الحملة قبرص مات الملك المعظم وأمن الملك الكامل وسلم فريدريك بيت المقدس للكامل / ٦٢٦ هـ/ وبعد موت الكامل وصلت حملة صليبية إلى عكا / ٦٣٧ هـ/ وعادت بعد معاهدة مع الصالح أيوب/ ٦٣٩ هـ / ثم هزم ملك فرنسا من قبل الملك الصالح وزوجته شجرة الدر/ ٦٤٧ هـ- ١٢٥٤م/ .

الباب الأول

الفصل الثاني

الاتجاه الإداري إبّان الحروب الصليبية

تحولت سلطة الخلافة العثمانية الإدارية التنفيذية للبويهيين والسلاجقة بقيادة طغرلبك/ ٤٢٩هـ/ - ١٠٣٨ م/ وقضى على دولة الغزنويين / ٤٣٢ هـ/ -وقدم إلى بغداد/ ٤٥١هـ/ - وقد كان هم السلاجقة بناء القوة العسكرية وانتصروا على الدولة البيزنطية ووقعت لهم الجزية واهتموا بنشر المذهب السني وبناء المساجد والمدارس، ولكن موت ملكشاه ونظام الملك في عام واحد قوَّض أركان دولتهم وتفرقت إلى شيع حيث تقاسم الأتابكة وأبناء السلاجقة الملك.

وانتشرت الحروب والفتن الداخلية وانشغل السلاجقة عن جبهة الرومان مما هيأ للصليبيين الاستيلاء على القدس خلال عامين، واحتلت مع معظم مدن الشام الساحلية فاستنفر المسلمون شعوباً وأمراء لصد الفرنجة مع أن دار الخلافة والوزراء منشغلون في المكائد والبطش ونهب الأموال والتنافس حول الخلافة كتنافس إمارة بني عقيل العربية في الموصل والإمارة المزيدية الأسدية وأوبيس الثاني بن صدقة الذي خشي الخليفة منه وقَبِل به تحت نفوذ السلطان محمود السجلوقي.

وبما أن أمراء السلاجقة كانوا يعهدون لأحد الأتابكة بتربية أولادهم ويقطعونهم الأموال فإنهم تمكنوا من قتل أمراء السلاجقة والاستيلاء على ولاياتهم، ومن أشهر الأتابكة أتابكة دمشق والموصل وحلب وكان أتابكة دمشق أول من فتكوا بأمراء السلاجقة الذين أصبحوا حكاماً لدمشق / ٤٩٨ هـ/ فحاربوا الفرنجة في عسقلان وحوران ووادي موسى وغور الأردن وجبال البلقاء وبقي الأتابكة يحاربون الإفرنج والباطن حتى تمكن عماد ونور الدين زنكي من الاستيلاء على دمشق / ٥٤٩ هـ/ وتولى أتابكة دمشق قيادة الجيوش الإسلامية ضد الصليبيين بعد أن ضم عماد الدين زنكي الموصل وحلب وهاجم الحصون الصليبية قرب حلب وحماة وشيزر وأخرج الروم من شيزر، فقال الشاعر ابن قسيم الحموي:

بعزمـــك أيهـــا الملـــك العظـــيم تـــذل لـــك الـــصعاب وتـــستقيم

ألم تـــرى أن كلـــب الـــروم لمـــا تبـــين أنـــك الملـــك الـــرحيم

فجـــاء يطبـــق الغلـــوات خـــيلا كـــأن الجحفـــل الليـــل البهـــيم

ثم حاصر عماد الدين الرها وأخذها وتحلق الشعراء حوله ودعوه لجهاد الفرنجة، ولكن غلمانه قتلوه وهو يحاصر قلعة جعبر عام / ٥٤١ هـ/ فرثاه الشعراء، ومنهم أبو ليلى التميمي حيث قال:

عينـــي لا تـــدخري المـــدامع وابكـــي واســـتهلي دمعـــاً عـــلى فقـــد زنكـــي

ثم تابع ابنه نور الدين زنكي قتال الصليبيين دون استعانة بالخلافة ولا بالسلاجقة فاستولوا على دمشق/ ٥٤٩ هـ/ ثم على مصر بقيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي الذي تسلّم الوزارة بعد موت شيركوه وأسقط الخلافة الفاطمية/ ٥٦٧ هـ/ واعترف بالخلافة العباسية ونشر المذهب السني في مصر يؤازره نور الدين زنكي واتفق الاثنان على شن حملة ضد الصليبيين في بيت المقدس فمات نور الدين/ ٥٦٩ هـ/ وانشغل صلاح الدين ٥١عاماً في توحيد الشام وضمها لولايته وسطّر الشعراء فتوحه وقد استرد الرها وانتصر على الفرنجة في بصرى وفتح أنطاكية، وقد قال في ذلك القيسراني:

هـــذي العـــزائم لا مـــا تـــدعي القـــضب وذي المكـــارم لا مـــا قالـــت الكتـــب

واحتضرت الدولة الفاطمية في عهد نور الدين مما دعا الفرنجة لغزوها، ثم إنه استعاد دمياط من الفرنجة وكان الخليفة العباسي يستعجل نور الدين زنكي وصلاح الدين بإسقاط الخلافة الفاطمية والدعاء له وهم يعدون لحملة ضد الصليبيين وعاجلت المنية نور الدين / ٥٦٩ هـ/ فاتجه صلاح الدين لتوحيد البلاد فضم دمشق/ ٥٧٠هـ/ واستمر في توحيد البلاد ومحاربة الفرنجة حتى/ ٥٨٣هـ/ وحدثت معركة حطين/ ٥٨٣ هـ/ وانتصر المسلمون على الفرنجة على الرغم من قلة عدد جيوش المسلمين الذي بلغ ١٢ ألفاً بينما بلغ عدد الفرنجة ٥٠ألفاً وفي ذلك يقول ابن الساعاتي:

حليـــت عزماتـــك الفـــتح المبينـــا فقـــد قـــرت عيـــون المؤمنينـــا

ثم توجه نحو القدس وفتحها في العام نفسه، ولما مات صلاح الدين اختلف أبناؤه بعده شأنهم شأن أسلافهم السلاجقة والزنكيين.

الباب الأول

الفصل الثالث

الاتجاه الاجتماعي

إذا كانت أصول المعايش أربعة: (الإمارة والتجارة والفلاحة والصناعة)، فإن المجتمع في هذا العصر لم يعتمد في جلب الرزق إلا على الخدمة التي تعني عدم قدرة المجتمع على الإنتاج إضافة إلى عدم أخذ السلطات بمبدأ توظيف الموارد للفرد والمجتمع، على الرغم من كون العلماء يدعون إلى عمارة الأرض، وكذلك تحدث الشعراء عن وظائف الخدمة والبطالة وفي ذلك يقول ابن تميم:

والله مـــا فقرنـــا اختيـــار وإنـــما فقرنـــا اضـــطرار

جماعـــة كلنـــا كـــسالى وأكلنـــا مـــا لـــه عيـــار

وقد غاب عن العالم الإسلامي الخطط الاقتصادية حتى عن أولئك الحكام العادلين كعماد الدين زنكي ونور الدين زنكي.

وقد انقسم المجتمع إلى طبقات متعددة:

١ - الطبقة المالكة.

٢ - طبقة الفلاحين.

٣ - طبقة الغالبة الشعبية وهي طبقة باطلة عن العمل.

وقد تبددت ثروات الناس في العالم الإسلامي وخاصة في العراق بين المتسلطين، وفي ذلك يقول أحدهم:

ســلام عــلى مــال العــراق فإنــه مــضى حيــث لا نفــع لــذاك ولا ضرّ

وكذلك تحدث البهاء زهير عن ظاهرة النفاق والتملق قائلاً:

أرى قومـــاً بليـــت بهـــم نـــصيبي مـــنهم نـــصبي

فمـــــنهم مـــــن ينـــــافقني فيحلـــــف لي ويكـــــذب بي

ويلزمنـــــي بتـــــصديق الـــــ ـــــذي قـــد قـــال مـــن كـــذب

وقد طالب الشاعر الجيلاني كل مسلم التماس مهنة تفيده، ويصلح بها المجتمع:

بـــذلت وقتـــاً للطـــب كـــي لا ألقـــى بنـــي الملـــك بالـــسؤال

ويتحدث أبو الحسين الجزار عن الطبقة الفقيرة بسخرية قائلاً.

لي مـــن الـــشمس خلقـــة صـــفراء لا أبـــالي إذا أتـــاني الـــشتاء

ومـــن الزمهريـــر إن حـــدث الغـــي م ثيـــابي وطيلـــساني الهـــواء

وكذلك تحدث الشعراء عن المنازل وأذى الحشرات بينها، وفي ذلك يقول كمال الدين الأعمى:

الخـــير عنهـــا نـــازح متباعـــد والـــشر آت مـــن جميـــع جهاتهـــا

الباب الثاني

الموضوعات الشعرية

إبّان الحروب الصليبية

- ١ -

شعر المناسبات

يعد شعر المناسبات العلم المدون للحوادث التاريخية كتولية الخليفة والأحداث الحربية والتقلبات التاريخية والاجتماعية والتمزق السياسي والتشرد في العلم الإسلامي، كتسجيل سبط التعاويذي للخليفة المستضيء / ٥٧٢ هـ/ ما ضم في عهده من ممالك واندثار للخلافة الفاطمية وانضمام ملكها للخلافة العباسية ودينونة اليمن له.

وإطاعتك أرض مصر ومصر حين تدعى وحشية عصماء
ذخرتها لك الليالي وكم حا مَتْ عليها من قبلك الخلفاء

أما في معركة البقيعة فقد صور ابن الدهان ثبات نور الدين رغم انهزام جنده وفوز الإفرنج:

وسط العدا وحده ثبت الجنان وقد طارت قلوب على بعد من الوهل

ولكن الشعراء كانوا من المغالين في مدحهم للملوك والسلاطين، وانتشر ذلك المدح انتشار شديداً متمثلاً بألفاظ التبجيل ومن مبالغات المعاني قول ابن عنين يمدح الملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك:

تمضي المنايا بما شاءت أعنته إذا القنا بين فرسان الوغى اشتجرا
تكاد تخفي النجوم الزهر أنفسها خوفاً ويشرق بهرام إذا ذكرا

ولم يكتف الشعراء بالمبالغة بل لجؤوا إلى العلو في صفات الممدوح التي تساوي صفات الخالق و(حاشا لله تعالى أن يساويه أحد من خلقه) وخاصة عند بعض الضالين، فقد استغاث أبو الفوارس بالإمام علي رضي الله تعالى عنه وبرّأه من دعاوى الغالين وأضفى عليه صفات الألوهية قائلاً:

ألا يـــا أمـــير المـــؤمنين الـــذي بـــه أفـــل الرزايـــا جحفـــل بعـــد جحفـــل
وكنـــت متـــى استـــصرخته لملمّـــة حمـــاني فـــأغنى عـــن ســـنان وفيـــصل

تنوعت موضوعات الشعر في هـذا العـصر بحـسب مقتـضيات الواقـع والحيـاة والثقافـة فكانت:

- ٢ -

شعر المديح

بقي شعر المديح على طريقته التقليدية بسبب قلة اهتمام الشعراء به وخاصة المحترفين؛ لأن أمراء المماليك وسلاطينهم لم يهتموا بالشعر ولم يعطوا عليـه الجـوائز وإن بقـي مـديح الأعـمال العسكرية ومديح الأصدقاء والفضلاء والعلماء فمدحوا الظـاهر بيـبرس والمنـصور قـلاوون والأشرف خليل والناصر محمد لأعمالهم العسكرية وتقدم المديح النبوي في هذا العصر كما عند البوصيري والجزار وشهاب الدين الحلبي وابن نباتـة وصـفي الـدين الحـلي، وتجـاوز شـعراء الصوفية مديح النبي إلى مدح الله تعالى كما فعل محمـد بـن إسرائيـل في قـصيدته الـسينية التـي بدأها بقوله:

يـــا نـــاق مـــا دون الأثيـــل معـــرس جـــدي فـــصحبك قـــد بـــدا يتـــنفس
واستـــصبحي عزمـــاً يبلغـــك الحمـــى لتظـــل تغبطـــك الجـــواري الكـــنس

وقد كانت قصائد المدح مادة للإنتاج في المواسم الدينية وحلقات الصوفية، وقـد استـشهد الشاعر المداح شهاب الدين السنهوري الضرير بقصائد مدح جرت على ألسنة المداحين. وقـد كان محمد الهمندر قد خلّد بطولة الظاهر بيبرس في واقعة الفرات حيث هزم التتار:

لـــو عاينـــت عينـــاك يـــوم نزالنـــا والخيـــل تـــضبح في العجـــاج الأكـــدر
لرأيـــت ســـداً مـــن حديـــد مائـــد فـــوق الفـــرات وفوقـــه نـــار تـــرى

وكذلك قال شهاب الدين محمود بعد فتح عكا على يد الأشرف خليل:

مـــررت بعكـــا بعـــد تخريـــب ســـورها وزمهريـــــر النـــــار في وســـــطها داري
وعاينتهـــا بعـــد النـــصر قـــد غـــدت مجوســـية الأبـــراج تـــسجد للنـــــار

وما قاله الشهاب محمود في سقوط حصن المرقب الحصين:

الله أكـــــبر هـــــذا النـــــصر والظفـــــر هـــذا هـــو الفـــتح لا مـــا تـــزعم الـــسير

- ٣ -

رثاء المدن

كتب الشعراء في عصر الانحدار في رثاء المدن التي سقطت تحت ضربات الأعـداء، كـما في رثاء القدس للأبيوردي حين سقطت بيد الصليبيين في القرن الخامس حين قال:

إن لم تقـــــرح أدمعـــــي أجفـــــاني مـــن بعـــد بعـــدكم فـــما أجفـــاني

أو كما في رثاء القدس وخرابها حين سقطت بيد التتار للقاضي مجد الدين:

مـــررت عـــلى القـــدس الـــشريف مـــسلما عـــلى مـــن تبقّـــى مـــن ربـــوع كـــأنجم
ففاضـــت دمـــوع العـــين منـــي صـــبابة عـــلى مـــا مـــضى مـــن عـــصرنا المتقـــدم

- ٤ -

شعر الغزل

وهو موضوع قديم جديد تغيرت معانيه في هذا العصر بما يناسب الذوق ومقاييس الجـمال عند المرأة، حيث أخذت محاسن الترك تحرك مشاعر الشعراء فأعجبوا بالعيون التركية الـضيقة بعد إعجابهم بالحور العين الواسعة سابقاً، وفي ذلك يقول علاء الدين الجويني:

أباديـــــة الأعـــــراب عنـــــي فـــــإنني بحـــاضرة الأتـــراك نيطـــت علائقـــي
وأهلـــك يـــا نجـــلا العيـــون فـــإنني فتنـــــت بهـــــذا المنظـــــر المتـــــضايق

ويقول ابن نباتة:

وخـــاطر عنـــت الأشـــواق لجتـــه جـــآذر الـــترك لا زيّ الأعاريـــب

ومـن كـل أعـين ضـاقت عينـه فمتـى يجـــود لي مـــن تلاقيـــه بمطلـــوب

مذكراً بقول المتنبي:

مـــن الجـــآذر في زي الأعاريـــب حمـــر الحـــلى والمطايـــا والجلاليـــب

وقد كثر الحديث عن جمال القدود التركية وبياض الوجوه، وكذلك نعومة النساء التركية وضيق عيونها مع ما تميزت به المرأة من جمال ردده الشعراء في معاني الغزل التقليدية من خلال عرض جديد كقول الشاعر:

أصـــغي إلى قـــول العـــذول بجملتـــي مـــستفهماً منـــه بغـــير مـــلال

لتلقطـــي زهـــرات ورد حـــديثكم مـــن بـــين شـــوك ملامـــة العـــذال

مذكراً بقول بشار بن برد:

وكـــأن رجـــع حـــديثها قطـــع الريـــاض كـــسين زهـــرا

ـ ٥ ـ

شعر الوصف

وهو موضوع تركز على تصوير الطبيعة الصامتة والمتحركة (جماد، حيوان، مكان) من خلال مزج مشاهد هذه الطبيعة وعاطفة الشاعر ومشاعره تجاهها حيث يخلع الشاعر عواطفه ويلبسها للطبيعة، كما في قول صفوان بن إدريس/ ٧٩٨هـ/

جـــاد الربـــا مـــن بانـــة الجرعـــاء نـــوءان مـــن دمعـــي وغـــيم ســـماء

هـــل نلتقـــي في روضـــة موشـــية خفاقـــة الأغـــصان والأفيـــاء

وجـــرت ثغـــور الياســـمين فقبلـــت عنـــي غـــداة الآســـة الميـــساء

وقد مال الشعراء الوصافون إلى التشخيص والتجسيم كقول الشاعر في وصف المشمش:

قد أتى سيد الفواكه في ثوب نضار والشهد منه يفور

يشبه العاشق المتيم حالا أصفر اللون قلبه مكسور

وكقول الشاعر في وصف الأشجار:

انظر إلى الأشجار تلف رؤوسها ثابت وطفل ثمارها ما أدركا

وعبيرها قد ضاع من أكمامها وغدا بأذيال الصبا متماسكا

وقد وصف ابن سعيد المغربي قصور الصالح نجم الدين أيوب المسماة بالصالحية ونهر النيل محيط بها:

تأمل لحسن الصالحية إذ بدت وأبراجها مثل النجوم تلالا

ووافى إليها النيل من بعد غيبة كما زاد مشفوف يروم وصالا

- ٦ -

شعر الهجاء

يمثل شعر الهجاء ألوان النفرة والرفض للمهجو حيث تظهر مقابحه والضجر منه، وبرزت صورة الهجاء بألوانه المختلفة(المقنع المعتدل الضاحك الساخر) وقد تناول الهجاء أفراداً بأعينهم ونماذجَ مختلفة كالقضاة والفقهاء والمستخدمين من خلال كونه وسيلة من وسائل النقل الاجتماعي، ومن ذلك هجاء أربعة قضاة اسم كل منهم شمس الدين.

أهل الشآم استرابوا من كثرة الحكام

إذ هم جميعاً شموس وحاكم في ظلام

ومن ذلك هجاء الهرهوري لأحد التجار حين طلب منه جوزة هندية فلم يرسلها له:

طلبت منك جوزة منعتني من قربها

وكـــــم طلبـــــت زوجـــــة منـــــك فلـــــم تبخـــــل بهـــــا

ومال بعض الشعراء إلى النكتة كموضوع للهزل كما في وصف حمار وقع في بئر قال ابن حناء:

يفـــديك جحـــشك إذ مـــضى مترديـــا وبتالـــد يفـــدى الأديـــب وطـــارف

عـــدم الـــشعير فلـــم يجـــده ولا رأى تبنـــاً وراح مـــن الظـــما كالتـــالف

ورثى الشعراء الخبز لما عزّ وتشحط:

قـــسماً بلـــوح الخبـــز عنـــد خروجـــه مـــن فرنـــه ولـــه الغـــداة فـــوار

وقد تندر الشعراء بصفة العوز والفقر كقول الجزار:

ضـــاق صـــدري ممـــا أطالـــب دهـــري ببلـــوغ المنـــى ويظهـــر مطلـــة

بـــين قـــوم صـــيروا المنـــع والمنْـــ ـــن لهـــم في الزمـــك أبـــاً وملـــة

أنـــا فـــيهم عـــار ومـــاش وغـــيري وهـــو دوني ثيـــاب وبغلـــه

- ٧ -

الشعر الحماسي

لعب الشعر الحماسي دوراً كبيراً في المعارك والانتصارات والأمل في الفتوحات وخاصة فتح بيت المقدس، ولا نكاد نقرأ قصيدة لشعراء ذلك العصر دون أن نجد فيها أثراً للحماسة وخاصة أن الأعداء الصليبيين قد تكالبوا على ديار المسلمين، وقد سجل الشعر المعارك الحربية، ومن ذلك قصيدة الأبيوردي التي تدعو للدفاع عن الديار والمقدسات واستنهاض العزائم والبكاء على بيت المقدس:

مزجنـــا دمـــاء بالـــدموع الـــسواجم فلـــم يبـــق منـــا عرضـــة للمـــراجم

وشر ســـلاح المـــرء دفـــع بغيـــضة إذا الحـــرب شـــبت نارهـــا بالـــصوارم

وكيف تنام العين ملء جفونها على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ظهور المذاكي أو بطون التشائم

ومن الشعراء الذين يفيض شعرهم بالحماسة والجهاد في سبيل الله ضد الفرنجة الشاعر الأمير مجد العرب العامري الذي يقول:

ومدربين على القتال كأنما شربوه ولدانا مع الألبان
نظروا إلى البيض الجفان كأنها بأكفكم مشبوبة النيران

ومن ذلك ما أثاره الشاعر القيسراني من حماسة إبّان هجوم الصليبيين على دمشق عام/ ٥٢٣هـ/

وافوا دمشق فظنوا أنها جدة ففارقوها وفي أيديهم العدم
وأيقنوا مع ضياء الصبح أنهم إن لم يزولوا سراعاً زالت الخيم

وهذا ابن القسيم الحموي يمجد انتصار عماد الدين زنكي على الفرنجة قائلاً:

بعزمك أيها الملك العظيم تذل لك الصعاب وتستقيم
ألم تر أن كلب الروم لما تبين أنك الملك الرحيم
فجاء يطبق الفلوات خيلا كأن الجحفل الليل البهيم
أيلتمس الفرنج لديك عفوا وأنت بقطع دابرها زعيم
وكم جرعتها غصص المنايا بيوم فيه يكتهل العظيم

وقد حف الشعراء بنور الدين بعد أن تولى السلطة/ ٥٤١ هـ/ وبادر لجهاد الأعداء، ومن الشعراء الذين دعوا للجهاد أسامة بن منقذ في رائيته المشهورة:

أبى الإله إلا أن يكون لنا الأمر لتحيا بنا الدنيا ويفتخر العصر
وتخدمنا الأيام فيما نرومه وينقاد طوعاً في أزمتنا الدهر
وتخضع أعناق الملوك لعزنا ويرهبها منا على بعدنا الذكر

وأما قصيدة طلائع بن رزيك فتحكي بطولات مصر على الصليبيين:

ألا هكـــذا في الله تمـــضي العـــزائم وتمضي لـدى الحـرب الـسيوف الـصوارم
وتغـزى جيـوش الكفـر في عقـر دارهـا ويـــوطى حماهـــا والأنـــوف رواغـــم

- ٨ -

شعر المدائح النبوية

حظيت المدائح النبوية في هذا العصر باهتمام كبير من خلال معارضتها قـصيدة كعـب بـن زهير (بانت سعاد)، وقد ألهبت المدائح النبوية مشاعر الشعراء بعد الانزواء الصوفي عن الحياة والإحباط الذي خلفه لقاء الملوك بالشعراء وعدم إعطائهم وقد بدأت المدائح النبوية بالتشوق إلى زيارة الأماكن المقدسة كقول الجيلاني:

يـــا زائـــر المـــصطفى مـــن الأمـــم وخـــير هـــاد في العـــرب والعجـــم
أبلغـــه منـــي الـــسلام أبلغـــه وقـــل فتـــى قلبـــه مـــع الحـــرم
يبكـــــي إذا سرت الركائـــــب ولم يـــسر بـــدمع كـــالقطر منـــسجم

وربما قيلت المدائح النبوية في رثاء الحسين بن علي كما صنع طلائع بن رزيـك، ومـن ذلـك قصيدة ابن الساعاتي

وكيـــف أحمـــل في دنيـــا وآخـــرة ومنطقـــي ورســـول الله مـــأمول

ومن المدائح النبوية قول فيتان الشاغوري:

إليـــك المطايـــا أعتقـــت يـــا محمـــد إلى خـــير مـــن يـــسعى إليـــه ويحفـــد
إلى الـــذروة العليـــاء مـــن سر هاشـــم علـــيهم ســـلامي كـــل وقـــت يـــردد

وقد كان أكثر الشعراء مدحاً للرسول صلى الله عليه وسلم يحيى بـن يوسـف جمـال الـدين العلامة الزاهد الصرصري ومن ذلك قوله:

ذكـــر العقيـــق فهاجـــه تـــذكاره صـــب عـــن الأحبـــاب شـــط مـــزاره

لـــولا هـــواه لمـــا ثنـــى أعطافـــه بـــان الحجـــاز ورنـــده وعـــراره

يـــا مـــن ثـــوى بـــين الجـــوانح والحـــشا منـــي وإن بعـــدت عـــليّ ديـــاره

وأما شرف الدين الأنصاري فقد مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بلامية في حـج/ ٦١٩ هـ/ في مكة المكرمة:

يـــا صـــاح هـــاجر الهـــدى فتمـــل مـــن ذي وهـــو بـــدر للهـــدى فتأمـــل

فلطالمـــا أرســـلت معـــك ســـاخنا شـــوقاً إلى هـــذا النبـــي المرســـل

ويرتقي البوصيري بمدحه للنبي صلى الله عليه وسلم فيحيي القلوب قائلاً:

كيـــف ترقـــى رقيـــك الأنبيـــاء يـــا ســـماء مـــا طاولتهـــا ســـماء

لم يـــساووك في عـــلاك وقـــد حـــال ســـناً منـــك ومـــنهم ســـناء

إنـــما مثلـــوا صـــفاتك للنـــاس كـــما مثـــل النجـــوم المـــاء

ولو رحنا نستقصي جميع المدائح النبوية لاحتجنا إلى صفحات كثيرة.

- ٩ -

شعر الرثاء

يعد الرثاء الفن الأكثر مرافقة للإنسان على مر الزمن وهو موضوع ساخن في عصر الحروب الصليبية وجهه الشعراء إلى رثاء الخلفاء في الدولة العباسية والعبيدية ورثاء الوزراء والولاة ورثاء الأقارب والأرحام والأبناء كما رثى أسامة بن منقذ ابنه عتيق، وكما رثى العفيف التلمساني لابنه الشاب الظريف، أو كما رثى ابن سناء الملك أمه بالإضافة إلى نوع آخر من الرثاء للدول حيث رثى الشاعر عمارة اليمني للدولة العبيدية والدولة العباسية ورثوا القصور رثاء القاضي الفاضل قصر عبد العزيز بن صلاح الدين الأيوبي يقول أسامة بن منقذ في رثاء أسرته:

هـــذي قـــصورهم أمـــست قبـــورهم كـــذاك كـــانوا بهـــا مـــن قبـــل ســـكانا

ريح الزلازل أفنت معشري فإذا ذكرتهم خلتني في القوم سكرانا

ويقول ابن سناء الملك في رثاء أمه:

صح من دهرنا وفاة الحياء فليطل منكما بكاء الوفاء

وليبن ما عقدتماه من الصبر بأن تحللا وكار البكاء

قد رماني الزمان منه بخطب امّحت عنه ألسن الخطباء

ويقول الشاعر الأمير نجم الدولة أحمد بن أبي الفتوح يرثي ابنه عبد المنعم:

لبس الجنود حديدهم في عيدهم ولبست حزن أبي الحسين جديدا

أيسر في عيد ولم أر وجهه فيه ألا بعداً لذلك عيدا

وقد كانت الحروب ذات وقع على نفوس الشعراء؛ لأنهم كانوا من خلالها يفقدون المدافعين عن حياض الأرض وخاصة الأبطال القادة كمرثية عمار الأصفهاني لصلاح الدين الأيوبي:

من للعلا من للذرى من للهدى يحميه من اليأس من النائل

ومن المراثي المميزة مرثية الشاعر الريس أبي معلى التميمي التي رثى فيها عماد الدين زنكي:

كذاك عماد الدين زنكي تنافرت سعادته عنه وخرت دعائمه

فلما تناهى ملكه وجلاله وراعت ولاة الأرض منه لوائمه

أتاه قضاء لا أقود سهامه فلم تنجه أمواله وغنائمه

وكذلك رثى الشعراء الديار التي أضر بها الصليبيون:

أحل الكفر بالإسلام ضيما يطول عليه للدين النحيب

فحق ضائع وحمى مباح وسيف قاطع ودم صبيب

وكم من مسلم أمسى سليبا ومسلمة لها حرم سليب

وكم من مسجد جعلوه ديرا على محرابه نصب الصليب

دم الخنزير فيه لهم خلوق وتحريق المصاحف فيه طيب

أمـــور لـــو تـــأملهن طفـــل لطفـــل في عوارضـــه المـــشيب

وقد رثى الشاعر وجيه بن عبد الله بن نصر المعرة بعد أن خربها الفرنجة / ٤٩٢ هـ/ :

هـــذه صـــاح بلـــدة قـــد قـــضى الله عليهـــا كـــما تـــرى بـــالخراب

وقد رثى الشعراء القدس قبل سقوطها بيد الفرنجة وبعد سقوطها بأيديهم، ومن ذلك رثاء شهاب الدين أبي يوسف يعقوب:

لتبـك عـلى القـدس الـبلاد بأسرهـا وتعلـــن بـــالأحزان والترحـــات

لتبـــك عليهـــا مكـــة فهـــي أختهـــا وتـــشكو الـــذي لاقـــت إلى عرفـــات

لتبـك عـلى مـا حـل بالقـدس طيبـة وتـــشرحه في أكـــرم الحجـــرات

وكذلك قول أحدهم:

مـررت عـلى القـدس الـشريف مـسلما عـلى مـا تبقـى مـن ربـوع كـأنجم

ففاضـت دمـوع العـين منـي صـبابة عـلى مـا مـضى مـن عـصرنا المتقـدم

أما خراب بغداد فقد خصها الشاعر شمس الدين الواعظ بقصيدتين مطلع الأولى:

إن كنـــت مـــثلي للأحبـــة فاقـــدا أو في فـــؤادك لوعـــة وغـــرام

قـــف في ديـــار الظـــاعنين ونادهـــا يـــا دار مـــا صـــنعت بـــك الأيـــام

ومطلع الثانية:

إن لم تقـــرح أدمعـــي أجفـــاني مـــن بعـــد بعـــدكم فـــما أجفـــاني

إنـــسان عينـــي مـــذ تنـــاءت داركـــم مـــا راقـــه نظـــر إلى إنـــسان

مـــا للمنـــازل أصـــبحت لا أهلهـــا أهـــلي ولا جيرانهـــا جـــيراني

- ١٠ -

شعر الطبيعة

تشكل الطبيعة الهاجس الأهم لشعراء هذا العصر، فما من ديوان شعر إلا وللطبيعة أثر كبير فيه كوصف الماء والأشجار والنجوم والرياض والورود والزهور والسحاب وتساقط الأمطار، ومن ذلك وصف المهند المزرفي للرياض:

الروض بين متوج ومكلل والماء بين مكفر ومصندل
فانظر إلى الوسمي كيف كما الثرى ثوباً يطرزه معين الجدول

والشاعر فتيان الشاغوري يصف لنا الطبيعة من خلال ليلة من الليالي:

وهلال السماء يشرق والشهـ ـب تروق العيون نظماً وزهرا
والثريا كأنها كف حسود ختمت ياقوتاً وتبراً ودرا
والدجى هارب كما تهرب الزنـ ـج من الروم إذ تخاف الفجرا
ولدينا من الربيع برود حملت من وشي الرياض الزهرا

والشاعر ابن البنية المصري يصور لوحات الجمال الطبيعية حيث الرياض تتوج بالأزهار والورود:

الروض بين متوج ومشنف والأرض بين مدبج ومقوف
والغصن غنَّاه الحمام فهزه طرباً وحيّاه الغمام يقرقف

ويصف الشاعر الصرصري الربيع قائلاً:

خط الربيع بأقلام التباشير رسالة كتبت بالنور والنور
حي البقاع الحيا فاهتزها دمعا لما أتتها يد البشرى بمنشور
وانشقت الأرض عن مكنون ما خبأت كأنما باكرتها نفحة الصور

أما العفيف التلمساني فقد وصف الرياض والزهور والورود والحمائم قائلاً:

نـــــدى في الأقحـــــوان أم تـــــراب وطـــــل في الـــــشقيقة أم رضـــــاب
فتلـــــك وهـــــذه كـــــأس وثغـــــر لـــــذا ظلـــــم وفي هـــــذي شراب
وورق حمـــــائم في كـــــل فـــــن إذا انطلقـــــت لهـــــا لحـــــن صـــــواب

أما الشاعر ابن مكندا فيهتز لنوم الحمام قائلاً:

نـــوم الحـــمام عـــلى فـــروع البـــان أهـــــدى إليَّ بلابـــــل الأشـــــجان
نـــاديتهن ودمـــع عينـــي هاطـــل لمـــا حمـــتن وملـــن بالأفنـــان
بـــالله يـــا ورق الحـــمام أعننـــي بهـــديلكم وكـــنّ مـــن أعـــواني

والشاعر إبراهيم الحراني ينقلنا بين أحياء دمشق ويمتِّع أبصارنا بغزلانها قائلاً:

ربـــوع جلـــت للأوطـــان أوطـــان ولـــيس فيهـــا مـــن النـــدمان نـــدمان
آليـــت أنـــشد في غزلانهـــا غـــزلا ل مـــا غـــزت كبـــدي بـــاللحظ غـــزلان
أما تـرى الأرض إذ أبكـى الـسحاب بهـا آذارهـــا ضـــحكت إذ حـــار نيـــسان
والزهـــر كـــالزهر حيّـــاه الحيـــا فبـــدت في الـــروض منـــه إلى الأبـــصار ألـــوان

- ١١ -

شعر الوجدانيات

الوجدانيات باب واسع من أبواب الشعر العربي في كل عصر، وفي هذا العصر خاصة، فقد عبر الشعراء عن مكنوناتهم الخاصة سواء أكانت غزلاً أم بثاً للشكوى أو وجداناً صوفياً يمثل التدفق الشعري باتجاه قضايا العصر التي عاشها أولئك الشعراء، ومن الشعر الوجداني ما تأثر بالغزو الصليبي والغزل بالمذكر، والغزل الماجن، وسنعرض عن النوعين الأخيرين لمناقضتهما الأديان والأخلاق والنظرة السليمة.

هذا هو الرئيس أبو الفرج المولود / ٤٨٢هـ/ يتغنى بمحبوبته التي كان الشاعر كَلِف بها كلفاً شديداً:

الوشـــــاة قـــــد صـــــدقوا في الـــــذي بـــــه نطقـــــوا
أننـــــي بكـــــم كلـــــف مـــــدمناً للحـــــشا قلـــــق
هـــــل علـــــيكم حـــــرج أو ينـــــالكم فـــــرق
لـــــو وصـــــلتم كمـــــدا قلبـــــه بـــــه علـــــق

وهذا هو الشاعر ابن داوس القنا يستنطق اللطف في محبوبته قائلاً:

هـل أنـت منجـزة بالوصـل ميعـادي أم أنـت مـشمتة بـالهجر حـسادي
سـألت طيفـك إلمامـاً فـضن بـه ولـو ألم لأردى غلـة الهـادي
يـا ظبيـة الحـي مـا حيـدي بمنعطـف إلى سـواك ولا حـيلي بمنقـاد
إن تـأسروا فـذوو عـزّ ومقـدرة أو تطلقـوا فـذوو وهـن وإرفـاد

وقد عارض كل من الشعراء أحمد الدبيني وراجح بن إسماعيل الحلي قصيدة ابن زريق البغدادي (عينيته).

فقال الأول:

وليلـة زارني فيهـا عـلى عجـل والـشوق يحفـزه والخـوف ينزعـه
وبـات مـستنطقاً أوتـار مزهـرة الفـصاح يتبعهـا طـوراً وتتبعـه

وقال الثاني:

أخفـى الغـرام فأبـداه توجعـه وترجمـت عـن مـصون الجـد أدمعـه
يـا عـذب الله قلبـي كـم يجـن هـوى يجنـي عليـه ويرعـى مـن يروعـه

ويقول الشاعر ابن عربي:

ناحـت مطوقـة فحـن حـزين وشـجاه ترجيـع لهـا وحنـين
إن الفـراق مـع الغـرام لقاتـل صـعب الغـرام مـع اللقـاء يهـون

وإذا كان الشعراء قد أعجبوا بالفرنجة في تلك الفترة، فإنما أعجبوا ببنات الأديرة وسفورهن حيث كتب الشاعر القيسراني ديوانه الثغريات، وكذلك كتب الشاعر عون الدين العجمي آهاته قائلاً:

يا سائق البيداء معتسفا ... بضامر لم يكن في صبره

إن جزت بالشام شم تلك العروق ولا ... تعدل بلغت المنى عن دير مران

واقصد علالي قلالية ثلاث بها ... ما تشتهي النفس من حور وولدان

وأما الغزل الماجن والغزل بالمذكر فإن اللسان والقلم يعفان عن ذكر ذلك كما قلنا لمخالفته الشرع والفطرة الإنسانية، كما وأننا في هذا العصر بحاجة إلى كبح جماح الشهوات المحرمة التي كثر طالبوها والباحثون عنها، وهو من سوء آخر الزمان الذي يقود الإنسانية إلى الخراب والدمار والموت.

- ١٢ -

الشعر العابث

يعد الشعر العابث لوناً جديداً في هذا العصر جاء نتيجة الميل للزخرفة القولية ومحاولة اكتشاف طرق جديدة للتعبير عن قضايا عصرية أو لادعاء التجديد في الشعر، ومن ذلك قول الحريري الذي يمثل هذا العبث اللغوي:

أس أرملا إذا عرا ... وارع إذا المرء أسا

أسند أخا بناهسة ... ابن إخاء دنسا

أسل جناب غاشم ... مشاغب إن جلسا

أسر إذا هب مرا ... وارم به إذا رسا

وإذا كانت الأبيات تفتقر إلى التدفق الشعوري وتخلو من المضمون وتنأى عن الخيال الشعري المبدع فإنها تنبض بالصناعة اللفظية التي تجاوزت دور الشعر في عكس صورة الحياة.

وكذلك قول الأرجاني في بيته المشهور:

مودتـــه تـــدوم لكـــل هـــول وهـــل كـــل مودتـــه تـــدوم

وقد يكتب الشاعر أبياتاً غير معجمة أو أبياتاً كلها معجمة الحروف مثل:

أعـــدد لحـــسادك حـــد الـــسلاح وأورد الأمـــل ورود الـــسماح

واســـع لإدراك محـــل ســـما عـــماده لادراع المـــراح

والله مـــا الـــسؤدد حـــد الطـــلا ولا مـــراد الحمـــد رؤد رداح

ومثل:

فتنتنـــي فجننتنـــي تجنـــي بـــتجن يفـــتن غـــب تجـــن

وقد يلتزم الشاعر الحرف الأول من الأبيات ليماثل آخرها أو قد يستهل كل بيت بحرف من حروف الميم حتى آخر القصيدة، ويعبر هذا العبث الشعري عن نزهة أدبية يرتادها الشاعر في فراغه ولهوه ومنتدياته.

وقد أكثر شرف الدين الأنصاري من اللزوميات في مقطوعاته، ومن ذلك ما قاله في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

أمـــر عليـــاك في الـــورى غـــير خـــاف فإليـــك انتهـــى مـــدى الأوصـــاف

بعـــث الله منـــك خـــير نبـــي خـــاتم الرســـل فـــاتح الأطـــراف

وهكذا فلم يكن هذا اللون العابث مما انتشر عند كل الشعراء، بل كانوا يتداولونه لهواً.

- ١٣ -

شعر الألغاز والأحاجي

يتبين لنا من خلال معنى كلمة لغز في الشعر غموض شعري بقصد إخفاء معنى من معاني تحت عباءة ألفاظ موهمة تؤول عدة تأويلات بحيث يكون للكلام ظاهر عجيب وباطن غير عجيب من خلال التلاعب بالألفاظ بصنعة أدبية، ومع توغل الصليبيين في عالمنا الإسلامي

وما وقع للمسلمين من هزائم لم يكن لهذا النوع من الشعر وجود، ولكنه لما استعاد الأيوبيين بيت المقدس وخفت الحروب وكثر الفراغ والثراء انتشر هذا اللون من الرياضة الشعرية الفكرية من خلال المباريات والمطارحات القولية والارتجالية، ومن هذه الألغاز في العقرب:

وما حيوان يتقي الناس شره ... على أنه واهي القوى واهن البطش
إذا ضعفوا نصف اسمه صار طائرا ... وإن ضعفوا باقيه صار من الوحش

ومنه في تلغيز المشمش والسمسم:

نباتان من أصله سامق ... قاس وذا من خائب قاصر
أيهما صحفت معكوسا ... دل بلا شك على الآخر

ويفتقر شعر الألغاز إلى خاصية التجربة الشعورية وما يؤثر في النفس، وهي بذلك تقترب من النظم أكثر من الشعر، قريب إلى الارتجال والسطحية الفنية، وتبتعد عن الإبداع والمضمون الإنساني للشعر، وقد كتب الملك المعظم لغزاً في الإسلام وطلب من الشاعر ابن عنين الإجابة عنه:

أي شيء تراه حقاً يقينا ... حالما اعوجَّ في الزمان استقاما

وقد رد عليه ابن عنين وقرضه قائلاً:

أيها السيد الذي جعل الشر ... ك حطاماً وشيَّد الإسلاما
قد أتاك الجواب لا شك فيه ... فاتخذني للمشكلات إماما

ومن ذلك قول البهاء زهير في مدينة (يافا):

بعيشك خبرني عن اسم مدينة ... يكون رباعياً إذا ما ذكرته
على أنه حرفان حين تقوله ... ومعناه حرف واحد إن قلبته

ومنه قول الشاب الظريف في (مقراض):

ومجتمعين ما اجتمعا لاثم ... وإن وصفا بضم واعتناق
لعمر أبيك ما اجتمعا لمعنى ... سوى معنى القطيعة والفراق

وقد أدرك الأوائل عبثية هذه الألفاظ فلم يدونوها، وإنما جاءت في هذا العصر كتسلية ومداعبة ومطارحة.

- ١٤ -

الغربة والاغتراب

ليس هناك ألم يحفر في النفس أشد من الغربة والاغتراب، فالغربة نار محرقة تلذع صاحبها كلما ذكر مسكنه أو وطنه، وخاصة إذا كانت الغربة اضطرارية، وأكثر ما كان اغتراب الناس بسبب الحاجة للمال أو لطلب العلم أو لمرافقة السلاطين في أسفارهم وحروبهم الداخلية والخارجية، والاغتراب قد يكون والمرء في وطنه وفي بيته ومسكنه بسبب تردّي العلاقات الاجتماعية السيئة وكثرة الكذب والنفاق وعدم الوفاء، والحاجة والفقر وضنك العيش، وفي ذلك يقول هبة الله بن علي الربعي:

لا عز للمرء إلا في مواطنه ... والذل غاية ما يلقى من اغتربا

وقد شكا علي بن حسن بن عساكر غربته في نيسابور حيث لا صديق ولا سكن ولا مأوى.

لا قدس الله نيسابور من بلد ... ما فيه من صاحب يسلي ولا سكن

لولا الحميم الذي في القلب من حرق ... لفرقة الأهل والأحباب والوطن

لمت من شدة البرد التي ظهرت ... آثار شدته في ظاهر البدن

حتى أننا لنجد البهاء زهير يتمنى الاستقرار حتى تأتيه منيته:

ليت شعري ليت شعري ... أي أرض هي قبري

ضاع عمري في اغترا ... ب ورحيل مستمرّ

وقد أكثر الأمير أسامة بن منقذ من شعر الاغتراب، وكذلك الشاعر المغترب ابن عنين يضاف إلى ذلك غرابة الشعراء الصوفيين من خلال انزوائهم في الزوايا وخروجهم من المجتمع وهم فيه، مدّعين الصلة بالله، ومن ذلك همزية ابن الفارض:

يـا سـاكني البطحـاء هـل مـن عـودة أحيـا بهـا يـا سـاكني البطحـاء
واحـسرتى ضـاع الزمـان ولم أفـز مـنكم أهيـل مـودتي بلقـاء

- ١٥ -

الشعر التأملي

يعد الشعر التأملي من أنواع الشعر الذي يقرأ صورة الكون والحياة على صفحات النفس الإنسانية حيث تتجلى عظمة الخالق، وقد أكثر الشعراء في هذا العصر وخاصة الشعراء الصوفيون من هذه التأملات الذاتية والإنسانية، وقد أكثر الشاعر البوصيري من هذه التأملات التي تستمد هذا التأمل من قوله تعالى: (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)

يـا قـسوة القلـب مـا لي حيلـة فيـك ملكـت قلبـي فأضـحى شر مملـوك
حجبـت عنـي إفـادات الخـشوع فـلا يـشفيك ذكـر ولا وعـظ يـداويك
ومـا تماديـت مـن كـسب الـذنوب ولـ ـكن الـذنوب أراهـا لـصق تماديـك
وأنـت يـا نفـس مـأوى كـل معـضلة وكـل داء قـبلي مـن عواديـك
أنـت الطليعـة للـشيطان في جـسدي فلـيس يـدخل إلا مـن نواحيـك

ولما بلغ الشاعر الصرصري الستين أخذ يئنّ تحت وطأة الأمراض، ويستذكر من قضى نحبه من محبيه وأهله حيث يقول:

ذهـب الـشباب وخـانني جلـدي وتفـشت الأسـقام في جـسدي
ورمتنـي الـسنون مـن عمـري فأصـاب رشـق سـهامها كبـدي

ويتألق القاضي في تأمله قائلاً:

نظـرت إليـه نظـرة فتحـيرت دقـائق فكـري في بـديع صـفاته
فـأوحى إليـه القلـب إني أحبـه فثـار ذاك الـوهن في وصـفاته

وقد يتأمل الشعراء في صفات الله تعالى وفي مخلوقاته وسمائه وأرضه ونجومه فهو الذي رصع السماء بنجومها وأنشأ السحاب الثقال وجعل الشمس ضياء والقمر نوراً ومحا آية الليل ودحا الأرض.

فيا ملكا زان السماء بأنجم ... على الفلك الأعلى طفت أحسن الطفو
وسخر ما بين السماء وأرضه ... سحائب يخفو برقها أحسن الخفو
وأبقى على شمس النهار ضياءَها ... وخص بنقص آية الليل بالمحو
ولما دحا الأرض اقتداراً وحكمة ... على الماء أرسى الشم في أثر الدحو
وأحيا بفضل ميت الأرض بالحيا ... وزيّنها من بعد ذلك بالصحو

ولكن تأمل الشعراء في هذا العصر لم يصل إلى حد التفلسف. إنه تفكر وتذكر واعتراف لله بقدرته وفضله.

- ١٦ -

شعر المعارضات

أعجب الشعراء في عصور ما بعد الجاهلية وصدر الإسلام والعصر العباسي بمن قبلهم من الشعراء لما وجدوه عندهم من بناء سامق للقصائد من حيث الأفكار والموضوعات واللغة والأسلوب، ومن خلال ما جادت به قرائحهم النقية وطبعهم السليم حتى غدت قصائدهم نموذجاً فاخراً من حيث الشكل والمضمون.

وقد جاءت أحداث هذا العصر مشابهة في بعضها للعصور السابقة مما حدا بالشعراء إلى بناء قصائدهم على الوزن والبحر والقافية نفسها كما صنع الشاعر القيسراني بمعارضته لقصيدة أبي تمام في فتح عمورية.

قال أبو تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

وقال القيسراني:

هــذي العــزائم لا مــا تــدعي القــضب وذي المكــارم لا مــا قالــت الكتــب

وكذلك عارض العماد الأصبهاني قصيدة أبي تمام قائلاً:

بالجـد أدركـت مـا أدركـت لا اللعـب كـم راحـة جنيـت مـن روحـة التعـب

وكذلك عارضها الجاحظ أبو القاسم في مدح نور الدين:

لمـا سـمحت لأهـل الـشام بالخـشب عرضـت مـصر بـما فيهـا مـن النـشب

ومن المعارضات الأخرى ما قاله ابن الدهان في ناصر الدين محمد بن شيركوه معارضاً لامية كعب بن زهير رضي الله

عنه، قال كعب:

بانـت سـعاد فقلبـي اليـوم متبـول متـيم إثرهـا لم يفـد مكبـول

وقال ابن الدهان:

سـيف جفنيـك مغمـد مـسلول مـاض عـلى العـشاق وهـو كليـل

وقد تكون المعارضات من شعراء عاصروا بعضهم كما حدث بين ابن منير الطرابلسي والعماد الأصبهاني، قال الطرابلسي:

حـي الـديار عـلى عليـاء جـيرون مهـوى الهـوى ومغـاني الخـرد العـين

وقال العماد الأصبهاني:

أهـدى النـسيم لنـا ريّـا الريـاحين أم طيـب أخـلاق جـيراني بجـيرون

كما وشطر الشعراء قصائد غيرهم كتشطير شرف الدين الأنصاري للامية كعب بن زهير، وكلا القصيدتين في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم. قال شرف الدين الأنصاري:

أوهمـت نـصحاً لـو أن النـصح مقبـول لا أنهينـك إني عنـك مـشغول

بـان التجـدد عنـي والتـصبر مـذ بانـت سـعاد فقلبـي اليـوم متبـول

ومن ذلك مسمطات للشاعر أسامة بن منقذ التي سمط فيها شعر قيس بن ذريح ومجنون ليلى ومهيار، ومن تسميطه لشعر قيس:

كعهدك بانات الحمى فوق كثبها ودار الهوى تحمي العدا سرح سربها

أقول وسمر الخط حجب لحجبها سقى طل الدار التي أنتم بها

حناتم ويل صفي وربيع بدارك ما بي من بلى الشوق والهوى

وبي ما بها من وحشة البين والنوى

الباب الثالث

اتجاهات الشعر
في عصر الدول المتتابعة

الباب الثالث

الفصل الأول

اتجاهات الشعر
في عصر الانحدار

لقد رسمت تفاصيل الحياة والواقع في عصر الانحدار شعر هذا العصر بملامحها بما حوته من أحداث سياسية واجتماعية وفكرية وعقدية، وكان الإحساس بالضعف الموضوعي أبرز آثار العصر حيث ضعفت الصياغة وتهلهل البناء وقل الإبداع والابتكار وكثر الإسراف في الاهتمام بالشكل على حساب المضمون والإيغال في العامية بسبب ابتعاده عن الرؤساء والزعماء وتقربه من عامة الشعب، وذلك لكون الزعماء من الأعاجم الذين لا يفهمون هذا الشعر ولا يتذوقونه.

وكان السلاطين المماليك أميل إلى الشعر العامي؛ لأنه أقرب إلى اللغة الدرامية كما عند السلطان قلاوون الذي لم يكن يجيد العربية، وقد أدى ذلك إلى تجاهل الفصحى، وزهد الأدباء الكبار بها بالشعر، يقول ابن دقيق العيد.

وزهدني في الشعر أن سجيتي ... بما يستجيد الناس ليس تجود

ويأبى لي الختم الشريف رديه ... فأطرده عن خاطري وأذود

وقد كان ينفق على الشعراء من مال الصدقات بأمر قاضي القضاة، فإذا ما وقعت معركة عسكرية ذاد بها المماليك عن الإسلام وبلاده جاءت قريحة الشعراء، وقد صور ذلك إبراهيم الغزي قائلاً.

في فتية من جيوش الترك ما تركت ... للرعد كراتهم صوتاً ولا صيتا

قوم إذا قوبلوا كانوا ملائكة ... حسناً وإن قوتلوا كانوا عفاريتا

ولكن الشعر في هذا العصر كان غريباً يشعر فيه الشعراء بالاغتراب، وهذا ما دفع الشعراء أن يكتبوا في موضوعات التصوف والمديح النبوي والغزل الروحي والحنين والشكوى

والابتهال، وترجع أسباب غربة الشعراء في هذا العصر إلى تألّب الأعداء الخارجين على بلاد المسلمين (تتار - صليبيين) والصراع بين الوجود العربي والإسلامي، وكون حال المسلمين والعرب لا تسر وسيطرة الروم السلبية على الناس وعدم التمسك بالقيم الدينية، وقد قل الشعراء المحترفون وشاع النظم بين المتعلمين من قضاة وفقهاء وأصحاب حرف، ولم يرتق الشعر في مستواه إلى رتبة الشعر الجيد واستخدم الشعراء الألفاظ والمعاني الدينية القرآنية والحديثية ومن القصص الدينية وحياة الزهاد والصوفية، ومن ذلك قول الشهاب الحجازي في فتاة باكية تدعى جنة:

قد قلت لما أن بكت واغتدت كأزهار في روضة زاهية

جارية أعينها جارية وجنة أعينها جارية

وقد بقي الشعر الموروث ينشد في مجالس القوم مذاكرة واستشهاداً وكانت غلبة الروم العامية على الشعر وقربه من الشعب أحد أسباب اتصاله بالمجتمع ومسايرة حياة الناس واشتهر شعراء بقصيدة واحدة كلامية للطغرائي وتائية ابن الفارض وبردة البوصيري الميمية، ومن القصائد ما عرف بالبديعيات مدائح نبوية فتحت أبواباً من البديع كبديعية صفي الدين الحلي وبديعية ابن جابر الأندلسي.

الباب الثالث

الفصل الثاني

اتجاهات الشعر

إبان الحروب الصليبية

نظراً لتوسع رقعة الدولة الإسلامية وتعدد مكوناتها ومؤثراتها فقد تنوعت اتجاهات الشعر بين مقلِّد ومحافظ وخطابي وموضوعي ومحترف يعتمد التجانس والتقابل والتضاد.

- ١ -

الاتجاه التقليدي في الشعر

فهناك شعراء جعلوا الشعر حرفة للتكسب للوصول للمال والجاه ارتقوا بشعرهم من خلال النظر بهذا الشعر وتنقيحه وإضافة المعارف له من خلال التنقيح والتثقيف والتمحيص متكلِّفين قصائدهم، وقد التزم هؤلاء الشعراء مناهج الشعر القديمة في بناء القصيدة وتعدد الأغراض الشعرية حيث تستهل القصيدة بمقدمة مختلفة الموضوعات حيث تكون المقدمة إيحاء بموضوع القصيدة ورمزاً لها حيث يتشاكل الشعراء بين أهداف القصيدة ومضمون النسيب مع توظيف الاستهلال وحسن التخلص ويعدون الأغراض ويستطردون في الأوصاف لاسيما في الغزل والرحلة ومحاسن الممدوح مع اختتام القصائد بالدعاء للممدوح بثبات المجد والملك وطول العمر، كما وأن الشعراء المحترفين المقلدين حافظوا على الذوق السلوكي الأخلاقي والغزل المحتشم والجنوح للعذرية ومحاكاة الأقدمين في ذكر الأسماء والأماكن والوقوف على الأطلال واستحضار صبا نجد وعبير خزاماه والتمتع برياضه والإعراض عن المجون والغزل بالمذكر.

أما في ميادين الجهاد فقد أعرضوا عن المقدمات الغزلية حيث تفتتح القصيدة بالثناء على القائد الملك فابن قسيم الحموي يمدح عماد الدين زنكي:

بعزمك أيها الملك العظيم تذل لك الصعاب وتستقيم
الم تر أن كلب الروم لما تبين أنك الملك الرحيم
فجاء يطبق الفلوات خيلا كأن الجحفل الليل البهيم

أما من حيث الأوزان فقد مالوا للأوزان الطويلة ذات النفس الطويل والمضمون الوافر مع ما تحمله من وقار يتلاءم مع مقام الشاعر والسلطان وأطول الشعراء نفساً هو الأرجاني. ويغلب على هؤلاء الشعراء المحترفين المواقف الخطابية التي تستدعي التلوين الصوتي الذي يوظف اللغة بجمل مزدوجة متقاربة الطول والفقر، وما يطرأ عليها من جناس وترصيع وإتقان للصنعة وحروف تمثل الجهد والفخامة كما وتسود أشعارهم النظرة الموضوعية التي تصف الأشياء وصفاً خارجياً عن الذات إلا في المقدمات الغزلية. وقد وقف هؤلاء الشعراء المحترفون من التجانس موقفاً معتدلاً سواء أكان اشتقاقاً أم تكراراً أم جناساً، ومن ذلك ما قاله الأرجاني:

فلئن أقمت فلات حين إقامة ولئن رجعت فلات حين رجوع
وإذا سمعت به سمعت بماجد يأتيك واصفة بكل بديع
والمرء يمنع ثم يرتع آمنا ما نجعه إلا وراء نجيع

وقد ظهر في قصائد هذا العصر التقابل والاشتقاق كقول ابن الخياط الدمشقي:

يقيني يقيني حادثات النوائب وحزمي حزمي في ظهور النجائب

فيقيني تعني (الأولى من اليقين والثانية من الوقاية) وحزمي تقي الأولى من الإرادة والعزيمة والثانية من ربط الرحل، ولو رحنا نستقصر التجانس في قصائد شعراء هذا العصر لجمعنا كتاباً مستقلاً.

وكذلك اعتمد الشعراء في قصائدهم على التقابل والتضاد كقول الأرجاني:

النار قبس من وطيس جوانحي والماء يورد من غدير دموعي

قلبـــي وعينـــي يغنيـــان ركـــابكم عـــن رحلتـــي قـــيظ لكـــم وربيعـــي

وكقول العماد الأصفهاني مشيداً بالأمير مجد العرب العامري:

حويـــت حـــسام الـــدين بكـــل فـــضيلة ســـواك لهـــا طـــي وأنـــت لهـــا بنـــشر

فـــما ينتهـــي إلا إلى كفـــك النـــدى ولا يعـــتري إلا إلى بيتـــك الفخـــر

ومن أعلم الشعراء المحترفين (الأرجاني - وابن منير الطرابلسي - والقيسراني - والمهذب بن الزبير - وأبو الفوارس - حيص بيص - وعرقلة الكلبي - وأسامة بن منقذ - وسبط التعاويذي - وابن عنين).

- ٢ -

الاتجاه الطبعي
في الشعر

أولاً - سلوك الطبع الشعري:

هناك شعراء جاء الشعر لديهم طبعاً تبعثه دفقات شعورية صادقة بسبب استحواذ التجربة الشعرية عليه امتداداً لشعراء الجاهلية، ومن سلك سلوكهم في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي والعباسي، وقد رزق الله تعالى هؤلاء الشعراء المطبوعين الموهبة الشعرية مغمورة بنزعات نفسية ومستفاضة بتجارب فردية حيث يظهر الشكل عندهم متماثلاً مع الطبع، وهذا النوع من الشعر يكثر في دواوين شعراء هذا العصر، ومن أوائل شعر الطبع والظرف ابن جكينا، ومن شعره المطبوع في الدم:

ســـألوني مـــن أعظـــم النـــاس قـــدرا قلـــت مـــولاهم أنـــو شروان

لـــست أهـــوى صـــفاية غـــير أني مـــا رأيـــت الإعـــسار منـــذ رآني

وإذا أظهـــر التواضـــع فينـــا فهـــو مـــن آيـــة الرفيـــع الـــشان

ومتـــى لاحـــت النجـــوم عـــلى صـــفحة مـــاء فـــما النجـــوم دواني

ومن المحسنات البديعية النشر والطي يقول البغدادي:

حـــي جـــيران لنـــا رحلـــوا فعلـــوا بالقلـــب مـــا فعلـــوا
رحلـــوا عنـــا فكـــم أبـــروا بـــالنوى صـــباكم قتلـــوا
مـــن لـــصب ذاب مـــن كمـــد طرفـــه بالـــدمع منهمـــل
واقـــف بالـــدار يـــسألها ســـفهاً لـــو ينطـــق الطلـــل

ثانياً - من سمات الشعر المطبوع:

أ - الأوزان الخفيفة والمجزوءة كقول بهاء الدين زهير:

لله بـــستاني ومـــا قـــضيت فيـــه مـــن المـــآرب
لهفـــي عـــلى زمنـــي بـــه والعـــيش مخـــضر الجوانـــب

وقوله:

يـــا أعـــز النـــاس عنـــدي كيـــف خنـــت اليـــوم عهـــدي
ســـوف أشـــكو لـــك بعـــدي فعـــسى شـــكواي تجـــدي

ب - الذاتية: المتمثلة بياء المتكلم وأنا الشاعر، ومن ذلك قوله:

يـــا مالكـــاً رقـــي برقـــة خـــده ومعـــذبي دون الأنـــام بـــصده
ومكـــذبي وأنـــا الـــصدوق وهـــاجري وأنـــا المـــشوق ومـــانعي مـــن رفـــده

ج - السطحية في المضمون: الناتجة عن ظهور الشعر طبعاً دون تكلف حيث يلمس المؤثر الشعوري شغاف قلب الشاعر فيكتب الشاعر فتصدر عنه القصيدة، وهذا ما يجعل المضمون سطحياً أحياناً، ومن ذلك قول الشاب الظريف واصفاً ما بينه وبين محبوبته:

لـــه منـــي المحبـــة والـــوداد ولي منـــه القطيعـــة والبعـــاد
فقلبـــي لا يلائمـــه اصـــطبار وجفنـــي لا يفارقـــه الـــسهار

د - قصر النفس والميل للمقطوعات القصيرة التي لا تتجاوز عشرة أبيات؛ لأن شعرهم يمثل لحظة محدودة تخضع لتجربة مخصوصة فالشاعر تاج الملوك الأيوبي يروي ديواناً فيه ٢٧

قصيدة جلُّها أقل من عشرة أبيات، وكذلك كانت معظم قصائد الشاب الظريف مقطعات لا تتجاوز عشرة أبيات وعدد مقطعاته ٣٢٢ مقطعة.

ومن أعلام الشعر المطبوع تاج الملوك الأيوبي وبهاء الدين زهير والشاب الظريف وغيرهم.

- ٣ -

الاتجاه البديعي في الشعر

وهناك اتجاه بديعي جنح إلى التجدد في الشعر من خلال استخدام البديع الذي شكَّل تياراً مال إليه أصحاب الشعر الذاتي الذي يتطارحونه في منتدياتهم كالصاحب بن عباد في قصيدته:

قد ظل يجرح صدري ... من ليس يعدوه ذكري

وهذا الاتجاه البديعي اتخذ من الاشتقاق والتوليد وسيلة تمد النص بالحلل الموسيقية والإيقاع الصوتي المتناسق والديباجة اللفظية، وقد كان الحريري أول من فتق هذا اللون، ومن ذلك قوله:

بني استقم فالعود ينمي عروقه ... قديماً ويغشاه إذا ما التوى التوى

ولا تطع الحرص المذل وكن فتى ... إذا التهبت أحشاؤه بالطوى طوى

وعاص الهوى المروي فكم من محلق ... إلى النجم لما أن أطاع الهوى هوى

وأسعف ذوي القربى فيقبح أن يرى ... على من إلى الحر اللباب انطوى ضوى

ومن الاشتياق الذي يكر داخل البيت حلة موسيقية جميلة قول الحريري:

فلست أنسى تلاقينا بضيق منى ... وقوله لي بذاك الخيف لا تخب

وحلفه بالصفا أن الضمير صفا ... وأنه لي حين الوفاة وفي

وإن هذا الاشتياق والتماثل بالأسماء والصفات يزيد المعنى رونقاً، وإن كان يخلو من الشعر النابض، وقد استمد أصحاب البديع التلوين الموسيقي جديدهم من مقامات بديع الزمان

الهمذاني ومقامات الحريري وأسلوبه الشعري، ومن كون اللغة الفصحى حاضنة للتعليم حيث أقبل طلبة العلم على النهل منها فأصبحوا بها علماء مما جعلها تلين وتسخر في الشعر إضافة إلى اقتفاء الشعراء آثار من سبقوهم في العصر العباسي، مما جعل الإعجاب والتقليد يغلب على الإبداع.

وهذا ومن جانب آخر فإن التنظير السليم للشعر بمفهومه النقدي قد تراجع عن جادة الصواب بسبب تملق المتأدبين والشعراء الصاعدين لكبار شعراء السلطة يطرونهم لينالوا رضاهم.

وبذلك فقد تكلف بعض الشعراء ما جعل قصائدهم باهتة كقول ابن سناء الملك يرثي العفيف التلمساني:

لقد عفت عيش بعد العفيف ... على العيش بعد العفيف العفاء

فما غاب ما غاب إلا الجميل ... وما مات ما مات إلا الوفاء

وإلا الصديق وإلا الصدوق ... وإلا الصفي وإلا الصفاء

نعم هذه الأبيات تمثل قدرة لغوية بارعة، ولكنها تفتقر إلى الانسيابية الشعرية حيث أصبح هذا البديع عبئاً على الشعر لا عاملاً مساعداً في تطويره.

صحيح أن التجانس الصوتي يضفي على النص جمالية خاصة، ولكنه إذا تحول إلى هدف فقد براعته وجماليته وحسن الأخذ فيه يقول الشاعر ابن سناء الملك:

كحلاء ما كحلت جفوني بالكرى ... فلا تبصرها جفوني مرودا

كحل على كحل وما احتاجت له ... إلا لتسقيني السلاف مولدا

الباب الرابع

ملامح التجديد في الشعر إبان الحروب الصليبية

سلك شعراء عصر الحروب الصليبية مسلك الشعراء ممن سبقوهم حيناً، وحاولوا التجديد في معاني الشعر وأساليبه ومضامينه، وقد بدت ملامح التجديد عندهم في ناحيتي المعنى (المضمون) والمبنى(الشكل)

أ – فمن ناحية المعنى المضمون: اقتضت تراكمات الحياة بروز مضامين جديدة للشعر تمثلت في:

١ – استخدام الرمز المجسد: باستلهام الماضي بمسميات الأماكن والشخوص والأحداث، كما حصل عند الصوفيين في رمزهم للحب الإلهي واستخدام الماء رمزاً للممدوح.

٢ – استلهام أحداث الحروب الصليبية: في مضامين جديدة كتخريب المساجد والديار وهتك الأعراض ووصف آلات الحرب.

٣ – تصوير المتنزهات والقصور: في دمشق ووصف الأتراك وتأثيرهم وجدانياً ووصف الكنائس والأديرة وما تحويه من نساء وإفرنجيات جذابة.

٤ – استخدام الألغاز والأحاجي: في مضامين جديدة تمثل حالة اللهو والعبث.

ب – ومن ناحية المبنى والشكل: فقد اهتم الشعراء بالبناء اللغوي كمحور للتجديد الفني، وقد وظف الشعراء اللغة توظيفاً فنياً تمثل في:

١ – الحروف التي وظفت فنياً: كاستخدام الحروف المعجمية في قصيدة واحدة أو الحروف المهملة في السياق نفسه أو بجعل كل بيت أوله يستخدمه الشاعر في القافية حتى نهاية القصيدة.

٢ – الكلمات التي وظفها الشعراء: توظيفاً دلالياً وبلاغياً وجمالياً وموسيقياً باستخدام الاشتقاق والتكرار والجناس، وإيراد الكلمة التي ترد فيها (ض – ظ) أو مجيء المصدر وبعده اسم الفاعل في القافية.

أبى الدمع أن يشفي به هم هائم ولا ربي إلا الرشف من ظلم ظالم

يضم اصطباري من يعز ببعده منافي فوا لهفي على ضيم ضائم

وكذلك البحث عن الكلمات المهجورة بقصد إظهارها وإحيائها وكذلك التكرار والجناس والطباق.

٣ - التراكيب في عدد الكلمات أو جمل مختومة بحروف متماثلة الترصيع والتصريع والإكثار من الجمع والتقسيم، كقول القاضي الفاضل:

همي بهم زائد زادته أربعة ... ينمي ويهمي ويستشري ويزداد

وكيف يبلي على العينين أربعة ... عداً ودمع وإطراق وسهاد

هيهات يصدق منك الظن أربعة ... عهد ووعد وأقوال وميعاد

ج - ومن ناحية الموسيقا: اتضاح دلالة الموسيقا الداخلية ومعالمها بتوظيف الحروف الداخلية المدات - الحركات - التنوين - تكرار الحروف - الكلمات المتجانسة، وكذلك استخدام شعراء هذا العصر الأوزان المهملة في الدوائر العروضية واستخدام القافية فتكرارها ولزوم ما لا يلزم والرباعيات والمخمسات والسداسيات والمسمطات والدوبيت وشواهد ذلك كثيرة.

د - ومن ناحية رد العجز على الصدر: فقد أكثر منه الشعراء وأبدعوا فيه كما صنع ابن سيناء الملك:

ولتظهرن على عدوك ... إن حزب الله ظاهر

سر في ضمان الله والفتح ... المبين إليك سائر

وزر الخليل فقد تشوق ... أن تكون إليه زائر

وتستروا في زعمهم ... بأريجهم هل عندك سائر

هـ - استخدام الرموز: كمظهر تجديدي كما صنع الأرجاني

١ - باستخدام الماء للعطاء (الكريم = الماء).

يا ماءها أنا عن فنائك راحل ... فلقد أطلت ولم ينلك رشائي

٢ - وكاستخدام الصوفيين للحب العذري رمزاً للحب الإلهي.

الباب الخامس

السمات الفنية
لشعر الحروب الصليبية

تقديم:

نتيجة للتراكم المعرفي والشعري والبحث عن الجديد والتطور تألق الشعر فنياً في جانب من جوانبه أسهم في ذلك تنامي ألوان البديع والتعامل مع اللغة من خلال الوعي في توظيف مفرداتها وتراكيبها والاهتمام الحضاري بالزينة والتنميق، ومن ضمنه الشعر إضافة إلى الاقتضاء بسبل التعليم اللغوي التي حسنها الأدباء من خلال الإرث المعرفي الذي تركه أدبنا من خلال القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ودواوين الشعراء الأفذاذ الذين سبقوا هذا العصر.

وبروز معالم الجمال الشعري من خلال تنمية الجماليات الحياتية في القصور وأدوات الزينة وزخرفة المساجد وغيرها مما جعل الأسلوب الشعري يمدنا بفيض من التراكم المعرفي بحيث تلمح البناء الفني للقصائد وعمود الشعر معاً، وتستقرئ السمات الخارجية لهذا الشعر من خلال التجانس والتقابل والتناص والاقتباس والتضمين والرمز، ومدى تأثر الشعراء بالجديد في عصرهم كتأثر العماد الأصبهاني بمدرسة الحريري البديعية حيث ترى كل فئة من الشعراء تتأثر بالموقع الجغرافي الذي تعيش فيه، فشعراء المدن المتحضرون قد تلون شعرهم بالذوق الحضاري الذي عاشوه سواء أكان جداً أم عبثاً ؟.

ومن خلال ذلك عاشت اللغة بين المثالية والواقعية ورسمت أسلوب تعبيرها من خلال قضايا العصر الجديدة ونفسية الشعراء والموضوعات التي تحدثوا عنها، فإذا كانت غزلاً رقت لغتهم ولانت، وإذا كانت حماسة وجهاداً قويت وجزلت وإذا كانت مدحاً وهجاء تناسبت مع كل غرض كما عرف هذا العصر بانتشار الألفاظ المبتذلة وشيوع المصطلحات الدينية والعلمية وكلمات البذاءة والجنس والمزاح والمعابثه، ومما شاع في هذا العصر قول البهاء زهير:

أصبحت لا شغل ولا عطلة مذبذباً في وصفة فآسرة

وجملة الأمر وتفصيله أن صرت لا دنيا ولا آخرة

وقول الآخر أرى عنوان أشياء (ما يبعد أن تجري)

ومنها:

أيهـــا الزائـــرون أهـــلا وســـــهلاً ومرحبـــــا

ومنها:

راح يـــدعونا التـــصابي فـــــسمعنا وأطعنـــــا

ومنها:

قـــال مـــا ترجـــع عنـــي ؟ قلـــت لا قـــال: مـــا تطلـــب منـــي ؟ قلـــت شيء

وكثرت الألفاظ الشعبية السهلة والألفاظ العامية (ياما) (ست) و(مجان) وكذلك الألفـاظ الإسلامية بسبب تلاقيهم مع الأعداء الفرنجة (الدين – الكوثر – النفاثات – النار – المحـشر – استعرت – المشعر – الكفار).

الباب الخامس

الفصل الأول

بناء القصيدة الشعرية

لم تشذ القصيدة الشعرية في هذا العصر عن قصائد الشعراء العرب من حيث المعطى العام، ولكنها حاولت أن ترسم لنفسها خارطة طريق جديدة، فقد كانت القصيدة في الوقت المتزامن للحروب الصليبية حيث كان الشعراء يطيلون بمقدماتهم الشعرية والتي تصل إلى أربعين بيتاً من ذلك قصيدة للشاعر الأبيوري مدح فيها المقتدي بالله والتي مطلعها:

بعيشكما يا صاحبي دعانيا عشية شام الحي برقاً يمانيا

يتحدث فيها عن معشوقته ويشكو زمانه، وكذلك قصيدة الشاعر الأرجاني في مدح وزير من ولد نظام الملك والتي تبلغ خمساً وستين بيتاً والتي تصل مقدمتها تسعة وعشرين بيتاً ومطلعها:

سرى ولثام الصبح كاد يخط خيال تسدي القاع والحي قد شطوا

ومع ذلك فقد بقي الشعراء لا يطيلون في مقدماتهم أكثر من خمسة أبيات، وباستثناء شاعر الشام ابن الخياط الذي يطيل مقدماته الغزلية بقيت هذه المقدمات قصيرة، وقد بقي الشعراء في قصائدهم يتأثرون بأعمال ممدوحيهم من جهاد في سبيل الله وأعمال الخير وتقى وصلاح، ومثل ذلك ابن الدهان وأبو الفوارس أما ابن عرقلة الكلبي فقد كانت قصائده لا تتجاوز خمسة وعشرين بيتاً، أما قصائد الجهاد فقد كانت تباشر الموضوع وتنأى عن المقدمات كقول القيسراني:

الحق منبتهم والسيف مبتسم ومال أعدا مجير الدين مقتسم

قدت الجياد وحصنت البلاد وأمنت العباد فأنت الحل والحرم

ولكنها أي قصائد في السلم تستهل بالغزل الذي لا يتجاوز خمسة أبيات.

هذا من جهة القصيدة أما من حيث مضمونها فقد تلونت بتلون توجهات الشاعر وتأثره بموروثاته الاجتماعية بسبب وجود التنافس بين الأجناس العربية والفارسية والتركية، فمن الشعراء من استلهم القديم بأسمائه العربية(ليلى- سعدى - هند) تبعاً لأصوله العربية كالأبيوردي الأموي الأصل، ومنهم من استلهم الأسماء العربية لكونها مهبط الوحي عند شعراء الصوفية البوصيري وابن الفارض، وبعضهم استلهم الماضي والمكان تبعاً للعرب والأمة الإسلامية، ومنهم يستلهم واقع حياته كعرقلة الكلبي في وصف دمشق. وربما يختم الشاعر قصيدته بالغزل كما في قصيدة الشاعر الحموي في مدحه للرئيس ابن حسان.

الباب الخامس

الفصل الثاني

معالم الرمز في شعر الحروب الصليبية

استثمر شعراء عصر الحروب الصليبية قضية الرمز في قصائدهم ذلك أن الرمز طريقة في التعبير عن الأفكار والعواطف يستخدمها الشاعر اختصاراً لقصة أو قضية أو فكرة، وهو يهدف إلى معنى باطن نستشفه من خلال المعنى الظاهر، ويكون بالمحاكاة أو الإشارة أو الإيحاء أو التورية أو التلميح والألغاز والأحاجي، وقد تعددت أنواع الرمز:

١ – الرمز القرآني: المتمثل باقتباس لفظة تستدعي آية قرآنية أو سورة أو قصة قرآنية كقول ابن سناء الملك:

ثفايا لا تفليل منها ولا شفى وقامته لا أمت فيها ولا عوج

إشارة إلى قوله تعالى: (لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً)

٢ – الرمز بالتراث: الديني والثقافي والاجتماعي والفلك والنجوم، ومن ذلك قول فتيان الشاغوري مشيراً إلى النفحات الإيمانية عند النبي داود عليه السلام:

تطير إذا الحادي حداها كأنما بترتيل داود النبي حداها

٣ – الرمز بالتورية: كالرمز بإنسان العين للمحبوبة:

يا نظرة ما جلت في حسن طلعته حتى انقضت وأدمتني على وجلي

عاتبت إنسان عيني في تسرعه فقال لي خلق الإنسان من عجل

ومنه قول الشاعر:

قسماً بشمس جبينه وضحاها ونهار مبسمه إذا جلاها

أشار إلى قولى تعالى: (والشمس وضحاها)

٤ – الرمز بالإيحاء: ويكون بذكر كلمة في القصيدة توحي إلى معنى لاسم شخص أو لبرق أو مكان كالحجاز والعقيق والحمى والهوادج التي ترمز للترف والثراء عند المرأة، ومن ذلك اسم لبيد وإربد إشارة إلى قصة الشاعر لبيد ابن الأعصم مع أخيه إربد حيث بكى الأول الثاني بكاء حاراً.

بكيت على عصر الشباب الذي مضى بكاء لبيد ضم إربد القبر

٥ – الرمز بالمشابهة: ويقوم على المحاكاة كاستدعاء صورة لمحها الشاعر صورة أخرى تماثلها وتشابعها كتشبيه الشاعر الجيلاني لموكب نجم الدين الأيوبي لما وفد على ابنه صلاح الدين بمصر بقصة يوسف عليه السلام مع إخوته وأبيه.

في مشرق المجد نجم الدين مطلعه وكل أبنائه شهب فلا أفلوا

جاؤوا ليعقوب والأسباط إذ وردوا على العزيز وأرض الشام واشتملوا

لكن يوسف هذا جاء إخوته ولم يكن بينهم نزع ولا زلل

وملكوا أرض مصر في شماخته ومثلها لرجال مثلهم نزلوا

٦ – الرمز الأسطوري: ويشير إلى علاقة عجيبة بحادثة خارقة أو كالخرافات القديمة كقول عرقلة الكلبي في الشعرى والجوزاء وبرج الحمل:

شعري تعالى على الشعرى وجاز على الجوزا وأصبح محمولاً على الحمل

٧ – الرمز التاريخي: كتمثيل حادثة معاصرة للشاعر بحادثة تاريخية كتمثيل فتوحات صلاح الدين بفتوحات عمر بن الخطاب الفاروق رضي الله عنه.

يقول عرقلة الكلبي:

مثل فتوح الفاروق نائله شرقاً وغرباً في السهل والجبل

٨ – الرمز الصوفي: كاستخدام الشعر العذري رمزاً للحب الإلهي عند الصوفية كقول ابن عربي:

أدر ذكر من أهوى ولو بملام فإن أحاديث الحبيب مرامي

الحبيب هنا هو (الله) تعالى بزعمه.

الباب الخامس

الفصل الثالث

الصورة الشعرية

عند شعراء الحروب الصليبية

تعد الصورة الشعرية من أعظم الأدوات التي يستخدمها الشاعر في توصيل أفكاره ومعانيه للمتلقي، فإذا أحسن الشاعر استخدامه بلغ مراده في إقناع المتلقي بجمالية نصه. والشعراء على مر العصور يستخدمون الصورة الشعرية كل بحسب عصره وثقافته وذكائه وشعراء الحروب الصليبية كغيرهم من الشعراء استخدموا هذه الصورة الشعرية من خلال التشبيه والاستعارة والكناية وبذلوا معظم جهودهم في إتقانها وإبرازها في أبهى حلة وأحسن صورة، ومن الصور الرائعة ما ورد في قصيدة الشاعر أبي الفوارس حيص بيص:

لـــواني زمـــاني بـــالمرام وربـــما تقاضـــيته بالمرهفـــات القواضـــب

وأحسن أبو الفوارس استخدام التوظيف الزمني في الصورة كقوله: (خذوا من ذمامي) فيه استحضار للمستقبل واستعداداً له وقوله: (لواني زماني) فيه دلالة زمنية على ثبات الصراع مع الأحداث وقوله: (تقاضيته بالمرهفات) إشارة إلى مرارة الصراع والإنهاك الذي توحيه لفظه تقاضيته؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، واستخدم الشعراء في قصائدهم التصوير الحركي والتشخيص والتجسيم، ومن ذلك:

عـلى حيـنما ذوت الـصبا عـن صـبابة ديـار المطايـا عـن عـذاب المـشارب

فقد صور الصبابة بالإبل وصور الصبابة بالحياض، وهكذا تحولت الدواعي النفسية والحب إلى أجسام وأشخاص تتحرك كذلك في قول ابن الخياط:

يقينـــي يقينـــي حادثـــات النوائـــب وحزمـــي حزمـــي في ظهـــور النجائـــب

حيث جعل اليقين يتصدى به مصائب الحياة وشبه حزمه الصادق بحزام الراحلة، فاليقين والحزم معاني تحولت إلى ماديات وأجسام، وكثيراً ما كان الشعراء يشبهون المدن بالفتاة البكر التي لم يحجبها وليها كما فعل القيسراني في تصوير دمشق:

خطبت فلم يحجبك عنها وليها وخطبت العلى بالسيف ما دونه ستر

ومن ذلك تصوير تقي الدين عمر بن شاه للقدس بعد فتحها بالقادة الحسناء:

جاءتك أرض القدس تخطب ناكحا يا كفأها ما العذر من عذرائها

زقت إليك عروس خدر تجتلى ما بين أعبدها وبين إمائها

إيه صلاح الدين خذها غادة بكراً ملوك الأرض من وقبائها

كم خاطب لجمالها قد رده عن نيلها أن ليس من أكفائها

وغالباً ما يستخدمون المرأة طرفاً في صورهم الشعرية، ولو كانت الصور حربية ومصادر هذه الصور إما القرآن الكريم كقول أحدهم:

شربت شرب الهيم من فم ذاك الريم

فقوله شرب الهيم مأخوذة من قوله تعالى: (فشاربون شرب الهيم).

والحديث النبوي الشريف كقول أحدهم:

قد غم بدر التم منه فهو في الغموم

ذاك الكريم ابن الكريم م ابن الكريم

فقوله قد غم إشارة إلى الحديث الشريف: (إذا غم عليكم) و(وابن الكريم) إشارة إلى يوسف بن يعقوب، ويصور ابن النبيه المصري الخليفة محاطاً بالملائكة:

يعلوه من زمر الملائك فيلق بالرعب ينصر عزمه ويؤيد

كذلك يستوحي الشعراء صورهم من التراث الشعري الجاهلي والإسلامي والطبيعة الفاتنة من حدائق ورياض غناء

لله أيامي بقليوب والعيش مخضر الجلابيب

والطير في الأغصان فاتنة ما بين تلحين وتطريب

والشمس في المغرب مصفرة كعاشق من بعد محبوب

وقد تكون الصورة مستمدة من تصادير الفرنجيات أو العنصر التركي، وهذا باب واسع نكتفي منه بذلك.

الباب الخامس

الفصل الرابع

الموسيقا الشعرية لأدباء الحروب الصليبية

تتضمن الموسيقا الشعرية جانبين مهمين هما:

١ - الأوزان والقوافي وتعني الموسيقا الخارجية.

٢ - والنغمة المتواترة داخل كل بيت وتعني الموسيقا الداخلية.

وقد تأثرت موسيقا الشعر في هذا العصر بنوعيها بالقيم الحضارية الجمالية التي عاشها أبناء هذا العصر، وقد رحلت الموشحات الأندلسية إلى المشرق وروضها ابن سناء الملك، وكذلك كتب شعراء هذا العصر شعرهم على شكل رباعيات ومسمطات ومخمسات، وتجاوزوا ذلك إلى لون جديد قائم على الإيقاع بوزنين مختلفين وقافيتين مختلفتين كقول ابن الهبارية.

بالعين يصطاد الضب العين في تلك الدروب والاصطياد لباطل

وأنا خفيف الكيس في أسر الحوادث والخطوب حليفهم شاغل

وتعد المسمطات أقرب نسبياً للموشحات، ومما قاله الشروطي:

يا ريم كم تجنى ؟ لم قد صددت عنا صل عاشقاً معنى بالوصل ما تهنا

السلسبيل ريق والشهد والرحيق والورود والشقيق من وجنتيه يجنى

وقد يعمد الشعراء إلى جعل كل القصيدة المصراع حروف والقافية حرف آخر:

للحرب صار حسامه إلى مهج يلقي الشرار غراره غداة طحا

وقد يتناثر التصريع في قسم كبير من الأبيات بعد أن كان يضم البيت الأول للقصيدة، وربما عمد الشعراء إلى التلوين الموسيقي كما قول في الطغرائي:

يـا أيهـا المـولى الـذي اصـطنع الـورى شرقـــــــــاً وغربـــــــــا
والمـــستعان عـــلى الزمـــان إذا اعـــترى وأجـــــــــد حربـــــــــا
لقـــد ابتنيـــت الملـــك مرفـــوع الـــذرا بـــــــــك مـــــــــستتبا

وقد أكثر الشعراء من الأوزان القصيرة والمجزوءة والمشطورة والمنهوكة في المدح، ومن ذلك ما يقوله فتيان الشاغوري في مدح الأمير بدر الدين مودود:

مـــــولاي بـــــدر الـــــدين لا عانـــــــــدك الزمـــــــــان
ودمـــــــت مـــــا أقـــــام في مقامـــــــــه ثهـــــــــلان
يكلـــــــؤك القـــــرآن ممـــــا يحـــــــــدث القـــــــــرآن

أما الموسيقا الداخلية فقد أكثر منها الشعراء توفيراً للإيقاع المنبعث من داخل البيت الشعري نبراً وجرساً وموسيقا وترصيعاً وتجانساً، وهذا الأخير التجانس له دور كبير في تكوين الموسيقا الداخلية، وكذلك أسهم في تنويع هذه الموسيقا الداخلية التقابل والتضاد، ومن ذلك تكوين البيت الواحد من كلمات متماثلة في الوزن كقول العماد الأصبهاني:

أنـــتم ملـــوك زماننـــا وسراتـــه وكرامـــة وعظامـــة وفـــصاحة
عظـــماؤه كـــبراؤه فـــضلاؤه ورزانـــة ورصـــانة وصـــباحة

وكقول فتيان الشاغوري:

والنبـــت بـــين معمـــم ومنمـــنم والـــروض بـــين مفـــوف ومـــدبج
والمـــاء بـــين مكفـــر ومعنـــبر ومـــصندل ومسلـــسل ومسجـــسج
والطـــير بـــين مغـــرد ومعربـــد والـــورد بـــين مـــزور ومفـــرج

وقد تكون الموسيقا الداخلية بتكرار الحروف في الكلمة أو تكرار الكلمة في الجملة:

فأعجـــب لـــه رشـــأ أغـــن مهفهفـــا يـــسطو عـــلى أســـد أزل مهجهـــج

وقد يكون بتكرار حرف المد المتناسب مع نغمة الأنين والحزن، وقد يستخدم الشعراء التجانس في مثل:

يـضني فـؤادي ويـضني جفنـي مقلتـه بكـسرها فهـو يـضنيها ويـضنيني

وقد يستخدمون التقابل كقول ابن سناء الملك:

هـو الملـك المحيـي المميـت ببأسـه ونائلـه أيـان يرجـى ويرهـب

فقد قابل بين يحيي ويميت لما لهما من وقع في نفس الإنسان، وكذلك الازدواج حيث تتعادل الجمل فتماثل النغمات كقول الأبيوردي:

فالعـدل منتـشر والعـزم مجتمـع والعمـر مقتبـل والـرأي مكتهـل

وقد يكون تقارب مخارج الحروف أو تباعدها أو توسطها مكوناً من مكونات الموسيقا الداخلية مع العلم أن بعض التقارب قد يكون ثقيلاً، يقول فتيان الشاغوري:

إن نـشدت أنـشدت نـسيب نـصيب أو تغنيـت غنيـت عـن إسـحق

الباب الخامس

الفصل الخامس

المعارضات الشعرية

أعجب الشعراء في عصور ما بعد الجاهلية وصدر الإسلام والعصر العباسي بمن قبلهم من الشعراء لما وجدوه عندهم من بناء ساحق للقصائد من حيث الأفكار والموضوعات واللغة والأسلوب من خلال ما جاءت به قرائحهم النقية وطبعهم السليم حتى غدت قصائدهم نموذجاً فاخراً من حيث الشكل والمضمون.

وقد جاءت أحداث هذا العصر مشابهة في بعضها للعصور السابقة مما حدا بالشعراء إلى بناء قصائدهم على الوزن والبحر والقافية نفسها كما صنع الشاعر القيسراني بمعارضته لقصيدة أبي تمام في فتح عمورية.

قال أبو تمام:

السيف اصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وقال القيسراني:

هذي العزائم ما لا تدعي القضب وذي المكارم لا ما قالت الكتب

وكذلك عارض العماد والأصبهاني قصيدة أبي تمام قائلاً:

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب كم راحة جنيت من روحة التعب

وكذلك عارضها الجاحظ أبو القاسم في مدح نور الدين:

لما سمحت لأهل الشام بالخشب عرضت مصر بما فيها من النشب

ومن المعارضات الأخرى ما قاله ابن الدهان في ناصر الدين محمد بن شيركوه معارضاً لامية كعب بن زهير رضي الله عنه قال كعب:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يُفد مكبول

وقال ابن الدهان:

سـيف جفنيـك مغمـد مـسلول مـاض عـلى العـشاق وهـو كليـل

وقد تكون المعارضات من شعراء عاصروا بعضهم كما حدث بين ابن منير الطرابلسي والعماد الأصبهاني، قال الطرابلسي:

حـي الـديار عـلى عليـاء جـيرون مهـوى الهـوى ومغـاني الخـرد العـين

وقال العماد الأصبهاني:

أهـدى النـسيم لنـا ريّـا الريـاحين أم طيـب أخـلاق جـيراني بجـيرون

كما وشطر الشعراء قصائد غيرهم كتشطير شرف الدين الأنصاري للامية كعب بن زهير، وكلا القصيدتين في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم:

أوهمـت نـصحاً لـوأن النـصح مقبـول لا أنهينـك إني عنـك مـشغول

بـان التجـدد عنـي والتـصبر مـذ بانـت سـعاد فقلبـي اليـوم متبـول

ومن ذلك مسمطات للشاعر أسامة بن منقذ التي سمط فيها شعر قيس بن ذريخ ومجنون ليلى ومهيار، ومن تسميطه لشعر قيس:

كعهـدك بأنـات الحمـى فـوق كثبهـا

ودار الهـوى تحمـي العـدا سرح سربهـا

أقـول وسـمر الخـط حجـب لحجبهـا

سـقى طـل الـدار التـي أنـتم بهـا حنـاتم ويـل صـفي وربيـع

بـدارك مـا بي مـن بـلى الـشوق والهـوى

وبي مـا بهـا مـن وحـشة البـين والنـوى

الباب السادس

أبرز الشعراء في هذا العصر

تقديم:

رسم الشعراء في هذا العصر الواقع الاجتماعي والسياسي الذي عاشه الناس إبّان ذلك، ولكن اهتمام المماليك بالجيش وانصرافهم عن إكرام الشعراء جعل الكثير منهم يشكو الفقر ويتحول إلى مهن وحرف يقتات منها طعامه، فكان منهم الدهّان والجزّار والكحّال والحمامي، والنزر اليسير منهم من يعيش من الكتابة. وقد أسرف الشعراء في استخدام العامية والألفاظ الصريحة، وكتبوا في الفنون الشعبية، ومع ذلك فقد برز منهم شعراء أفذاذ منهم:

- ١ -

الشاب الظريف
شمس الدين
ابن عفيف الدين التلمساني
(٦٦١ - ٦٨٨ هـ - ١٢٦٣ - ١٢٨٩ م)

أ - حياته ونشأته:

ولد في القاهرة عام (٦١١هـ) (١٢٥٣م) ونشأ في دمشق ومات فيها شاباً. كان أبوه شاعراً أورثه مرض الشعر، وكان الشاب الظريف معروفاً بالعبث والمجون والغزل والاهتمام بالبديع ومناظر الطبيعة من خلال إقامته بمنزل يقع على سفح قاسيون. ارتقى قمة المجد الأدبي ولقي شعره رواجاً لسهولته وعذوبته، كتب في المدح والغزل والخمريات. كان غزله تقليداً للشعراء السابقين له، من ذلك قوله في منزله:

يا قطر عمّ دمشق واخصص منزلا ... في قاسيون وحله بنبات

وترنمي يا ورق فيه ويا صبا ... مرِّي عليه بأطيب النفحات

بيد أنه اشتهر بين معاصريه باسم (الشاب الظريف) ويظهر أن سبب هذه التسمية يرجع إلى ما عرف عنه من عبث و(لعب وعشرة وانخلاع ومجون).

كما كان أبوه شاعراً صوفياً معروفاً، وهو أحد الأعلام المشهورين وكان فاضلاً ويدّعي العرفان. وكان منتحلاً في أقواله وأحواله طريقة ابن عربي وسلوكه وهو من القائلين (بالوحدة المطلقة والاتحاد)، والمعروف عنه أنه قدم القاهرة من بلدة تلمسان في المغرب الأوسط.

تزوج في مصر ورزق فيها ابنه شمس الدين محمد فقضى فيها طفولته وصباه، وقد أشار إلى ذلك في مستهل إحدى مدائحه بقوله:

يا راقد الطرف ما للطرف إغفاء ... حدث بذاك فما في الحب إخفاء

كأن عصر الصبا من بعد فرقتكم ... عصر التصابي به للهو إبطاء

نار الهوى ليس يخشى منك قلب فتى ... يكون فيها لإبراهيم إرجاء

تلك هي حياته في مصر، بيد أنه فارقها وهو فتى بعد أن التحق أبوه بالخدم الديوانية، وترك طريقته في التصوف، واستقر آخر مرة في ديوان المكس بدمشق، واتخذ منزلاً لسكناه في جبل قاسيون، وقد أشار شمس الدين إلى ذلك بقوله:

يا قطر عم دمشق، واخصص منزلا ... في قاسيون وحله بنبات

وترنمي يا ورق فيه ويا صبا ... مري عليه بأطيب النفحات

ب - شخصيته:

في دمشق الفيحاء وفي مثل هذا الحنان الأبوي العظيم، وفي مثل هذا الجو من التصوف والدين نشأ الشاعر العبقري، فنال ثقافته الأولى على يد أبيه وفي كنفه، ولاسيما أنه كان من رجال التصوف وشعرائه الأعلام المشهورين، فلا غرابة إن رأينا ابنه شمس الدين ينظم الشعر منذ نعومة أظفاره، بيد أنه أنس في نفسه القدرة على ذلك، ولقي كل تشجيع سواء أكان ذلك من أسرته أم من مجتمعه ؟، وهذا مما عجَّل ببدء حياته الأدبية بوقت مبكر جداً، بعد أن تضافر لتنمية ذلك عاملان مهمان هما الوراثة والبيئة معاً .

بلغ الشاعر قمة مجده الأدبي وهو بعد في شرخ شبابه، فاتصل بكبار المتقدمين من رجال عصره، فمدحهم بشعره ويظهر أنه كان له اختصاص بابن عبد الظاهر، فقد كان له من مدحه أوفر نصيب. ولعل أبرزها القصيدة التي مدح بها الملك المنصور الثاني سيف الدين محمداً صاحب حماة.

ج - شعره:

لقي شعره رواجاً لدى الناس لسهولته وعذوبته، واستطاع على الرغم من صغر سنه أن يصبح مرموقاً بين الشعراء المعاصرين المشهورين.

ويصنف حياته في هذه المرحلة بقوله:

ما لي وللشعراء المنكري شرفي ... وفوق درِّهم ما تحت مُخْشَلبي

إن غبت عنهم تباهوا في قصائدهم ... بغيبة الشمس تبدو زينة الشهب

ويفلح خصوم الشاعر الكثيرون في النيل منه، ويحاولون الإقلال من شأنه أمام بعض ممدوحيه، فيتنكر بعضهم له، ويلحق به الذل والشقاء فيأسى على حظه الشقي، ويندب شبابه التعس وحاله السيئة، كما جاء في مستهل إحدى مدائحه الوزيرية:

أمل سعيت أجد في إتمامه ... فعلاً فحل الدهر عقد نظامه

وإلى متى يسعى الزمان لنقض ما ... أسعى بكل الجهد في إبرامه

وإذا الفتى قعدت قوائم حظه ... قام الردى من خلفه وأمامه

ونرى الشاعر على الرغم من ذلك كله لا يقنطه اليأس، ولا يكترث بما يحوكه حوله خصومه من الشعراء، وإنما نراه يخاطب ممدوحه القاضي محيي الدين بن النحاس قائلاً:

دعني وشعري ومن في جفنه مرضي ... فلم يزل مرض الأجفان تطبيبي

وخذ شواهد ما أمليت من فكر ... تثني عليك بملفوظ ومكتوب

فالدر يحسن مثقوباً لناظمه ... وحسن لفظي در غير مثقوب

وكلما قيل شعر أو يقال فما ... أراه إلا رذاذاً من آبيبي

ويتمادى حساده في غيهم، ويزوّرون عليه القول ويبالغون في إيذائه، حتى يبلغ به اليأس مبلغه من نفسه الطموح، فينادي قائلاً:

كيف خلاصي من الذي أجد ؟ ... قد أعوز الصبر عنه والجلد

ما قلت يوماً: قد انقضى عدد ... من الأعادي إلا أتى عدد

حاشـــا لمثـــل الأمـــير يـــسمع مـــا قـــالوه عنـــي ومـــا بـــه شـــهدوا

وهكذا نرى الشاعر يزمع أمره على اعتزال الناس في عقر داره فلا يراه منهم أحد بعد أن دب اليأس في نفسه، فعالجته منيته المفاجئة، ولما يسعد بأيام شبابه النضير، فقضى نحبه وهو في السابعة والعشرين سنة ٦٨٨ هـ.

د - آثاره الأدبية:

نلاحظ غزارة إنتاجه الشعري في وقت مبكر جداً من عمره، فقد خلف لنا ديوان شعر مشهور متداول بين أيدي الناس. وهو في غاية القوة والقلم الجاري، وأغلب الظن في اعتقادي أن جماعة من خلطائه المعجبين بشعره من هواة مذهب بديع التورية والانسجام هم الذين قاموا بجمعه وترتيبه بحسب الحروف الأبجدية.

يضاف إلى ذلك أن الشاعر كان ينشئ بعض ما يروق له كتابته نثراً، فقد أثر أنه أنشأ رسالة صغيرة في ورقتين، أسماها (مقامات العشاق).

هـ - أغراضه الشعرية:

طرق الشاب الظريف في شعره ثلاثة أغراض رئيسية هي: المدح والغزل والخمريات.

١ – مدائحه: يحتوي ديوانه على مدائح مختلفة من جملتها مدائح نبوية، استهلها بقوله:

أرض الأحبـة مـن سـفح ومـن كثـب سـقاك منهمـر الأنـواء مـن كثـب

ولا عـدت أهلـك النـائين مـن نفـس صـبا تحيـة عـاني القلـب مكتئـب

فهو يتحدث عن العرب وشأنه في ذلك شأنه في معظم مطالع النسيب، فقد أعلن إيمانه بالعروبة في عصر كثر فيه التحدث عن الأتراك، ولاسيما أن الطبقة الحاكمة من غير العرب، فلم يخف ذلك، وإنما أعلنها صرخة عربية بقوله:

قـوم هـم العـرب المحمـي جـارهم فـلا رعـى الله إلا أوجـه العـرب

أعـز عنـدي مـن سـمعي ومـن بـصري ومـن فـؤادي ومـن أهـلي ومـن نـسبي

لهـم عـليَّ حقـوق مـذ عـرفتهم كـأنني بـين أم مـنهم وأب

إن كـان أحـسن مـا في الـشعر أكذبـه فحـسن شـعري فـيهم غـير ذي كـذب
يـا سـاكني طيبـة الفيحـاء هـل زمـن يـدني المحـب لنيـل الحـب والأرب
أرض مـع الله عـين الـشمس تحرسـها فـإن تغـب حرسـتها أعـين الـشهب

أما المدح الأخرى فقد صورت لنا حياة الشاعر خير تصوير، إذ إنها عبرت بشكل خاص عن ذاته، وكثيراً ما تحدث فيها عن أعدائه وحساده ومناوئيه.

لقد تأكد لنا أنه لم يمدح من سلاطين المماليك أحداً، وإنما اكتفى بمدح الملك المنصور الثاني محمد صاحب حماة، وهو الوحيد الذي مدحه من ملوك عصره وسلاطينه وجاء في مدحته قوله:

ملـك إذا حـدثت عـن إحـسانه حـدثت عـن مبـدي النـدى ومعيـده
سـاد الملـوك بفـضله وبنفـسه والغـر مـن آبائـه وجـدوده
وإذا ترنمـت الـرواة بمدحـه وثنائـه اهتـزت معـاطف جـوده
هـاجرت نحـو محمـد لمـا رأيـت العـالم العلـوي في تأييـده
وثنيـت أعنـاق القـوافي نحـوه ونظمـت در مـدائحي في جـوده

تتسم مدحه بالإغراق والمبالغة في نعت الممدوح، وكانت تربطه بممدوحيه صداقات متينة الأواصر، لعل سببها يرجع إلى أن أباه كان صاحب نفوذ ومنصب كبير في دمشق، فلا غرابة إن رأيناه إذاً لا يفكر بما يفكر به غيره من الشعراء، فهو بالطبع في كنف أبيه ورعايته، وقد كفاه مؤونة السعي وراء الرزق بجد واهتمام، كما يتضح لنا ذلك في مدح حسام الدين الرازي:

حبـذا الـشام إن سـمت بحـسام الـدين منهـا البطـاح والكثـب
مـن معـشر قـد سـموا وقـد كرمـوا فعـلاً وطـابوا أصـلاً إذا انتـسبوا
يـا ضـاحكاً والحيـاة عابـسة وثابتـاً والجبـال تـضطرب
الـدهر روح وأنـت فيـه قـضيب البـان غـصناً وغـيرك الحطـب
خـذ مـدحاً لم أرد بهـا منحـا حـسبي بـأني إليـك انتـسب

ونلاحظ إغراقه ومبالغته عن الحد المعقول في مدحه، كما يتضح لنا ذلك في القصيدة التي مدح بها الأمير ناصر الدين الجراني، وجاء فيها قوله:

أعيذ قلباً ثوى حب الأمير به ... من أن يرى بسوى حبيه ملتهبا
لا تنظر العين منه السيف منصلتا ... إن فارق الغمد حل الهام فاحتجبا
لو أقسم المدلج الساري على قمر ... باسم الأمير دعاه قط ما غربا
ولو وضعت اسمه يوماً على ذكر ... طاحت رؤوس الأعادي وهو ما ضربا
ولو تلوت على ميت مناقبه ... رد الإله له الروح التي سلبا
ولو مزجت بماء المزن ما اكتسبت ... من لطف شيمته ما غص من شربا
لما انتسبت إلى أبوابه كبرت ... بي همة صغرت في عيني الرتبا
لو رمت أسحب أذيالي على فلك ... لمدَّ لي سبب من جوده سببا

هكذا نلاحظ أن المبالغة في نعت الأمير الحراني وبيان بأسه وكرمه تبلغ حداً يخرج بالشاعر عن المعقول، ويدنيه من المستحيل الذي لا يمكن تحقيقه، بيد أن الشاعر عرف كيف يخرج النعوت بأسلوب الامتناع والوجوب.

اعترف الشاعر بهذه المبالغة في مدحه وقارن نفسه بممدوحه فلم يجد بين الناس من يحوي المفاخر مثله، ولا بين الشعراء من يقول مثله:

ولي مدح بالغت فيها بلاغة ... وأثنيت فيها بالذي أنا عالم

لقد كان يغرق ويبالغ إذاً في نعت الممدوح حتى كأن القول يجنح به إلى الشطط الذي لا يستسيغه عقل سليم ومنطق قويم:

أحبابنا، ما الجزع ؟ ما المنحنى ؟ ... ما رامة، ما الشعب لولاكم ؟
ما قام هذا الكون إلا بكم ... ولا الوجود المحض إلاكم

٢ - غزلياته:

لم يكن الشاعر في غزله مقلداً غيره من الشعراء وإنما صور من خلالها حياته الخاصة خير تصوير، إذ استطاع أن يبرز دقائقها فتحدث عن مجونه وعبثه، وقد أشار بعض معاصريه إلى

جماعة من أصحابه، كان يجتمع بهم ويقضي معهم أيامه ولياليه، وكان إمامهم في مجونهم وعبثهم. وغزل الشاعر يختلف كثيراً عن نسيبه التقليدي، إذ استطاع ببراعة ومهارة أن يتخذ من نسيب مدحه صورة عن حياته الخاصة، وقد ينسيه الغزل ذكر النسيب، فيغدو غزلاً حقيقياً يمثل لدى الشاعر تجربة عاطفية خاصة كما في قوله:

صدقتم قده يحكي القضيبا ... ألم تره حوى زهراً وطيبا ؟
ملأت يديه من ياقوت دمعي ... وكنت محقت لؤلؤه نجيبا
ذهلت عن النسيب به فباتت ... محاسنه تعلمني النسيبا

وهكذا نجد النسيب التقليدي يتضاءل حتى يكاد يكون كله غزلاً حقيقياً بعيداً عن كل تعقيد كما في مطلع المدحة التي جاء فيها بقوله:

يا راقد الطرف، ما للطرف إغفاء ... حدث بذاك، فما في الحب إخفاء
إن الليالي والأيام من غزلي ... في الحسن والحب أبناء وأنباء

وجاء في مطلع مدحة أخرى قوله:

لي من هواك بعيده وقريبه ... ولك الجمال بديعه وغريبه
إن لم تكن عيني فإنك نورها ... أو لم تكن قلبي فأنت حبيبه
هل حرمة أو رحمة لمتيم ؟ ... قد قل فيك نصيره ونصيبه
لم يبق لي سر أقول تذيعه ... عني ولا قلب أقول تذيبه

أكثر الشاعر من ذكر العرب في مطالع النسيب والغزل، على غير العادة المتبعة في هذا العصر، كما ورد في بعض الأحيان ذكر ظبي من الترك اقتداء بأغلب الشعراء في هذا المعنى الذي اتخذوه تكأة لهم مستجدة في تشبيهاتهم.

هكذا اشتهر الشاب الظريف بغزله الرقيق، وكانت تجربته تجربة حقيقية في حياته، وقد حاول أن تكون بعيدة عن التكلف والتصنيع، ولكنها طبعت بأسلوب التصوف، إذ كان يكثر من الاصطلاحات المعروفة، وهذا بالطبع ثمرة ثقافته الدينية على يد أبيه أحد كبار المتصوفة من أصحاب الطرق المشهورين، وقد توضحت لنا هذه الميزة في قصيدته التي جاء فيها قوله:

حـــديث غرامـــي في هـــواك قـــديم وفـــرط عـــذابي في هـــواك نعـــيم
بـــما شـــئت غـــير ســـخطك أنـــه وصـــدق ولائـــي في هـــواك ألـــيم
تمثلـــك الأشـــواق وهمـــاً لخـــاطري فيـــدركني بـــالخوف منـــك وجـــوم
وتقنـــع منـــك الـــروح لمـــح تـــوهم فتحيـــي بهـــا الأعـــضاء، وهـــي رمـــيم
هنيئـاً لطـرف فيـك لا يعـرف الكـرى وتبـــاً لقلـــب فيـــك لـــيس يهـــيم
ومـــا الكـــون إلا صـــورة أنـــت روحهـــا وجـــسم بغـــير الـــروح كيـــف يقـــوم ؟
تـــوهم صـــحبي أن بي مـــس جنـــة وأنكـــر حـــالي صـــاحب وحمـــيم

وهنا نلاحظ بوضوح كثرة الاصطلاحات الصوفية في إطار جميل من التوريات المستساغة بشكل يسترعي الانتباه حقاً، ونلمس ونحن نتلو هذه الأبيات الرقة المتناهية والانسجام الذي عرفناه من قبل في شعر الشرف الأنصاري يضاف إلى ما تقدم أن الشاعر استطاع بمهارة أن يوري في الأبيات الأخيرة، وقد كان الشاعر ببراعته يستخدم الأبحر القصيرة أو المجزوءة ذات الجرس الموسيقي زيادة في الرقة، كما في قوله:

أيهـــــا الـــــصابر عنـــــي ليتنـــــي أعطيـــــت صـــــبرك
أيهـــــا الجاهـــــل قـــــدري أنـــــا لا أجهـــــل قـــــدرك

ونلحظ في هذه المقطوعة الشعرية بعض السمات الصوفية، ونكاد نشعر بوزنها الراقص الذي تستسيغه النفس، فتقبله دون إجهاد فكري أو تكلف عاطفي، وإنما نراه، وقد بدت لنا نفسيته وهي ترتعش في حمى الأهواء، حتى أننا نراه يتضاءل أمام محبوبه ليصبح عبده الأمين:

أنـــــتم لعبـــــدكم أحبـــــة ولـــــه علـــــيكم حـــــق صـــــحبه
يـــــا نـــــائمين عـــــن المـــــسهد فـــــارغين مـــــن المحبـــــة
والله مـــــا عنـــــدي مـــــن الـــــسـ ـــــلوان عـــــنكم وزن حبـــــة

وهكذا نجد أن الشاعر يظهر بمظهر العاشق المستكين والمحب الذي يستسلم بكليته لنزوات المحبوب فهو الآمر الناهي وهو العبد المطيع.

فقد اجتمع لديه الفراغ والشباب والجدة، ولا عجب إن رأيناه ينغمس في ملذاته ومفاسده، ويقضي أيام شبابه ولياليه في منتزهات دمشق القريبة منها، أو البعيدة عنها على جدول صغير في قرية القصير:

يا حبذا نهر القصير ومغربا ... ونسيم هاتيك المعالم والربا
وسقى زماناً، مر بي في ظلها ... ما كان أعذبه لدي وأطيبا

و - مذهبه الفني:

ثقف الشاعر الشرف الأنصاري في التورية والانسجام واستطاع أن ينفخ الحياة في مذهبه بعد أن مر على وفاة رائدها الأول أكثر من عشرين سنة.

وقد رأينا فيما أوردنا من شعر رقته الأسلوبية وعذوبيته المستساغة وهي دلالة على إيمان الشاعر بالانسجام، وهو أول مبادئ المذهب الأنصاري المذكور آنفاً.

أما التورية فقد كثرت في شعره، واستطاع بمهارته الفائقة أن يجعلها مستساغة في النفس بحيث لا تتعارض مع انسجاماته الشعرية. وأكثر شعره، لا بل كله رشيق الألفاظ سهل على الحفاظ، لا يخلو من الألفاظ العامية، وما تخلو به المذاهب الكلامية، فلهذا علق بكل خاطر، وولع به كل ذاكر.

يؤكد هذا القول ما تقدم معناه من بيان حول مذهبه، ويوضح بالتالي أهميته كشاعر رائد، وكان على الرغم من صغر سنه، يجمع حوله حلقة من الشعراء من أصحاب هذا المذهب يقتدون به في نهجهم الشعري ومذهبهم الفني، فمن ذلك قوله:

قلت، وقد أقبل في حلة ... سوداء: من حل بأحشائي
عرفت كل الناس يا سيدي ... أنك أصبحت بسودائي

ومنها قوله في حبيب وافاه بثوب أحمر:

وافى بأحمر كالشقيق وقد غدا ... يهتز فيه بقامة هيفاء
فعجبت منه وقد غدا في حلة ... حمراء إذ ما زال في سوداء

- ٢ -

صفي الدين الحلي

(٦٧٧ هـ - ٧٥٢ هـ)

أ - حياته ونشأته:

صفي الدين عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم السنبسي الطائي، ولد في الحلة سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) وعمل في حقل التجارة، وارتحل إلى الشام ومصر وماردين والقاهرة، وقد انقطع إلى أصحاب ماردين مدة يمدحهم، وينال عطاياهم.

خلف الشاعر آثاراً مختلفة وهي (ديوان شعر) مطبوع، والعاطل الحالي والمرخص الغالي، مطبوع وهو رسالة في فن الزجل والمواليات، ومن آثاره المخطوطة التي لم تطبع بعد (الأغلاطي) جمع فيه الأغلاط اللغوية، ودرر النحور وهي قصائده المعروفة بالأرتقيات، وصفوة الشعراء وخلاصة البلغاء، والخدمة الجليلية، رسالة في وصف الصيد بالبندق، توفي في ذي الحجة سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩) م. وهو من أشهر شعراء القرن الثامن. يضارع في شهرته ابن نباتة.

ب - شخصيته:

وقد اشتغل بالأدب منذ شبابه الأول. وكان يعمل بالتجارة فيرحل لهذا كثيراً بين مصر والشام وماردين، ثم يعود إلى بلاده، وكان يمدح في أثناء رحلته من يلتقي بهم من الملوك والرعيان واتصل بحكام ماردين، ومدحهم بغرر المدائح. ومدح من سلاطين المماليك الناصر محمد بن قلاوون، ومن أمراء الشام الملك المؤيد إسماعيل أبا الفداء صاحب حماة. ومن الأعيان في مصر علاء الدين بن الأثير كاتب سر السلطان.

واجتمع في مصر عند حضوره للقاهرة سنة بضع وعشرين وسبعمئة بجماعة من علمائها كابن سيد الناس، وقد تردد على مصر مرتين.

ج - شعره:

وكان الصفي الحلي مبدعاً في نظم الشعر، وإن اعتمد فيه كثيراً على حلى البديع، وجمع ديوانه بنفسه في ثلاث مجلدات، وكان يتهم بالرفض، وفي شعره ما يشعر به على قول ابن حجر ومدح النبي عليه الصلاة والسلام، مدائح منها القصيدة المعروفة بالبديعية.

وفي هجرته إلى ماردين أصبح شاعراً للدولة الأرتقية، ثم انتقل إلى مصر والتقى بالسلطان الناصر محمد بن قلوون ومدحه بقصيدته التي مطلعها:

أسلبن من فوق النهود ذوائبا ... فتركن حبّات القلوب ذوائبا

وهي معارضة لقصيدة المتنبي التي مطلعها:

بأبي الشموس الجانحات غورابا ... اللابسات من الحرير جلابيبا

ومن نسيبها:

وجلون من صبح الوجوه أشعة ... غادرن فود الليل منها شآبيبا

بيض دعاهن الغبي كواعبا ... ولو استبان الرشد قال كواكبا

سفهن رأي المانوية عندما ... أسبلن من ظلم الشعور غياهبا

ويمدحه فيقول:

الناصر السلطان قد خضعت له ... كل الملوك مشارقاً ومغاربا

وعلى الرغم من ذلك النمط التقليدي في الصياغة إلا أنه لم يخلص من طابع العصر في مراعاة الصنعة. وهو صناع ماهر في اختيار ألفاظه. وصياغة عباراته حتى تحلو في الآذان وقعاً وتخف على اللسان فيتلقفها الناس، ومن هنا كتب لشعره السيرورة في حياته. وإن كان من عوامل انتشاره كذلك رحلته بين البلاد شرقاً وغرباً.

وهو يرى أن ما ينفقه من حياته في ساعات المسرة أجدى. وكذلك ما يصنعه فيها من شعر أبقى. يعبر عن ذلك بأبياته:

إن من لا يطيق ينقص رزقي ... لم يكن قادراً على نقص عمري

رب يوم قضيت فيه سرورا ... فهو باللهو خير من ألف شهر

وأكثر شعره في تلك الأغراض، وفي الوصف ولا يعدم في وصفه الخيال المحلق، كقوله يصف إشراقة الصباح:

لله ليلة أنس قلت إذ ذكرت ... يا ليلة الوصل من ذاك اللمى عودي
والشرق قد حملت أحشاؤه لها ... للشمس فيها جنين غير مولود
وثعلب الصبح وافى فاغراً فمه ... إذ قابلته الثريا شبه عنقود

لكنه مع ذلك غير محكم الصورة. إحكام بعض معاصريه، وأكثر خياله الشعري عادي مستمد من الصور الشعرية المعروفة. واهتمامه بلفظه أكثر من اهتمامه بصوره.

من شعره قوله واصفاً الربيع:

خلع الربيع على غصون البان ... حُللاً فواضلها على الكثبان
وتنّوعت بسط الرياض فزهرها ... متباين الأشكال والألوان
وكأنّما الأغصانُ سوق رواقص ... قد قيِّدت بسلاسل الرّيحان

د - نماذج من شعره:

قال الشاعر صفي الدين الحلي:

لئن ثلمت حدي صروف النوائب ... فقد أخلصت سبكي بنار التجارب
وفي الأدب الباقي الذي قد وهبنني ... عزاء من الأموال عن كل ذاهب
فكم غاية أدركتها غير جاهد ... وكم رتبة قد نلتها غير طالب
وما كل وانٍ في الطلاب بمخطئ ... ولا كل ماض في الأمور بصائب
سمت بي إلى العلياء نفس أبية ... ترى أقبح الأشياء أخذ المواهب
بعزم يريني ما أمام مطالبي ... وحزم يريني ما وراء العواقب
وما عابني جاري سوى أن حاجتي ... أكلفها من دونه للأجانب
وأن نوالي في الملمات واصل ... أباعد أهل الحي قبل الأقارب

ولـيس حـسود ينـشر الفـضل عائبـا ... ولكنـــه مغـــرىً بعـــدِّ المناقـــب
ومـــا الجـــود إلا حيلـــة مـــستجادة ... إذا ظهـــرت أخفـــت وجـــوه المعايـــب
لقـــد هـــذبتني يقظـــة الـــرأي والنهـــى ... إذا هـــذبت غـــيري ضروب التجـــارب
وأكـــسبني قـــومي وأعيـــان معـــشري ... حفـــاظ المعـــالي وابتـــذال الرغائـــب
سراة يقـــر الحاســـدون بفـــضلهم ... كـــرام الـــسجايا والعـــلا والمناصـــب
إذا جلـــسوا كـــانوا صـــدور مجـــالس ... وإن ركبـــوا كـــانوا صـــدور مواكـــب
أســـود تغانـــت بالقنـــا عـــن عرينهـــا ... وبـــالبيض عـــن أنيابهـــا والمخالـــب
يجـــودون للراجـــي بكـــل نفيـــسة ... لـــديهم ســـوى أعراضـــهم والمناقـــب
إذا نزلـــوا بطـــن الوهـــاد لغـــامض ... مـــن القـــصد أذكـــوا نـــارهم بالمناكـــب
وإن ركـــزوا غـــب الطعـــان رمـــاحهم ... رأيـــت رؤوس الأســـد فـــوق الثعالـــب
فأصـــبحت أفنـــي مـــا ملكـــت لأقتنـــي ... بـــه الـــشكر كـــسباً وهـــو أسـنى المكاسـب
ومـــن يـــك مـــثلي كامـــل الـــنفس يغتـــدي ... قلـــيلاً معاديـــه كثـــير المـــصاحب

- ٣ -

التلعفري
شهاب الدين أبو المكارم
محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة الشيباني

(٥٩٣ - ٦٧٥ هـ - ١١٩٧ - ١٢٧٧ م)

أ - حياته ونشأته:

ولد الشاعر المقامر، شهاب الدين أبو المكارم محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة الشيباني بالموصل سنة ٥٩٣ هـ، ولقب بالتلعفري نسبة إلى تـل أعفـر، وهـو موضـع جميـل، يقـع بـين سنجار والموصل.

يقال: إنه من أسرة شيعية أصولها من شيبان بن ثعلبة، ثقف علومه الأولى في الموصل ونال قسطه الوافر من الثقافة والأدب، بيد أنه ترك الموصل في مطلع شبابه، وتوجه إلى بلاد الشام وأخذ يمدح فيها الملوك والأعيان وهو بعد لم يتجاوز العشرين من عمره.

ب - شخصيته:

كان أديباً حافظاً للأشعار وأيام العرب وأخبارها. لم يذكر الذين ترجموا له شيئاً عن علاقته بصاحب حلب الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي. ولم يقم في دمشق إلا بعد وفاة الملك العزيز، فقد انتقل إليها من حلب ومدح صاحبها الملك الأشرف موسى الذي تولّى حكمها في المدة الواقعة بين سنتي ٦٢٦ - ٦٣٥ هـ، ونال منه العطاء الجزل بيد أنه انغمس في الملذات والشهوات، وعاشر أرباب الخلاعة والمجون، وعكف على شرب الخمر ولعب الميسر، وقد وصف حاله قائلاً:

أقلعت إلا عن العقار وتبت إلا من القمار

فالكأس والقمر ليس يخلو منهما يميني ولا يساري

وكان كلما أعطاه ممدوحه الملك الأشرف بعض المال أنفقه على شرب الخمر أو قامر به، وقد أدى ذلك إلى غضب مولاه عليه فطرده من دمشق، فالتجأ إلى حلب والتحق بخدمة صاحبها الملك الناصر يوسف الذي خلف أباه الملك العزيز محمد، فأكرمه كل الإكرام وقرر له رسوماً وقربه من مجالسه الخاصة، وحاول أن يصلح سيرته إلا أنه لم يقلع عن عادته في المقامرة، فكان يبدد كل ما يحصل عليه من المال حتى بات يعيش في فقر مدقع.

وهكذا ساءت حال الشاعر كثيراً، وبلغ الأمر أنه قامر بثيابه ونعليه. واسودّت الحياة في عين الشاعر بعد أن غضب عليه الملك الناصر، ويظهر أنه قطع عنه الرسوم التي قررها له، فضاقت عليه الأرض بيد أنه لم يرجع إلى دمشق إلا بعد وفاة ملكها الأشرف سنة ٦٣٥ هـ.

وهكذا نرى الشاعر طريداً بين دمشق وحلب، بعد أن فقد كل أمل له في العودة إلى منزلته الأولى عند ملوكها، فأخذ يستجدي بشعره وهو في دمشق، وكان ينفق ما يحصل عليه في الميسر والخمر، حتى فقد ما يملكه كله، وبات يقمُّ في أتون حمام، وعلى الرغم من ذلك فكان ينشد:

رضيت بما قسم الله لي وفوضت أمري إلى خالقي

لقـــد أحـــسن الله فـــيما مـــضى كـــذلك يحـــسن فـــيما بقـــي

ويمضي شباب الشاعر ولما يقض وطره، ووخط المشيب عارضيه، فلقد أشعل شقاء الأيام رأسه شيباً، وخبر الناس وعرف غشهم وعرك الحياة وخداعها فأنشد قوله:

سلام على عصر الشباب الذي مضى وروحي بضافي ظله ما تملتِ

عرفت بها هذا الزمان وأهله فرحت بشيبي غافراً كل زلة

بلوت الورى خُبراً فلم أر فيهم خليلاً سديداً عنده سد خلتي

انتقل الشاعر إلى حماة ومدح ملكها المنصور الثاني سيف الدين محمداً، ويستدل من النسيب الذي استهل به مدحته المذكورة على قلق الشاعر واضطراب حياته الخاصة كما في قوله:

نهاري كله قلق وفكر وليلي كله أرق وذكر

يقسمني الهوى كمداً وحزناً فأمرهما لحتفي مستمر

قضى الشاعر المرحلة الأخيرة من حياته ينادم ملك حماة المنصور الثاني سيف الدين محمد ويسامره، ولقي فيها الحفاوة والإكرام، وحسن حاله بعد أن أغدق عليه العطاء، وكأنه شعر أن المنية تقترب منه فقال قبيل وفاته:

أحماة إن عهود أهلك أحكمت أسبابها عندي فليست تنقض

لكنما أزف الرحيل وها أنا والعيس تُحدى منشدٌ ومعرضٌ

وحانت ساعته فوافته منيته في شوال ٦٧٥ هـ، وبذلك طويت هذه الصفحة من حياة الشاعر، بيد أنها سجلت لنا في سطورها قصة التلعفري شاعر الخمر والميسر.

ج - آثاره الأدبية:

لا نعرف من آثاره الأدبية غير ديوانه وشعره لطيف في غاية الحسن، وشعره قليل مع أن حياته تبين أنه كثير، وذلك لسببين:

الأول: هو نمط حياته الخاص وإدمانه الشديد على القمار والعقار جعلاه لا يهتم إطلاقاً بجمع شعره والعناية به في المراحل الأولى من حياته.

ثانيهما: فهو أن بعض إخوان الشاعر جمع ديوانه كما يظهر في المرحلة الأخيرة من حياته خلال وجوده في حماة، ولم يبق من مدحه الكثير غير مطالع النسيب.

د - أغراض شعره ومذهبه الفني:

لم يطرق في شعره غير المدح، والوصف والطبيعة والنسيب والخمريات.

١ - المديح:

مدح الشاعر شهاب الدين العزازي بعد أن بعث له موشحة يمدحه فيها، والغريب أننا لا نجد بين آثاره غير الموشحة والمدحة المشار إليها آنفاً، أما مطلع الموشحة التي بعث بها إليه شهاب الدين العزازي، فهو قوله:

بات طرفي يشتكي الأرقا ... وتوالت أدمعي لا ترتقي

ويقول فيها:

أيها الموفي على عهد الزمن ... كرماً محضاً وفضلاً ومنن

حاكَه الخادم من غير ثمن ... جالب الوشي لصنعاء اليمن

فاستمعها زادك الله بها ... مدحة لم يحكها ابن بقي

فأجابه الشاعر التلعفري بموشحة، مطلعها قوله:

ليس يروي ما بقلبي من ظما ... غير برق لائح من إِضَمِ

ويقول فيها:

العزازي الشهاب الثاقب ... شكره فرض علينا واجب

فهو إذ نبلوه نعم الصاحب ... سهمه في كل فن صائب

جائل في حلبة الفضل كما ... جال في يوم الوغى شهم كمي

شاعر أبدع في أشعاره ... ومتى أنكرت قولي باره

لو جرى مهيار في مضماره ... والخوارزمي في آثاره

قلت: عودا وارجعا من أنتما ... ذا امرؤ القيس إليه ينتمي

والمدحة الثانية بعث بها إلى صديقه بمصر عز الدين بن أمسينا، جواباً عن قصيدة وردت منه يسأل فيها عن حاله، ويذكره بقصة حدثت له هناك خلال وجوده بمصر، ومما قاله:

بأبي أنت يا خليلي وأمي ... أنت قوسي إذا رميت وسهمي
أنت والله سيدي لي حسامي ... فيه للنائبات أعظم حسم
كيف أخشى ذلي ولي منك عز ... ما ترقت إليه همة نجم
نظمت فيك للمعالي عقودا ... معجزات جميع نثري ونظمي
الليالي عندي ظلام وظلم ... بعد ذا اللمى وذاك الظلم

أما المدائح الأخرى فلم يبق منها غير ذكر اسم الممدوح في بيت التخلص. ولم يصل من الأسماء غير اسم الملك العزيز، ورد اسمه في مستهل نسيبين، واسم الملك الناصر الثاني محمد واسم غياث الدين؛ ولا جديد يطالعنا به من المعاني التي طرقها الشاعر في مدحه، بيد أن الجديد الذي يمكن أن نسجله. هو استخدامه الموشحات في معرض المدح، وهذا بالطبع يمثل تطور فن الموشحات المشرقية في هذا العصر ببلاد الشام، واستخدامها في غير أغراضها المعروفة.

٢ - الوصف والطبيعة:

وصف التلعفري الطبيعة في المرحلة الأولى من حياته يقلد الشعراء القدامى، ويستن بسننهم في الصور والأخيلة والمعاني التقليدية والأساليب الجاهلية كما في قوله:

يا أهل ودي يوم كاظمة أما ... عن وصلكم صبري الجميل قبيح
سرتهم وأسررتم بقلبي مهجة ... أودى بها التقريح والتبريج

حتى إذا بلغ الشاعر نضجه، وامتلك نهجه الذاتي جدد في معانيه، ودعا خليله الصاحب إلى هجر المنازل والديار والإعراض عن الرسوم والأطلال، فليس له في نعتها شأن:

يا صاح دعني من ذكر العقيق ومن ... منازل ليس لي في نعتها شأن
ما لي وما لربوع لست أعرفها ؟ ... ما الحب نعم ولا الأوطان نعمان

ويتشوق الشاعر إلى مغاني الشام ومرابعها وهو بعيد نازح في وادي النيل، ويتحدث عن طبيعتها الجميلة، ويتغنى بذكر دمشق الفيحاء، ويدعو لها بالسقيا من هامي الودق هتان، فلقد أمضى في ظلال منتزهاتها على ضفاف برادها أجمل الأوقات وأسعد الساعات:

يهيج بالنيل بي شوقاً إلى بردى ... إني ومن برده ظمآن لهفان

الله يا ورق في عاني الحشا وصب ... صب له من ربا جيرون جيران

يقول وهو بمصر عند حاجرها ... ليس اللبانة إلا حيث لبنان

٣ - النسيب والغزل:

كان التلعفري يكثر من ذكر القدود والألحاظ وما حولها مما يتعلق بها، ونادراً ما تخلو قصيدة له من إيراد هذا المعنى الذي كان يتفنن في نعته بصورة تكاد تكون غريبة، من ذلك قوله:

حميت شقيق الخد بالمقلة الكحلا ... وثقفت رمح القد بالطعنة النجلا

وأوترت قوسي حاجبيك ففوقت ... من النظر السامي إلى مقلتي نبلا

عجبت لجفنيك التي نشطت لنا ... لتقتلنا، وهي المضعفة الكسلى

ويقول في قصيدة أخرى عن سهام الألحاظ في أعين الأتراك، يفتتن بضيق العيون وصغرها على عادة أهل زمانه المحبين لأسهم الأتراك:

يا جاعلاً عينيه من أشراك ... تركي هواك نهاية الإشراك

لم أدر حيث أراك تخطر مائسا ... أقوام قدك أم قضيب أراك

أين المفر لعاشق متهتك ... صرعته أسهم أعين الأتراك

يحاول الشاعر أن يبين السلاح القوي الذي يملكه محبوبه، فالقد في نظره رمح مثقف يطعن الطعنة النجلاء، والحاجبان قوسان موتران يصوبان سهام الأتراك القاتلة من الأعين الضيقة.

ويتصور الشاعر محبوبته تدعوه إلى المبارزة والنزال، ويعجب خلال ذلك من سلاحه الذي يتصدى له به:

يـــدعو النـــزال ولـــيس إلا قـــده رمـــــح وإلا مقلتيـــــه حـــــسام

كما يتصور الشاعر غصن قده وقد أورق بالذوائب ويرى أنه حمى خده المورد بحسام اللحظ:

كلفت بأحوى من بني الترك أحور لـــه غـــصن قـــد بالـــذوائب مـــورق

رشـــيق التثنـــي والمعـــاطف ألعـــس المراشـــف يـــصمي طرفـــه حـــين يرمـــق

حمـــى بحـــسام اللحـــظ خـــداً مـــوردا غـــدت منـــه أكـــمام الـــشيق تـــشقق

لـــه نـــاظر في ضـــمنه وهـــو أســـود عـــــدو لأربـــــاب الـــــصبابة أزرق

تحدث الشاعر من خلال أبياته عن خصر المحبوب وعطفه وعارضه وقده، وحاول أن يشخص لنا ما يدور حولها من المعاني كما في قوله:

يـــا رائـــشاً أســـهماً مـــن لحـــظ نـــاظره فـــوق فغـــير فـــؤادي لـــيس مـــن هـــدف

ســـبحان معطيـــك خـــصراً غـــير مختـــصر لي في العـــذاب وعطفـــاً غـــير منعطـــف

إذا شـــكوت لترثـــي لي وتـــرحم مـــا تـــراه مـــن جـــسمي المـــضنى ومـــن كلفـــي

يـــردني آيـــساً مـــن ذاك عارضـــك الـــ آسي والمنثنـــي مـــن قـــدك الألـــف

هـ - مذهبه الفني:

جنح بعض الشعراء إلى الإعراض عن الزخارف البديعية في مذهبهم الفني، فلم يستطيعوا الإفلات نهائياً من طغيانها، وكان التلعفري أحد هؤلاء، فهو شاعر وجداني مطبوع، لكنه لم يفلت من التأثر ببعض التيارات المعروفة في هذا العصر.

يجنح إلى السهولة شأنه فيها شأن شاعر رقيق معروف هو بهاء الدين زهير، وكان مطبوعاً بالطابع الوجداني الصرف، فلقد قصر شعره على المدائح والأوصاف والغزل والخمريات، وهي معظم ما يملأ حياته وشعره، وكان يتأثر ببعض المذاهب الشعرية والزخارف البديعية التي سادت في القرنين السادس والسابع الهجريين، وكان أربابها يتكلفون الجناس والطباق والاقتباس وغيرها.

استخدم الشاعر الجناس بكثرة في شعره وشواهد كثيرة نذكر منها قوله:

أنت خال مما يقاسيه قلبي ... من غرير له على الخد خال
كلما عز زاد ذلي وحالت ... لي فيه مع الزمان الحال

وقوله:

حتام أرفل في هواك وتغفل ؟ ... وعلام أهزل في هواك وتهزل ؟
يا مضرماً في مهجتي بصدوده ... حرقاً لهن يكاد يذبل (يذبل)

وقوله:

يهيج بالنيل بي شوق إلى بردى ... إني ومن برده ظمآن لهفان
ودبجت يا سطري سطور ربا ... من الرياض لها بالزهر ألوان
وفاح وادي الشقراء منك شذا ... يضيع حين يصوغ الورد والبان

استخدم الشاعر أيضاً الطباق بكثرة في شعره، فمن ذلك قوله:

له وهو مملوك تحكم مالك ... كما وهو ظبي فيه صولة ضيغم
يلوح كبدر طالع النور مشرق ... بدا في دجى ليل من الشعر مظلم
فلا طرف إلا في نعيم وجنة ... ولا قلب إلا في لظى وجهنم
فينطق لفظاً كدرٍّ مبدّد ... ويبسم عن ثغر كدرّ منظم

وقوله:

كان عهدي بالخمر وهي حرام ... فبماذا صارت لديك حلالا ؟
أنا قصدي تقبيله إرشادا ... كان رشفي رضابه أم ضلالا ؟
حار مني في شرح حاليه فكري ... كيف يسطو ليثاً ويعطو غزالا ؟
إن أطعت الغرام فيه فإني ... قد عصيت اللوَّام والعذالا

يضاف إلى الطباق والجناس ظهور الاقتباس بمختلف أشكاله في شعره، فمن الاقتباس القرآني قوله:

قالت محاسن وجهها لمحبها لنولينك قبلة ترضاها

ويلاحظ من الاقتباس الحديثي أنه يستخدم مصطلحاته الخاصة، فمن ذلك قوله:

ولا برح الصبا يروي صحيحا حديث رياضها وبها اعتلال

منازل للصبا ما زال شملي له فيها بمن أهوى اتصال

وقوله:

حدثه عن نجد فلولا عينه وعيونها ما جن منه جنونه

واستمل ما تمليه عبقة روضه سحراً وترفعه إليه غصونه

وانقل أسانيد الهوى عن أضلعي فحديث أهل العشق أنت أمينه

أعد الحديث عن الحبيب مكررا أخباره فالصب هذا دينه

ومن الاقتباس اللغوي والبلاغي وغيرهما قوله:

يا جوهري الثغر لا ومضاعف من كسر جفنك ما القلوب صحاح

عطفاً على ذي لوعة مبثوثة متقاصر عن شرحها الإيضاح

وقوله:

عندي جوى يذر الفصيح مبلدا فاترك مفصله ودونك مجمله

القلب ليس من الصحاح فيرتجي إصلاحه والعين سحب مهمله

يلاحظ أن الشاعر ذكر الجوهري ومعجمه (الصحاح) وثعلباً وكتابه (الفصيح) والزمخشري وكتابه (المفصل) وابن فارس وكتابه (المجمل) والخليل الفراهيدي ومعجمه (العين)، وهذا يدل على سعة اطلاع الشاعر الثقافية.

ومن الاقتباس النحوي قوله:

وإذا الثنية أشرقت وتيممت أرجاؤها أرجا كنشر عبير

سل هضبها المنصوب: أين حديثها المرفوع عن ذيل الصبا المجرور

وقوله:

قـــل للـــصبا سراً فـــإن لم تبتـــدي يـــضحى بـــما تفـــضي إليـــه مـــذيعا
يـــا ذيلهـــا المجـــرور عـــن بـــان الهـــوى المنـــصوب هـــات حـــديثك المرفوعـــا

ومن الاقتباس العروضي قوله مستخدماً فيه من أسماء الأبحر الطويل والمتقارب والسريع والمديد:

كـــم قـــد مـــضى ليـــل الطويـــل مديـــده برقيبـــــــه متقاربـــــاً وسريعـــــا

وقوله مستخدماً فيه أسماء بحور المتقارب والوافر والمديد والطويل:

متقـــــارب لي منـــــه صـــــد وافـــــر فمديـــــد لـــــيلي لا يـــــزال طـــــويلا

وكان الشاعر يستخدم التدبيج وهو عند البلاغيين ضرب من المقابلة، (تدبيج كناية أو تدبيج تورية)، وقد حاول التلعفري إبراز المعاني كما تخيلها في صورة جميلة من الألوان، فمن التدبيج قوله:

شـــفقي خـــد أحمـــر صـــبحي ثغـــ ـــــر أبـــيض لـــيلي خـــال أســـود

وقوله يكني فيه عن حظه الأسود والموت الأحمر:

وجعلـــت حظـــي منـــك خـــالاً أســـودا وأذقتنـــــي موتـــــاً كخـــــدك أحمـــــرا

فاسوداد الحظ كناية عن سوء الحال، والموت الأحمر كناية عن الشدة.

ومن ذلك قوله يذكر فيه الثغر والخد والخال:

لم أدر ممـــــا فـــــاح لي طيـــــب الـــــشذا فأميـــــل ميـــــل المنتـــــشي المـــــسرور
مـــــن خـــــده الـــــوردي أو مـــــن خالـــــه الـــــسندي أو مـــــن ثغـــــره الكـــــافوري

وقوله يصف الطبيعة مجلياً ألوانها:

أنـــسيت بالخـــضراء أرض قـــد زهـــت بكـــــمال بهجتهـــــا عـــــلى أجناســـــها
وريـــــاض أربعهـــــا وحمـــــرة وردهـــــا وبيـــــاض أنهرهـــــا وخـــــضرة آســـــها

وقوله يصف العدو وزرقته والناظر وسواده:

حمـــــى بحـــــسام اللحـــــظ مـــــوردا غـــدت منـــه أكـــمام الـــشقيق تـــشقق

لـــه نـــاظر في ضـــمنه وهـــو أســـود عـــــدو لأربـــــاب الـــــسبابة أزرق

إن وصف العدو باللون الأزرق كناية عن شدة العداوة، ويظهر أن هذا التشبيه مستمد من وصف الأعداء من روم وفرنجة ذوي العيون الزرق.

إن شعر التلعفري مطبوع بالسهولة المتناهية، وذلك جرياً على ما ألفه لدى بعض شعراء هذا العصر من أرباب مذهب التخلي عن الصنائع البديعية في الشعر.

- ٤ -

الشهاب محمود
بن سلمان الحنبلي
(٦٤٤هـ) (٧٢٥هـ)

أ - حياته ونشأته:

ولد الشهاب محمود بن سلمان الحنبلي في حلب عام (٦٤٤هـ) وعكف منذ طفولته على طلب العلم ولقي مشاهير العلماء منهم ابن مالك، وبرع في الأدب وتضلّع في الفقه وفاق أقرانه، كان هادئ الطبع، جمّ التواضع، وُلّي ديوان الإنشاء في دمشق، وكتب لدواوين مصر له تصانيف كثيرة، يعد شعره سجلّاً لانتصارات المسلمين على الفرنجة والتتار، من ذلك مدحه للسلطان المملوكي المنصور قلاوون:

الله أكـــبر هـــذا النـــصر والظفـــر هـــذا هـــو الفـــتح لا مـــا تـــزعم الـــسِّير

غـــزا العـــدا منـــك حلـــمٌ تحتـــه همـــم لأشـــقر الـــبرق مـــن تجميلهـــا غـــرر

توفي الشهاب عام (٧٢٥هـ).

- ٥ -

ابن نباتة المصري
جمال الدين بن محمد

(٦٨٦ - ٧٦٨ هـ)

(١٢٨٧ - ١٣٦٦ م)

أ - حياته ونشأته:

هو محمد بن محمد بن الحسن الفارقي الأصل المصري أبو الفضائل وأبو الفتح، وكنيته الأخيرة أشهر كما يقول المؤرخون. كان والده شمس الدين محمد من علماء مصر، ولد عام (٦٨٦هـ) (توفّي سنة ٧٣٠ هـ) واتصل بابن دقيق العيد واهتم بالحديث، وحدث بالقاهرة وتولى دار الحديث بدمشق زمناً. ولد جمال الدين بمنزل أسرته بمنشية المهراني بزقاق القناديل بالقاهرة سنة ٦٨٦ هـ أو ٦٧٦ هـ، كما يقول ابن حجر مخالفاً جميع مؤرخيه.

ب - شيوخه ومن تلقَّى عنهم:

وكانت ولادته في حياة والده وجده وكلاهما من العلماء، فاهتما بتعليمه، ويروى أنه دخل على ابن دقيق العيد بصحبة والده في بيت كتبه، وهو لا يزال يافعاً لم تتجاوز سنه الرابعة عشرة.

قال ابن نباتة: وتولعت بالنظم من ذلك الحين وكان ذلك قبل السبعمئة. سمع وروى الحديث سماعاً وحضوراً عن شهاب الدين أبي الهيجاء غازي وأبي الفضل ابن عبد الوهاب المعروف بالرادف، والشيخ عز الدين أبي نصر عبد العزيز الحصري البغدادي، والشيخ شهاب الدين الأبرقوهي.

أما شيوخه في الأدب فقال عنهم: ((وأما الفضلاء والأدباء الذين رويت عنهم فهم: القاضي الفاضل محيي الدين أبو محمد عبد الله بن الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان الكاتب المصري، والشيخ الإمام بهاء الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن النحاس الحلبي

النحوي، والأمير الفاضل شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الصاحب شرف الدين إسماعيل، والشيخ العالم علم الدين قيس بن سلطان المصري من أهل منية بني خصيب قرأت عليه كثيراً من الكتب الأدبية، والشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد المعروف بابن المفسر والشيخ الأديب الفاضل سراج الدين عمر الوراق المصري، والأديب الفاضل نصير الدين المناوي الحمامي)).

وذكر الشوكاني بالإضافة إلى هؤلاء عبد الرحيم الدميري في الحديث والفخر ابن البخاري.

ج - أقسام حياته:

تنقسم حياته إلى ثلاث مراحل: مرحلتين منها في مصر، ولادته وكهولته؛ أما رجولته، فقضاها في الشام.

١ - المرحلة الأولى: منذ ولادته إلى باكورة شبابه حتى بلوغه الثلاثين من عمره، وتفتحت مواهبه الشعرية مبكرة في شبابه الأول حوالي العاشرة من عمره، فظل ينظمه بمصر طوال ستة عشر عاماً نضج فيها نظمه واشتهر بين الأدباء في مصر.

٢ - المرحلة الثانية: وهي رجولته قضاها بالشام، وكانت أكثر مراحل حياته نشاطاً وإنتاجاً المرحلة الوسطى بالشام، أقام أكثرها في دمشق وحماة، وانتقل إلى حلب مرات، وبلغ ما قضاه بالشام خمسين عاماً، ولما ذهب إلى دمشق كانت قد تمت آلته وصار شاعراً مرموقاً وبها وثق صلاته بكبار العلماء والأدباء مثل ابن الزملكاني وقاضي القضاة وتقي الدين السبكي وابنه تاج الدين.

ومدح ابن الزملكاني بكثير من شعره منه قصيدته التي بدأها بالنسيب والوصف يقول فيها:

وحبذا زمن اللهو الذي انقرضت أيامه الزهر والأعوام ساعات

وقال السبكي ولما قال ابن نباتة هذه القصيدة في الزملكاني حاول أدباء عصره تقليده ومعارضتها فما أحسنوا صنعاً، بل كل قصر ولم يلحق وتأخر وما جاء الحق، وأشهر من عارضه الشاعر الدمشقي شمس الدين الخياط الذي اشتهر بالضفدع وكان مغرى بمعارضته وهجائه، وكان من قول الخياط:

ما شاب مدحي لكم ذكر المدام ولا أضحت جوامع لفظي وهي جامات

وذكر ابن نباتة القاضي ابن صرصري توفي ٧٢٣ هـ في مطلع حياته بدمشق وأنشده مدائحه، وفي ذلك يقول: وما شهدت الدرس أمرع من نقله ولا والله النفوس أبرع من عقله وما ظفر بمثله زمان وإن حلف ليأتين بمثله ومدحه بقصيدة طويلة مطلعها:

أندى البرية والأنواء ماحلة وأسبق الناس والسادات تزدحم

ومدح في دمشق كذلك شهاب الدين بن فضل الله العمري الكاتب صاحب ديوان الإنشاء وأخاه علاء الدين، وفي إحدى مدائحه لهما يتشوق إلى مصر قائلاً:

ورب شائمة عزمي ومرتحلي إلى حمى مصر أشكو جفوة الشام

قالت وراءك أطفال فقلت لها نعم ونعمى ابن فضل الله قدامي

وكان شهاب الدين إذ ذاك يلي الكتابة للناصر بالقاهرة.

واتصلت أسبابه بالملك المؤيد أبي الفداء صاحب حماة توفي سنة ٧٣٢ هـ، وقال فيه شعراً كثيراً؛ ثم اتصل بابنه الملك المنصور. واتصل في حلب ببعض الرؤساء ومدحهم. وتولّى بعض مناصب الكتابة في دمشق إذ ألحق بديوان الإنشاء سنة ٧٤٨ هـ وكان أحد الموقعين، ثم استدعاه السلطان الناصر حسن وقد كبرت سنة إلى القاهرة وولاه موقعاً بالدست سنة ٧٦١هـ وكان قد بلغ الخامسة والسبعين.

٣ - المرحلة الثالثة: وهي مرحلة كهولته وهرمه وقضاهما بمصر حتى توفي بها سنة ٧٨٦ هـ. ويذكر مرحلة شبابه وطلبه العلم بمصر في أثناء وجوده بالشام، فيقول من أبيات:

دعاه لذكر الحمى مذهب وشوق أقام فما يذهب

أمصر سقتك غوادي السرور وجادك من أفقها صيب

د - شعره:

١ - يعد جمال الدين شاعراً وكاتباً، ولكنه في الشعر أكثر تميزاً، فديوان شعره كبير، وقد اعتد بوراثته الأدب عن آبائه وأجداده فهو ينتسب إلى الخطيب ابن نباتة من كبار أدباء القرن الرابع.

يقول في ذلك:

ورثت اللفظ عن سلفي فأكرم بآل نباتة الغرر السراة
فلا عجب للفظي حين يحلو فهذا اللفظ من ذاك النبات

٢ - ولكنه اشتكى من ضيعة أدبه بين معاصريه فقال:

فكفى من وضوح حالي أني في زماني هذا من الأدباء
ضاع فيه لفظي الجهير وفضلي ضيعة السيف في يد شلاء

٣ - وهو مع ذلك يعتد بأدبه اعتداد كل مقتدر فيقول:

من مبلغ العرب عن شعري ودولته أن ابن عباد باق وابن زيدونا
إذا رأيت قوافيها وطلعتها فقد رأت مقلتاك البحر والنونا
كأن ألفاظها في سمع حاسدها كواكب الرجم يحرقن الشياطينا

٤ - ويتلاعب في شعره بصنعة البديع تلاعباً رقيقاً وينقش به أبياته نقش مقتدر. وله وقد اقتبس في مطلعها من القرآن الكريم من سورة التكوير:

نفسي عن الحب ما أغفت وما غفلت بأي ذنب - وقال الله - قد قتلت
دعها ومدمعها الجاري لقد لقيت ما قدمت من أسى قلبي وما عملت

وفيها من التلاعب بالتورية والجناس فنون، كقوله:

استودع الله أعطافاً شوت كبدي وكلما رمت تجديد الوصال قلت

هـ - طريقته في الشعر:

سار ابن نباتة على طريقة المصريين في الشعر والكتابة والقاضي الفاضل، وذكر أنه حمل لواء الطريقة الفاضلية في عصره.

وأضاف إلى تأثره بأسلوب الفاضل في الكتابة معرفة واسعة بالآداب العربية القديمة والمعاصرة، وبدا ذلك واضحاً في شرحه لرسالة ابن زيدون التي سماها - سرح العيون.

و - مذهبه الشعري:

١ – أمَّا مذهبه في الشعر فقد امتزج فيه الطابع المصري الذي ساد شعر المصريين منذ البهاء زهير بالطابع القديم.

٢ – ويجمع في أسلوبه بين السهولة والميل وإلى ضروب البديع وخاصة التورية والجناس والتشبيه والاستعارة والاقتباس والتضمين بمعاني القدماء، ولكن دون تكلف يثقل على الذوق.

٣ – وقد افتخر في قصيدة له يمدح علاء الدين فضل الله العمري بأنه يفوق الجزار والحمامي من شعراء الطبقة السابقة،

قال ابن نباتة:

خذها منظمة الأسلاك معجزة بالجوهر الفرد فيها كل نظام

مصرية من بيوت الفضل ما عرفت فيها بنسبة جزار وحمامي

ز - مكانته الشعرية:

١ – واعتبره معاصروه أمير الشعر وحامل لواء الشعراء.

٢ – وتتلمذ عليه في الأدب جماعة من كبار شعراء القرن الثامن وأدبائه حذوا حذوه وساروا على طريقته.

٣ – وكان صلاح الدين الصفدي من أقرب أدباء العصر لابن نباته، ومن أكثرهم تأثراً بطريقته واعتماداً عليه في نظمه ونثره حتى اشتهر ذلك بين معاصريه.

٤ – وتعقبه ابن حجة في أكثر من كتاب من كتبه.

٥ – وقال ابن إياس: ومما وقع للشيخ جمال الدين هذا أنه كان يخترع المعنى الغريب في شعره الذي لم يسبق إليه فيعارضه فيه صلاح الدين الصفدي، ويأخذه منه وزناً وقافية وينسبه إلى نفسه.

- ٦ -

الشرف الأنصاري

(٥٨٦ - ٦٦٢ هـ - ١١٩٠ - ١٢٩٦ م)

شيخ الشيوخ

أ - حياته ونشأته:

في دمشق الفيحاء وفي درب الكشك أحد أحيائها القديمة ولد الشاعر الكبير شيخ شيوخ حماة ورئيسها الصاحب شرف الدين، أما اسمه فهو أبو محمد عبد العزيز بن عبد المحسن بن محمد بن منصور بن خل الدمشقي المعروف بـ (ابن الرفاء) ولد ضحى الأربعاء في الثاني والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٨٦ هـ، وهو عربي صميم من قبيلة أوس الأنصارية، وكانت تسكن كفر طاب مع سكانها من بهراء وتنوخ، وقد أشار إلى نسبه في شعره بقوله:

وإذا ما الأوس عدوا فإني ... من ذويهم في لباب اللباب

وأشار إلى الأنصار بقوله:

إن كنت لم أفتقد غمضي لفقدكم ... فلا وجدت من الأنصار أنصاري

هاجمت الروم والفرنجة هذه المدينة فتشتت شمل سكانها،إذ أخرجتهم من ديارهم فانتقل أبوه إلى دمشق، وجمع بين عمله التجاري في سوق الخواصين والنيابة عن ضياء الدين الشهرزوري في القضاء والأوقاف سنة ٦٨٢هـ، ثم انتقل أبوه بعد ذلك إلى حماة وولي نظر أوقاف الملك المنصور الأول بطلب منه، وكان في الوقت نفسه ناظر أوقات الخليفة العباسي. يؤكد ذلك قوله للرشيد المصري القائم على وزارة ماله لما امتنع عن الحضور عنده: ((وهذا ليس لك عليه اعتراض ولا وليته إلا بإكراه ليكون ناظر أوقاف الخليفة ناظر أوقافي)).

يؤكد هذا الخبر أنه انتدب من قبل الديوان العزيز ببغداد لعقد نكاح بعض مماليك الخليفة على بعض جواريه، فارتجل بديهاً أمام الحاضرين خطبة من روائع خطب العقود، إذ المعروف عنه أنه كان ماهراً في الخطابة.

ب - شخصيته:

كان مطبوعاً على نظم الشعر، وقد حاول أن يدرب ابنه عليه بتلك المطارحات الشعرية الجميلة منذ نعومة أظفاره، كان شرف الدين معجباً بأبيه، وقد أشار إلى جلالة قدره وكريم محتده في معرض قوله يفتخر به، ويتحدث عن قومه الأنصار الذين بايعوا الرسول تحت الشجرة:

نفتر كالحمر المستنفرة أجفلت هاربة من قسوره
طلبوا شأوي ولما يلحقوا بعد لأي من غباري أثره
من يسالمني أساله ومن رام حربي فإليه المعذره
وأبي من قد علمتم قدره مجهر بالخطبة المستنفره
من يشاجره يصادف قومه جل من بايع تحت الشجره

في مملكة حماة الأيوبية وفي بيئتها العلمية التي ازدهرت في عهد ملوكها من أحفاد الملك المظفر تقي الدين ابن أخي صلاح الدين، وفي عصرها الذهبي خلال حكم أكبر ملوكها المنصور الأول والأديب العالم الذي سمع الحديث في الإسكندرية عن الحافظ السلفي وصاحب التآليف المشهورة.

نشأ شرف الدين فاستكمل علومه الدينية والأدبية بإشراف والده، فقرأ القرآن الكريم برواياته المختلفة، واشتغل بالأدب على أبي اليمن زيد بن الحسن الكندي، وسمع منه كثيراً حتى إذا نال قسطه من العلوم والمعرفة شرع يرتحل مستزيداً من ثقافته وعلمه، والتقى بمشاهير العلماء في عصره. نذكر منهم شيخه سيف الدين الآمدي، وكان يكاتبه كما ذكر ابن شاكر أن والده رحل به، وأسمعه جزء ابن عرفة من ابن كليب، وأسمعه المسند كله من عبيد الله بن أبي المجد الحربي.

نظم الشاعر في بعض رحلاته عن حماة في أيام صباه قصيدة صور فيها نفسيته، ووصف طموحه إلى المجد والمعالي:

لعل بعادي عن حماة يعيدني تخاف السطا مني وترجى المنائح

لأهـــزم جـــيش المـــال وهـــو عرمـــرم وأدفـع صـدر الخطـب والخطـب فـادح
يهـــيج أشـــجاني بـــه كـــل ليلـــة وتـــصرفني عـــما يقـــول النواصـــح

كان سعيداً في حماة خلال سني الطفولـة وصـباه، فـأبوه قـاضي قـضاتها، وكانـت ملامـح النحابة تلوح عليه منذ صغره، داعب الغرور نفسه في مثل هذه السن المبكرة.

صحب والده، فزار بغداد وغيرها وسمع فيها مـن مـشاهير علمائهـا ومحـدثيها، وعـاد إلى الشام وتنقل في أرجائها فترة من الزمن، وأثر عنه أنه حدث بدمشق وحمـاة والقـاهرة، وانتهـى به المطاف إلى بعلبك. فأقام فيها وقتاً قصيراً، تخرج على يده تلامذة كثيرون منهم تلميذه الموفق البعلبكي، وكان يكاتبه، ويظهر أنه ترك في هذه المدينة القديمة صداقات وثيقة استمرت مـدى حياته.

لم تطل إقامته فيها طويلاً، فرجع إلى حماة واستقر فيها نهائياً ونـسب إليهـا، ولقـي الإقبـال والتشجيع من ملوكها فنبه شأنه، وسار ذكره في الآفاق، فأمَّه طلبة العلم، وغدا كعبة القـصاد، يدلفون إليه لينالوا منه الإجازة من مختلف الأقطار والأمـصار، نـذكر مـنهم: الـدمياطي وأبـا الحسين وابن الظاهري، وبدر الدين بن جماعة، وعز الدين بن القـاضي الفاضـل، وسـبط ابـن الجوزي وغيرهم الكثير. وكان بعضهم أكبر منه سناً، وقد عده الأقدمون من أذكيـاء بنـي آدم المعدودين. كانت منزلته العلمية في صعود مستمر فأصبح يدعى شـيخ شـيوخ حمـاة، بجانـب والده الذي كان قـاضي قـضاتها، فاحترمـه ملوكهـا ونظـروا إليـه نظـرة الإجـلال والتقـدير، فاعتمدوا عليه في توطيد أركان ملكهم واستشاروه في كثير من الأمور؛ لأنـه كـان مـستقيماً في سيرته.

مدح الشاعر الملك المنصور الأول بمدائح كثيرة فهو وزيره وشاعره، ولما ولدت له زوجـه ولده محموداً، لم يقتصر على مدحه، بل مدحها بقصيدة مستقلة، وذكر في عنوانها: (وقال يمدح الملكة عصمة الدين مهنئاً):

يـــا عـــصمة الـــدين والعليـــاء والجـــود لـــك الهنـــاء بعـــز غـــير محـــدود
يـا مـن غـدت خـير أمـلاك الزمـان لقـد ولـــدت ملـــك البرايـــا خـــير مولـــود

مات المنصور الأول واضطرب أمر الملك من بعده، فاستولى الملك قلج أرسلان على زمام الحكم سنة ٦١٧ هـ بمساعدة خاله الملك المعظم صاحب دمشق. وهو ليس بصاحب الحق الشرعي ذلك أن أخاه المعهود إليه بالملك كان غائباً بمصر في زيارة خاله الملك الكامل، ولما عاد لتسلمه حذره وخوفه من التعرض لأخيه، لكن المظفر الثاني لم يكفّ عن المطالبة بحقه، فحاصره بحماة بمساعدة عمه، وراسل حكامها خفية، واتفق معهم أن يفتحوا له باب النصر في وقت السحر فتم له ما أراد، ودخل المدينة مظفراً، وتربع على عرش الملك سنة ٦٢٦ هـ، كان الشاعر من أنصاره، وكان على رأس المهنئين، فمدحه بقصيدة جاء فيها بقوله:

إذا فاعل رام ارتفاعاً بفعله ... ففعلك مرفوع لأنك فاعله

أبر تقي الدين جوداً وسؤددا ... فتمت عطاياه وتمت فضائله

فما لبني أيوب ملك مساجل ... ولا في بني أيوب ملك يساجله

تؤكد هذه القصيدة أن الشاعر كان غير راض إطلاقاً عن حكم الملك المعتصم حق أخيه، فعارضه أخيه فعارضه وناهضه حتى عاد الحق إلى نصابه، وكان هذا الحدث فاتحة عهد جديد في حياته، اختاره المظفر الثاني ليلي وزارته، ويسوس أمور الملك بما عرف عنه من رجاحة العقل،، وأصالة الرأي وطيب الأحدوثة، فمدحه بقصائد كثيرة، نذكر منها تهنئته بميلاد ولي عهده المنصور الثاني، وجاء فيها قوله:

غدا الملك محروس الذرا والقواعد ... بأشرف مولود لأكرم والد

مليك تمنته الممالك حقبة ... فأوفى عليها مرغماً كل حاسد

يتضح لنا مما تقدم أن شرف الدين كان مكين الصلة بالأسرة الأيوبية الحاكمة، وهو في الواقع القاعدة الراسخة التي أقيمت عليها دعائم هذا الحكم المستقر بحماة، وهو في غيرها يعتوره الاضطراب والتقلب حتى زال نهائياً وبقي وحده في حماة خلال عصر سلاطين المماليك. تتأكد هذه الحقيقة فتبدو جليلة حين موت الملك المظفر، وكان ولي عهده المنصور الثاني حدثاً غراً، لم يتجاوز العاشرة من عمره، وتتجه الأنظار إلى إقامة أوصياء على الحكم، ويمر الأمر بسلام، ويكون الإجماع على الشاعر ليكون الرأس المدبر لهذا المجلس الذي أقامته

أم المنصور غازية خاتون بنت الملك الكامل، وأما سائر أعضائه، فهم الوزير بهاء الدين بن التاج، والطواشي مرشد، وسيف الدين طغرل.

تربع المنصور على عرش ملكه بعد بلوغه سن الرشد. وساد الأمن والاستقرار في ربوع المملكة، حتى إذا توفيت غازية خاتون برز الخلاف على أشده بين الملك وأخيه الأفضل، فعزم على أن ينتزح عن حماة ويغادر أخاه، بيد أن شرف الدين قد تدارك بحكمته هذا الخلاف فاجتمع بهما، وأزال ما كان عالقاً في خاطريهما من سوء، وعادت الأمور على خير ما كانت، وساد ملك حماة السلام والوئام بين الأخوين. كان المنصور يحب وزيره الشاعر، وكانت تربطه به صلة من الصداقة، فقد كتب إليه مرة يعاتبه فأجابه قائلاً:

برق سرى من غوادي جلق فغدا ... لنوره مثل قدح النار في كبدي

أهدي إليَّ عتاباً من مليك هدى ... أرق من والد يحنو على ولد

أسهم شرف الدين بما له من مكانة في توطيد الصلات بين ملوك مصر والشام على حدّ سواء. إذ كان أبعد نظر من هؤلاء الذين كانوا يثيرون الخصومات، ويرون ضرورة استقلال كل ملك ببلده، ويود لو عادت الوحدة السياسية كما كانت في زمن صلاح الدين وأخيه العادل سيف الدين، ولهذا السبب كنا نراه يتردد على دمشق والقاهرة في مهمات ملكه المنصور. يؤكد ذلك أنه سافر إلى القاهرة بصحبة الملك الناصر الثاني سنة ٦٤٧ هـ، وأغلب الظن أن سفره كان بسبب الخطر الداهم بعد استفحال أمر التتار القادمين من الشرق، والذين باتوا يهددون معالم الحضارة الإسلامية في بلاد الشام، بعد أن طرقوا أبواب بغداد، واكتسحت جيوش هولاكو الغازية أرض الشام بعد عام واحد من سقوط بغداد.

فرَّ الملك المنصور إلى مصر بحريمه وأولاده، وطلب نجدة السلطان قطز، وخرج على الفور معه، إذ بات الخطر يهدد مصر نفسها، وهكذا التقى الجمعان، وولى التتار الأدبار ولاذوا بأذيال الفرار وهرب معهم (خسروشاه) عامل هولاكو على حماة، وعاد المنصور إلى ملكه، فأقبل عليه شاعره شرف الدين مهنئاً ومادحاً:

رعت العدا فضمنت ثل عروشها ... ولقيتها فأخذت فل جيوشها

نازلـــت أمـــلاك التتـــار فأنزلـــت عـــن فحلهـــا قـــسراً وعـــن إكديـــشها

فغـــدا لـــسيفك في رقـــاب كماتهـــا حـــصد المناجـــل في يبـــيس حشيـــشها

وذكر هذه الموقعة المهمة الفاصلة في التاريخ الإسلامي، في مدحه ثانية. جاء فيها قوله:

محمـــد خـــير ماجـــد يقـــظ يـــرضي هـــداه محمـــد القـــرشي

صـــادم جـــيش التتـــار مقـــتحما فأجـــشأت نفـــسه ولم تجـــش

لمـــا طغـــى كبـــشه تعمـــده فـــصير الـــرأس منـــه في الكـــرش

فأســـلموا الـــشام بعـــد مـــا طمعـــوا في ملـــك أرض الحجـــاز والحـــبش

كما كان يترسل إلى الخليفة في بغداد وغيره من ملوك الأقاليم، وكان مؤتمناً ومحبوباً لدى الجميع لنبل أخلاقه وسمو مقصده، وكانت له صداقات شخصية تربطه بالكثير ممن عرفهم من ملوك عصره، نخص بالذكر منهم الملك الناصر والملك الأمجد وغيرهما.

ج - أغراضه الشعرية:

١ - مدح وأحداث

في ديوان الشاعر قصائد نبوية متعددة مدح بها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وجرى فيها على سنة من سبقه من الشعراء، وقد استهل الشاعر قصيدته المذكورة بقوله:

يـا نـاظم الـدر الثمـين ومهـدي الـنظم الرصـــين لفاضـــل أو مفـــضل

جانـــب مخادعـــة الملـــوك عـــن اللهـــا فالمـــال يـــذهب والخـــصاصة تـــنجلي

كانت هذه النظرة المثالية في نفس الشاعر يوم كان في ريق صباه وريعان شبابه، لكنه لم يصرف مديحه في مخادعة الملوك كما كان ينصح غيره، فلقد مدح بعضهم وخص بشعره منهم من رآه أهلاً له، لا طمعاً في جاه، ولا سعياً وراء زخارف الدنيا، وهو الذي كانت الملوك تراسله وتخطب وده، نذكر منهم الملك الناصر الذي كان يكاتبه ويضمن كتابه شعراً يمدحه به، ويخطه بيده فقط دون سائر الرسالة، وقد حدث أن احتجب الناصر مرة لأمر يهمه، فعاتبه بقوله:

يـــا ملكـــاً تخـــضع الملـــوك لـــه إن غـــاب دارهـــا وإن حـــضرا

قـد حـسدت عينـي فـؤادي عـلى قربـك حتـى أطالـت الـسهرا
ولـست أرضى لعـدل مجـدك أن يعطـي نـضاراً ويمنـع النظـرا

توجد في الديوان مدح كثيرة، نذكر منها هذه المدحة التي تفنن الشاعر فيها فذكر نعوت المدح المعروفة من جود وحلم وبأس:

بـك افتخـر الأمـلاك مـن آل أيـوب وعنـدك نـالوا في العـلا كـل مطلـوب
كفيـتهم الأحـداث طفـلاً ويافعـا تبيـد عـدواً أو تجـود بموهـوب
فكـم ملـك جبـار سـلبت بجحفـل يوسـع بالإقـدام ضـنك الأسـاليب

قصر شرف الدين جل مدحه على الملوك الأيوبيين الذين عاصرهم فهم في نظره أعلى ملوك الأرض مقداراً، وقد أشار إلى هذا المعنى في مدح الملك الأمجد:

أعـلى ملـوك بنـي أيـوب منزلـة وهـم أجـل ملـوك الأرض مقـدارا
شـهم الجنـان إذا احمـرّ القنـا دلفـوا يـدعون منـه عـلى الأعـداء سـوارا

كان الشاعر في معظم الأحيان ينظم في المناسبات الخاصة، كالتهنئة بدخول السنة الهجرية، أو بحلول شهر رجب أو رمضان، أو أحد العيدين، أو بالعافية والشفاء من مرض، أو بمولود أو بالعودة من غزاة. وكان أثيراً لدى الملوك الأيوبيين الذين مدحهم. حتى إنه كان ينشد الملك المظفر بعض مدحه، وهما راكبان في الموكب الملكي. ونراه في مدحه يصف حياتهم في حربهم وسلمهم، من ذلك القصيدة التي مدح بها الملك المنصور، ووصف ما يعانيه من الصيد رياضة ولهواً:

أكملـت كـل المناقـب يـا خـير مـاش وراكـب
يـا مـن يخـاف وترجـى منـه الـسطا والرغائـب
حتـى قهـرت الأعـادي بـشامنا غـير هائـب
وارتحـت للـصيد لهـوا إذ لم تجـد مـن تحـارب

كما كان الشاعر يضمِّن مدحه وصف الأحداث الكبرى، فينوه بذكر الانتصارات المسلمين على التتار في الوقائع المهمة التي حدثت في هذا العصر. نذكر من ذلك مثلاً

قصيدته التي مدح بها الملك المنصور الثاني. وقد أشار فيها إلى معركة عين جالوت المشهورة، وجاء فيها قوله:

لـــك العـــلا أعييـــت المبارينـــا تقـــرع منهـــا الأبكـــار والعونـــا
يـــا ملكـــاً لم تـــزل عزائمـــه تكـــف عنـــه الأذى وتكفينـــا
(بعـين جـالوت) خـضت بحـر وغـى يخـال فلكـاً بالأسـد مـشحونا
ومـا نجـا مـنهم سـوى خـبر أسـكن قـازان خـبره الـصينا

إن مدائحه كانت تمثل الحياة السياسية في هذا العصر، وكان كما يظهر يؤيد سياسة ملوكه، ويقرهم على ما يراه أنه الحق. في إحدى مدحه المظفرية ذكر نصرته للملك الصالح، وفي مدحته الأمجدية هنَّأ الملك الأمجد بقدومه عندما عاد الملك المعظم وشفي، يضاف إلى ذلك أن مدحه تضمنت كما رأينا وصف الأحداث الكبرى، وخاصة منها الحروب المريرة ضد التتار، ولا نعرف بين شعراء العصر من عبَّر عنها مثله.

٢ - نسيب وغزل

أعجب الأولون بالرقة المتناهية في شعره، وخاصة منه مطالع النسيب وقصائد الغزل ومقطعاته الغنائية، فهو ينهج في معانيه بشكل عام نهج غيره، بيد أنه لا يقتصر على اقتباس المعاني الشائعة منها، وإنما كان يبتكر ويجدد في بعضها الآخر، وخاصة منها ما يتعلق بتصنيع التورية مذهب العصر في الشام ومصر على السواء.

تحدث عن خال وجنة الحبيب، وعقارب الأصداغ وليل الشعر كما وصف وَلَهَ العاشق وبكاءه، وصدود الحبيب وإعراضه وتجني الرقيب على المحب ولوم العاذل والكاشح والرقيب.

لاحظ ابن حجة هذه الطريقة التي تفرد بها في شعر الغزل والنسيب فأعجب به لسلوكه هذه الطريقة الغرامية التي اعتبرها جرياً على سنة البلاغين في التنوعي ومظهراً جديداً مبتكراً في البديع، وقد أشار إليها في معرض حديثه عن الانسجام. واعتنق الشاعر في طريقته الغرامية غزلها ونسيبها مذهب الانسجام في معظم شعره، وتجلت عبقريته في هيكل القصيدة العام، وفي

أبياتها التي تكاد تذوب رقة وتنطبق بخفة الوزن وحلاوة الجرس الموسيقي، فقد كان يحاول دوماً أن يختار لها البحر المجزوء والقافية الراقصة التي كانت لا تنسجم مع ما عرف به من سمت ووقار في حياته الرسمية.

ويظهر أنه كان يشعر بذنبه في استرساله متغزلاً، لكن شيطان شعره يطغى عليه، ويندم حين لا ينفع الندم، وحين يجد أمامه قصيدة جميلة يعز عليه أن قذف بها في زوايا الإهمال، ويعزِّيه الشفاعة وخلاصه في يوم بعثه، كما في القصيدة الغزلية التي نظمها على وزن القصيدة للقاضي الفاضل.

لعيني كل يوم منه عبره ... تصيرني لأهل العشق عبرة
فعسجد جفنها لا نقص فيه ... وكم جهزت منه جيش عسرة
إذا غفل الوشاة أسلت دمعي ... فيغدو مرسلاً في وقت فترة
علامة شقوتي في الحب أني ... ثقلت عليك لا عن طول عشرة
وجفنك أكحل من غير كحل ... وخدك أحمر من غير حمرة
وصبري فيك ليس له وجود ... ووجدي منك لا أحصيه مرة

جمعت هذه القصيدة الغزلية بين سحر المعاني وجمال الأسلوب.

فأما في المعاني فقد رأيناه يتحدث عن العبرات والوصل والهجران، وصور محاسن الحبيب، وخلص إلى التحدث عن ضلاله في هواه، ولزومه باب خمار ثناياه ورجائه في الخلاص يوم النشور؛ وأما في أسلوبه فقد أخذ من البديع محاسنه، وجمع فيه من التورية والانسجام أوفر نصيب، وطبع كل ذلك بطابعه الخاص، ورمز في أسلوب التورية إلى جيش العسرة والمرسل في غير فترة وباب خمار الثنايا، وصابون المعرة... وما دام قد أضله شيطان هواه، وطرق باب الخمار، فلنستمع إليه يحدثنا عن جارته ربة الخالين التي حوت حسن البداوة وجمال الحضارة، وذلك في مطلع نسيب مدحه مظفرية أنشده إياها، وهما راكبان في الموكب الملكي:

لنا من ربة الخالين جاره ... تواصل تارة وتصد تارة
تؤانسني وتنفر من قريب ... وتعرض ثم تقبل في الحرارة

وتلعقنـــي بـــما يحيـــي ســـلوي ولكـــن لـــيس في جـــوفي مـــرارة
ومـــا لي في الغـــرام لهـــا شـــبيه ولـــيس لهـــا نظـــير في النـــضارة
وفي الوصـــفين مـــن كحـــل وكحـــل حـــوت حـــسن البـــداوة والحـــضارة
وفي خلخالهـــا خـــرسٌ ولكـــن إذا أومـــأت تفهـــم بالإشـــارة

نرى في المدحة المذكورة هذا المطلع الغزلي الرقيق، فهو يحاول أن ينسج خيوط قصته مع جارته الحسناء، وقل أن يجاريه فيها الشعراء الغزل المشهورون، إذ نلاحظ أنه ينحو فيه منحى مادياً محضاً بأسلوبه الرشيق الشيق، وما فيه من انسجام بديعي وتورية جميلة:

سروري بـــــساقية جاريـــــة ووجـــــدي بجاريـــــة ســـــاقيه
أهـــز بهاتيـــك عطـــف القـــريض ليثنـــى عـــلى هـــذه الثانيـــه
ســـبتني كاســـية بـــالجمال فروحـــي عنـــدي لهـــا عاريـــه
عـــلى الجـــسم حاكمـــة بالـــضنى وفي القلـــب آمـــرة ناهيـــه
تـــراني إذا لم أزر بيتهـــا كـــأني ببيـــت بـــلا قافيـــه

ونلاحظ أن الشاعر كان يعاني تجربة حب حقيقية لجاريته مارية التي كان يحبها كثيراً.

استخدم الشاعر في غزله الأبحر القصيرة أو المجزوءة التي تشير إلى القصيدة جرساً ناعماً، وكان يختار لها القوافي المستساغة التي تولد في النفس النشوة والارتياح، وتهزها هزة الثمل والطرب، ومن خلال الأوزان والقوافي يسير الشاعر بخطاه الحثيثة نحو الانسجام المنشود في شعره ويبلغ ذروة نضجه الفني المشفوع بالذاتية والطبع السليم، كما في هذه القصيدة الغنائية ذات الوزن الراقص:

رفقـــاً بروحـــي فهـــي لـــك وعـــلى الـــسخي بـــما ملـــك
أفـــضل بحـــق مـــن اصـــطفاك عـــلى المـــلاح وفـــضلك

تنبض هذه الغزلية الغنائية بالعاطفة الصادقة والشعور الفياض وتتسم بالرقة المتناهية التي عرف بها شعره، ونلمح فيها مظاهر الانسجام بين اللفظ والمعنى من ناحية، والوزن والقافية

من جهة أخرى حتى ليشعر الإنسان وهو يتلوها بإيقاع الجرس الشعري العذب ينساب من خلال حروفها وكلماتها وأبياتها.

وهي بالتالي تعبر عن نفسية الشاعر الحقيقية التي تنبض من خلالها، وهي تختلف عن نفسية شرف الدين الوزير الكبير المعروف في كل الأوساط بالسمت والوقار، مهما احتجبت النفس الإنسانية فلابد لها حين تجد أمامها متنفساً أن تتعرى على حقيقتها في حمى الأهواء وحينئذ لا يحجبها عن العاطفة الحقيقية منصب أو سلطان أو زهد أو ورع، كما في هذه المقطوعة التي يقول فيها:

أبعدتـــــه وهـــــو القريـــــب وجفوتـــــه وهـــــو الحبيـــــب
فغـــــدا غريبـــــاً وانفـــــردت بـــــشوقه و أنـــــا الغريـــــب
يـــــا مـــــن بـــــه دائـــــي يطـــــب ومـــــن بـــــه عيـــــشي يطيـــــب
خـــــذ مـــــا تـــــشاء مـــــن الـــــسرور فلـــــيس لي فيـــــه نـــــصيب

يؤكد ما نذهب إليه من أنه كان يحضر مجالس الغناء الملكية، وقد غُنّي ذات مرة بين يديه لحن فأعجبه فنظم قصيدة على وزنه، مطلعها قوله:

لابـــد لي مـــنهم وفـــوا أو لم يفـــوا أو يبخلـــوا بالوصـــل أو تتعطفـــوا

يظهر أن شعره كان ينشد في حلقات المتصوفة، ويُغنَّى في مجالس الطرب، وكان يكرِّر في شعره بعض الألفاظ التي يتخذها المغنون تكأة لازمة لهم في أغنياتهم، نذكر من ذلك قوله في قصيدة، وقد ضمن البيت المجزوء الأخير لفظه الليل أربع مرات، يبدأ ليلته الأولى بابتداء غايته الزمانية في (من) الجارة، ويطيب سمره ولهوه، فلا تأخذه سنة ولا نوم، ويصل الليلة بالليلة بـ (إلى) الجارة فلا يصحو إلا بعد انقضاء رابعة لياليه الأنصارية...

غرامـــــي فيـــــك لا يحـــــصى بميـــــزان ولا كيـــــل
وأمـــــا دمـــــع أجفـــــاني فـــــلا تـــــسأل عـــــن الـــــسيل
ومـــــا أنـــــسى فـــــلا أنـــــسى مراحـــــي ســـــاحباً ذيـــــلي
وإجـــــلابي عـــــلى اللـــــذات بالرجـــــل وبالخيـــــل

مـــــن الليـــــل إلى الليـــــل إلى الليـــــــــل إلى الليـــــــــل

ولا بأس أن نقف عند قوله في قصيدة له تتميز بالرقة، ويصف فيها أغزاله التي تغنيه عن ألحان الدف والمزمار:

رعـــــاك الله يـــــا إلفـــــي وإن بالغـــــت في عـــــسفي

أمـــــا تـــــذكر إذ كفـــــك يـــــوم الجـــــزع في كفـــــي

ومـــــا أنـــــسى فـــــلا أنـــــسى زمـــــان اللهـــــو والقـــــصف

وإذ عطفـــــك مختـــــال وميـــــال عـــــلى عطفـــــي

يزداد الشاعر رقة في بعض مقطوعاته الغزلية حتى يصل بها إلى درجة من اللين تغدو أقرب ما تكون إلى الأسلوب العامي:

لا وفقـــــت بنـــــت الحميـــــصية دانيـــــة الـــــدار ومقـــــصيه

صـــــوفية المـــــذهب لكنهـــــا ناعمـــــة الجـــــسم حريريـــــة

٣ - الزهديات

كتب الشاعر مقطوعات وأراجيز وقصائد قالها في الزهد وهو الغرض الحقيقي الذي ينسجم مع لقبه شيخ الشيوخ، ولكنه لم يكن الأصل في شعره وإنما كان استغفاراً وإنابة لما قاله في حياته من أغزال رقيقة حتى أن أباه استغفر له ربه حينما سمع غزلاً له، يورى فيه بأسماء بعض سور القرآن، فختمه ببيت فيه التشفع له.

لا شك أن الشاعر في زهدياته كان يعاني صراعاً نفسياً عميقاً؛ لأنه لم يستطع أن يكبح جماح نفسه التي تصبو للحب والجمال، فتغزل بعد أن تجاوز الخمسين بفتيات الخامسة عشرة:

جـــــاوزت خمـــــسين ولي صـــــبوة إلى بنـــــات العـــــشر والخمـــــس

تقـــــول نفـــــسي كلـــــما لمتهـــــا مـــــا أقـــــرب اليـــــوم مـــــن الأمـــــس

كما أنه تطرق لبعض المعاني التي خرجت عن المألوف في الغزل، فمن حقه إذن أن يقول الشعر في الزهد، ومن حقه إذن أن يتشفع لنفسه بعد أن تشفع له أبوه من قبل، فيقول متزهداً:

وارغـــــــب إلى الله تظفـــــــر مـــــــن بـــــــره بلطـــــــائف
وازهـــــــد بقلبـــــــك فـــــــيما عهـــــــدتك لـــــــه آلـــــــف
ولا تمـــــــوتن قنوطـــــــا فللإلـــــــه عواطـــــــف

إن رجاءه كبير في العفو والغفران، فإن للإله عواطف شاملة، ولذلك لم يقنط من الرحمة لارتكابه ذنوباً كثيرة لم يحصها وصف واصف. فهو يطلب منا أن نبكي دماً تكفيراً، ثم نتبع البكاء زاهدين في كل ما ألفناه وأحببناه، وحينئذ يمكننا أن نظفر من ربنا بلطائف بره. والزهد عند الشاعر ليس مقصوراً على ما ذكره في القصيدة السابقة، وإنما يعتمد على قطع الإنسان كل علاقة له بالحياة الدنيا والإعراض عن مغرياتها وزخارفها، ذلك لأنها فاسدة مفسدة أضلت بنيها ومصيرها الفناء والموت:

لا تـــــشغلن عـــــن الترحـــــل بالـــــسكون إلى المنـــــاخ
وتـــــرج مـــــن عـــــرض الـــــدنا بـــــالقرض والمـــــاء النقـــــاخ
ثـــــب عـــــن زخارفهـــــا وصـــــن عقـــــد الثبـــــات عـــــن انفـــــساخ
والمـــــوت وصـــــف جـــــامع بـــــين القـــــشاعم والفـــــراخ

وجدير بالذكر هنا أن قصائد قافية الخاء كلها في باب الزهديات يضاف إلى ذلك القصائد والمقطوعات الأخرى الموجودة في الديوان، فهل يعني أن هذا الغرض لا يحتاج كالغزل إلى الرقة في الروي والقافية، وحرف الخاء ليس من الروي المستساغ، ولذلك ملأه الشاعر بقصائد زهدية تنسجم في التقشف مع هذا الروي ذي المركب الخشن والموسيقا الثقيلة. ويقترن الغزل عنده بالزهد أحياناً، وقد عرفنا في زهد أبي العتاهية الثورة على كل غزل وعرفنا في زهد أبي العلاء فلسفة الحياة الإنسانية، ولكننا لا نعرف بين الشعراء مثله من جمع الغزل والزهد في مقطوعة واحدة، فمن ذلك قوله في جارية له اسمها مارية:

أوقعنـــــي في قيـــــد أسر الهـــــوى جاريـــــة أوصـــــافها جامعـــــة
ثالثـــــة البـــــدرين في حـــــسنها مـــــع أنهـــــا في نـــــسكها رابعـــــة
كـــــم جننـــــت قلبـــــي في حبهـــــا فليتهـــــا كانـــــت لـــــه تابعـــــة

يـــا رب غفـــراً عـــن ذنـــوبي فـــلي نفـــس عـــلى أهوائهـــا نازعـــة

إن ضـــيق الـــدهر خنـــاقي فـــما تـــضيق بي رحمتـــك الواســـعة

ولعلنا لاحظنا مذهب الشاعر في التورية في رابعة العدوية، المتصوفة الناسكة واختيار اسم هذه المتصوفة والتورية بها ينسجم مع ختام القصيدة في نداء الله ليغفر له الذنوب، ولكنه لا ييئس من روح الله، وإن ضيَّق الدهر بخناقه، فرحمته أبداً واسعة يستجيب فيها دعوة الداعي إذا دعاه.

د- مذهبه الفني:

استخدم الشاعر في طرائق تعبيره كثيراً من الأساليب البلاغية المستجدة في هذا العصر، بيد أنه تفرد دون غيره بسلوك مذهب بلاغي معين في تصنيعه البديعي، فأبدع فيه كل الإبداع. وقد أعجب الأدباء المعاصرون بهذا الاتجاه الجديد الذي يسير جنباً إلى جنب مع الاتجاه الذي بدت تباشيره قبيل ذلك في مصر على يد القاضي الفاضل وجماعته من بعده، فنهجوا نهجه، واقتدوا به، وتداولوا معانيه، ولا نبالغ إن قلنا: إن معظم شعراء النصف الثاني من القرن السابع الهجري كانوا من تلامذته، فاستمدوا منه كثيراً من معانيهم الشعرية، فكانوا عالة عليه في ذلك كله.

نوَّه الصفدي بعبقرية الأنصاري وأعجب بمذهبه الشعري، وأشار إلى أهميته كأكبر شاعر عرفته بلاد الشام، كما أجمع على ذلك معاصروه، ومما قاله: ((لا أعرف في شعراء الشام بعد الخمسمئة وقبلها من نظم أحسن من شرف الدين، ولا أجزل، ولا أفصح، ولا أصنع ولا أسرى ولا أكثر، وما رأيت له الأشياء إلا وعلقته، لما فيه من النكت والتورية الفائقة، والقوافي المتقنة، والتركيب العذب، واللفظ الفصيح، والمعنى البليغ)).

ويلاحظ أن الشاعر أكثر من تصنع التورية في شعره، وهي لباب مذهبه الفني، فهو لا يكتفي بإيرادها مرة واحدة، وإنما يكثر من ذكرها ما وسع إلى ذلك سبيلاً، فهو رائد المذهب الرمزي في أدبنا العربي خلال هذا العصر في بلاد الشام، نذكر من ذلك التورية في رابعة العدوية:

أوقعنـــي في قيـــد أسرى الهـــوى جاريـــة أوصـــافها جامعـــة

ثالثـــة البـــدرين في حـــسنها مـــع أنهـــا في نـــسكها رابعـــة

وفي شعره من التوريات الكثير، ويلاحظ من طرف آخر أن الشاعر حاول أن يوسع مدى التصنع البديعي في باب التورية، فلا يقتصر منها على ما عرفه البلاغيون وإنما كان يحاول أن يوري بغير الألفاظ، وذلك عن طريق عبثه اللفظي، إما بالكلمات أو الحروف، والشواهد على ذلك كثيرة. نذكر منها قوله وقد أنشد الملك المنصور من شعر المتنبي يمدح أبا شجاع فاتكاً:

تملـــك الحمـــد حتـــى مـــا لمفتخـــر في الحمـــد حـــاء ولا مـــيم ولا دال

فعقب ذلك بقوله:

يـــا أيهـــا الملـــك المنـــصور يـــا ملكـــا أوصـــافه كـــاملات وهـــي أصـــناف

رفقـــت بـــالخلق حتـــى مـــا الـــذي ورع في الرفـــق راء ولا فـــاء ولا قـــاف

وفـــزت بالملـــك حتـــى مـــا الـــذي شرف في الملـــك مـــيم ولا لام ولا كـــاف

وكـــم كتائـــب رعـــت المـــارقين بهـــا فـــيهن مـــن ألفـــات الخـــط آلاف

انتشرت هذه الصفة كثيراً في شعره، وغدت مظهراً مميزاً من مذهبه الفني، نذكر من ذلك قوله يعبث بلفظة (شرخ):

وقـــد خـــانني شرخ الـــشباب وراعنـــي مـــشيب وحـــالي منـــه شرخ بـــلا خـــاء

وقوله يعبث باسم ممدوحه (يوسف) الملك الناصر:

يـــسمى فيعـــزى كـــل مجـــد وســـؤدد إلى يائـــه والـــواو والـــسين والفـــاء

وقوله يعبث بلفظتي (الحب) و(الحس):

فلـــو أصـــبحت ذا حـــاء وســـين لمـــا عنفـــت في حـــاء وبـــاء

كما نلاحظ بالإضافة إلى ذلك استخدامه التورية بالاصطلاحات النحوية، نذكر من ذلك قوله:

ومعـــرب اللفـــظ لي مـــن نحـــوه أبـــداً حـــذف وصرف وإعـــلال وتنكـــير

ولحظه ساكن والقد منتصب والقرط مرتفع والمرط مجرور

وقوله:

لا تسألوا صبكم عن حبه فله من الإضافة ما يغني عن النسب

وراقبوا منه حالاً غير حائلة كما عهدتم وقلباً غير منقلب

كثرت المصطلحات النحوية وغيرها كثرة ظاهرة فقد استخدم معانيها، لا كما وضعت لها أصلاً، وإنما استخدمها بحسب مفهومه الخاص كمظهر من الرمز والإيحاء، فمن ذلك قوله:

مديح تخيرت القوافي محليا به رفعها والنصب والجزم والجرا

وقوله:

رفعت ذوي الإعراب من بعد خفضهم فأثنى عليك الرفع والنصب والجر

وقوله:

إذا فاعل رام ارتفاعاً بفعله ففعلك مرفوع بأنك فاعله

ولم يكتف بذلك، بل كان يحاول استخدام بعض المصطلحات العروضية أو البديعية منها قوله:

وبحر طويل الباع منسرح الندى بسيط المعالي وافر الفضل كامله

وقوله:

ووشت يد الأنواء برد رياضة بغرائب التوشيع والتفويف

يضاف إلى ما تقدم ذكره، وجود الجرس الموسيقي الشعري في قصائده، وقد رأينا أن الشاعر قد صرح برقة أغزاله، ومصدر هذه الرقة في نظرنا حسن اختياره الألفاظ الجميلة المعبرة، والقوافي ذوات الروي الموحى، والأوزان القصيرة أو المجزوءة التي تلاءم أغراضه ومعانيه. ذلك كله مع ما لاحظناه من تصنع فني بديعي، يؤلف الانسجام في مذهبه الفني، وقد أشار إلى هذه الصفة من خلال قوله:

واسمع بديع نظيم لا يساجله جزل من المدح في سهل من الغزل

يتضح مما أسلفنا أن الشرف الأنصاري كان رائد الشعراء الأول في مذهب التورية والانسجام، وقد أشار ابن حجة في خزانته إلى الفرقتين اللتين اعتنقتا هذا المذهب في مصر والشام على السواء.

- ٧ -

أبو الحسين الجزار
(٦٠١ هـ - ٦٦٣ هـ)

أ - حياته ونشأته:

هو جمال الدين يحيى بن عبد العظيم، ولد سنة ٦٠١ هـ إبان الدولة الأيوبية بالفسطاط، وكان والده يعمل بالجزارة. قال ابن سعيد: ((كان أبوه وأقاربه جزارين بالفسطاط دكاكينهم بها إلى الآن، قد عاينتها. وأبصرته معهم بها، وكان في أول أمره قصاباً مثل أبيه وقومه، فحام على الأدب مدة، وأكثر حوله حومه، فرفعت له في القريض راية بها جملة من أهل عصره)).

وتعلم ببلده الفسطاط والتقى بها وفي القاهرة بجماعة من العلماء والأدباء حتى توطدت بينه وبينهم الصلات أمثال جمال الدين بن مطروح الصاحب والوزير الشاعر المشهور، وزكي الدين عبد العظيم بن أبي الإصبع الشاعر الأديب، وكمال الدين بن العديم الكاتب العالم الأديب القفطي الأصل الحلبي الدار والمقام. قال الصفدي: وكان ابن العديم كلما جاء القاهرة لزمه ابن الجزار وقد اختار له مقطوعات من ديوان شعره سماه ((تقطيف الجزار)).

ب - شخصيته:

وقامت بينه وجماعة من شعراء القاهرة، وسائر الشعراء المصريين أمثال السراج الوراق والبوصيري والنصير الحمامي صداقات. وكان كثيراً ما يلقى ابن دانيال، وابن النقيب وغيرهما ويتسامرون في مجالس يتدارسون الشعر ويناشدونه.

وصحبه، واجتمع به جماعة من مشاهير علماء العصر كأثير الدين أبي حيان المغربي، وابن سعيد وابن خلكان، وابن النحاس، ورووا عنه شعره.

ج - شعره:

احترف الجزار الشعر وتكسب به حيناً، وتجول في بعض البلاد المصرية فأكثر الذهاب إلى الإسكندرية للقاء بعض ممدوحيه من القضاة والأمراء وكبار رجال الدولة، قال ابن كثير: ((مدح الملوك والأمراء والوزراء)). وكان بين من مدحهم وأكثر فيهم قاضي القضاة ابن بنت الأعز.

قال السبكي: إنه كان يصحبه فأراد بعضهم أن يكيد له عنده، ولكن القاضي كان يثق فيه ففوَّت على الساعي كيده. ومدح الصاحب زين الدين بن الزبير، والصاحب بهاء الدين بن حنا، وكان وزيراً وشاعراً وقاضي القضاة نصر الله بن بصاقة الوزير، والأمير علي بن سيف الدين قليج، والأمير حسام الدين بن يغمور (توفي سنة ٦٦٣ هـ). وصدر الدين القرميسي ناظر ثغر الإسكندرية. ومدح من الملوك الملك العادل ابن الكامل الأيوبي سلطان مصر.

ونبه في قول الشعر منذ شبابه الباكر. روى له ابن سعيد شعراً وهو في العشرين في مدح ابن بصاقة، وشعراً آخر وهو في النيف والعشرين في مدح القرميسي في الإسكندرية وغيره من الأعيان. ويبدو أن نفسه ملّت الاستجداء بالشعر فعانى ألماً. ومر بأزمة عارمة عدلت به عن التكسب بالشعر، فعاد إلى الجزارة حرفة آبائه وأجداده، فلما عاد عاتبه أحد أصدقائه. واسمه شرف الدين فقال له:

لا تلمني يا سيدي شرف الدين ... إذا ما رأيتني قصابا

كيف لا أشكر الجزارة ما عشت ... حفاظاً وأرفض الآدابا

وبها أضحت الكلاب ترجّيني ... وبالشعر كنت أرجو الكلابا

وكان إنساناً يجمع بين المروءة والكرم وحسن العشرة ونقاء السيرة إلى ميل مطبوع للدعابة. وصفه ابن سعيد فقال: ((من أحسن الناس شكلاً وأظرفهم، وأحلاهم بياناً، وألطفهم، وأبدعهم مطايبة، وأنظفهم، ذو بزة تصلح للرؤساء السراة، ومروءة لا توجد إلا عند السادة الأباة، وسلني عن ذلك فإني به خبير. مقر به حيثما قلقت ركابي وانتهى بي المسير. لما قدمت الديار المصرية من بلاد إفريقية لقيت فيها ما يلقاه الغريب في البلاد التي يقدم عليها ولم أجد من فيه من للمروءة نصيب ولا للآداب حظ حتى لقيته، فأنشدت:

لـــــيس عـــــلى الله بمـــــستنكر أن يجمـــــع العـــــالم في واحـــــد

إذ ألفيت فيه من التعصب والتأنيس والبر ما صيرني كأني في بلدي بين أهلي)).

وعرف بالكرم حتى الإسراف، قال أحد المؤرخين: ((كان كثير التبذير لا تكاد خلته تنسد، وكان مسرفاً على نفسه سامحه الله)).

ومدح الكرم والكرماء فقال:

لقـــد رضي الـــرحمن عـــن كـــل منفـــق فـــما بالنـــا نتقـــي رضـــا الله بالـــسخط

فعيـــب عـــلى الإنـــسان يعطيـــه ربـــه بغـير حـساب وهـو يحـسب مـا يعطـي

وقال:

إذا كـــان لي مـــال عـــلام أصـــونه ومـا سـاد في الـدنيا مـن البخـل دينـه

ومـــن كـــان يومـــاً ذا يـــسار فإنـــه خليـــق لعمـــري أن تجـــود يمينـــه

ووصفته بعض المراجع بالخلاعة والمجون.

وليس غريباً أن ينسب للشاعر فعل ما يقول زوراً، فقديماً قالوا عن عمر بن أبي ربيعة: إنه لم يفعل كل ما رواه شعره. وكان عمر بـن الـوردي الـشاعر معـاصراً للجـزار، وإن جـاء بعـده بسنوات، وقال كثيراً في الغزل بالغلمان، ولكنه اعتذر عنه بأنه كان طابع العصر، ثم تجنبه بعـد ذلك احترازاً وتعففاً.

وبلغ الجزار ولما يبلغ الأربعين مرتبة رفيعة في الشعر. فقد كان شـاعر الفـسطاط في عـصره وكان معاصره زكي الدين بن الإصبع شاعر القاهرة. (توفي سنة ٦٥٤ هـ)، وكـان يـذهب في شعره مذهب البهاء زهير في السهولة والميل إلى النمط الـشعبي، والقربـى مـن عامـة النـاس، يقول ابن سعيد: ((وطريقه من أسهل الطرق التي يميـل إليهـا العامـة، ولا ينكرهـا الخاصـة، لقرب مأخذها وحسن منزعها)).

وكان كثيراً ما يصحب أصدقاءه من الشعراء والأدباء في نزهات بين الرياض والمتنزهـات على ضفاف النيل في الفسطاط والقاهرة والجيزة، أو يذهبون إلى ثغر الإسكندرية، وشـهد ابـن سعيد بعضاً من تلك النزهات. وكانت له مع سراج الدين الوراق نوادر ومطارحـات شـعرية

كثيرة، ومن نوادره معه ما حكاه الغزولي، قال ((اتفق أن أبا الحسين الجزار قام مرة إلى بيت الخلاء فناوله السراج الوراق شمعة فقال الجزار: ((ما عادتي أقضي الشغل إلا على السراج)). ومن طرائفه: أنه بات ليلة في رمضان عند الصاحب بهاء الدين بن حنا. فصلى عنده التراويح وقرأ الإمام في تلك الليلة سورة الأنعام في ركعة واحدة.

فقال أبو الحسين:

ما لي على الأنعام من قدرة لاسيما في ركعة واحدة

فلا تسوموني حضوراً سوى في ليلة الأنفال والمائدة

وتذكرنا هذه النوادر بنوادر عصبة أخرى من شعراء العباسيين في القرن الثاني الهجري كان نجمها أبو نواس والحسين بن الضحاك الخليع.

وربما تأثر الجزار وجماعته بتلك العصبة وحاولوا تقليدها شعراً وسلوكاً.

وإلى ما جمع من دعابة أبي نواس. فهو ساخر سخرية ابن الرومي، مغرم مثله بالصور الهزلية وصفات المطاعم والمشارب. وله أبيات في الكنافة تذكر بأبيات ابن الرومي في القطائف والزلابية يقول الجزار:

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر وجاد عليها سكر دائم الدر

ويقول في الخبز:

قسماً بلوح الخبز عند خروجه من فرنه، وله الغداة تجار

ورغائف منه تروقك وهي في سجف التفال كأنها أقمار

من كل مصقول السوالف أحمر الخدين للشونير فيه عذار

وكأن باطنه بكفك درهم وكأن ظاهر لونه دينار

كالفضة البيضاء لكن يغتدى ذهباً إذا قويت عليه النار

والبيت الأخير يشير إلى قول ابن الرومي في قالي الزلابية، وقال في رمضان يذكر الحلوى التي تعمل فيه ويستهدي أحد أمراء العصر بعضها:

مـــــا رأت عينـــــي الكنافـــــة إلا عنـــــد بياعهـــــا عـــــلى الـــــدكان
ولعمـــري مـــا عانيـــت مقـــلي قطـــرا ســـــوى دمعهـــــا مـــــن الحرمـــــان
تـــــالله مـــــا لـــــثم المراشـــــف كـــــلا ولا ضـــــم المعـــــاطف
بألـــــذ وقعـــــاً مـــــن حـــــشا ي مـــــن الكنافـــــة والقطـــــائف

ويستهدي شرف الدين الفائزي بعضاً منها فيقول:

أيـــا شرف الـــدين الـــذي فـــيض جـــوده براحتـــه قـــد أخجـــل الغيـــث والبحـــرا
لـــئن أمحلـــت أرض الكنافـــة إننـــي لأرجـــو لهـــا مـــن ســـحب راحتـــك القطـــرا

ويصف حاله بصورة تذكر بشعر الشمقمق وابن الرومي والحمدوني يقول:

لي مـــن الـــشمس خلعـــة صـــفراء لا أبـــــالي إذا أتـــــاني الـــــشتاء
ومـــن الزمهريـــر إن حـــدث الغـــيم ثيـــــابي وطيلـــــساني الهـــــواء
بيتـــي الأرض والفـــضاء بـــه ســـور مـــــدار وســـــقف بيتـــــي الـــــسماء
لـــو تـــراني في الـــشمس والـــبرد قـــد انحـــلّ جـــسمي لقلـــت إني هبـــاء
لي مـــن الليـــل والنهـــار عـــلى الطـــول عـــــزاء لا ينقـــــضي وهنـــــاء
فكـــأن الإصـــباح عنـــدي لمـــا فيـــه حبيـــــب رقيبـــــه الإمـــــساء

وقال وقد مات حماره:

مـــات حمـــار الأديـــب قلـــت لهـــم مـــضى وقـــد فـــات منـــه مـــا فاتـــا
مـــن مـــات في عـــزه اســـتراح ومـــن خلـــف مثـــل الأديـــب مـــا ماتـــا

ورآه بعض أصحابه ماشياً بعد موت الحمار فداعبه، فرد عليه قائلاً:

كـــــم مـــــن جهـــــول رآني أمـــــشي لأطلـــــب رزقـــــا
وقـــــال لي صرت تمـــــشي وكـــــل مـــــاش ملقـــــى
فقلـــــت مـــــات حمـــــاري تعـــــيش أنـــــت وتبقـــــى ! !

وداعبه صديقه البوصيري فقال:

فـــلا بـــأس أيهـــذا الأديـــب فللمـــــوت مـــــا يولـــــد

إذ أنـــت عـــشت لنـــا بعـــده كفـــى وودك مـــــا يفقـــــد

ولم يخلص من مزاحه أحد. حتى زوجته وأهله المقربون، يقول في زوجه الولود:

ولـــه زوجـــة متـــى نظرتـــه حبلـــت ليتهـــا عجـــوز عقـــيم

ظـــل في أسرهـــا لأجـــل كتـــاب معلـــم يقتـــضي بـــه المعلـــوم

فهـــو يخـــشى الطـــلاق نقـــدا وإن دار وراهـــا يـــصده التحـــريم

ويستخدم تعبير (دار) وهو تعبير شعبي يستعمل الآن لمن يجري وراء النساء.

وقال في زوجة أبيه وهي طرشاء:

تـــزوج الـــشيخ أبي شـــيخة لـــيس لهـــا عقـــل ولا ذهـــن

لـــو بـــرزت صـــورتها في الـــدجى مـــا جـــرؤت تنظرهـــا الجـــن

د - أغراضه الشعرية:

١ - المديح:

وله في قصائد مطولة تجري على النسق التقليدي،تبدأ بالنسيب،ثم يعرض صفات الممدوح. وفيها يكيل الثناء، دون مبالغة تصدم الذوق، قال في صدر الدين عبد الرحمن القرميسيني، وكان ناظراً لثغر الإسكندرية:

سرى في دجى من شعره فحكى البدار وأبدى لنا من ثغره الأنجم الزهرا

وقد تلاعب في هذا المطلع بما يوصف به اللحظ من السكر والسحر. فهو مسكر كالخمر ساحر يأخذ بالمجامع والألباب. ويولد في هذه المعنى ويمط، على طريقة المولدين والبديعيين الذين شقَّ لهم ابن الرومي من قبل طريق التوليد للمعاني والألفاظ. ونراه في مطلع آخر يتلاعب باللفظ بين التجنيس والتورية فيقول:

بـــان اصـــطباري والكـــرى مـــذ بـــان بـــدر دجـــى يحملـــه غـــصن بـــان

شـــاهده القلـــب وإن كـــان قـــد غيـــب واســـتوحش منـــه العيـــان

ثم يقول:

واحـــــر قلبـــــاه والعـــــين في خديـــه مـــن حـــسنهما جنتـــان

في صـــــدغه الآس وفي خـــــده الـــورد وفي مبـــسمه الأقحـــوان

ويخلص من الغـزل في قـصائد المـديح بـضروب مـن الحيـل المعنويـة التـي يتـضمنها فـن (التخلص) كأن يقول وهو يمدح الصاحب جمال الدين بن مطروح:

يفـــضح الـــورد احمـــراراً خـــده وتـــود الخمـــر لـــو تـــشبه ريقـــه

فيـــه الحـــسن خليـــق لم يـــزل والمعـــاني بـــابن مطـــروح خليقـــه

ويقول في فخر القضاة ابن بصاقة:

وكـــم مـــن ليلـــة بتهـــا معتمـــراً ولي بزخـــرف آمـــالي كثـــير مـــن اليـــسر

أقـــول لقلبـــي كلـــما اشـــتقت للغنـــى إذا نـــصر الله تبَّـــت يـــد الفقـــر

قال الصفدي: (قلت: انظر إلى هذا الشاعر كيف تخلص، ووثـب إلى المـديح ومـا تـربص، وصدق نظمه في الحسن وما تخرص فخـذ عـلى مثالـه إن كنـت تحـذو. واغـذ بلبانـه إن كنـت تغذو).

ولا تخرج معاني مديحه من صفات الكرم، والصفات الغالبـة في مـديح الـشعراء، وتختلـف اختلافاً نوعياً بعدها باختلاف درجة المادح وصفته. فإذا كـان كاتبـاً أو وزيـراً وصـفه بجـودة الكتابة وحسن التوقيع. وسرعة البتِّ والحسم وما إليها. كقوله في ناظر البهنسا:

تتفـــاخر الكتـــاب منـــه بـــسيد لا يرتـــضي عبـــد الحميـــد غلامـــه

خـــط كـــوشي الـــروض حيـــاه الحيـــا فـــأدار بـــالمعنى عليـــك مدامـــه

فتكـــاد تـــدهش إن رأيـــت بنانـــه وتكـــاد تـــسكر إن ســـمعت كلامـــه

الـــسطر يحكـــي الغـــصن إذ هـــو مثمـــر وإذا ســـمعت بـــه حكيـــت حمامـــه

أما إذا كان الممدوح سلطاناً أميراً عسكرياً من رجال السيف فتختلف الحال ضرورة، كقوله في الأمير ابن يغمور:

رب بأس لناره أي ضرام وجود على العفاة يفيض
ثابت الجأش باسم الثغر والأبطال في لجة الدماء تخوض

وينظر في البيت التالي إلى قول المتنبي:

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

٢ - الغزل:

وغزله غزل تظرف وصنعة. ليس غزل وجد أو عشق، ويتصرف في معاني الغزل التقليدية فيسوقها في معارض متنوعة، يقول مثلاً:

طرف المحب فم يذاع به الجوى والدمع إن صمت اللسان لسان
تبكي الجفون من النوى فاعجب لمن تبكي عليه إذا نأى الأوطان

فهو يقول: إن العين تكشف المحبة. والدمع يذيع أسرار الهوى، والجفون تبكي لبعاد ساكنها الحبيب. أي طيفه، مع أنها أوطان له وهو ناء، فعجيب أن تبكي الأوطان على القطان!

٣ - الهجاء:

ولا تعثر للجزار على هجاء كثير إلا في مجال التطرف والهزل، لكن بعض الشعراء عبثوا به، كما يقول الصفدي، فهجاه من أهل عصره خلق كثير بالشعر والزجل. قال: وما كان فيمن هجاه من يقاربه في رتبة النظم، ثم يذكر بين من هجوه شاعر اسمه (مجاهد الخياط).

فليس يرجوه غير كلب وليس يخشاه غير تيس
إن تاه جزاركم عليكم بفطنة في الورى وكيس

وواضح من أكثر ما وصلنا من شعر الجزار عبَّر فيه عن حياته ومزاجه، كما اتخذه أحياناً وسيلة للكسب أو للوصول إلى ما ينبغي من مراتب، ولكنه حصَّل شيئاً وفاتته أشياء. وكان

مسرفاً يبذل كل ما يحصل عليه من مال. ولم ينل وظيفة كغيره من الشعراء واكتفى بالمجالسة والمنادمة للأعيان والوجهاء. ويقول مصوراً حاله هذه:

إن شئت تعرف في الآداب منزلتي ... وإنني قد عداني العز والنعم

فالظرف واللطف والأوجاق تشهد لي ... والعود والنرد والشطرنج والقلم

ويشكو شكوى الشعراء من جور الدهر على العلماء وإغداقه على الجهلة الأغبياء فيقول:

أشكو لعدلك جور دهر حائر ... فضلت به فضلاءه الجهال

منعت به عقلاؤه إذ قاسمت ... بالجور في أنعامه الأنفال

وهو معنى مشهور تردد في كلام الشعراء السابقين كأبي تمام والبحتري والمتنبي.

وبقي اسم الجزار علماً في الشعر في القرن السابع؛ لأنه احتفظ برقة المصريين وحلاوة منطقهم وخفة روحهم.

- ٨ -

الوراق

سراج الدين الوراق

(٦١٥ هـ -.....)

أ - حياته ونشأته:

ولد عمر بن محمد بن حسين بمصر وعاش بالقاهرة، وكان مطبوعاً على الدعابة والفكاهة وبراعة النكتة. وكان جميل الخلقة، أبيض الشعر أزرق العينين تثقف بثقافة عصره. وتولَّى بعض المناصب بالقاهرة، فتولى كتابة الدرج للأمير سيف الدين أبي بكر. واتصل ببعض الرؤساء. وخاصة بالصاحب بهاء الدين بن حنا، وكانت بينهما محاورات شعرية، وكان ابن حنا شاعراً مقرباً للشعراء وخاصة السراج والجزار وجماعتهما. ولازم الجزار وتطارحا الشعر. وتراسلا به. واشتركا في الحياة الأدبية. وفي الأسمار والمجالس معاً حتى مات الجزار قبل صاحبه، فقال في رثائه:

بلغت أبا الحسين مدى إليه لمسبوق ومستبق رهان
وكنت وطالما قد كنت أيضا تقول على الأولى سبقوك كانوا

وكان السراج شاعراً مكثراً.

وشعره الغالب سهل قريب من الكلام الجاري. لا يتكلف فيه التعقيد أو التقعّر، وفيه صنعة قريبة وكان حسن التخيل. جيد المقاصد. عذب التركيب قاعد التورية والاستخدام، عارفاً بالبديع وأنواعه.

ب - شخصيته:

١ - كان إماماً فاضلاً أديباً مكثراً متصرفاً في فنون البلاغة.

٢ - وشارك بشعره في أحداث عصره، فرثى سلطان مصر المعز أيبك التركماني بقوله:

نقيم عليه مأتماً بعد مأتم ونسفح دمعاً دون سفح المقطم
ولو أننا نبكي على قدر فقده لدمنا عليه نتبع الدمع بالدم

٣ - وشغل السراج باسمه أو لقبه ((السراج)) واستغله في شعره لاعباً بالتورية حيناً واللغز أحياناً، كما شغل الجزار باسمه وصنعته.

٤ - عاصر أبو الحسن الجزار والنصير الحمامي والسراج والوراق. وتطارحوا كثيراً وساعدتهم صنائعهم وألقابهم في نظم التورية حتى إنه قيل للسراج الوراق: لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك.

إذا بحت بالشكوى عتبت مباشرا بلا راحة في مدحه أتعبوا ذهني
يريدونني رطب اللسان ومن رأى سراجاً غدا رطب اللسان بلا دهن

وقوله:

إنني على الأنام وإني لم أهج خلقاً ولو هجاني
فقلت لا خير في سراج إن لم يكن ذاك في لساني

ولما عمر طويلاً حتى بلغ السبعين عاماً وتجاوزها قال:

إلهـي قـد جـاوزت سـبعين حجـة فـشكراً لـنعماك التـي لـيس تنكـر
وعمـرت في الإسـلام فـازددت بهجـة ونـوراً، كـذا يبـدو الـسراج المعمـر

ج - شعره:

ذهب مذهب الجزار في شكوى الفقر، وتصويره بلسان هازل، منه ما يحكى عن امرأته، وقد طلبت إليه الحصول على المال بالسعي، وترك الكسل:

قالـت جمعـت لفافـة كـسلا فـانهض وقـم وادأب لهـمّ العائلـة
فأجبـت هـل تـدرين لي سـببا قالـت: ولا وتـداً، وهـذي الفاصـلة

وقال يشكو الفقر لاحترافه قول الشعر:

مـا لي ونظـم الـشعر باتـت صـبوتي والنـاس قـد رغبـوا عـن الآداب
أأقولـه عتبـاً بـلا سـبب لـه والـشعر مبنـيّ عـلى الأسـباب

وكما وصف الجزار نصيفته فقد وصف السراج جوخته بقوله:

هـذا وجـوختي الزرقـاء تحـسبها مـن نـسج داود في سرد وإتقـان
قلبتهـا فغـدت إذ ذاك قائلـة سـبحان قلبـي بـلا قلبـي وأبـلاني
إن النفـاق لـشيء لـست أعرفـه فكيـف يطلـب منـي الآن وجهـان
لـو أن صـاحبها الجـزار أبـصرها عـليّ أبـصر لبـداً فـوق جربـان

ويشكو السراج في شعره أسماء بعض من يقصده من الرؤساء وصدهم له، ويكرر، أكثر من مرة فيقول ساعة:

وكـان النـاس إن مـدحوا أثـابوا وللكرمـاء بالمـدح افتخـار
وكـان العـذر مـن وقـت لوقـت فـصرنا لا عطـاء ولا اعتـذار

ويصور مواقف الصد وإغلاق أبواب ممدوحيه. ووقوف حراس سود عليها يحجبونهم فيقول:

أراه يـصد عنـي وهـو لاهٍ بنـوبيّ كليـل الهجـر والـصد

فـــإن لم يرعنـــي لبيـــاض لـــوني فيرعـــاني لحظـــي وهـــو أســـود

وقد تمر به لحظات يأس، كما مرت بصاحبه الجزار، فيقف ليسائل نفسه القناعة ما دام لا يستطيع الوصول إلى النوال المنشود يقول:

مـــا لي أذل وللقناعـــة عـــزة أنحـــو بهـــا مـــن ذلـــة وهـــوان

وأصـــون وجهـــي أن يـــذل لأوجـــه منحوتـــة مـــن عـــالم الـــصوان

والقـــوم كالأصـــنام والإســـلام نزهنـــي عـــن الأصـــنام والأوثـــان

ويعبِّر عن ضيقه بالحجاب بقوله:

لا ذقـــــت ذل حجـــــاب ولا وقوفـــــاً ببـــــاب

فقـــد ضـــنيت وقوفـــاً وقـــد قـــام شـــارب البـــواب

ويشكو من تقدم غيره ممن لا يستحق وتأخره، فيقول:

إذا لم ترتفـــع عـــن ســـفل قـــوم علـــوا وعلـــت مـــراتبهم علينـــا

صـــبرنا والزمـــان يـــرى علينـــا تعـــاظمهم فينـــزلهم إلينـــا

وترى صوراً أخرى من الشكوى غير شكوى الممدوحين وتثاقلهم أو جمودهم، مثل شكوى الصاحب والصديق. فيقول:

أفردتنـــي الأيـــام عـــن كـــل خـــل وأنـــيس وصـــاحب وصـــديق

فلـــو أني مـــشيت في شـــهر آب لأبـــى الظـــل أن يكـــون رفيقـــي

وتعم شكواه فتشمل الناس جميعاً والزمن فيقول:

زعمـــوا لبيـــداً قـــال في عـــصر لـــه ((وبقيـت في خلـف كجلـد الأجـرب))

وأراه أعـــدى خلفـــه مـــن خلقـــه جربـــاً وأعيـــا الـــداء كـــل مجـــرب

وتـــضاعف الجـــرب الـــذي عـــدواه لا تنفـــك عـــن مـــاض ولا متعقـــب

وتفـــاقم الـــداء العـــضال فخلقنـــا بلـــغ الجـــذام وعـــصرنا عـــصر وبي

د - أغراض شعره:

١ - الممازحة والدعابة في شعره:

ومما تطرق إليه السراج من الموضوعات الغزل، والممازجة والدعابة المتبادلة بين الأصدقاء.

ومن هذا الضرب المصنوع، قوله كذلك:

ومحجوبة أما الدجى فغدائر عليها وأما الصبح فهو جنينها

عجبت لمسرى الطيف من كناسها ومن حولها أسد الشرى وعرينها

ونلاحظ في هذه الأمثلة معاني الغزل المشهورة في الشعر القديم، ولكن أعيد عرضها في ثوب مبالغ فيه من صنعة البديع وخاصة التورية والجناس والاستخدام.

واستغل الشاعر في موضع آخر التشبيه المألوف للقدود بالقنا، والعيون بالسيوف القواطع بينها وولّد في قوله:

أغنتهم تلك القدود عن القنا ونضوا عن البيض الصفاح الأعينا

وحموا طروق الحي حتى لم يكن مسرى الخيال إليه أمراً ممكنا

٢ - مقطوعات في ألوان الطعام:

ومن موضوعاته مقطوعات في ألوان الطعام، وقال في القطائف:

قطائفك التي رقت جسوما لماضغها كما كثفت قلوبا

كغيم رق لكن فيه قطر غدا المرعى الجديب به خصيبا

٣ - شعر المناسبات:

وشارك في المناسبات فنظم القصائد وشارك غيره من الشعراء، كقوله في افتتاح المدرسة الظاهرية سنة ٦٦٢ هـ:

مليك له في العلم حب واصل فلله حب ليس فيه ملام

فشيدها للعلم مدرسة غدا عراق إليها شيق وشآم

هـ - اتكاؤه على التراث:

وكان السراج أكثر توفيقاً في مقطعاته الشعرية من القصائد، فلم يكن بالشاعر المجيد إذا قصد، وإنما مقطوعاته تجري لطيفة يسيرة، وغالباً ما يبنيها على نكتة أو مثل أو قول مأثور أو مفارقة لفظية أو معنوية.

يقول:

قلت إذ جرد لحظا حده يدني الأجل
يا عذولي كف عني سبق السيف العذل

ويقول:

أما السماح فقد مضى وقد انقضى فتسل عنه ولا تسل عن خبره
واسكت إذا خاض الورى في ذكره حتى يخوضوا في حديث غيره

وكثيراً ما تراه يبني مقطوعته على شطر قديم، كقوله:

وباخل ينشأ الأضياف حل به ضيف من الصبغ نزال على القمم
سألته ما الذي يشكو فأنشدني (ضيف ألم برأسي غير محتشم)

وهو مطلع قصيدة المتنبي المشهورة:

ضيف ألم برأسي غير محتشم والسيف أحسن وقعاً منه باللمم

ومنه قوله:

وضاع خصر لها ما زلت أنشده إذ رق لي ورثى للسقم من بدني
وقال لي بلسان من مناطقه (لولا مخاطبتي إياك لم ترني)

وهو من قول المتنبي كذلك:

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

ومنه قوله:

إذا ما جعلتم جفنة الصلح سكرا فقد جئتم الأمر الذي كان أصلحا

وأنـــتم أحـــق النـــاس أن تنـــشدوننا (لنـا الجفنـات الغـر يلمعـن في الـضحى)

وهو من قول حسان بن ثابت:

لنـا الجفنـات الغـر يلمعـن في الـضحى وأسـيافنا يقطـرن مـن نجـدة دمـا

ويعجب الصفدي قول السراج:

دع الهوينـــا وانتـــصب واكتـــسب واكـــدح فـــنفس المـــرء كداحـــه

وكـــن عـــن الراحـــة في معـــزل فالـــصفع موجـــود مـــع الراحـــة

ورغم ما نلاقيه في شعر السراج من تكلف الصنعة، فلا نعدم هنا وهناك لمحات ومضات شعرية تلمع، كقوله:

في خـده ضـل علـم النـاس واختلفـوا أللـــشقائق أم للـــورد نـــسبته ؟

فـــذاك للخـــال يقـــضي للـــشقيق وذا دليلـــه أن مـــاء الـــورد ريقتـــه

ومن رقيقه الذي لا يثقل برغم ما فيه من حلي البديع قوله:

شـــمت برقـــاً مـــن ثغرهـــا الوضـــاح والـــدجى ســـيره مهـــيض الجنـــاح

فتبـــارى شـــكّي بـــه ويقينـــي هـــل تجـــلّى الـــصباح قبـــل الـــصباح

فأجابـــت متـــى تبـــسم صـــبح عـــن حبـــاب أو لؤلـــؤ أو أقـــاح

ومتـــى كـــن للـــصباح نـــسيم المـــ ســـك أو نكهـــة كـــصرف الـــراح

- ٩ -

الحمامي
نصير الدين
أحمد بن علي المناوي المصري
(٦١٩ هـ - ٧٠٨ هـ)

أ - حياته ونشأته:

هو ثالث الثلاثة الظرفاء أصحاب الحرف، الذين تلازموا وتطارحوا الشعر، وكان الحمامي أقلهم رتبة وثقافة، تغلب على شعره روح العامة وكان يرتزق بضمان الحمامات.

ب - شخصيته:

وقال عنه أبو حيان: إنه كان أديباً كيس الأخلاق. ولد سنة ٦١٩ هـ، وعمل بالقاهرة، والتقى بعلمائها وأدبائها.

ج - شعره:

ولحقته حرفة الشعر. وكثيراً ما نوه بذكر حرفته كصاحبيه كقوله:

ومذ لزمت الحمام صرت فتى ... به يداري من يداريه
أعرف حر الأشياء وباردها ... وآخذ الماء من مجاريه

وقوله:

لي منزل معروفه ... ينهل غيثاً كالسحب
أقبل ذا العذر به ... وأكرم الجار الجنب

وكان يدعو أصحابه إلى الحمام ويحببه إليهم بالشعر.

ومن غزله:

إن الغزال الذي هام الفؤاد به ... استأنس اليوم عندي بعد ما نفرا
أظهرتها ظاهريات فقد ربضت ... بها الأسود رآها الظبي فانكسرا

وقال في النيروز وما وقع فيه من المساخر. وربطه بعدم وفاء النيل:

إن عجـــل النـــيروز قبـــل الوفـــا عجـــل للعـــالم بعـــدم وفـــاء القفـــا

فقـــد كفـــى مـــن دمعهـــم مـــا جـــرى ومـــا جـــرى مـــن نـــيلهم مـــا كفـــى

- ١٠ -

العزازي

شهاب الدين

أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم

(٦٢٧ هـ - ٧١٠ هـ)

أ - حياته ونشأته:

ولد سنة ٦٢٧ هـ وينسب إلى قرية عزاز قرب حلب بشمال الشام، وكان أحد شعراء العصر المعدودين. وفي الموشحات خاصة.

وفد من الشام إلى مصر وأقام بها وتطبع بطباع أهلها، واشتغل بالتجارة وكانت له دكان بقيسارية جهاركس بالقاهرة.

ب - شخصيته:

أحب الأدب واشتغل بعمل الشعر فمهر فيه وفاق أقرانه. وكان مطبوعاً لا يتكلف، وأعجب به معاصروه، وكان ينشد شعره لمن يلقاه من علماء مصر وأدبائها أمثال ابن سيد الناس وأبي حسان، ويبدو أنهما كانا يرشدانه فيه ويقومانه. وامتدح شعره جماعة من مؤرخي العصر كالصفدي وابن تغري بردي. وراسل بعض الشعراء كابن النقيب بشعره وله ديوان كبير. نقل عنه ابن شاكر في (فوات الوفيات)، وابن تغري بردي في (المنهل الصافي).

ج - موضوعات شعره:

وتعددت موضوعاته، وإن غلب عليه الغزل والمديح، وله قصيدة في المديح النبوي مشهورة.

١ - غزله:

ومن غزله قوله:

ويـــــا كثـــــير التجنـــــي منعـــــت عنـــــي ســـــلامك

وخنـــــت ذمـــــة صـــــب مـــــا خـــــان قـــــط ذمامـــــك

فمـــــن رأى ســـــوء حـــــالي بكـــــى عـــــلي ولامـــــك

فلـــــو أردت حيـــــاتي لمـــــا هـــــززت قوامـــــك

وله من النسيب التقليدي، قوله:

أرامـــة لـــلآرام كنـــت مراتعـــا فـــما لـــك للعـــشاق صرت مـــصارعا

فـــأين غـــصون كـــن فيـــك موائـــسا وأيـــن بـــدور كـــن فيـــك طوالعـــا

٢ - الحنين للشباب:

ويذكر في كهولته أيام الشباب فيقول مخاطباً زمان شبابه:

زمـــان شـــبابي كنـــت خـــير زمـــان فـــلا زلـــت مـــشكوراً بكـــل لـــسان

فللـــه كـــم جـــررت ذيـــل بطـــالتي وأطلقـــت للـــذات فيـــك عنـــاني

د - موشحاته:

تجري موشحاته على صور مختلفة البناء والصياغة، بعضها يجاري النسق المشهور للموشحات الأندلسية، والبعض الآخر يتصرف فيه بعض التصرف، وإن تمثل بالأصول من قفل. وغصن وخرجة ومزج أحياناً كبعض الوشاحين بين صياغة الموشح و(الدوبيت) فنظم الموشحات الدوبيتية كقوله:

مـــن لي بـــسقيم الجفـــن واهـــي الخـــصر يرنـــو بعيـــون كحلـــت بالـــسحر

كـــم أوضـــح لي عـــذاره مـــن عـــذر مـــا مـــال بـــه الـــدلال ميـــل الـــسكر

إلا ســـجدت لمعـــاطف الغـــزلان

في مرشـــفيه مـــوارد للقبـــل تحمـــى بفاتـــك لحظـــه والكحـــل

كـــم قلـــت لـــن أكثـــر فيـــه عـــذلي مـــا دام اســـوداد طرفـــه لم ينجـــل

فـــلا تطمـــع يـــا عـــذول في ســـلواني

ومن موشحاته الأندلسية الروح والطابع قوله:

اغتنم اللذات قبل الذهاب

وجر أذيال الصبا والشباب

بمقلة أفتك من ذي الفقار.

ذات احورار

منصورة الأجفان بالانكسار

زار وقد حل عقود الجفا

وافتر عن ثغر الرضا والوفا

فقلت والوقت لنا قد صفا

يا ليلة قد أنعم فيها وزار

شمس النهار

حبيبه من دون الليالي القصار

ومن موشح آخر جدد معاني السابقين في الغزل. وعرضها عرضاً مولداً فقال:

مـــا ســـلت الأعـــين الفـــواتر مـــن غمـــد أجفانهـــا الـــصفاح

إلا أســـــالت دم المحـــــاجر مـــن غـــير حـــرب ولا كفـــاح

بـــالله مـــا حـــرك الـــسواكن غـــير الظبـــاء الجـــآذر

هيهـــات أن تعـــدل القلـــوب عنهـــا ولـــو جـــارت المقـــل

هـ - تشيعه لآل البيت:

كان الشهاب العزازي متشيعاً لآل البيت، ويستدل على ذلك بقوله من أبيات:

تـــرى بعـــد الحـــسين يـــسوغ مـــاء ويحلـــو مـــورد العـــيش الهنـــي
وأي معيـــشة تحلـــو وتـــصفو وقـــد جـــار العـــدو عـــلى الـــولي
لقـــد ظلمـــوا ومـــا حـــازوا حقوقـــا لفاطمـــة البتـــول ولا الـــوصي

- ١١ -

مجاهد بن سليمان الخياط
(توفي سنة ٦٧٢ هـ)

أ - حياته ونشأته:

ولد مجاهد بن سليمان الخياط في القاهرة، وكان يسكن القرافة الكبرى بالمقطم، وبها توفي ودفن عام(٦٧٢هـ).

ب - شخصيته:

كان مجاهد بن سليمان يعمل بالخياطة في مدينة القاهرة، وتعلق بالشعر، وكان معاصراً لجماعة الشعراء الكبار في عصره،

ج - أغراض شعره:

١ - الهجاء:

أولع الخياط بالهجاء، فهجا الجزار وتسلط عليه كما يقول المؤرخون. قال ابن شاكر: (من كبار أدباء العوام، لكنه قرأ النحو، وفهم، وكان قد سلطه الله على أبي الحسين الجزار شاعر الديار المصرية).

ومن أهاجيه في الجزار قوله:

أبـــا الحـــسين تـــأدب مـــا الفخـــر بالـــشعر فخـــر
ومـــا ترشـــحت منـــه بقطـــرة وهـــو بحـــر
وإن أتيـــت ببيـــت ومـــا لبيتـــك قـــدر

لم تـــــأت بالبيـــــت إلا عليـــه للنـــاس حكـــر

وقال فيه:

إن تـــاه جـــزاركم علـــيكم بفطنـــة عنـــده وكـــيس

فلـيس يرجـوه غـير كلـب ولـيس يخـشاه غـير تـيس

٢ - إخوانياته:

اتصل الخياط بناصر الدين النقيب، وكان يعطف عليه، ويبعث إليه بالعطايا، وكان قد وعده مرة بإردب من القمح فجهز له أربع ويبات، وتأخر له ويبتان. فكتب إليه ابن الخياط:

يـــا ماجـــداً بـــالقمح قـــد جـــاد لي مـــا الـــذي ألجـــاك أن تمنعـــه

وقـــد شـــكا لي بعـــضه فرقـــة البـــاقي عـــسى مـــولاي أن يجمعـــه

فكتب إليه النقيب الجواب:

آتيـــك بـــاثنين مـــن حاصـــل إليـــك أو تبعـــث الأربعـــة ؟

تـــالله مـــا أخرتهـــا مانعـــا لهـــا ولا ذاك مـــن مطمعـــة

وإنـــما أخرتهـــا خيفـــة مـــن كفـــك المتلفـــة المـــضيعة

ومـــا عـــسى مقـــدارها عنـــدكم والألـــف مـــع مثلـــك مـــستودعة

٣ - غزله:

ويروى له غزل على طريقة التقليديين:

أعـــد يـــا بـــرق ذكـــر أهيـــل نجـــد فـــإن لـــك اليـــد البيـــضاء عنـــدي

أشـــيمك بارقـــاً فيـــضل عقـــلي فـــوا عجبـــاً تـــضل وأنـــت تهـــدي

وتبكيـــك الـــسحاب وأنـــت ممـــن تحمـــل بعـــض أشـــواقي ووجـــدي

بعثـــت مـــع النـــسيم لهـــم ســـلاما فـــما عطفـــوا عـــليّ لـــه بـــرد

- ١٢ -

ابن تولو المصري
معين الدين أبو عمرو
عثمان بن سعيد
(٦٠٥هـ - ٦٨٥هـ)

أ - حياته ونشأته:

ولد ابن تولو معين الدين أبو عمرو عثمان بن سعيد - بتنيس - سنة ٦٠٥هـ وتوفي ٦٨٥هـ بالقاهرة، وسمع الحديث وتفقه، وكانت له معرفة بالأدب، قال ابن تغري بردي: (وله يد طولى في النظم وشعره في غاية الجودة). وقيل: إن الشاعر محمد بن دانيال لما جاء مصر اتصل به وأخذ عنه طريقته. ويروى له بيتان قالهما عندما أمر قاضي مصر بقطع أرزاق الشعراء من الصدقات سوى أبي الحسين الجزار فقال:

تقدم القاضي لنوابه ... بقطع رزق البر والفاجر
ووقر الجزار من بينهم ... فاعجب للطف التيس بالجازر

- ١٣ -

قطنبة الأصفوني
حسن بن محمد بن هبة الله
(توفي سنة ٦٧٠ هـ)

أ - حياته ونشأته:

ب - شخصيته:

قال ابن حجر: ((كان شاعراً ماجناً كثير الهجاء. ظريف الحكايات)). وكان بينه وأحد شعراء عصره واسمه نبيه الدين عبد المنعم بن علي محاورات ومراجعات حتى كان أهل عصرهما يشبهونهما بالجزار والوراق. وكان فكهاً كثير المزاح والنوادر. ومن نوادره أنه صلى

العيد الأكبر، فذكر الخطيب قصة الذبيح، فبكى شخص بجانبه وعلا نحيبه. فقال له: إلى متى تبكي ؟ أما سمعته في العام الماضي يقول: إنه سلم ؟

ج - أغراض شعره:

١ - له بعض مقطوعات في الغزل قوله:

أسبت فؤادي المعنّى من تثنيها ... فتانة كل حسن مجمع فيها

إنسية مثل شمس الأفق قد بزغت ... وحشية في نفور خوف واشيها

٢ - ومن شعره الاجتماعي ما قاله مخاطباً والي قوص لينتصف له من متولي الحكم بأصفون بلده، وكان قد طالب زوجه بنصيبها في منزل:

قهرت بالجانب البحري طائفة ... فول وجهك يا مولاي قبليها

واترك بأصفون واكشف عن قضيتها ... وكف كف شهود أصبحوا فيها

عندي يتيمة تركيٍّ ظفرت بها ... لها من الله جدران تداريها

تعاونوا مع أمين الحكم واغتصبوا ... أخفوا وثائق فحوى خطهم فيها

حتى أبيعت عليها نصف حصتها ... ما حيلتي وأمين الحكم شاريها

ما زلت أفحص عن تلك الوثائق ... يا مولاي حتى أبان الله خافيها

وها هي الآن عندي وهي ثابتة ... فامض الولاية فيمن كان يؤذيها

- ١٤ -

البوصيري

شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري المغربي

أول شوال /٦٠٨ هـ/١٢١٢م/

أ - حياته ونشأته:

هو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري المغربي من قلعة حماد ولد أول شوال / ٦٠٨ هـ/ ١٢١٢م / في قرية - دلس - التابعة لبني سويف بمصر، حفظ القرآن في

بلده، ثم انتقل إلى القاهرة ليتم دراسته الدينية عمل ببعض الوظائف مطلع حياته، ثم أنشأ كتاباً لتعليم الناشئة.

ب - شخصيته:

عرف البوصيري بالظرف والدعابة وأظهر في أشعاره اتجاهاً صوفياً على طريقة الشاذلي والطريقة الصوفية، وقد كان أحد تلاميذ أبي الحسن الشاذلي وصحب أبا العباس المرسي، وقد تفقه في مصر والتحق بالخدم الديرانية قبل التحاقه بالشاذلي والمرسي، وعمل بديوان الإنشاء واستقر ببيبس في الشرقية وانتقد أهلها مشهراً بالآخذين بالرشوة.

نقدت طوائف المستخدمينا فلم أر فيهمو رجلاً أمينا

عايش البوصيري ابن عطاء الله السكندري وكانا تلميذين للمرسي حيث تحول البوصيري للشعر والسكندري للنثر والحكم.

ج - شعره:

نظم البوصيري بعض المدائح النبوية التي أظهر فيها اتجاهاً صوفياً على طريقة الشاذلي وبرع في النظم، وشعره في غاية الحسن واللطافة عذب الألفاظ منسجم التراكيب، ومن سبر شعره عرف مزيته وقد أُعجب السيوطي بقصيدته التي مطلعها:

كتب المشيب بأبيض في أسود بقضاء ملبيني وبين الخرد

وتخيم على شعره الدعابة وخفة الروح في الموضوعات غير الدينية، وعرف بالظرف كشعراء عصره في الموضوعات غير الدينية.

أقسام شعره: يقسم شعره إلى قسمين:

١ - الشعر الاجتماعي:

(المديح - الهجاء - شعر الشكوى)

وهو شعر بسيط في روحه وأسلوبه قريب إلى النفس والروح الشعبي لغة وتعبيراً يمتزج بخفة روحه وظرفه وخياله في ذم فوضوي الشرقية، وكذلك له شعر تحريض، فقد حرَّض البوصيري أحد أمراء المماليك على أهل الرشوة من الموظفين قائلاً.

فـلا تـدنِ مـنهم واحـداً منـك سـاعة ولـو فـاح مـن برديـه مـسك عنـبر
وبـرد فـؤادي بانتقامـك منهمـو فقـد كـاد قلبـي منهمـو يتفطـر

وللبوصيري شعر يشكو فيه أحوال الخاصة لأحد الوزراء واصفاً فقره وكثرة عياله:

يـا أيهـا الـوزير الـذي أيامـه طائعـة آمـرة
إليـك أشـكو حالنـا إننـا حاشـاك مـن قـوم أولي عـسرة

٢ - رثاؤه:

ومن رثائه رثاء الوزير المعروف بتاج الدين بن حنا / ٦٦٨هـ /

نـم هنيئـاً محمـد بـن عـلي بحمـير قـد مـت بـين يـديكا
لم تـزل عوننـا عـلى الـدهر حتـى غلبتنـا يـد المنـون عليكـا

٣ - شعر المدائح النبوية:

وهو شعر قوي رصين بدوي الصياغة يميل إلى تقليد القدماء في تعابيرهم وصورهم المعتمد بالجزيرة العربية (الحجاز) وتجري هذه المدائح النبوية على عكس الشعر الاجتماعي، وتدل بلاغته في هذه المدائح على استيعابه الكبير للشعر القديم ومعرفته المعمقة باللغة وأسرار النظم التقليدي ومدائحه النبوية معروفة ومتميزة.

أ - (البردة):

أمـن تـذكر جـيران بـذي سـلم مزجـت دمعـاً جـرى مـن مقلـة بـدم

ب - و(همزيته):

كيـف ترقـى رقيـك الأنبيـاء يـا سـماء مـا طاولتهـا سـماء

ج -و(لاميته): التي يعارض بها كعب بن زهير:

إلى متـى أنـت باللـذات مـشغول وأنـت عـن كـل مـا قـدمت مـسؤول

ولامية كعب بن زهير هي:

بانـت سـعاد فقلبـي اليـوم متبـول متـيم إثرهـا لم يُفـد مكبـول

وتدلل هذه القصيدة (قصيدة البوصيري) على مدى توغل الشاعر في علوم الأدب والدين.

وقد طور البوصيري كثيراً من معاني المديح والنسيب المتداولة في الشعر العربي بما يناسب مقام النبوة:

أكرم بخلق نبي زانه خلق ... بالحسن مشتمل بالبشر متسم

كالزهر في ترف والبدر في شرف ... والبحر في كرم والدهر في همم

كأنه وهو فرد في جلالته ... في عسكر حين تلقاه وفي حشم

٤ - غزله:

وله قصيدة غاية في الدعابة وخفة الروح والميل لها على لسان فتاة أنكرت شيب الشاعر بعد أن حاول مغازلتها:

أهوى والمشيب قد حال دونه ... والتصابي بعد المشيب الرعونة

أبت النفس أن تطيع وقالت ... إن حبي لا يدخل القنينة

د - مكانة شعره:

جمع البوصيري سمات عصره في شعره تاركاً أثرها على أسلوبه وصياغته مستخدماً

١ - التورية ومصطلح العلوم التي تعلق بها الفقهاء وفي أشعارها ومنظوماتها.

خفضت كل مقام بالإضافة إذ ... نوديت بالرفع مثل المفرد والعلم

٢ - والمعاني الصوفية التي لا تبدو في مدائحه باستثناء البردة، ولكنه في قوله:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

ولن يضيق رسول الله جاهك لي ... إذا الكريم تجلى باسم منتقم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

ويبدو أنه قد أسرف في:

١ - نسبة أفعال من خصوصية الخالق إلى أفعال يتميز بها البشر وإن كانوا أنبياء فلا يجوز أن يلاذ بهم، ولا يلاذ إلا بالله.

٢ – جعله الدنيا وضرتها من جود الرسول، وهي من جود الله تعالى.

٣ – جعله علم اللوح من علم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا العلم من اختصاص الله تعالى.

٤ – وجعله الروح من علم الرسول صلى الله عليه وسلم مع العلم أنها من أمر الله تعالى.

٥ – وجعله علم القلم من علم الرسول صلى الله عليه وسلم مع أنه علم الله تعالى المحض.

- ١٥ -

مجير الدين بن تميم
محمد بن يعقوب بن علي
(توفي سنة ٦٨٤ هـ)

أ - حياته ونشأته:

ولد في دمشق سنة ٦٨٤ هـ، وانتقل إلى مدينة حماة السورية، وخدم صاحبها الملك المنصور جندياً، وكان له به اختصاص.

ب - شخصيته:

١ – كان محمد بن يعقوب رجلاً فاضلاً شجاعاً عاقلاً ويعد من فحول شعراء الشام.

٢ – وكان كما يقول المؤرخون مطبوعاً على كريم الأخلاق بديع النظام لطيف التخيل.

٣ – وقال ابن العماد: (وكان من العقلاء الفضلاء الكرماء وشعره غاية في الجودة).

٤ – وقال الصفدي عنه: (إنه ممن أجاد التضمين وبلغ الغاية).

وقال عنه في موضع آخر: (وأكثر ما أجاد في التشبيه والتورية والتضمين).

ج - أسلوبه الشعري:

بديع النظام لطيف التخيل أجاد التضمين وبلغ الغاية وشعره غاية في الجودة.

١ – قال في كثرة تضمينه:

أطـــــالع كـــــل ديـــــوان أراه ولم أزجـــر عـــن التـــضمين طـــيري

أضـــمن كـــل بيـــت فيـــه معنـــى فـــشعري نـــصفه مـــن شـــعر غـــيري

وقال ابن شاكر عنه: (وهو في التضمين الذي عاناه من فضلائه المتأخرين آية وفي صحة المعاني والذوق اللطيف غاية؛ لأنه يأخذ المعنى الأول ويحل تركيبه وينقله بألفاظ إلى معنى ثان حتى كان الناظم الأول إنما أراد به المعنى الثاني، وقد أكثر من ذلك). ومن تضمينه لشطر من شعر زهير قوله:

تعبـــت حتـــى جـــوادي لا حـــراك بـــه يكـــاد مـــن هـــزه للـــركض ينخـــرم

فـــلا يغرنـــك منـــه منظـــر غلـــط إن الجـــواد عـــلى علاتـــه هـــرم

ومنه تضمينه لنصف بيت المتنبي ووصف قدحاً أهداه:

أهديتـــه قـــدحاً فـــإن أنـــصفته أوســـعته لجمالـــه تقبـــيلا

نظمـــت بـــه الـــصهباء در حبابهـــا حتـــى يـــصير لرأســـه إكلـــيلا

ومما أعجب به الصفدي هذان البيتان يصور فيهما فرساً له صغيراً، وقد ركبه فتدلت قدماه إلى الأرض:

يقول:

وطـــرف تخـــط الأرض رجـــلاي فوقـــه إذا مـــشى ضـــاقت عـــلي المنـــافس

ومـــا أنـــا إلا راجـــل فـــوق ظهـــره ولكننـــي فـــيما تـــرى العـــين فـــارس

ويرسم مجير الدين الصور الجميلة بخطوط رشيقة يحسن فيها استخدام التشبيه والاستعارة ويبرع خاصة في صفات الرياض والزهر والمياه، وما إليها من مشاهد بصرية.

د - أغراضه الشعرية:

١ - وصف الطبيعة:

- يقول واصفاً وردة متفتحة وكتب بها مع وردة أهداها:

ســـيقت إليـــك مـــن الحـــدائق وردة وأتتـــك قبـــل أوانهـــا تطفـــيلا

طمعت بلثمك إذ رأتك فجمعت فمها إليك كطالب تقبيلا

- وعبر عن حبه للروض والزهر بقوله:

لم لا أهم إلى الرياض وزهرها وأقيم منها تحت ظل وارف

والغصن يلقاني بثغر باسم والماء يلقاني بقلب صافي

- وقد نقل ابن فضل الله العمري أنه كان عاشقاً للروض، وكان يتردد مع جماعة من أصحابه على الرياض والمنازه والمياه الجارية.

- ولمجير الدين زهريات على طريقة الأندلسيين متنوعة هي مقطوعات كل مقطوعة من بيتين أو ثلاثة أو خمسة.

يقول في الورد والبنفسج:

عاينت ورد الروض يلطم خده ويقول وهو على البنفسج يخنق

لا تقربوه وإن تضوع نشره ما بينكم فهو العدو الأزرق

- ومنها قوله في النرجس والمنثور:

مذ لاحظ المنثور طرف النر جس المزرور قال وقوله لا يدفع

فتح عيونك في سواي فإنما عندي قبالة كل عين إصبع

وقال:

كيف السبيل للثم من أحببته في روضة للزهر فيها معرك

ما بين منثور وناظر نرجس مع أقحوان وصفه لا يدرك

هذا يشير بإصبع وعيون ذا ترنو إليه و هذا يضحك

- وقال في مشاهد الطبيعة مقطوعات أخرى تصف الأنهار والدواليب والبرك والنافورات ويمزج القول بالزهر والغزل، وقد شغف حباً بالرياض والشراب والغناء وردد في شعره فقال:

قالوا رأيناك كل وقت تهيم بالشرب والغناء

فقلت إني فتى قنوع أعيش بالماء والهواء

- ووصف الأنهار والمياه الجارية والنواعير وربما تأثر فيها ببيئة حماة، قال:

فيا حسنها روضة ضاع نشرها فنادت عليه في الرياض طيور
ودولابها كادت تذوب ضارعة لكثرة ما يبكي بها ويدور

وقال:

وناعورة قد ألبستها حبالها من الشمس ثوباً فوق أوراقها الخضر
كطاوس بستان ويثنجلي وينفض عن أرباضه بلل القطر

٢ - غزله:

ويجري غزله في مقطوعات قصيرة ويعمد أحياناً إلى عرض معاني الغزل القديمة عرضاً جديداً، ومنه قول عنترة:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمي

فقال:

ألا من مبلغ المحبوب أني وقفت وللظبا حولي صليل
وأني جلت في جيش الأعادي برمحي وهو في فكري يجول

ومن لطيف معانيه قوله وقد نسخ فيه معنى المتنبي:

مولاي قد كثرت ليالي هجرنا حتى عجزت سلمت لي عن عهدها
أودع فمي التودع قبلة وأنا الكفيل إذا رجعت بردها

ويقول: إنه يجب الاستمتاع بمفاتن الحياة ومحاسنها والابتعاد عن مشكلات الناس والحياة:

من كان يرغب في حياة فؤاده وصفائه فلينأ عن هذا الورى
فالماء يصفو نائياً وإذا دنا منهم تغير لونه وتكدرا

وغادر مجير الدين حماة فترات قليلة من حياته فجاء إلى مصر، وسافر إلى الإسكندرية ووصفها في بيتين قال فيهما:

لمـــا قـــصدت الإســـكندرية زائـــرا مـــلأت فـــؤادي بهجـــة وسرورا
مـــا زرت فيهـــا جانبـــاً إلا رأت عينـــاي فيهـــا جنـــة وحريـــرا

هـ - عنايته بالتشبيه:

والشاعر دقيق التشبيه يلتقط صوره ويحبك صوغها، منها قوله في الفحم والنار:

كـــأنما النـــار في تلهبهـــا والفحـــم مـــن فوقهـــا يغطيهـــا
زنجيـــة شـــبكت أناملهـــا مـــن فـــوق نارنجـــة لتخفيهـــا

ويصور حمائم الروض تشدو على الأيك فيقول:

هـــذي الحمائـــم في خمائـــل أيكهـــا تمـــلي الغنـــا والطـــل يكتـــب في الـــورق
والقـــضب تخفـــض للـــسلام رؤوســـها والزهـــر يرفـــع زائريـــه عـــلى الحـــدق

- ومنه صورة نهر يحمل أوراق الشجر والزهر المتساقط ويجري بها تياره:

ونهـــر حـــالف الأهـــواء حتـــى غـــدا طوعـــاً لهـــا في كـــل أمـــر
إذا سرقـــت حـــلى الأغـــصان ألقـــت إليـــه بهـــا فيأخـــذها ويجـــري

و - حكاياته الشعرية مع الملك المنصور:

١ - حكي: أن الملك المنصور (صاحب حماة) استدعاه في ليلة غفل رقيبها وحضر ربيبها وسحبت من سود الذوائب ضفائرها وسحبت من سود الأيام ضرائرها إلى مجلس مزخرف، وفواكه لم تقطف وأمامه جدول خسر ماؤه فتكسر، وأن عليه كل بارق وتحسر والكؤوس دائرة والشموس في أيدي البدور دائرة، فلما رأى الجدول إصابته من العين نظرة فتعثر وسقط عقد لؤلؤة وتنثر نظر إليه، وقال رحمة الله عليه:

يـــا حـــسنه مـــن جـــدول متـــدفق يلهـــي برونـــق حـــسنه مـــن أبـــصرا

٢ - وقيل: إنه أتى بركة فعب من مائها ورأى خيال قمره في سمائها فقال:

أفـــدي الـــذي أهـــدى بفيـــه شـــاربا مـــن بركـــة طابـــت وراقـــت مـــشربا
أبـــدت لعينـــي وجهـــه وخيالـــه فـــأرتني القمـــرين في وقـــت معـــا

فلما طلع ابن ذكاء وأنار الصبح وأضاء شكر له المنصور حل عقدة الغلام وقال: مثلك من سحر بالكلام، ثم أحسن له الجائزة وغدا ابن تميم ويده له حائزة.

٣ - وقال ابن فضل الله في موضع آخر:

وحكي أنه جلس على بحيرة أشرقت سماؤها وطاف بكعبة المجلس ماؤها، والشمس قد توسطت الظهيرة، وأرخت ذوائب أشعتها الضفيرة، واللجة قد نصبت في كل ناحية حبالة وتناومت عينها، فما رأت من الشيء إلا خياله والماء قد لبس من شعاع الشمس الغلالة وغابت سباع البركة فلعبت الغزالة قال:

ولما احتمت منا الغزالة بالسما وعز على قناصها أن ينالها

نصبنا شباك الماء في الأرض حيلة عليها فلم نقدر فصدنا خيالها

٤ - وذكر ابن فضل الله العمري أنه حضر في مجلس بعض الأكابر وقد غص المجلس وبهتت فيه عيون النرجس وضمخت فيه أصابع المنثور وأعطى فيه أمير الحسن ذؤابة شعره المنشور فقال ابن تميم:

كيف السبيل لأن أقبل خد من أهوى وقد نامت عيون الحرس

وأصابع المنشور تومي نحونا حسداً وتغمرنا عيون النرجس

٥ - وحكي عنه:

أن المنصور استدعاه في صبيحة يوم أبيض وندبات الياسمين على الأرض تنفض والثلج قد نثر كافوره والجليد قد كسر بلوره والسحاب قد أصبحت ذيوله مجرورة والبرق قد تلون طول ليلته حتى أخرجها... قد خبأت مسكها فزاد تضوع، وكثر طيبه تنوعاً قد فاح وعلم بنقطها في خده أنه قد تم وصف التفاح، فلما دخل عليه في بكرة ذلك اليوم الأغر ورأى الدنيا ضاحكة تفتر أنشده:

يا أيها الملك الذي بسطت له بالجود كف دهرها لم تقبض

دنياك مذ وعدت بأنك لم تزل في نعمة وسيادة لا تنقضي

كان الدليل على وفاها أنها أضحت تقابلنا بوجه أبيض

فأجزل له الصلة ولم تكن عوائده بمنفصلة.

ز - خاتمة:

وهكذا عاش مجير الدين:

١ - محباً للحياة.

٢ - عاشقاً للجمال في أي شيء مظاهره وخاصة جمال الطبيعة فخلا إليها.

٣ - وحفل شعره بصور فريدة تأمل فيها محاسن الطبيعة وملاذ الحياة.

٤ - وأودعها على التصور والإبداع.

٥ - وهي قدرة قليلاً ما نرى لها بين شعراء الوصف.

- ١٦ -

شرف الدين الحموي
عبد العزيز بن محمد
(٥٨٦هـ - ٦٦٢هـ)

أ - حياته وشعره:

ولد بدمشق ٥٨٦هـ، وسكن حماة، وتوفي بها بعد أن عُمِّر وسمع الحديث وتفقه واتجه إلى الأدب فأتقنه. تولى بعض المناصب وعمل بالتدريس بمدارس حماة وأفتى وتقدم عند ملوك عصره وترسل غير مرة.

ب - شخصيته:

قال ابن تغري بردي:(وكانت له الوجاهة التامة واليد الطولى في الترسل والنظم وشعره في غاية الحسن).

وكان من الأذكياء المعدودين وله محفوظات كثيرة.

ج - شعره:

١ - شاعر من شعراء حماة ممن ضمهم بلاط الملك المنصور.

٢ – قال فيه الصفدي: (لا أعرف في شعراء الشام بعد الخمسمئة وقبلها من نظم أحسن منه ولا أجزل ولا أفصح ولا أصنع ولا أسرى ولا أكثر، فإن له في لزوم ما لا يلزم مجلداً كبيراً، وما رأيت له شيئاً إلا وعلقته لما فيه من النكت والتوريات الفائقة والقوافي المتمكنة والتراكيب العذاب واللفظ الفصيح والمعنى البليغ، لقب بالصاحب وشيخ الشيوخ وانتسب إلى الأوس من الأنصار.

تتلمذ عليه جماعة من الشيوخ المشهورين كاليونيني والدمياطي وابن الظاهري وابن جماعة.

٣ – ويروي له ابن بردي أبياتاً منها قوله:

إن قوماً يلحون في حب سعدي ... لا يكادون يفقهون حديثا

سمعوا وصفها ولاموا عليها ... أخذوا طيباً وأعطوا خبيثا

- ١٧ -

أيدمر المحيوي

أ - حياته ونشأته:

نشأ في الدوحة السعيدية فنمت أزاهره وطلع بالسماء النباتية فتمت زواهره، جمعت لأفنانه أنواع الفنون حتى خرج آية في كل فن.

ب - شخصيته:

كان مملوكاً تركياً فأعتقه سيده ولقيه ابن سعيد المغربي عند حضوره إلى مصر والشام وترجم له في كتاب المشرق فقال: بأي لفظ أصفه ولو حشدت جيوش البلاغة لفظه لم أكن أنصفه.

ج - شعره:

١ – برع في المنثور والمنظوم مع الطبع الفاضل الذي عقده وبلغه من رياسة هذا الشأن ما قصده لاسيما حين سمعت قوله الذي أتى فيه بالإغراب وترك مهياراً معلقاً منه بالإعجاب:

بـــالله إن جـــزت الغـــوير فـــلا تغـــر بـــاللين منـــك معـــاطف الأغـــصان
واســـتر شـــقائق وجنتيـــك هنـــاك لا ينـــشق قلـــب شـــقائق الـــنعمان

٢ – وأورد له ابن شاكر مقطوعـات وقـصائد وموشـحات تـشير إلى براعتـه في الوصـف والغزل وتشهد برقة لفظه وحسن معناه ومنها روضيته القافية التي يقول فيها:

الـــروض مقتبـــل الـــشبيبة موفـــق خـــضل يكـــاد غـــضاره يتـــدفق
نثـــر النـــدى فيـــه لآلـــئ عقـــده فـــالزهر منـــه متـــوَّج وممنطـــق
وارتـــاع مـــن مـــر النـــسيم بـــه ضـــحى فغـــدت كمائـــم ورده تتـــدفق
وسرى شـــعاع الـــشمس فيـــه فـــالتقى منهـــا ومنـــه ســـنا شـــموس تـــشرق
والغـــصن ميـــاس القـــوام كأنـــه نـــشوان يـــصبح بالنـــسيم ويغبـــق
والطـــير ينطـــق معربـــاً عـــن شـــجوه فيكـــاد يفهـــم عنـــه ذاك المنطـــق
غـــرداً يغنـــي للغـــصون فينثنـــي طربـــاً جيـــوب الطـــل منـــه تـــشقق
والنهـــر لمـــا راح وهـــو مسلـــسل لا يـــستطيع الـــرقص راح يـــصفق

٣ – وأورد له ابن شاكر موشحات شعرية تدل على اقتداره في هـذا الفـن حيـث يقـول في موشح منها:

بـات وسـماره النجـوم، سـاهر، فمـن تـرى علَّمـك الـسهد يـا جفـون ؟
صـــبا إلى مـــذهب التـــصابي صـــابي، لا يعـــدل
فجنبـــه خـــافق الجنـــاب نـــابي، مبلبـــل
والطـــرف منـــه دائـــم الـــسكاب كـــابي، مخبـــل
لـسانه للهـوى كتـوم سـاتر لمـا جـرى والـشان أن تكـتم الـشجون
ســـباه مـــستملح المعـــاني عـــانى، بـــه البـــصر
يـــذكر عـــن شـــدوه الأغـــاني غـــانى، إذا ذكـــر
يقـــول مـــا نـــاظر رآني رآني، إلا القمـــر

يرنــو إلى وجهــه الحلــيم حــائر لا يــرى مــرأى بــه تفــتن العيــون

مـــــن أيـــــن للبـــــدر في الكـــــمال مـــــا لي فيوصـــــف

والغـــصن هـــل عطفـــه بحـــالي حـــالي، مزخـــرف

وعـــــارض الـــــنقض للهـــــلال لالي، التكلـــــــــف

- ١٨ -

ابن المرحل
صدر الدين بن الوكيل
محمد بن عمر
(٦٦٥ هـ - ٧١٦ هـ)

أ - حياته ونشأته:

ولد بدمياط على أوثق الأقوال سنة ٦٦٥ هـ وانتقل مع والده الذي تولى وكالة بيت المال، ومنها استمد لقبه إلى دمشق وظل بها زمناً فنشأ وأخذ عن والده زين الدين عمر الفقه وتتلمذ على جماعة من المشهورين مثل ابن علان والقاسم الأربلي وشرف الدين المقدسي، وتعلم النحو على بدر الدين بن مالك والفقه على العلامة صفي الدين الهندي، وعنه أخذ بعض اتجاهاته الكلامية؛ وكانت إقامته بالقاهرة في أخريات حياته قرب مسجد الحاكم بأمر الله ظل به إلى أن مات سنة ٧١٦ هـ.

ب - شخصيته:

١ - كان شافعياً أتقن فقه الشافعي حتى أفتى فيه وهو شاب في العشرين.

٢ - قال ابن كثير: هو شيخ الشافعية في زمانه وأشهرهم في وقته بالفضيلة وكثرة الاشتغال والمطالعة والتحصيل والافتتان في العلوم العديدة، وقد أجاد في معرفة المذهب والأصلين. وسمع الحديث النبوي الشريف وقرأ كتب السنة المطهرة.

٣ - قال ابن كثير: وكان يتكلم على الحديث بكلام مجموع من علوم كثيرة من الطب والفلسفة وعلم الكلام وليس ذلك بعلم وعمل بتفسير القرآن.

٤ – وكان إلمامه بكثير من العلوم العقلية والطبيعية والاستعانة بها في رأيه وكتاباته ودروسه موضع مؤاخذة من علماء السنة المحافظين كابن كثير.

٥ – كذلك قالوا: إنه كان غير مجيد للنحو برغم أخذه عن بدر الدين بن مالك ابن صاحب الألفية.

٦ – قال ابن كثير: وكان يقع منه اللحن الكثير.

٧ – وكان اتجاه ابن الوكيل في علمه عقلياً أشعري العقيدة واهتم بدراسة الطب في أخريات عصره.

٨ – وأما الأدب فقد حفظ منه كثيراً من الكتب المشهورة كالمقامات وديوان المتنبي ويقال: إن مجموع ما حفظه من الكتب إذا وضع بعضه على بعض كان طول قامته.

٩ – وقد عرف بقوة حافظته وذكائه، وكان لا يمر بشاهد إلا حفظ القصيدة كلها.

قال ابن العماد: كان أعجوبة في الذكاء.

ج - اشتغاله بالتدريس والعلوم:

١ – واشتغل بالتدريس في مدارس دمشق وحلب والقاهرة، ففي دمشق درس بالشامية البرانية والشامية الجوانية وتولى دار الحديث الأشرفية والمدرسة العذراوية.

٢ – وتولى الخطابة بالجامع الأموي زمناً لكن الناس لم يمكِّنوه من الاستمرار، قال ابن كثير (إن الناس قاموا عليه وأخرجوها أي الخطابة من يده).

٣ – وفي مصر درس بالمشهد الحسيني وظل به حتى وفاته، وكان يختلف في أثناء ذلك إلى مدرسة الإمام الشافعي والناصرية.

٤ – ولم يشغل ابن الوكيل شيئاً من وظائف الدولة. إنما عمل بالأدب والعلم والتدريس، وحاول أحد كبار رجال الدولة وهو ابن الرفاقي أن يعينه في وكالة بيت المال وسعى له فيها، ولكنه أبى وكتب له يستعفيه منها شعراً:

إلى بابك المأمول وجهت آمالي ... وفي فضلك المعهود قصدي وإقبالي

وأنت الذي في الشام مازال محسنا ... إليّ وفي مصر على كل أحوالي

أتتني أياد منك في طي بعضها ... تملك رق الحر بالثمن الغالي
وقمت بحق المكرمات وإنما ... هو الرزق لا يأتي بحيلة محتال
عليّ لكم أن أعمر العمر بالثنا ... وبالمدح مهما عشت من غير إخلال
وقد بقيت لي من بعد ذلك حاجة ... لها أنت مسؤول فلا تلغ تسآلي
أرحني من باب الوكالة عاطفا ... عليَّ بإحسان بدأت وأفضال
ومن ماء وجهي عن مشاقة الورى ... فهذا على أرض وهذا على مال
ولا تتأول في سؤالي تركها ... فوالله ما لي نحوها وجه إقبال
ورزقي يأتيني وإني لقانع ... لراحة قلبي من زماني بإقلال

٥ - واتصل صدر الدين إبان وجوده بدمشق بجماعة من نواب السلطان، ودخل في النزاع الذي قام بين أمراء المماليك السلار وبيبرس الجاشنكير والسلطان الناصر محمد بن قلاوون، والذي أنهي بخروج السلطان من القاهرة واعتزاله بالكرك بالشام.

د - مواقف العلماء والأدباء منه:

واختلف فيه معاصروه فأما أصحابه من الشافعية فقد أحبوه وأجلوه.

١ - قال تاج الدين السبكي: (كان الوالد رحمه الله تقي الدين يعظم الشيخ صدر الدين ويحبه ويثني عليه بالعلم وحسن العقيدة ومعرفة الكلام على مذهب الأشعري).

٢ - وذكره القاضي شهاب الدين بن فضل الله العمري في (تاريخه مسالك) الأبصار فأثنى عليه قائلاً: (إمام له نسب في قريش أعرق وحسب في عين شمس أشرق، وعلم لو أن البحر سطا شبهاً غرق وفهم لو أن القمر سطع نظيره لأحرق وثبت طنبه على المجرة ومد رواقه فتلألأت بالمسرة ونشر رايته البيضاء الأموية وحولها ثغور الكواكب المضية، وارتفع أن يقاس بنظير واتضع والثريا تاج فوق مفرقه والجوزاء تحته سرير) وذكرنا طرفاً من أقواله ونضم إليها قوله فيه كذلك: له أصحاب يحسدونه ويحبونه وآخرون يحسدون ويبغضونه، وكانوا يتكلمون فيه بأشياء ويرمونه بعظائم..

٣ - وقال ابن كثير مرة أخرى: (ثم خالط نائب السلطنة فجرت له أمور لا يمكن ذكرها ولا يحسن من القبائح). ولكن السبكي يدفع عنه اتهامات ابن كثير وغيره في طبقاته فيقول:

(وتقلبت به الأحوال وله مع ابن تيمية المناظرات الحسنة وبها حصل عليه من أتباع ابن تيمية وقيل فيه ما هو بعيد عنه وكثر القائل فارتاب العاقل).

٤ - والأمر الظاهر من هذا كله أنه كان عالماً متحرراً فكراً وسلوكاً يجالس الناس، ولا يتزمت في مظهره وسلوكه وكان حسن المظهر مهتماً بهندامه حسن الشكل حلو المجالسة وعنده كرم مفرط على حد قول ابن تغري بردي.

٥ - وقال ابن شاكر وكان مع اشتغاله يتنزه ويعاشر وقال: وكان حسن البزة حلو المجالسة طيب المفاكهة وعنده كرم مفرط كل ما يحصل له ينفقه بنفس ملوكية.

٦ - وذكر الشوكاني بعضاً من كيد أعدائه وحساده ومحاولتهم إقامة الدعوى عليه، ولكن رد كيدهم بحسن صلاته.

هـ - مزاجه وأخلاقه وعلاقاته وذكاؤه:

١ - ومما روى عنه أنه كبس فوجد مع جماعة يشربون الخمر فأمر النائب بمصادرته فبادر اليوم الثاني إلى القاضي وأثبت محضراً شهد فيه الذين كبسوه أنهم لم يروه سكران ولا شموا منه رائحة الخمر وإنما وجدوه في ذلك البيت وفي المكان زبدية خمر وشفع له بعض الناس فأعفى من المصادرة، ثم جاء كتاب السلطان بعزله من جميع جهاته التي كان يدرس بها، ثم عينت له بعد أيام وظائف كثيرة وتقدم واشتهر صيته وكانت له وجاهة عند الدولة.

٢ - وقال ابن حجر: وكان فيه لهو ولعب.

٣ - قال الصفدي: (حكى لي جماعة ممن كانوا يعاشرونه في خلواته أنه كان إذا فرغ توضأ ولبس ثياباً نظيفة وصلى ومرغ وجهه في التراب).

٤ - وقد روى أنه كان يتردد إلى الصلحاء ويلتمس دعاءهم ويطلب بركتهم.

٥ - قال ابن الوردي. إنه كان إذا جد أسال المدامع أو هزل أذهل السامع.

٦ - ومما يروى عن طباعه أنه كان في صداقته يقبل على صاحبه أول الأمر، لكنه سرعان ما يمل ويتجافى.

٧ - قال ابن شاكر: وأما أوائل عشرته فما كان لها نظير، لكنه ربما يحصل عنده ملل في آخر الحال حتى قال القائل:

وداد ابـــن الوكيـــل لـــه شـــبيه بلبـــادين جلـــق في المـــسالك

فأولـــه حـــليٌّ ثـــم طيـــب وآخـــره زجـــاج مـــع لكالـــك

٨ – وكذلك ذكره الصفدي فقال: كان كرمه وإيثاره مضربي المثل.

٩ – ومما روى من ذلك أنه وقف له فقير وكانت ليلة عيد فقال له: شيء لله فالتفت إلى غلامه وقال: إيش معك ؟ قال مئتا درهم قال: ادفعها إلى هذا الفقير فقال له: يا سيدي الليلة عيد وما معنا شيء ننفقه غداً قال: امض إلى القاضي كريم الدين وقل له: الشيخ يهنئك بالعيد، فلما رأى كريم الدين غلام الشيخ قال: الشيخ يعوز نفقة في هذا العيد ودفع له ألفي درهم وثلاثمئة للغلام، فلما حضر إلى الشيخ قال: صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم (الحسنة بعشرة أمثالها) مئتان بألفين.

١٠ – وكانت فيه عزة نفس وإباء في مواقف السلاطين ومجالسهم لم يعن للمماليك جبروتهم.

١١ – قال جلال الدين القزويني: كنت عند الناصر فدخل الحاجب فقال: صدر الدين بن الوكيل بالباب فقال: يدخل قال له الحاجب: بس الأرض فامتنع وقال: مثلي لا يبوس الأرض إلا لله.

١٢ – وكان قد توجه في ذلك الحين إلى مصر للإقامة هناك، وكان كما روى الشوكاني ممن أفتى بأن الناصر لا يصلح للملك وتقرب إلى الجاشنكير ودس عليه أعداؤه للناصر قصيدة ذكروا أنه هجاه فيها فأراد الصاحب فخر الدين بن الخليل أحد أمراء السلطان القبض عليه تقرباً إلى خاطر السلطان، وكان لا يزال الناصر بالشام يعد العدة للعودة إلى مصر.

فلما أحس صدر الدين بما يدبر له فرَّ إلى السلطان على طريق البدرية، وكان قد عزم على العودة إلى القاهرة سنة ٧٠٩هـ لتولي السلطنة للمرة الثالثة ولقيه في الرملة فدخل عليه وبمجلسه القزويني فقال له السلطان: أنت فقيه تركب البريد وتروح إلى مصر وتدخل بين الملوك وتغير الدول وتهجو السلطان فقال:حاشا لله وإنما أعدائي وحسادي نظموا ما أرادوا على لساني وهذا الذي تكلمته أنا معي. ثم أخرج قصيدة في وزن تلك القصيدة التي نسبوها إليه نحو مئتي بيت فأنشدها فصفح عنه.

قال جلال الدين القزويني: فلما أصبحنا رأيت ابن الوكيل يساير السلطان في الموكب والعسكر سائر وعظم عند السلطان.

١٣ - وكان لذكائه قادراً على الإفلات من المؤامرات التي تحاك له أو المآزق التي تحاك حوله، وكان قادراً أن يحول أعداءه إلى أصدقاء وحساده إلى أحباب.

١٤ - قال ابن شاكر: لم يقع شيء بينه وبين أحد من الكبار إلا عاد من أحب الناس فيه.

و - شعره:

تميز شعره بما يلي:

١ - شعره جيد في مستوى كبار شعراء عصره.

٢ - اشتهر بالموشحات خاصة.

٣ - ونظم كذلك الدوبيت والمخمس والزجل والبليق.

٤ - قال ابن شاكر: وشعره بليغ للغاية.

٥ - وقال ابن كثير: وكان يقول شعراً جيداً وله ديوان مجموع مشتمل على أشياء لطيفة.

٦ - وقال ابن تغري بردي: كان فريد عصره ووحيد دهره، وله الشعر الرائق الفائق في كل فن من ضروب الشعر وله دوبيت وله ديوان وموشحات.

٧ - وقال الصفدي: وأما الشعر فلو حاذاه ابن سناء الملك فنيت ذخيرة محاذاته وحقائبه أو ابن الساعاتي ما وصل إلى درجته ولا انتهى إلى دقائقه، أما الموشحات فلو وصل خبره إلى الموصلي لأصبح مقطوع الذنب أو ابن زهر لما رأى في السماء نجماً إلا هوى ولا برجاً إلا انقلب.....

٨ - وقال ابن فضل الله العمري: وأدبه أشهر من رشف الرضاب وأحلى من رضا الحبائب الغضاب.

٩ - وقال ابن الوردي: وهو بحر المنثور والمنظوم ووصف أدبه بأنه كان قريباً من العامة، وأنه فيه الحارث بن همام وأن له موشحات مأثورة وأشعاراً مشهورة.

١٠ - وقال ابن حجر: قال الشعر فلم يتقدمه فيه أحد من أبناء جنسه وأتى فيه بالرقص المطرب.

ز - ديوانه:

١ - وجمع ديوان شعره بنفسه وذاع في حياته وبعد موته.

٢ - ونقل عنه معاصروه ومن بعدهم من الأدباء والعلماء أمثال السبكي وصلاح الصفدي وابن حجر وابن شاكر والغزولي.

٣ - وموشحاته أشهر من شعره جمعها في كتاب أسماه - طراز الدار - قالباً اسم كتاب سابق في الموشحات لابن سناء الملك اسمه - دار الطراز -.

ح - تقييم شعره:

١ - طبع بعض شعره بطابع علمه وفقهه فاستخدم مصطلح العلوم وألفاظ الفقهاء والفلاسفة وتعبيراتهم.

٢ - قال الصفدي: هذا الشيخ صدر الدين بن الوكيل لما كان الفقه أعلى فنونه تجد كلامه في الغالب إذا خلا من القواعد الفقهية ينحط عن رتبة الحسن ألا ترى ما أحسن قوله في القصيدة البائية:

ما الكاس عندي بأطراف الأنامل بل　　بالخمر تقبض لا يحلو لها الهرب

شججت بالماء منها الرأس موضحة　　فحين أعقلها بالخمس لا عجب

و يخفي ما في هذا من المحاسن التي تقف الأفهام دون غايتها وتؤمن الأسماع بآيتها وتمتد كف الثريا إلى رفع رايتها.

٣ - وقال الصفدي في موضع آخر: وما أحسن قول الشيخ صدر الدين أيضاً:

ولم يصلب الرواق إلا عندما　　قطع الطريق على الهموم وعاقها

وقوله أيضاً:

أرقت دم الرواق حلاً لأنني　　رأيت صليباً فوقه فهو مشرك

وزوجت بنت الخمر لابن غمامة　　فصح على التعليق بالشرط أملك

وهذا الأخير من نمط الأول في استعماله قواعد الفقه والتورية بالتعليق مع تضمين المثل والأول أخذه من قول سيف الدين بن المشد في مليح نصراني:

يـــصبو الحبـــاب إلى تقبيـــل مبـــسمه وتكتـــسي الـــراح مـــن خديـــه أنـــوارا
مـــن أجـــل ذا أصـــبح الـــراووق منعكفـــا عـــلى الـــصليب وشـــد الكـــأس زنـــارا

٤ – واتهم صدر الدين بن الوكيل بالاعتماد في شعره على معاني غيره من السابقين أو المعاصرين وادعاء قولهم لنفسه، قال ابن حجر: وكان يدعى شعر غيره كالبدر المنبجي وقال: وكان قادراً على النظم مطبوعاً فيه غواصاً على المعاني، لكنه كان في المهمات يستعين بشعر غيره فقد أخذ من ابن التعاويذي قصيدة أنشدها الناصر يوم قلعة الجبل.

٥ – وقال الصفدي: إنه استعمل بعض شعر سيف الدين بن المشد سنة ٦٥٦هـ كما أخذ معنى البيتين السابقين في قوله:

يـــا غايـــة منيتـــي ويـــا معـــشوقي مـــن بعـــدك لا أصـــبو إلى مخلـــوق
يـــا خـــير نـــديم كـــان يؤنـــسني مـــن بعـــدك صـــلبت عـــلى الـــراووق

وذكر الصفدي أن الجيد من شعره طبقة عليا وقع فيه اللحن الخفي مع مهارته.

واختار له ابن الوردي قوله متغزلاً.

أعنّـــي عـــلى مـــا دهـــاني أعنّـــي فـــإني بليـــت بظبـــي أغـــن
فتـــى إذ جنيـــت جنـــى وجنتيـــه فـــاللحظ يجنـــي وبـــاللحظ أجنـــي
إذا قلـــت ثغـــرك صـــن باللثـــام يقـــول ســـيحميه صـــارم جفنـــي

٦ – وروى له أبياتاً أخرى مليئة بالصنعة وخاصة التجنيس يمدح بها الأمير(سنقر) نائب حلب يقول فيها:

هـــب النـــسيم فعـــاش مـــن نفحاتـــه وسرى ســـمير الـــبرق في لمحاتـــه
يطـــوي إلى حلـــب الفتـــى والـــش وق كـــل ردائـــه والوجـــد بعـــض حداتـــه
حـــي الحيـــا قومـــاً بمنعـــرج اللـــوى بـــانوا فبـــان الـــصبر عـــن باناتـــه
حلـــوا عـــلى الـــوادي فـــأحيوا ميتـــا مـــضنى قتيـــل ظبائـــه وظباتـــه

إلى آخر القصيدة التي تجري على هذا النسق.

٧ – واختار له السبكي أبياتاً غزلية يقول فيها:

يـــا رب جفـــن قـــد جفـــاه هجوعـــه والوجـــد يعـــصي مهجتـــي ويطيعـــه
يـــا رب قلـــب قـــد تـــصدع بـــالنوى فـــإلى متـــى هـــذا البعـــاد يروعـــه
يـــا رب بـــدر الحـــي غـــاب عـــن الحمـــى فمتـــى يكـــون عـــلى الخيـــام طلوعـــه

وهكذا يجري في بقية الأبيات إذ يلتزم لفظه يا رب في أول كل منهـا، وأمـا موشـحاته فقـد ذكر ابن تغري بردي أن له ديوان موشحات، ومن أجمل موشحاته ما عارض به السراج المحار ويقول فيه:

مـــا أخجـــل قـــده غـــصون البـــان بـــين الـــورق
إلا ســـلب المهـــا مـــع الغـــزلان ســـود الحـــدق.

ط - نماذج من شعره:

١ – ومن موشحاته الجميلة ما رواه ابن شاكر يقول فيه:

ويختلط في موشحاته اللفظ العامي بالفصيح، ولهذا أنفق نظمه عند العامة كما يقول بعـض مؤرخيه ومنه موشحته:

مـــا أخجـــل قـــده غـــصون البـــان بـــين الـــورق

الذي أشرناه إليه ويقول فيه:

كـــالورد حـــواه نـــاعم الريحـــان بالطـــل ســـقى
والقـــد يميـــل ميلـــة الأغـــصان للمعتنـــــــق
أحيـــا وأمـــوت في هـــواه كمـــدا
مـــن مـــات جـــوى في هـــواه ســـعدا
يـــا عـــاذلي لا أتـــرك وجـــدي أبـــدا
لا تعـــــذلني فكلـــــما تلحـــــاني زادت حرقـــــي
يـــستاهل مـــن يهـــم بـــالهجران ضرب العنـــــق

٢ – ويتبع في موشحاته ما اتبعه في سائر شعره من الاهتمام بالاقتباس من شعر القدماء والمعاصرين والأندلسيين خاصة وتضمين مصطلح العلوم، فمن اقتباساته من ابن زيدون قوله في مطلع موشح:

غدا منادياً محكماً فينا ... من فيه جهلاً عام
ونهاره تحرق ... من هم أو قد هام
وربما يقلق ... فتى عليه نام
قد غير الأجسام وصير الأيام ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

٣ – ويقتبس طوال الموشح في كل قفل شطراً من أبيات قصيدة نونية ابن زيدون المعروفة:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... ونأب عن طيب لقيانا تجافينا

٤ – ومما استخدم فيه مصطلح الفقهاء والمحدثين قوله:

دمعي روى مسلسلاً بالسند ... عن بصري أحزاني
لما جفا من قد بلا بالرمد ... والسهر أجفاني

ومن قوله في الدوبيت:

كم قال معاطفي الأسل ... والبيض سرقن ما حوته المقل
الآن أوامري عليهم حكمت ... البيض تحد والقنا تعتقل

ويقول:

عانقت وبالعناق يشفي الوجد ... حتى شفي الصد ومات الضد
من أخصمه لثماً إلى وجنته ... حتى اشتكت القصب وضج الورد

ولم يعثر على نماذج من منظوماته العامية من الأزجال والبلاليق.

ي - مؤلفاته النثرية:

وألف صدر الدين نثراً كتابين في الأدب:

١ – أحدهما (الأشباه والنظائر) وهو مجموع في الأدب قال عنه ابن تغري بردي: إنه سبق فيه إلى ما لم يسبقه أحد وأثنى عليه السبكي، وقال الشوكاني: إنه من أحسن المصنفات.

٢ – والكتاب الثاني وضعه إجابة لسؤال لاستدمر نائب طرابلس في(الفرق بين النبي والشهيد والولي والعالم).

٣ – ويذكر له الشوكاني كتاباً ثالثاً لم يتمه قال:وشرع في شرح الأحكام لعبد الحق فكتب منه ثلاث مجلدات. وأثنى الصفدي على مصنفاته عامة فقال: أما الأدب فلو عاينه الجاحظ لأمسى لهذا الفن وهو جاحد أو الثعالبي لراغ عن تصانيفه وما اعترف منها بواحد.

- ١٩ -

الوداعي
علاء الدين علي بن المظفر
(٦٤٠ هـ - ٧١٦ هـ)

أ - حياته ونشأته:

هو علاء الدين علي بن المظفر الإسكندري الأصل والنشأة، الدمشقي الدار والوفاة، ولد سنة ٦٤٠ هـ بالإسكندرية وسمع من كثير من العلماء يبلغون المئتين، واشتغل بالأدب ومهر في العربية، وقال الشعر فأجاد، ودخل ديوان الإنشاء في آخر عمره بدمشق وتولى عدة مناصب منها مشيخة الحديث بالنفيسية. ولقب بالوداعي لكتابته والتزامه في دمشق بالوزير ابن وداعة، وتوفي بدمشق، ودفن بالمزة.

ب - شخصيته:

١ – كان من فحول شعراء دمشق في وقته، وله شعر جيد، وقالوا: إن جمال الدين بن نباتة كان يعتمد عليه في شعره.

٢ – قال ابن تغري بردي: ((أحد من اقتدى بهم الشيخ جمال الدين بن نباتة في ملح أشعاره)).

٣ – وقال الشوكاني: ((وقد ذكر جماعة من متأخري الأدباء أن ابن نباتة كان يتطفل على معانيه الرائقة)).

٤ – وأورد ابن حجة في كشف اللثام جملة مما وقع فيه ذلك.

٥ – وكان يحفظ بعض كتب الأدب، منها الحماسة.

٦ – وسمع منه الذهبي برغم ما غمزه به في كتابه، وما أبداه من كراهته للأخذ عنه حيث قال: ((كان يخل بالصلاة، ويرمي بالعظائم وحملني الشره على السماع من مثله)).

٧ – وسمع منه الحافظ المزي وغيره من المشاهير.

٨ – ولقب بالوداعي لكتابته والتزامه في دمشق بالوزير ابن وداعة.

ج - آثاره:

خلف ابن الوداعي شعراً ونثراً ومؤلفات منها:

١ – ((التذكرة الكندية)) تزيد على قول ابن تغري بردي على خمسين مجلداً. قال الشوكاني عنها: وفيها فوائد كثيرة.

٢ – ديوان شعره في ثلاثة مجلدات، وذكر الشوكاني أنه كان يتشيع من غير سب ولا رفض. وقال: إنه كان كثير الهجاء فنفر منه الناس.

د - شعره:

كتب ابن الوداعي النثر والشعر.

١ – ومن معانيه الطريفة في شعره قوله:

قال لي العاذل المفند فيها ... يوم زارت فلمت مختاله

قم بنا ندع النبوة في العشق ... فقد سلمت علينا الغزاله

٢ – وقال الصفدي: ما أحسن قول علاء الدين الوداعي، ومن خطه نقلت:

بمصر وسكانها حدا شوقي ... وجدد عهدي الخالي

وصف لي القرط وشنف به ... سمعي وما العاطل كالحالي

وارو لنا يا سعد عن نيلها ... حديث صفوان بن عمال

٣ – ومما رواه ابن إياس قوله:

لقد سمح الزمان لنا بيوم غدا فيه السمي من المسمي
يجمعنا كأنا ضرب خيط عليٌّ في علي في علي

٤ - ونقل الصفدي قوله:

ولقد وقفت على الثنية سائلا عما أشار به فتى شيبان
فروت أحاديث الحمى عن عامر وحديث روض السفح عن إبان

٥ - ومثال هذا التضمين لأسماء المحدثين وأهل السند فيما ينقله عنه المؤلفون من شعر كنقل الغزولي قوله:

من أم بابك لم تبرح جوارحه تروي أحاديث من أوليت من منن
فالعين عن قرة والكف عن صلة والقلب عن جابر والسمع عن حسن

قال الغزولي: ((قرة هو قرة بن خالد السدوسي وهو فقيه، وصلة: هو أشيم العدوي كان من عباد التابعين، وأما جابر فهو جابر بن عبد الله صاحب رسول الله، وحسن هو الحسن البصري)).

- ٢٠ -

الشارمساحي
شهاب الدين
أحمد بن عبد الدائم بن يوسف الكناني
(ت ٧٢٠ هـ)

أ - حياته ونشأته:

عاش بالقاهرة وكان يحضر السلطان الناصر مجلسه أحياناً.

ب - شخصيته:

شاعر مطبوع صاحب نوادر ظريفة مضحكة، وكان العامة يطلقون عليه لقب (الشارمساحي)

ج - شعره:

أغرم بالهجاء وثلب الأعراض، قال ابن حجر: ((وكان شاعراً مشهوراً، وممن تعرض لهم بالهجاء من رجال عصره صدر الدين بن المرحل وابن عدلان الفقيه)).

- ٢١ -

الأسفوني
علي بن أحمد
(ت ٧٣١هـ)

أ - حياته ونشأته:

من شعراء الصعيد في القرن الثامن.

ب - شخصيته:

كان من الأذكياء - كما يقول الأدفوي - وكان خفيف الروح حسن الأخلاق، كريماً جواداً، قال: صحبته دهراً طويلاً فرأيت منه كرماً جزيلاً وفعلاً جميلاً ويقول الأدفوي: ((لطيف حتى كأنه كالنسيم، يهوى الجمال المطلق فيأخذ بمجامع قلبه كل وجه وسيم، لا يرى إلا وهو ذو ارتياح، يميل طرباً ويميد كما يفعل الغصن الرطيب، عند هبوب الرياح)).

ج - شعره:

وهو في الآداب فارس ميدانها، وفي القصائد أخو حسانها أقام بأدفو سنين كثيرة، كما كان أبوه شاهد ديوانها، وكان الاجتماع به يذهب الأتراح ويجلب الأفراح، وكانت فيه فتوة ومروءة وإنسانية، وألجأته المروءة إلى الدخول في الخدم السلطانية فما غيرته عن حاله، ولا أحالته عن جميع خلاله، ولا انحرفت به إلى الحيف، ولا أطعمته في مطلوبها، ولو أن الوقت سيف)).

- ٢٢ -

السراج المحار
(توفي سنة ٧١١ هـ)

أ - حياته ونشأته:

وهو سراج الدين عمر بن مسعود المشهور بالمحار (توفي سنة ٧١١ هـ) وكان أحد شعراء حماة في بلاط الملك المنصور. مدحه بمدائح كثيرة، هو وولده الملك الأفضل.

ب - شخصيته:

ج - شعره:

١ - ذاعت شهرته في الموشحات خاصة.

٢ - وشعره بصفة عامة يدل على مقدرة على النظم والتشبيه وحسن التخييل.

د - موضوعات شعره:

١ - الوصف:

أ - ومثاله وصفه لغدير صاف:

انظر إلى النهر في تطرده ... وصفوه قد وشى على السمك

توهم الريح صيدها فغدا ... ينسج متن الغدير في الشبك

ب - وقال في صاحب لحية:

أرى لابن سعيد لحية قد تكاملت ... على وجهه واستقبلت غير مقبل

ودارت على أنف عظيم كأنه ... كبير أناس في بجاد مزمل

ج - وقال في زامرة سوداء:

ولرب زامرة تهيج بزمرها ... ريح البطون فليتها لم تزمر

شبهت أنملها على ضرباتها ... وقبيح مبسمها الشنيع الأبخر

بخنـــافس قـــصدت كنيفـــاً واغتـــدت تـــسعى إليـــه عـــلى خيـــار الـــشنبر
رنـت نجـوم الـدجى نحـوي فـما نظـرت مـن يرشـف الـراح قـبلي مـن فـم القمـر
راق العتـــاب وأبـــدت لي سرائرهـــا في ليلـــة الوصـــل بـــل في غـــرة القمـــر

٢ - طردياته:

وله سوى غزله الرقيق طرديات في الصيد والقنص والطيور والحيوانات:

١ - منها مزدوجة سماها (مصائد الشوارد) قالها في وصف الصيد بوادي حماة:

أثنـــى شـــذا عـــلى فـــضل الـــسحب واشـــتملت بـــالوشي أرداف الكثـــب
مـــا بـــين نـــور مـــسفر اللثـــام وزهـــر يـــضحك في الأكـــمام
إن كانـــت الأرض لهـــا ذخـــائر فهـــي لعمـــري هـــذه الأزاهـــر
قـــد بـــسطتها راحـــة الغمائـــم بـــسط الـــدنانير عـــلى الـــدراهم

٢ - ويقول فيها واصفاً غلمان المماليك وهم يرمون الصيد:

لمـــا دنـــا زمـــان رمـــي البنـــدق سرنـــا عـــلى وجـــه الـــسرور المـــشرق
في عـــصبة عادلـــة في الحكـــم وغلمـــة مثـــل بـــدور الـــتم
وكـــل معـــسول الـــشباب أغيـــد منعطـــف عطـــف القـــضيب الأملـــد
قـــد حمـــد القـــوم بـــه عقبـــى الـــسفر عنـــد اقـــتران القـــوس منـــه بـــالقمر
لـــولا حـــذار القـــوس في يديـــه لغنـــت الـــورق عـــلى عطفيـــه
في كفـــه محنيـــة الأوصـــال قاطعـــة الأعـــمار كـــالهلال

هـ - موشحاته:

استخدم السراج المحار فن التوشيح في الأغراض الشعرية التقليدية كالمديح، في كتاب توشيح التوشيح:

١ - منها موشحة ذائعة قال فيها:

مـــا ناحـــت الـــورق في الغـــصون إلا هاجـــت عـــلى، تغريـــدها لوعـــة الحـــزين

هـــل مـــا مـــضى لي مـــع الحبايـــب آيـــــــب بعـــــــد الحـــــــدود
أو هـــــل لأيامنـــــا الـــــذواهب واهـــــــب بـــــــأن تعـــــــود
بكـــــل مـــــصقولة الترائـــــب كاعـــــــــب هيفـــــــــاء رود
تفـــتر عـــن جـــوهر ثمـــين جـــلا أن تجـــتلي يحمـــى بقـــضب مـــن الجفـــون

ونلاحظ أن هذا الوزن مطروق مستعمل خاصة بعد أن نظم فيه المحار وقلده بعض معاصريه، وهو يرضي حس العصر وميل الناس للجناس، وينوع المحار في أوزانه، وأشكال بنائه للموشحات فيغير صياغته.

٢ – يقول في موشح آخر:

أرنـــو لـــبرق لاح مـــن دون حـــاجر فـأجرى دمـوعي مـن شـؤون المحـاجر
وهيج لي التذكار فأضرمت الأفكار
نيران الوجيب في قلبي الكئيب أو كادت تذوب
حشاشة الأشواق

تحليل للموشح:

١ – فيه يكون القفل مركباً من ثمانية أجزاء متغايرة الوزن.

٢ – يتعمد فيها تغيير الإيقاع ثلاث مرات.

٣ – والقافية أربع مرات.

٤ – ويبدأ بمقطع طويل ذي إيقاع بطيء.

٥ – ثم يأتي بمقطعين من وزن واحد وقافية واحدة.

٦ – ثم بثلاثة مقاطع قصار مختلفة ذات قافية مشتركة.

٧ – ويختم بفقرة من مقطع واحد وقافية جديدة يلتزمها في سائر الموشح.

٨ – ثم يأتي الغصن مكوناً من ستة مقاطع وقافيتين:

كتمـــــت الهـــــوى جهـــــدي ومـــــا أنـــــا كـــــاتم

وقـــــد جـــــد بي وجـــــدي وشـــــــــــــــــوقي لازم

ونمـــــــت بـــــما عنـــــدي دمـــــــــــوع ســـــــــــواجم

٩ - فينساب النغم قصيراً متردداً في الغصن.

١٠ - حتى يصل إلى نهايته ليبدأ الإيقاع البطيء الطويل مرة أخرى في القفل التالي وهكذا.

١١ - حتى يصل إلى الخرجة في نهاية الموشح وفي القفل الأخير.

١٢ - فتجدها كذلك خرجة مركبة أو هما خرجتان يقول:

فكـن نـاصري يـا دمـع إن قـل نـاصري عـسى عـادلي في الحـب يـصبح عـاذري

ومـــــن يعـــــشق الأقـــــمار ولم يكـــــــــــــــتم الأسرار

يقـــــــــاسي الـــــــــضلوع وفـــــــيض الـــــــدموع

ونـــــــــار الـــــــــضلوع كـــــــذا ســـــــنة العـــــــشاق

- ٢٣ -

عمر بن الوردي
(توفي سنة ٧٤٩ هـ)

أ - حياته ونشأته:

ومن شعراء الشام في هذا القرن عمر بن الوردي (توفي سنة ٧٤٩ هـ) وهو زين الدين عمر بن المظفر بن عمر بن علي المعري الحلبي الشافعي، ولد ونشأ بالمعرة، فقد كان بها والده، وبرع في علوم اللغة والأدب والفقه ونظم الشعر، وقد نظمه في درجة المجيدين.

ب - شخصيته:

وتولى ابن الوردي بعض الأعمال الرسمية، فناب في الحكم في قضاء حلب وولي قضاء منبج زمناً لكنه لم يوفق فيه، وكان ابن الزملكاني قاضي قضاة الشام قد ولاه قضاءها وهو كاره، فكتب إليه قصيدة يرغب فيها في العودة إلى قضاء حلب، فلما تعذر أعرض عن القضاء وخلع نفسه.

قال:

خلعت ثوب القضاء عمدا ولم أكن فيه بالظلوم

إن زال جاه القضاء عني كان لي الجاه بالعلوم

وكذلك يعبِّر مرة أخرى عن تبرمه بالقضاء، وبما يبذل الناس في سبيله من الجهد والمال:

قيل لي تبذل الذهب بتولي قضايا حلب

قلت هم يحرقونني وأنا اشتري الحطب

واكتفى بالعلم وبالتدريس والتأليف، بعد أن مل القضايا ومشكلاتها بين الناس.

قال:

إني تركت عقودهم وفروضهم وفسوخهم والحكم بين اثنين

ولزمت بيتي قانعاً ومطالعا كتب العلوم وذاك زين الزين

ج - شعره:

١ - يعمد عمر الوردي في بنائه الشعري إلى البساطة في التركيب.

٢ - كذلك في الموشح.

وموشحه الذي رواه الصفدي يتكون من قفل ذي أربعة أجزاء اثنان منها طويلان والآخران قصيران، وغصن من أربعة مصاريع متساوية مقفاه يقول:

ترى دهر مضى بكم يؤوب منيبا

ويضحى روض آمالي الجديب خصيبا

عسى صب تملكه هواه

يعاود جفن مقلته كراه

ويبلغ من وصاكم مناه

ويرجع دهرنا عما جناه

٣ – وبدراسة موشحات المحار يمكن التعرف على جوانب التجديد النغمي الذي أدخله الشعراء المشارقة على الموشح الأندلسي الذي كتب له أن يحيا في مصر والشام بعد سقوط الأندلس دهراً طويلاً.

د - الحكم على شعره:

١ – قال الصفدي في شعره: (شعره أحلى من عيون الغيد، وأبهى من الوجنات، ذوات التوريد).

٢ – وقال السبكي: (شعره أحلى من السكر المكرر، وأعلى قيمة من الجوهر).

٣ – واتهمه الصفدي بسرقة معاني شعره.

٤ – ولكن ابن حجر ينفي ذلك، قال: (وذكر الصفدي في أعوان النصر في أعيان العصر أنه اختلس معاني شعره، وأنشد في ذلك شيئاً كثيراً، ولم يأت على أن ابن الوردي هو المختلس، بل المتبادر إلى الذهن عكس ذلك).

وله أبيات جيدة في الوصف منها قوله يصف الناعورة:

نـــاعورة مـــاعورة للبـــين ثكـــلى حـــائرة
المـــاء فـــوق كتفهـــا وهـــي عليـــه دائـــره

هـ - مراحل شعره:

ونلاحظ في شعره مرحلتين متباينتين في المعاني والأسلوب:

١ – أما المرحلة الأولى فهي مرحلة شعر الشباب ومطلع الرجولة، وفيها يتجه في موضوعاته إلى مباهج الدنيا ومسراتها ويكثر القول فيها في الغزل، ووصف الخمر والمجون كما يتجه بالمديح لكثير من رجالات عصره.

٢ – أما المرحلة الثانية من شعره فيغلب عليها الشكوى والعلل، والإعراض عن ملاقاة الحياة ومباهجها والزهد والاعتذار عما بدر منه في شبابه ويرضى قانعاً بحاله وبما قسم الله له من عوز، مع علمه وتقدمه رغم ما يرتع فيه كثير من الجهلة من الغنى والثراء.

يقول:

مـــا الأغنيـــاء الأغبيـــاء حجـــة يكفيـــك أن القـــوم جهـــال

رضـــيت مـــا يقـــسمه ربنـــا لنـــا علـــوم ولهـــم مـــال

و - مؤلفاته:

انصرف الوردي للتأليف وعمل الشعر فكانت له الكتب العديدة في الفقه والأدب منها:

١ - في الفقه: ((البهجة الوردية في نظم الحاوي في الفتاوى)) وهو مجموع فوائد فقهية منظومة، نظمها في خمسة آلاف وسبعين بيتاً، وأتى فيها على كتاب الحاوي الصغير للفتاوى بغالب ألفاظه، واسم الله لا ينظم أحد بعده في الفقه إلا ويقصر دونه.

٢ - ونظم في النحو:

أ - (ضوء الدرة) على ألفية ابن معطيز

ب - وشرح ألفية ابن مالك.

ج - وله منظومة (اللباب في الإعراب) وشرحها.

د - واختصر (ملحة الإعراب) نظماً.

٣ - واختصر (تذكرة الغريب) نظماً وشرحها.

٤ - والمسائل المذهّبة في المسائل الملقبة.

٥ - و(أبكار الأفكار) في تتمة تاريخ حماة.

٦ - وله أرجوزة في تعبير المنامات.

٧ - وأرجوزة في خواص الأحجار.

٨ - وله في الأدب: ((منطق الطير)) مجموع من النظم والنثر.

٩ - و(مقامة في الطاعون).

١٠ - ومجموع رسائل.

١١ - و(الكلام على مئة عام) وهو مئة مقطوعة منظومة.

١٢ - و(الدراري السارية في مئة جارية) وهي مئة منظومة أخرى في محاسن النساء.

- ٢٤ -

بدر الدين الغزي

(٧٠٦هـ - ٧٥٣هـ)

أ - حياته ونشأته: الحسن بن علي بن أحمد.

ب - شخصيته:

ج - شعره:

١ - مدحه:

مدح القاضي الخطيب جلال الدين القزويني، وأولاده وغيرهم من أعيان دمشق. وشعره رقيق متنوع الموضوعات، وله فيه معان مبتكرة جيدة، منها قوله في الشمعة:

كالشمع يبكي ولا يدري أعبرته ... من صحبة النار أم من فرقة العسل ؟

١ - شكواه:

أ - ومن غريب ما يروى له، ما قاله في إحساسه بخمول الذكر:

لا تشكون من الخمول فربما ... كان الخمول إلى السلامة سلما

لولا كمون الدر في أصدافه ... ومشقة استخدامه ما فخما

ب - وقوله:

لا تشك فالأيام حبلى ربما ... جاءتك من أعجوبة بجنين

فكذا تصاريف الزمان مشقة ... في راحة وخشونة في لين

ما ضاع يونس بالعراء مجرداً ... في ظل نابتة من اليقطين

ج - وقال في المعنى نفسه، مستغلاً مصطلح النحو:

قالوا نزلت فقلت الدهر أقسم بي ... لا وجه للرفع في المجرور بالقسم

د - الحكم على شعره:

١ – يجري في شعره مجرى زملائه من شعراء العصر.

٢ – ويكاد يميزه تحفظ قليل في الصنعة.

٣ – فلا يوغل فيها بإسراف كما يفعل الصفدي أو ابن الوردي.

٤ – ويكثر من الشكوى.

٥ – النظر إلى الحياة تلك النظرة السوداء التي ينظرها الغاضبون الغرباء.

٦ – قال ابن حجر: (تعانى النظم فبرع فيه).

٧ – وانتخب ابن فضل الله العمري من ديوانه نحو أربعة كراريس، وبالغ في الإطراء عليه.

٨ – وكانت بينه وبين جمال الدين ابن نباتة منافرة شديدة، وله فيه هجاء واتفق أن قرأ على ابن نباتة قطعة من نظمه ونثره فكتب له: ((الحمد لله حاشى من فخر، والصلاة والسلام على محمد ما نبح الكلب ضوء القمر)).

- ٢٥ -

شمس الدين الخياط
المعروف بالضفدع
(٦٩٣ هـ- ٧٥٦ هـ)

أ - حياته ونشأته:

محمد بن يوسف بن عبد الله الدمشقي الحنفي الشاعر.

ب - شخصيته:

اشتغل بالأدب ولازم شمس الدين بن الصائغ وشهاب الدين محمود.

ج - شعره:

١ – مدحه:

اتصل بابن صرصري ومدحه ومن مدائحه قصيدة مطلعها:

أمـــا ولـــواحظ الحـــدق الحـــواجي لقـــد أصـــبحت منهـــا غـــير نـــاجي

وقرظها الشهاب محمود، وكان النظم سهلاً على الخياط فأكثر فيه حتى بلغ ديوانه ستة مجلدات ودخل الديار المصرية فمدح أعيانها واتصل بالناصر فمدحه بقصيدة قرأها عليه القاضي جلال الدين القزويني.

٢ - هجاؤه:

كان مقراض الأعراض فكان هجوه أكثر من مدحه، وقد أهين بسبب ذلك وصفع وذلك أنه حج سنة ٧٥٥هـ فلم يترك في الركب أحداً إلا هجاه فأجمعوا عليه بسبب ذلك ورفعوه إلى أمير الركب فاستحضره وأهانه جداً وحلق لحيته وصرفه ينادي عليه فانزعج من ذلك ومات كمداً).

ويذكر ابن كثير: أنه كان قد أثرى مما أخذ من الناس بسبب المديح والهجاء.

د - مكانة شعره:

١ - قال الصفدي: (كان طويل النفس في الشعر لكن لم يكن له غوص على المعاني والاحتفال بطريقة المتأخرين).

٢ - واتهمه ابن حجر بأنه كان (عريض الدعوى قليل الجدوى).

٣ - شعره كان أقل مما يدعيه من المقدرة.

٤ - أحس بعدم استطاعته مباراة غيره من كبار شعراء عصره كابن نباتة في جيد الشعر فاتجه إلى الهجاء ليحصل به على كسبه.

- ٢٦ -

ابن مليك الحموي

(٨٤٠ - ٩١٧ هـ) (١٤٣٦ - ١٥١١ م)

أ - حياته ونشأته:

علاء الدين علي بن محمد بن علي بن مليك الحموي ثم الدمشقي: شاعر مشهور ولد في حماة سنة ٨٤٠ هـ ١٤٣٦ م، وانتقل إلى دمشق فتفقه وتأدب.

ب - شخصيته:

كان في مطلع حياته يبيع الفقاع عند قناة القوني خارج باب الفراديس، ثم تركه بعد أن برع في نظم الشعر، سمى ديوانه (النفحات الأدبية من الرياض الحموية)، توفي في دمشق سنة ٩١٧ هـ، ١٥١١ م.

ج - نماذج من شعره:

قال الشاعر ابن مليك يمدح النبي عليه الصلاة والسلام بقصيدة طويلة مطلعها:

فؤاد بذكر العامرية مغرم ... وصب هواه في الدموع مخيم

ومنها قوله بعد خمسة وخمسين بيتاً في ختام القصيدة:

فيا سيد الرسل الكرام ومن غدا ... عليها لواء الحمد بالنصر يرقم

متى ابن مليك منك يشفى بزورة ... يزول بها عنه الشقاء وينعم

وحاشا كريم القوم يمنع سائلا ... إلى بابه قد جاء يسعى ويحرم

ومن عادة السادات أن نزيلهم ... يصان ويرعى في حماهم ويكرم

عسى من لظى أنجو بجاهك في غد ... وأحشر في قوم أنابوا وأسلموا

ترى هل ترى عيني معالم طيبة ... وعرف الصبا من طيبها يتنسم

وألصق بالأعتاب خدي وأرضها ... أقبل إجلالاً ثراها وألثم

عليك صلاة الله ثم سلامه ... سلام به عقد المديح ينظم

وآلك والصحب الذين حديثهم ... به يبدأ الذكر الجميل ويختم

- ٢٧ -

ابن النقيب
الحسن بن شاور بن طرخان بن الحسن
ناصر الدين
(توفي سنة ٦٨٠ هـ)

أ - حياته ونشأته:

الحسن بن شاور بن طرخان بن الحسن (توفي سنة ٦٨٠ هـ). كان من شعراء القاهرة المعدودين في القرن السابع، وصحب الجزار والوراق وابن سعيد عند حضوره إلى القاهرة، والتقى به العلامة أثير الدين أبو حيان قبيل وفاته. قال: ((جالسته بالقاهرة مراراً وكتبت عنه)). وكان عالماً، حتى أن أبا حيان يذكر أن الدمياطي الفقيه والشيخ فتح الدين بن سيد الناس وغيرهما أخذوا عنه، وكانت له مع شهاب الدين محمود صحبة ومجالسة ومذاكرة في القريض.

ب - شخصيته:

ج - شعره:

١ - وقال الشهاب عن شعره: ((وشعره جيد عذب منسجم فيه التورية الرائقة اللائقة المتمكنة)).

٢ - وهو أحد فرسان تلك الحلبة الذين كانوا من شعراء مصر في ذلك العصر. ومقاطيعه جيدة للغاية، وله ديوان في مجلدين.

٣ - وقال ابن تغري بردي: ((كان من فضلاء الأدباء)).

٤ - وألف من الكتب: ((منازل الأحباب ومنازه الألباب)) في مجلدين وهو أشعر من الحمامي والسراج الوراق وإن ذاع اسم الوراق أكثر منه. لخفة روحه وميل الناس له لدعابته.

٥ - ومن مراسلاته الشعرية ما كتب به إلى الوراق يقول:

ما زلت مذ غبت عنك في بلدي تصفح عنها حتى أزحت علتها
أقمت أجرانها على عجل وبعد هذا خزنت غلتها

٦ - وكتب إليه ابن سعيد المغربي:

أيا ساكني مصر غدا النيل جاركم فأكسبكم تلك الحلاوة في الشعر
وكان بتلك الأرض سحر وما بقي سوى أثر يبدو على النظم والنثر

٧ - فأجابه ابن النقيب:

ولما أتيت الثغر زاد حلاوة وخليته أغلى من الشذر والدر
فرحت ولي شوق وما كنت شيقا لملثم ذاك الثغر لولاه في الثغر
فلا تطلبن سحر البيان بأرضنا فكم فيه موسى مبطل آية السحر
ولا رقة الشعر الذي كان أولا وكيف رقيق الشعر مع قسوة الدهر

٨ - وكانت تجمعه بالسراج خاصة صداقة وطيدة، وكان السراج يسكن الروضة فبعث إليه ابن النقيب متشوقاً:

يا ساكن الروضة أنت المشتهى من هذه الدنيا وأنت المقتضى
ويا سرور النفس بين الشعرا أنت الرضا فيهموا والمرتضى
ويا سراجاً لم تزل أنواره تعيد مسود الليالي أبيضا
ما لي أراك قاطعاً لواصل ومعرضاً عن مقبل ما أعرضا

٩ - وأجابه السراج:

يا سهم عتب جاء من كنانة أصبت من سواد قلبي الغرضا
لكن أسوت ما جرحته بما أعقبته من العتاب بالرضا
يا ابن النقيب ما أرى منقبة إلا وأولتك الثناء الأبيضا
إن ولائي حسن في حسن إذ ما أرى لعمر أن يرفضا

١٠ – وقد أشار ابن النقيب إلى ما كان بينه والوراق من الود، والتلازم، والتزاور، وكثرة التردد كل على دار صاحبه. فقال:

لو فر بغلي من اصطبلي لقلت لمن ... يجري وراه تمهل أيها الجاري

ففي زقاق سراج الدين موقفه ... أو ذلك الخط أو في حومة الدار

١١ – فأجابه الوراق:

أفدي خطاك ولو كانت على بصري ... لأن في ذاك تشريف لمقداري

وإن دارك صان الله مالكها ... أعز عندي من أهلي ومن داري

١٢ – مقتدر على الصياغة الجيدة، على النمط القديم والجديد معاً.

د - أغراض شعره:

١ - الشكوى من الفقر:

وله بعد ذلك كله كسابقيه قصائد ومقطعات يشكو فيها الفقر والعوز: ونذكر منها هذه الأبيات الغريبة في أسلوبها وصورها. يقول:

نحن إلا قطاعة الأجناد ... وبرايات غر هذا النادي

نحن إلا حكاية وخيال ... وحديث لحاضر ولبادي

نحن إلا غسالة لمراق ... بقدور تفرغت وزبادي

نحن إلا زبالة ضمها ... الزبال فوق الأكوام للوقاد

جردونا فما قطعنا فردو ... نا وقد أحسنوا إلى الأغماد

وتعكس هذه الأبيات أزمة جندي من أجناد الحلقة من عامة العسكر غير مماليك الأتراك. وقد مر بها ابن النقيب الذي كان من رجال السيف والقلم. وكان ملحقاً بجيش بيبرس حين خاض الفرات وقاسى في تلك الحملة مع غيره من جنود الحملة الويلات. وقد أثاره أن يفوز المماليك بكل الطيبات وأن يعامل جند الحلقة من عامة الناس تلك المعاملة السيئة.

٢ - هجاؤه:

ولابن النقيب شعر في الهجاء بعضه مقذع.

٣ - غزله ومجونه:

وله في الغزل والمجون المكشوف مثل السراج وكثيرين.

هـ - شعره والمصطلحات الحديثة في عصره:

١ - شعره واصطلاح العلوم:

وشاع في شعره على شاكلة كثير من معاصريه اصطلاح العلوم. كالفقه في قوله:

يـــا مـــالكي ولـــديك ذلي شـــافعي ... مـــا لي ســـألت فـــما أجبـــت ســـؤالي

فوخـــــدك الـــــنعمان إن بليتـــــي ... وشـــكيتي مـــن طرفـــك الغـــزالي

فاستغل بعض أسماء المذاهب والفقهاء المشهورين كالنعمان والغزالي، ويستخدم ما جرى بين الناس وشاع بين المماليك ومجتمعهم من ألفاظ كالنوبة وأمير النوبة في قوله:

أقـــول لنوبـــة الحمـــى اتركينـــي ... ولا يـــك منـــك لي مـــا عـــشت نوبـــة

فقالـــت كيـــف يمكـــن تـــرك هـــذا ... وهـــل يبقـــى الأمـــير بغـــير نوبـــة

٢ - اقتباسه من القرآن الكريم:

واقتبس من القرآن وقصصه وذلك في مثل قوله يشير إلى قصة سليمان الحكيم مع ملكة سبأ:

مـــا كـــان عيبـــاً أن تفقـــدني ... وقلـــت: هـــل أتهـــم أو أنجـــدا

فعـــادة الـــسادات مـــن قبـــل أن ... يفقـــدوا الأتبـــاع والأعبـــدا

هـــذا ســـليمان عـــلى ملكـــه ... وهـــو بأخبـــار لـــه يُقتـــدي

تفقـــد الطـــير وأجناســـها ... فقـــال مـــا لي لا أرى الهدهـــدا

و - نماذج من شعره:

من شعره السهل غير المتكلف الذي يرصعه بالبديع قوله:

قلـــدت يـــوم البـــين جيـــد مـــودِّعي ... درراً نظمـــت عقودهـــا مـــن أدمعـــي

وحـــدا بهـــم حـــادي المطـــي فلـــم أجـــد ... قلبـــي ولا جلـــدي ولا صـــبري معـــي

ودعـــتهم ثـــم انثنيـــت بحـــسرة ... تركـــت معـــالم معهـــدي كـــالبلقع

ورجعت لا أدري الطريق ولا تسل ... رجعت عداك المبغضون كمرجعي
وأشد ما بي في القضية شامت ... قد جاءني في صورة المتوجع
يا صاحبي أنصت لأخبار الهوى ... حاشا لمثلك أن يقول ولا يعي
إني أحدث في الهوى بعجائب ... وغرائب حتى كأني الأصمعي
يا نفس قد فارقت يوم فراقهم ... طيب الحياة ففي البقا لا تطمعي
هيهات يرجع شملنا بالأجرع ... ويعود أحبابي الألى كانوا معي

- ٢٨ -

ابن دانيال
شمس الدين
محمد بن دانيال الحكيم الكحال
(٦٤٦ هـ ٧٠٨ هـ)

أ - حياته ونشأته:

ولد بالموصل سنة ٦٤٦ هـ وجاء إلى مصر شاباً في عهد السلطان بيبرس قال في مقدمة (طيف الخيال): ((لما قدمت من الموصل إلى الديار المصرية في الدولة الظاهرية. سقى الله من سحب الأنعام عهدها وأعذب مشاربها... إلخ)).

ب - شخصيته:

وعمل كحالاً بسوق القاهرة. وكان دكانه داخل باب الفتوح، واشتهر بحبه للأدب، وكان خفيف الروح طيب العشرة ظريفاً، اتصل بجماعة من أدباء مصر وشعرائها وعلمائها فكانوا يقصدونه، ويجلسون إليه في دكانه يسمرون. وبين من تردد عليه العالم الفقيه الأديب ابن سيد الناس، والجزار. والوراق. قال ابن حجر: ((وقرأت بخط الكمال جعفر: ((اجتاز الوراق والجزار بابن دانيال، فقال له أحدهما: خذ هذه الرزمة من العكاكيز عندك فقال لهم: بل قودوا أنتم)).

وحكى ابن شاكر عن الصفدي قال: أخبرني الشيخ فتح الدين ابن سيد الناس قال: كان الحكيم شمس الدين بن دانيال له دكان كحل داخل باب الفتوح فاجتزت عليه أنا وجماعة من أصحابه فرأينا عليه زحمة ممن يكحله، فقالوا: تعالوا نخايل بالحكيم فقلت لهم: لا تخايلوه تخزوا معه. فلم يسمعوا. قالوا: يا حكيم تحتاج إلى عصيات ! يعنون أن هؤلاء الذين يكحلهم يصابون بالعمى فيحتاجون إلى العصي لتقودهم، فقال لهم: لا، إلا أن يكون فيكم من يقود الله تعالى، فمروا خجلين)) والنكتة في معنى التورية في كلمة ((يقود)).

ج - شعره:

١ - حدثنا ابن دانيال عن صنعته في شعره فقال:

يا سائلي عن حرفتي في الورى وضيعتي فيهم وإفلاسي
ما حال من درهم إنفاقه يأخذه من أعين الناس

والنكتة في التورية ((يأخذه من أعين الناس)) بين صنعة التكحيل والقول العامي (يأخذ الشيء من عينه).

٢ - واشتهر ابن دانيال بروحه المرحة، وسخريته الضاحكة حتى في مجلس السلاطين والأمراء وكانت دعوتهم له للمشاركة فيها ليخلع عليها ذلك الجو المرح، واتصل بالأشرف خليل بن قلاوون وتروى له نادرة معه.

٣ - قال ابن تغري بردي: ((ومن نوادره الطريفة أنه كان يلازم خدمة الملك الأشرف خليل بن قلاوون قبل سلطنته، فأعطاه الأشرف فرساً ليركبه، فلما كان بعد أيام رآه الأشرف وهو على حمار زمن، فقال: يا حكيم ما أعطيناك فرساً لتركبه ؟ فقال: نعم يا خوند بعته. وزدت عليه واشتريت هذا الحمار. فضحك الأشرف وأعطاه غيرهما)).

٤ - واتصل بالأمير الكبير سلار نائب السلطنة، وصحبه في بعض رحلاته، قال ابن حجر ((توجه مرة بصحبة الأمير سلار إلى قوص، فاتفق أن بعض الخصيان في خدمة الأمير توجه إلى النزهة في بستان مع شخص من أتباع الأمير يقال له (الحليق) وكان حليق الذقن، فبحث الأمير عنهما إلى أن وجدهما، فأراد معاقبتهما فنهض ابن دانيال فقال: يا خوند احلق ذقن هذا القواد - وأشار إلى الحليق - واخص هذا الخادم، وأشار إلى الخصي فضحك الأمير سلار وسكن غضبه)).

٥ – وروى ابن حجر أنه دخل على سلار وقد قطع الوزير راتبه من اللحم، فتعارج، فقال السلار: مالك ؟ قال: بي قطع من اللحم، فضحك وأمر برده عليه. وقال ابن حجر ((وكان كثير النوادر)).

٦ – ووصفه ابن العباد في الشذرات ((الأديب الخليع)) وأنه كانت له نكت غريبة وطباع عجيبة. وقال ابن تغري بردي: ((صاحب النكت الغريبة والنوادر العجيبة. وكان كثير المجون والدعابة)).

٧ – وقال المقريزي: وكان كثير المجون. وغالبية شعره مطبوع على الفكاهة والنكتة وحلاوة النادرة.

٨ – قال الصفدي: ((ابن حجاج عصره وابن سكرة مصر)).

٩ – وقال ابن حجر: ((تعانى الآداب ففاق في النظم، وسلك طريق ابن حجاج ومزجها بطريقة متأخري المصريين يأتي بأشياء مخترعة)).

١٠ – والحق أنه كان ذا موهبة عجيبة، فقد كان ساخراً بطبعه يأتي بالحكمة ممزوجة بالفكاهة والهزل.

١١ – وله قدرة عجيبة على صياغة المعاني الرفيعة في صور حسية عامية شعبية سائرة.

١٢ – كما أن قدرته على التشخيص والتجسيم فائقة، ومكنته من تأليف تمثيلياته الهزلية، (البابات)، لخيال الظل جمعها في كتابه المعروف بطيف الخيال، الذي عده معاصروه فريداً في نوعه.

١٣ – وكان يصور في شعره الساخر الهزلي بعض أحداث عصره، وخاصة ما كان منها متصلاً اتصالاً مباشراً بحياة الناس.

١٤ – ومنه قصيدتان طويلتان بمناسبة ما أمر به السلطان بيبرس سنة ٧٦٦ هـ من تحريم للمنكرات وتشديد على مرتكبيها وتعقبهم في كل مكان، وعقابهم على المجاهرة بشرب الخمر بالقتل. حتى قتل ابن الكازروني لشربه الخمر، وهو حد لم يعرفه الشرع الإسلامي، وعلق في عنق الشارب زق وداروا به في شوارع القاهرة، ونادوا عليه هذا عقاب من يشرب الخمر.

- ٢٩ -

الخيمي
محمد بن عبد المنعم
(توفي ٦٨٥ هـ)

أ - حياته ونشأته:

ولد محمد بن عبد المنعم الخيمي باليمن ونشأ بها ولقبه شهاب الدين وكنيته أبو عبد الله، جاء إلى مصر وأقام بها، وبها توفي.

ب - شخصيته:

١ - قال عنه ابن العماد: حامل لواء النظم في وقته.

٢ - سمع جامع الترمذي وأجيز من كبار علماء عصره.

٣ - واتصل بعمر بن الفارض.

٤ - وروى عنه جماعة من المصريين من علماء القرن السابع.

٥ - ولم يعرف عنه غضب.

٦ - وكان معروفاً بالأجوبة المسكتة.

ج - شعره:

١ - وبرع في الشعر حتى قيل فيه: وكان المقدم على شعراء عصره.

٢ - وشعره في الذروة.

٣ - تنازع هو وابن إسرائيل قصيدة صوفية بائية حكم فيها له وحكايتها:

روي أن نجم الدين محمد بن إسرائيل الشاعر الصوفي المعاصر حج فرأى ورقة ملقاة فيها القصيدة البائية التي لابن الخيمي فادعاها قال قطب الدين البونيني: إن ابن إسرائيل والخيمي اتفقا واجتمعا بعد ذلك في حضرة جماعة من الأدباء وجرى الحديث فتحاكما إلى شرف الدين بن الفارض، فقال: ينبغي لكل منكما أن ينظم أبياتاً على هذا الوزن والروي فنظم الخيمي:

لله قوم يجر وعاء الحمى غيب

ونظم ابن إسرائيل:

لم يقض من حقكم بعض الذي يجب

فلما وقف عليهما ابن الفارض قال لابن إسرائيل: لقد حكيت ولكن فاتك الشنب وهو عجز بيت من القصيدة المتنازع عليها تمامه:

يا بارقاً بأعالي الرقمتين بدا لقد حكيت ولكن فاتك الشنب

وحكم بالقصيدة للخيمي واستجاد بعض الحاضرين أبيات محمد بن إسرائيل وقال: من ينظم مثل هذا ما الحاجة له إلى ادعاء ما ليس له فابتدر الخيمي وقال: هذه سرقة عادة لا سرقة حاجة، وانفض المجلس وسافر ابن إسرائيل لوقته من الديار المصرية.

وطلب ابن خلكان وكان نائب الحكم بالقاهرة الأبيات من الخيمي فكتبها له وذيل آخرها بأبيات وسأله بينه وبين من ادعاها والقصيدة موضوع الخلاف تبدأ بقوله:

يا مطلباً ليس لي في غيره أرب إليك آل التقصي وانتهى الطلب

الباب السابع

النثر في عصر الانحدار وإبّان الحروب الصليبية

تقديم:

نظراً لاتساع رقعة الدولة وانتشار العلوم والمعارف المختلفة، فقد ازداد الاهتمام بالكتابة النثرية، وأصبحت الحاجة ملحة سواء أكان ذلك في دواوين الدولة ومراسلاتها ومكاتباتها، أم كانت من خلال انتشار التأليف والكتابة الوعظية والخطابة الدينية والاجتماعية، وهذا ما جعل الاهتمام بهذا الفن يأخذ منحىً جديداً. وقد انقسم النثر في هذا العصر إلى نثر علمي ونثر فني:

١ - **فالنثر الفني:** اعتمد الصنعة البيانية والبديعية واستخدم فيه السجع والاقتباس والتضمين والجناس.

٢ - **والنثر العلمي:** غلب عليه التحرر من الصنعة والاهتمام بوضوح المعاني وسهولة الأداء، وقد ظهر إلى جانب ذلك أدب شعبي قارب العامية وابتعد عن لغة القصور، والغاية عند الكتاب في هذا العصر إبراز مقدرتهم الفنية واللغوية وإن أودى بهم الأمر إلى القيود في الصنعة التي حولت الأدب عن مساره الحقيقي.

الباب السابع

الفصل الأول

التآليف والكتب والمصنفات

أولاً - غزارة في التأليف:

أ - يعد هذا العصر من أكثر العصور غزارة في التأليف بسبب جمع الأدباء بين الشعر والنثر، وتباري الأدباء في عدد التصانيف التي تربو على المئات أحياناً.

ب - واللافت للانتباه في هذا العصر ظهور الموسوعات الكبرى الدينية واللغوية والأدبية والتاريخية لحفظ التراث الإسلامي والفكر العربي.

ج - فمن الشعراء أصحاب الدواوين:

- شرف الدين الأنصاري.
- والتلعفري.
- والتلمساني.
- وابنه شمس الدين الملقب الظريف.
- والبوصيري.
- والوراق.
- وابن نباتة.
- وصفي الدين الحلي.
- وابن الوردي.
- وعائشة الباعونية.
- وابن معتوق.
- وابن مليك الحموي.

- وابن النقيب.

- وعبد الغني النابلسي.

د - ومن أصحاب النثر:

- النويري صاحب كتاب نهاية الأدب.

- والقلقشندي صاحب كتاب صبح الأعشى.

- والأبهيشي صاحب كتاب المستطرف.

- والنواجي صاحب كتاب حلبة الكميت.

- والعاملي صاحب الكتكوت.

- والوطواط صاحب كتاب غرب الخصائص الواضحة.

- والبهائي الغزولي وكتابه مطالع البدور.

- وداود الأنطاكي وكتابه تزيين الأسواق وكتاب تذكرة الألباب.

هـ - وفي المعاجم:

- ابن منظور وكتابه لسان العرب.

- والفيروز أبادي والقاموس المحيط.

- والزبيدي وتاج العروس.

و - وفي التاريخ والجغرافية والطب:

- ابن أبي أصيبعة وكتابه طبقات الأطباء.

- وابن خلكان وكتابه وفيات الأعيان.

- والقزويني وكتابه عجائب المخلوقات.

- وابن العبري وكتابه تاريخ مختصر للدول.

- وابن الطقطقي وكتابه الفخري في الآداب السلطانية.

- وأبو الفداء وكتابه تقويم البلدان وكتاب المختصر في تاريخ البشر.

- وابن فضل الله العمري وكتابه مسالك الأبصار.

- وابن شاكر في كتابه فوات الوفيات.
- والصفدي وكتابه أعيان العصر.
- ولسان الدين ابن الخطيب وكتاب الإحاطة في أخبار غرناطة.
- وابن بطوطة ورحلته تحفة الأنظار.
- وابن خلدون ومقدمته المشهورة.
- والمقريزي وكتابه السلوك لمعرفة دول الملوك.
- وابن تغري بردي وموسوعته النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.
- وابن عرب شاه وكتابه عجائب المقدور في أخبار تيمور.
- وحاجي خليفة وكتابه كشف الظنون.

ثانياً - ميزات الآثار المعرفية في هذ العصر:

وأهم ما خلفه علماء هذا العصر دوائر المعارف الإسلامية والعربية الكبرى في مختلف العلوم والآداب والمعارف والتي تميزت بخمس صفات رئيسية:

١ - الموضوعية العلمية والمنهجية في تحقيق النصوص المنقولة والاقتباس من المصادر المتعددة.

٢ - المنهجية في جمع العلوم وتنظيمها.

٣ - الشمول والاتساع.

٤ - التقسيم الموضوعي والتفريع المنطقي (أبواب - فصول - أنواع - أجزاء).

٥ - انعدام الدافع النفعي من وراء ذلك والمصلحة الخاصة.

ثالثاً - علماء عرب منحدرون من قبائل عربية أصيلة:

ومصادر دوائر المعارف كتب الأقدمين من الآداب والأشعار والحكماء والفلاسفة، وقد كانت دوائر المعارف العربية والإسلامية أسبق في الظهور من مثيلاتها في أوروبا، وقد كان معظم من ألف في دوائر المعارف علماء عرب منحدرين من قبائل عربية أصيلة.

١ – فابن منظور يمت بنسبه إلى قبيلة فزارة.

٢ – وابن فضل العمري يرجع بنسبه إلى عمر بن الخطاب.

٣ – والنويري من أحفاد عبادة البكري.

لقد كانت دوائر المعارف تهدف إلى إحياء أمجاد الأمة العربية المغلوبة فهي يقظة عربية حرة رداً على طغيان الشعوبية، ومن الجدير بالذكر أن مناصب القضاء والفقه والفتيا والتدريب والكتابية والتوقيع في دواوين الإنشاء قد تولاها رجال عرب.

رابعاً - مؤلفات متميزة في هذا العصر:

استأنف العلماء والأدباء نشاطهم العلمي في مصر والشام بعد تخريب بغداد، ويعد عصر الانحدار عصر الموسوعات، إذ بدأ المتأدبون في تجميع العلوم في موسوعات مستقلة من أهمها:

١ – المؤلفات الدينية: في علوم القرآن والحديث والتفسير والفقه مثل: فتاوى شيخ الإسلام (٣٨) مجلداً، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي.

٢ – كتب اللغة: لسان العرب لابن منظور – القاموس المحيط للفيروز آبادي – مغني اللبيب لابن هشام – قطر الندى وشذور الذهب لابن هشام – ألفية ابن مالك – كتاب المزهر في اللغة والأشباه والنظائر في النحو وكلها للسيوطي.

٣ – كتب الأدب: المستطرف في كل فنّ مستظرف للأبهيشي – نسيم الصبا لابن حبيب الحلبيّ – خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحمويّ.

٤ – كتب البلاغة: تلخيص المفتاح للقزويني.

٥ – كتب التاريخ: كتاب المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء– البداية والنهاية لابن كثير – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي.

٦ – كتب الجغرافيا والرحلات: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي – تقويم البلدان لأبي الفداء– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة.

٧ – الكتب الموسوعية: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لشهاب الدين العمري – نهاية الأرب للنويري – وصبح الأعشى للقلقشندي.

٨ – المجموعات الأدبية: فقد كتب أدباء عصر الانحدار كتباً منوعة في الأدب على شكل محاضرات وأمالي تعددت موضوعاتها:

– حلبة الكميت للنواجي.

– ومطالع البدور للعزولي.

– وتنشيف السم بانسكاب الدمع لصلاح الدين الصفدي.

– وسجع المطوق لابن نباته.

– ونسيم الصبا لابن حبيب الحلبي.

– وتذكرة ابن العديم.

٩ – في النوادر:

– مسالك الأبصار في ممالك الأنصار لابن فضل الله العمري.

– ونهاية الأدب في فنون الأدب اللغوي.

– وسرور النفس بمدارك الحواس الخمس للتيغاش.

– والغيث المنسجم في شرح لامية العجم لمهيار الديلمي وهو كتاب شامل للنقد والذوق الأدبي.

– ومعالم القرية في أحكام الحسبة لضياء الدين بن أحمد القرشي.

الباب السابع

الفصل الثاني

خصائص الكتابة الفنيَّة والأدبية

وأول ما نلاحظه أن الكتابة تنقسم إلى أقسام أساسية:

أولاً – الكتابة العلمية: وهي لغة العلوم.

ثانياً – الكتابة المعرفية: وهي لغة المعارف بشكل عام.

ثالثاً – الكتابة الفنية: وهي الكتابة بلغة الفن والأدب والمتصلة بموضوع من الموضوعات الحيوية، لمعالجة أحداث أو مشكلات في الحياة ولكل من هذين القسمين (الفن –الأدب) قسماته الأسلوبية واللغوية.

أ – أما الكتابة الفنية: فقد اتجه الكتاب فيها إلى:

١ – مزيد من التزويق باستخدام البديع استخداماً مسرفاً.

٢ – وتركيز الاهتمام على التورية وعلى التجنيس.

٣ – دخلت لغة الكتابة تعبيرات عامية وألفاظ دارجة أو دخيلة، تركية أو فارسية أو إفرنجية.

٣ – وقد انتشرت الألفاظ التركية خاصة، وكان للمماليك دورهم الكبير في إشاعة هذه الألفاظ والعبارات.

٤ – وربما تلقفها بعض الكتاب والشعراء ولم يحسنوا استخدامها.

٥ – وكان السجع إطاراً لفظياً سائداً لمعظم فنون الكتابة، وكان بعضهم يجيده، ويتكلفه آخرون ويسيئون استخدامه فيسقطون سقطات مشينة، وأشار بعض علماء العصر إلى أولئك المتكلفين.

٦ – واهتم الكتاب كذلك بالاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر القديم والمثل السائر والنوادر وقصص العرب وحكاياتهم وأحاديثهم، وتفننوا في هذا

الاقتباس بين تضمين الكلام بنصه ولفظه أو الإشارة إلى معانيه أو إيراد بعض لفظه أو التلميح له، وهي جميعاً درجات في الاقتباس.

٧ – وألف بعض العلماء في هذا الفن أيضاً كما ألفوا في التورية، والجناس مبينين أصوله.

٨ – ومن بينهم:

– صلاح الدين الصفدي.

– وشهاب الدين محمود صاحب كتاب التوسل إلى صناعة الترسل.

– وابن حجة الحموي.

– واختيار الدين بن غياث الدين الحسيني صاحب أساس الاقتباس.

الباب الثامن

الرسائل الرسمية والأدبية

تناول الأدب في عصر الدول المتتابعة (المملوكي وأدب عصر الحروب الصليبية) موضوعات من صميم الحياة، فهاجم العادات الشاذة، ونقد موظفي الدولة المتهاونين ونقد المكوس، ودعا إلى الكفاح وطرد المغتصبين، وتبدّى ذلك في الرسائل والخطابة والقصص والمقامات والأدب الشعبي والسير وغيرها:

أولاً - الرسائل الرسمية:

١ - تعد كتابة الرسائل في عصر الانحدار من المناصب الرفيعة لدى السلطان تضاهي منازل قادة الجيوش وكبار القضاة فهو بمنزلة الوزير أو نائب السلطان كما هو مع القاضي الفاضل يتولى ديوان الإنشاء، وقد استحدث المماليك منصب كاتب السر أو رئيس الديوان السلطاني، ومن أشهر من تولى منصب كاتب السر ابن عبد الظاهر وابن فضل الله العمري وعلاء الدين ابن الأثير.

٢ - تعددت موضوعات الرسائل الديوانية الرسمية كرسائل الملوك ورسائل السلاطين في الأمور المهمة والأحداث الجليلة في السلم والحرب كرسائل السلاطين لملوك العرب والمسلمين والصليبيين وملوك أوروبا وسلاطين التتار وبيزنطة، وقد تكون الرسائل تهديداً ووعيداً أو سلاماً وصداقة، وهناك رسائل تعالج حالات اجتماعية أو الدعوة لترك أمور سيئة تخالف الدين كترك الحشيش أو رسائل وصفية كرسالة ابن دقيق العيد في وصف متاعب العلم وتحصيله أو رسالة أبي الخصال في وصف السراج، وقد شاركت الرسائل الناس في أفراحهم وأتراحهم.

٥ - استحدث المماليك منصب (كاتب السر) رئيس الديوان السلطاني، وهو أعلى من صاحب ديوان الإنشاء تنافس في توليه كبار الكتاب كابن عبد الظاهر وابن فضل الله العمري، وعلاء الدين بن الأثير.

٦ – وتنوعت رسائل الديوان بموضوعاتها بين رسائل تدور بين الملوك والسلاطين، وما بين رسائل تهديد ووعيد وتهاني.

وأشهرها رسالة قلاوون إلى السلطان أحمد غازان سلطان التتار، وقد كتبها ابن عبد الظاهر رداً على رسالة من سلطان التتار طلب فيها الهدنة بعد اعتناقه الإسلام.

وقد كثرت فيها المحسنات البديعية والصنعة.

ثانياً - الرسائل الذاتية:

وهي رسائل الإخوانيات بين الأدباء والكتاب، تنوعت موضوعاتها، وترك فيها العنان لخيال وعواطف الكاتب، وشاركت في عرض مبكيات ومضحكات الحياة، فكانت رسائل في وصف الطبيعة، ووصف الشمعة والديك والببغاء والرسائل الماجنة، إضافة إلى رسائل الشكوى والعتاب والمفاكهة وتبادل الرأي، ومن أمثلتها رسالة من الأديب عيسى بن حجاج إلى الوزير الكاتب فخر الدين بن مكانس إضافة إلى رسائل في الرثاء والمفاضلات بين البلاد أو بين السيف والقلم.

وتراسل الأدباء بين بعضهم عتاباً وشكوى ومفاكهة، وتخطت الرسائل إلى أغراض أخرى كالرثاء مثل رسالة ابن الوردي في رثاء العالم الفقيه البارزي الشافعي كما كتب الكتاب رسائل في المفاضلة بين السيف والقلم وبين البلاد والأقاليم أو في مدح مدينة وذمها كرسالة ذم القاهرة لزكي الدين الحسين ومدحها لأخيه، كذلك رسائل المعارضات كرسالة الشاعر الحسن بن علي بن أحمد (قريض القرين) التي عارض فيها رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد.

ثالثاً - ومن نماذج الرسائل في هذا العصر:

١ – كتب القاضي الفاضل إلى أخيه عبد الكريم يؤنبه على إيذائه علم الدين ابن النحاس: سبب إصدار هذه المكاتبة إلى الأخ – أصلحه الله – إعلامه ما صح عندي من الأحوال التي أخفاها والله مبديها في حق علم الدين.

وبالله أقسم لئن لم تداو ما جرحت وتستدرك ما فعلت وتمح ما أثبت وتستأنف ضد القبيح الذي كتبت به وشافهت وتعتذر بالجميل فيما قاطعت الله به وبارزت ليكونن الحديث مني بغير الكتاب ولأزيلن السبب الذي قدرت به على مضرة الأصحاب وما أشد معرفتي بأن

الطباع لا تتغير، وبأنك ستحوجني بعد هذا الكتاب إلى ما لا يتأخر، وبالجملة فاستدرك بفعلك لا بإيمانك لي وتنصلك إليَّ فالدم في النصل شاهد عجب.

وويل لمن كانت غنيمته من الأيام عقد القلوب على البغضاء وإطلاق الألسنة بالمذام ولولا أنني شريكك في كل ما تستوحيه من الناس لألقيت حبلك على غاربك وتركتك وما اخترت لنفسك، ولكن كيف بمن يرمي وليس برام ؟

ولكن سكوت الناس عن قبيحك مقابلة لجميل كثير مني فإذا أنت لا تنفق إلا من كيسي فأشفق على نفسك إن كنت تنظر في غد، وعلى بيتك إن كنت تنظر في أمس، وعلى مكانك مني إن كنت لا تنظر إلا في اليوم ولا تجاوبني إلا بلسان الرجل شاكراً لك فإنه وإن كان والله ما ذمك فقد ذممتك به عنه وما أظن أنك تذكر أنني كتبت إليك كتاباً ولا كنت أوثره ولولا حافظ غليظ ما كتبته ولولا علمي أن الكثير مما قيل عنك في أمر الرجل هو القليل مما فعلته لأضربت عن هذا كما أضربت عن غيره، وستعرفك الأيام ما كنت تجهل. والله يأخذ بنا صيتك إلى رضاه ويغمد سيف حليلتك عن مقلتك والسلام.

٢ – وكتب عبد الرحمن محمد بن طاهر المتوفى سنة ٩٣١ هـ:

كنت – أعزك الله – عن ضمير اندمج على سر اعتقادك دره وتبلج في آفق ودادك بدره وسال على صفحات ثنائك مسكه وصار في راحتي سنائك ملكه، ولما ظفرت بفلان حملته من تحتي زهراً جنياً يوافيك عرفه ذكياً ويواليك أنسه نجياً ويقضي من حقك فرضاً مأتياً على أن شخص جلالك لي مائل وبين ضلوعي نازل لا يمله خاطر ولا يمسه عرض دائر إن شاء الله عز وجل.

٣ – وكتب أبو الفضل ابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ:

قد قرب أيدك الله محلك على تراخيه وتصاقب مستقرك على تنائيه؛ لأن الشوق يمثلك والذكر يخيلك فنحن في الظاهر على افتراق وفي الباطن على تلاق، وفي النسبة متباينون وفي المعنى متواصلون ولئن تفارقت الأشباح لقد تعانقت الأرواح.

٤ – استعطاف للخوارزمي:

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

كيف يقدر - أبقى الله السيد - على الدواء من لا يهتدي إلى أوجه الداء وكيف يداري أعداءه من لا يعرف الأعداء من الأصدقاء ؟ أم كيف يسير بلا دليل في الظلماء ؟ أم كيف يخرج الهارب من بين الأرض والسماء ؟ الكريم- أيد الله مولاي - إذا قدر غفر وإذا أوثق أطلق وإذا أسر أعتق، ولقد هربت من الشيخ إليه وتسلحت بعفوه عليه وألقيت ربقة حياتي ومماتي بيديه فليذقني حلاوة رضاه عني كما أذاقني مرارة انتقامه مني، ولتلح على حالي غرة عفوه كما لاحت عليها مواسم غضبه وسطوه، وليعلم أن الحر كريم الظفر إذا نال أقال وأن اللئيم لئيم الظفر إذا نال استطال، وليغتنم التجاوز عن عثرات الأحرار ولينتهز فرض الاقتدار، وليحمد الذي أقامه مقام من يُرتجى ويُخشى وركب نصابه في رتبة شاب الزمان ومجدها فتي وأخلق العالم وذكرها طري وليعتقد أنه قد هابه من استتر ولم يذنب إليه من اعتذر، وفقه الله تعالى لما يحفظ عليه قلوب أوليائه وعصمه مما يزيد به في جماجم أعدائه.

الباب التاسع

الخطابة وأنواعها

تنوعت الخطابة في عصر الدول المتتابعة بين الدين والحرب والسياسة والمناظرة والمواعظ والقصص الديني، وقد كانت لهذه الخطابة مقاييس وشروط، ومن أقصر هذه الخطب وأبلغها خطبة قطز في أمراء الجيوش في مصر حين خرج لحرب المغول في(عين جالوت)، ونقتطف منها:" يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجّهٌ، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته. فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين".

الباب العاشر

المقامات

أ - متابعة المسيرة:

التي بدأها الهمذاني وثنّى بها الحريري، والتي أخذت تستغل للوعظ الديني في عصر الانحدار.

ب - ميزاتها في هذا العصر:

١ - ركزت على التنميق في أسلوبها.

٢ - وحفلت بألوان البديع.

٣ - وقد بقيت محافظة على طريق الأوائل باستخدام:

أ - راوية.

ب - وحدث.

ج - وأقصوصة.

وإذا كانت المقامة حكاية قصيرة في ثوب منمق مرصعة بألوان البديع يتلاعب فيها الكاتب بمقدرته التعبيرية متعة للسامعين كما هو في العصر العباسي فإنها في عصر الانحدار:

١ - قد تخلصت من الرواية.

٢ - واكتفت بالحكاية.

٣ - وحافظت على السجع والبديع.

٤ - وقد فضلها كثير من الأدباء للتعبير عن وجدانهم الخاص.

٥ - أو للتعبير عن الأحداث والهموم والأفراح في ثوب قصصي.

٦ - استعملت في الوعظ الديني واللهو واللعب والإضحاك ورسم صور هزلية لبعض الشخصيات.

٧ – ومن المقامات المميزة: مقامة في وصف الخير والجوارح لمحمد بن يوسف.

٨ – ومن المقامات ما يركز على موضوع أو مناسبة.

٩ – ولعبت المقامة دور الشعر وشاركت في الأحداث الجارية.

١٠ – وكذلك قامت بدور المقالة كمقامة ابن الوردي في الطاعون الذي اكتسح مصر والشام / ٧٤٩ / هـ.

١١ – ومن أهم هذه المقامات: المقامة الساسانية لشهاب الدين الخفاجي.

١٢ – ومن زعمائها صلاح الدين الصفدي وابن الوردي والشاب الظريف.

ج - نماذج من مقامات هذا العصر:

١ – المقامة الساسانية: لشهاب الدين الخفاجي.

٢ – مقامات صلاح الدين الصفدي.

٣ – ومقامات ابن الوردي.

٤ – مقامات الشاب الظريف.

الباب الحادي عشر

الموعظة التقوية

أ - سبب كثرة المواعظ:

نظراً لاستشراء الفساد والانحلال الديني والأخلاقي فقد انبرى الكتاب والمصلحون وعلماء الدين في دفع هذا الفساد بلون يدعى المواعظ الدينية.

ب - أشهر كتابها:

ومن أشهر ما كتب في المواعظ الدينية:

١- كتاب (معيد النعم ومبيد النقم) للسبكي.

٢- و(إغاثة الأمة في كشف الغمة) للمقريزي.

ج - موضوعاتها:

١ - يدور ما فيهما على النقد الاجتماعي البناء.

٢ - ومعالجة وجوه الانحراف.

٣ - وتحليل النشاط الاجتماعي.

٤ - وطرق السلوك السائدة في هذا العصر والتي خرجت عن نهج الشريعة وخالفت أحكام الدين.

٥ - وقد صور الكتاب نقائص العصر المملوكي وصفات طبقاته الاجتماعية وعلاقاتها ببعضها ابتداء من السلطان وانتهاء بالعبيد.

٦ - وعلى خُطا الكتاب مشى الإمام النووي وابن عطاء الله السكندري في مؤلفاتهم.

د - القصص الوعظية:

وهي قصص رمزية أو متخيلة غايتها تنبيه الناس أو حثهم على النضال أو دعوتهم للتخلص من ذنوبهم وانحرافاتهم ككتاب (كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار) لعز

الدين عبد السلام المقدسي، وقد وفق الكاتب في إيجاد تسلسل واضح بين الحوادث وإقامة الحوار الشيق والعبرة لبني الإنسان.

هـ - مواعظ الإمام النووي:

و - مواعظ ابن عطاء الله السكندري.

الباب الثاني عشر
المناظرة

أ - إضاءة:

لم تختلف المناظرة في عهد الدول المتتابعة عما كانت عليه في العصر العباسي اللهم إلا في الموضوعات.

ب - نماذج من المناظرات في عصر الدول المتتابعة:

١ - مناظرة السيف والقلم لزين الدين عمر بن الوردي المتوفى سنة / ٧٤٩هـ / :

لما كان السيف والقلم عدة القول وعمدة الدول.....فكرت أيهما أعظم فخراً وأعلى قدراً فجلست لهما مجلس الحكم والفتوى ومثلتهما في الفكر حاضرين للدعوى وسويت بين الخصمين في الإكرام واستنطقت لسان حالهما للكلام.

فقال القلم: بسم الله مجريها ومرساها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها، أما بعد حمد الله بارئ القلم ومشرفه بالقسم وجاعله أول ما خلق جمل الورق بغصنه كما جمل الغصن الورق، والصلاة على القائل: جفت الأقلام فإن للقلم قصب السباق والكاتب بسبعة أقلام من طبقات الكتاب في السبع الطباق جرى بالقضاء القدر وناب عن اللسان فيم نهى وأمر طالما أربى على البيض والسمر في إضرابها وطعانها وقاتل في البعد والصوارم في القرب ملء أجفانها، وماذا يشبه القلم في ناسه ؟ ومشيه لهم على أم رأسه ؟

قال السيف: بسم الله الخافض الرافع وأنزلنا الحديد فيه بأس ومنافع، أما بعد حمد الله الذي أنزل آية السيف فعظم بها حرمة الجرح وأمن خيفة الخيف، والصلاة على الذي نفذ بالسيف سطور الطروس وخدمته الأقلام ماشية على الرؤوس وعلى آله وصحبه الذين أرهفت سيوفهم وبنيت بها على كسر الأعداء حروفهم فإن السيف عظيم الدولة شديد الصولة محا أسطار البلاغة وأساغ ممنوع الإساغة من اعتمد على غيره في قهر الأعداء تعب، وكيف لا وفي حده الحد بين الجد واللعب ؟

فإن كان القلم شاهداً فالسيف قاض وإن اقتربت مجادلته بأمر مستقبل قطعه السيف بفعل ماض به ظهر الدين وهو العدة لقمع المعتدين حملته دون القلم يد نبينا فشرف بذلك في الأمم شرفاً بيناً الجنة تحت ظلاله ولاسيما حين يسل فترى ودق الدم يخرج من خلاله زينت بزينة الكواكب سماء غمده وصدق القائل (السيف أصدق أنباء من ضده) لا يعبث به الحامل ولا يتناوله كالقلم بأطراف الأنامل، ما هو كالقلم المشبه بقوم عروا عن لبوسهم، ثم نكسوا كما قيل على رؤوسهم فكأن السيف خلق من ماء دافق أو كوكب راشق مقدراً في السرد فهو الجوهر الفرد لا يشتري كالقلم بثمن بخس، ولا يبلى كما يبلى القلم بسواد وطمس، كم لقائمه المنتظر من أثر في عين في أثر فهو في جراب القوم الحرب، ولهذا جاء مطبوع الشكل داخل الضرب.

قال القلم: أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين يفاخر وهو القائم عن الشمال وأنا الجالس على اليمين ؟ أنا المخصوص بالرأي وأنت المخصوص بالصدى أنا آلة الحياة وأنت آلة الردى ما لنت إلا بعد دخول العمر، وما حددت إلا عن ذنب كبير أنت تنفع في العمر ساعة، وأنا أفني العمر في الطاعة أنت للرهب وأنا للرغب، وإذا كان بصرك حديداً فبصري ماء ذهب أين تقليدك من اجتهادي وأين نجاسة دمك من تطهير مدادي ؟

قال السيف: أمثلك يعيِّر مثلي بالدماء ؟ فطالما أمرت بعض فراخي - وهي السكين - فأصبحت من النفاثات في عقدك يا مسكين فأخلت من الحياة جثمانك وشقت أنفك وقطعت لسانك، ويلك إن كنت للديوان فحاسب مهموم أو للإنشاء فخادم لمخدوم، أو للتبليغ فساحر مذموم أو للفقيه فناقص في المعلوم، أو للشاعر فسائل محروم أو للشاهد فخائف مسموم أو للمعلم فللحي القيوم، أما أنا فلي الوجه الأزهر والحلية والجوهر والهيبة إذ أشهر والصعود على المنبر، ثم إني مملوك كمالك فإنك كناسك أسلك الطريق وأقطع العلائق.

قال القلم: أما أنا فابن ماء السماء وأليف الغدير وحليف الهواء، أما أنت فابن النار والدخان وناثر الأعمار وخوان الإخوان تفضل ما لا يفصل وتقطع ما أمر الله أن يوصل، لا جرم أن صعّر السيف خده وصقل قفاه وسقى ماء حميماً فقطع معاه، يا غراب البين ويا عدة الحين ويا معتل العين ويا ذا الوجهين كم أفنيت وأعدمت ؟

وأرملت وأيتمت ؟

قال السيف: يا ابن الطين ألست ضامراً وأنت بطين كم جريت بعكس وتصرفت في مكس وزورت وحرفت ونكرت وعرفت وسطرت هجواً وشتماً وخلدت عاراً وذماً أبشر بفرط روعتك وشدة خيفتك إذا قست بياض صحيفتي بسواد صحيفتك، فأين خطابك فأنت قصير المدة وأحسن جوابك فعندي حدة وافلل من غلظتك وجبهك واشتغل عن دم في وجهي بقيح في وجهك وإلا فأدنى ضربة مني تروم أرومتك فتستأصلك وتجثت جرثومتك، فسقياً لمن غاب لك عن غابك ورعياً لمن لو أهاب بك لسلخ إهابك.

فلما رأى القلم السيف قد احتد ألان له من خطابه ما اشتد وقال: أما الأدب فيؤخذ عني وأما اللطف فيكتسب مني فإن لنت لنت وإن أحسنت أحسنت تحن أهل السمع والطاعة، ولهذا نجمع في الدواة الواحدة منا جماعة وأما أنتم فأهل الحدة والخلاف، ولهذا لا يجمعون بين سيفين في غلاف.

قال السيف: أمكراً ودعوى عفة، لأمر ما جدع قصير أنفه لو كنت كما زعمت ذا أدب لما قابلت رأس الكتاب بعقدة الذنب، أنا الصيت والصوت وغراري لسان مشرفي يرتجل غرائب الموت، أنا من مارج من نار، والقلم من صلصال كالفخار وإذا زعم القلم أنه مثلي أمرت من يدق رأسه بنعلي.

قال القلم: صه فصاحب السيف بلا سعادة كأعزل.

قال السيف: مه فقلم البليغ بغير حظ مغزل.

قال القلم: أنا أزكى وأطهر.

قال السيف: أنا أبهى وأبهر.

فتلا ذو القلم إنا أعطيناك الكوثر.

وتلا صاحب السيف لسيفه: فصل لربك وانحر.

فتلا ذو القلم لقلمه: إن شانئك هو الأبتر.

قال: أما وكتابي المسطور وبيتي المعمور والتوراة والإنجيل والقرآن ذي التبجيل إن لم تكف عليك بقلمي سجّلا بهذا الحكم

قال السيف: أما ومتني المتين وفتحي المبين ولسانيَّ الرطبين ووجهيَّ الصلبين إن لم تغب عن بياضي بسوادك لأمسن وجهك بمدادك، ولقد كسبت من الأسد في الغابة توقيع العين والصلابة مع أنني ما آلوتك نصحاً أفنضرب عنكم الذكر صفحاً ؟

قال القلم: سلم إن كنت أعلى فأنا أعلم وإن كنت أحلى فأنا أحلم وإن كنت أقوى فأنا أقوم أو كنت ألوى فأنا ألوم أو كنت أطرى فأنا أطرب أو كنت أغلى فأنا أغلب أو كنت أعتى فأنا أعتب أو كنت أقضى فأنا أقضب ؟

قال السيف: كيف لا أفضلك والمقر الفلاني شاد أزري؟

قال القلم: كيف لا أفضلك وهو عز نصره ولي أمري ؟

قال الحكم بين السيف والقلم: فلما رأيت الحجتين ناهضتين والبينتين بينتين متعارضتين وعلمت أن لكل واحد منها نسبة صحيحة إلى هذا المقر الكريم ورواية مسندة عن حديثه القديم، لطفت الوسيلة ودققت الحيلة، حتى رددت القلم إلى كنه، وأغمدت السيف فنام ملء جفنه، وأخرت بينهما الترجيح وسكت عما هو عندي الصحيح إلى أن يحكم المقر بينهما بعلمه ويسكن سورة غضبهما الوافر ولجاجهما المديد ببسط حلمه.

٢ – مناظرة بين الجمل والحصان للمقدسي المتوفى سنة / ٨٧٥ هـ/

قال الجمل: أنا أحمل الأحمال الثقال وأقطع بها المراحل الطوال وأكابد الكلال وأصبر على مر النكال، ولا يعتريني من ذلك ملال، وأصول صولة الإدلال، بل أنقاد للطفل الصغير ولو شئت استصعبت على الأمير الكبير فأنا الذلول وللأثقال حمول لست بالخائن ولا الفلول ولا الصائل عند الصول، أقطع في الوحول ما يعجز عنه الفحول وأصابر الظلماء في الهواجر ولا أحول فإذا قضيت حق صاحبي وبلغت مأربي ألقيت حبلي على غاربي وذهبت في البوادي اكتسب من الحلال زادي فإن سمعت صوت حادي سلمت إليه قيادي، وواصلت فيه سهادي، وطلقت طيب رقادي ومددت عنقي لبلوغ مرادي، فأنا إن ضللت فالدليل هادي وإن زللت آخذ بيدي من إليه انقيادي، وإن ظمئت فذكر الحبيب زادي، وأنا المسخر لكم بإشارة وتحمل أثقالكم فلم أزل بين رحلة ومقام حتى أصل إلى ذلك المقام.

فقال الحصان: أنا أحمل صاحبي على كاهلي فأجتهد به في السير وأنطلق بـه كـالطير أهجـم هجوم الليل وأقتحم اقتحام السيل، فإن كان طالباً أدرك بي طلبه وإن كان مطلوباً قطعت عنـه سببه، وجعلت أسباب الردى عنه محتجبة، فلا يدرك مني إلا الغبار ولا يسمع عني إلا أخبـار، وإن كان الجمل هو الصابر المجرب فأنا السابق المقـرب وإن كـان هـو المقتـصد اللاحـق فأنـا المقرب السابق، فإذا كان يوم اللقاء قدمت إقدام الواله وسبقت سـبق نبالـه، وذلـك متخلـف لثقل أحماله وإن أوثق سائسي قيدي وأمن قائدي كيدي أوثقـت بأشـكالي لكـيلا أحـول عـلى إشكالي وألجمت كيلا أكل عن إقدامي فأنا الموعود بالنجاة المعدود لنيل الجاه المشدود للسلامة المقصود للكرامة قد أجزل المنعم على إنعامه أمضي بالعناية الأزلية أحكامه، فإن الخـير معقـود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة خلقت من الريح فكم ركضت في ميـدان الـسباق، ومـا أبـديت عجزاً وكم حززت رؤوس أهل النفاق حزاً، وكم أخليت منهم الآفاق هـل تحـس مـنهم مـن أحد أو تسمع لهم ركزاً.

الباب الثالث عشر

الوصف

أ - إضاءة:

وهو كلّ ما كتب في التراجم والرحلات ووصف الرياضات والطرديات والخواطر التأملية، وهي نوعان:

١ - وبعضها يميل إلى البساطة.

٢ - والآخر إلى الصنعة.

ب - نماذج من الصف في هذا العصر:

١ - وصف حديقة لابن حبيب الحلبي المتوفى سنة / ٩٧٧ هـ / .

لما صدئت مرآة الجنان قصدت لجلائها بعض الجنان فدخلت إليها وما كدت أقدم فإذا هي جنة عالية قطوفها دانية وطلحها منضود وظلها ممدود وأعلام أشجارها مرفوعة وفاكهتها لا مقطوعة ولا ممنوعة، تجوس المياه خلال ديارها وتشرق بآفاقها أنوار أنوارها نزهة النواظر وشرك الخواطر بها أشجار لا تحصى وثمار لا تعد ولا تستقصى.

٢ - وصف عاصفة لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة / ٩١١ هـ / .

أتى عارض في ليلة الجمعة التاسعة من جمادى الآخرة وكانت فيه ظلمات متكاثفة وبروق خاطفة ورياح فقويت أهويتها واشتد هبوبها فتدافعت لها أعنة مطلقات وارتفعت لها صواعق مصعقات فرجفت لها الجدران واصطفت وتلاقت على بعدها واعتنقت وثار بين السماء والأرض عجاج، فقيل: لعل هذه على هذه أطبقت وتحسب أن جهنم قد سال منها وعدا منها وزاد عصف الرياح إلى أن انطفأت مصابيح النجوم ومزق أديم السماء ومحا ما فوقه من الرقوم لا عاصم من الخطف للأبصار، ولا ملجأ من الخطب إلا معاقل الاستغفار وفر الناس نساء ورجالاً ونفروا من دورهم خفافاً وثقالاً لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فاعتصموا بالمساجد الجامعة وأذعنوا للنازلة بأعناق خاضعة ووجوه عانية ونفوس عن الأهل والمال

سالية ينظرون من طرف خفي، ويتوقعون أي خطب جلي قد انقطعت من الحياة علقهم وعميت عن النجاة طرقهم ووقعت الفكرة فيما عليه قادمون وقاموا إلى صلاتهم وودوا أن لو كانوا من الذين عليها دائمون، إلى أن أذن الله في الركود وأسعف الهاجدين بالجهود.

٣ - وصف ابن الأثير المتوفى سنة ٧٥٩هـ أبا تمام والبحتري والمتنبي:

قال:

لقد وقفت من الشعر في كل ديوان ومجموع وأنفدت شطراً من العمر في المحفوظ والمسموع فألفيته بحراً لا يوقف على ساحله وكيف يُحصى قول لم تحص أسماء قائليه ؟ فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده وتتشعب مقاصده ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم في أتباع في قصر نظره على الشعر القديم، إذ المراد من الشعر إنما هو إيداع المعنى الشريف في اللفظ الجزل اللطيف، فمتى وجدت ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل، وقد اكتفيت من هذا بشعر أبي تمام والبحتري والمتنبي وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعزاه ومناته الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين وفصاحة القدماء وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء.

أما أبو تمام:

فإنه رب معان وصقيل أذهان وقد شهد له بكل معنى مبتكر لم يمشى فيه أثر فهو غير مدافع عن مقام الإعراب الذي برز فيه على الإضراب.

أما وصف البحتري والمتنبي:

ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ولم أقل ما أقوله إلا بعد التنقير فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه أطاعته أعنة الكلام، وكان قوله في البلاغة ما قالت حذام، فخذ مني في ذلك قول حكيم وتعلم ففوق كل ذي علم عليم.

وأما البحتري: فإنه في سبك اللفظ على المعنى ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الإطلاق، فبينا يكون في شظف نجد إذ يتشبث بريف العراق.

وسُئل المتنبي عنه وعن أبي تمام وعن نفسه فقال: أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري ولعمري إنه أنصف في حكمه وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه فإن البحتري أتى في شعره

بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء في اللفظ المصوغ من سلافة الماء فأدرك بذلك بعد المرام مع قربة إلى الإفهام، وما أقول إلا أنه أتى في معانيه بالنوادر الغالية ورقى في ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية.

وأما المتنبي: فإنه أراد أن يسلك مسلك أبي تمام فقصرت عنه خطاه ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه، ولكنه حظي في شعره بالحكم والأمثال واختص بالإبداع في وصف مواقف القتال، وأنا أقول قولاً لست فيه متأثماً ولا منه متلثماً وذاك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من أنصالها وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها حتى يظن أن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا، فطريقه في ذلك تضل بسالكه وتقوم بعذر تاركه، ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصف لسانه ما أداه إليه عيانة، ومع هذا فإني رأيت الناس عادلين عن سنن التوسط فإما مفرط في وصفه وإما مفرط، على أنه إذا كان انفرد بطريق صار أبا عذره، ولقد صدق في قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة:

لا تطلبن كريماً بعد رؤيته ... إن الكرام بأسخاهم يداً ختموا

ولا تبال بشعر بعد شاعره ... قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

٤ - وكتب بدر محمد بن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٧٩٩ هـ / .

رفقاً بمن ملك الوجد قيادة وعطفاً على من أذاب الشوق فؤاده متيم أقلقه فرط صدودك ومغرم أغراه بحبك قول حسودك وسقيم لا شفاء له دون مزارك ومقيم على عهدك ولو طالت مدة نفارك إلام هذا التنائي والنفور ؟ وعلام يا ذا القد العادل تجور ؟ لقد تضاعف الأسف والأسى وتطاول التعلل بلعل وعسى.

هبني تخطيت إلى زلة ... ولم أكن أذنبت فيما مضى

أليس لي من بعدها حرمة ... توجب لي منك جميل الرضا

ولست ألوذ إلا بباب نعمك ولا أعتمد في محو الإساءة إلا على حلمك وكرمك وما جل ذنب يضاف إلى صفحك ولا عظم جرم يسند إلى عفوك ومثلك من يقيل العثرات ويتجاوز عن الهفوات:

وكنـــت أظـــن أن جبـــال رضـــوى تـــــــزول وأن ودك لا يـــــــزول

ولكـــن القلـــوب لهـــا انقـــلاب وحـــالات ابـــن آدم تـــستحيل

طالما أنستني بقربك ودنوت مني مفارقاً ظباء سربك وأنجزت وعودي وأطعت نجوم سعودي:

وكنـت إذا مـا جئـت أدنيـت مجلـسي ووجهـك مـن مـاء البـشاشة يقطـر

فمـن لي بـالعين التـي كنـت مـرة إليّ بهـا في سـالف الـدهر تنظـر

قيدت أملي عن سواك وبهرت ناظري بنظرة سناك وكسرت جيش قراري وتركتني لا أفرق بين ليلي ونهاري أحوم حول الديار وأعوم في بحر الأفكار وأتمسك بعطف عطفك وأتعلق بأذيال مكارمك ولطفك، أما علمت أن الكريم إذا قدر غفر ؟ وإذا صدرت من عبده زلة أسبل عليها رداء العفو وستر ؟ وأن شفيع المذنب إقراره ؟ ورفض خطيئته عند مولاه استغفاره ؟

ومـن كـان ذا عـذر لـديك وحجـة فعـذري إقـراري بـأن لـيس لي عـذر

لهفي على عيش بسلاف حديثك سلف وأوقات حلت ثم خلت، وأورثت التلف، واهاً لأيام بطيب أنسك مضت وبروق ليال لولا قربك ما أومضت

قـد كنـت أعـرف في الهـوى مقـدارها رحلـت وبالأسـف المـبرح عوضـت

كيـف الـسبيل إلى إعـادة مثلهـا وهـي التـي بالبعـد قلبـي أمرضـت

وارع الود القديم وأبدل شقاء محبك بالنعيم ولا تعدل عن منهاج المعدلة وسلم، فقد أخذت حقها المسألة واغمد سيف حيف صيرته مسلولاً وأوف بالعهد إن العهد كان مسؤولاً.

٥ - وكتب القاضي الفاضل إلى أخيه عبد الكريم يؤنبه على إيذائه علم الدين ابن النحاس: سبب إصدار هذه المكاتبة إلى الأخ - أصلحه الله - لإعلامه ما صح عندي من الأحوال التي أخفاها والله مبديها في حق علم الدين.

وبالله أقسم لئن لم تداو ما جرحت وتستدرك ما فعلت وتمح ما أثبت وتستأنف ضد القبيح الذي كتبت به وشافهت وتعتذر بالجميل فيما قاطعت الله به وبارزت ليكونن الحديث مني

بغير الكتاب، ولأزيلن السبب الذي قدرت به على مضرة الأصحاب وما أشد معرفتي بأن الطباع لا تتغير وبأنك ستحوجني بعد هذا الكتاب إلى ما لا يتأخر، وبالجملة فاستدرك بفعلك لا بإيمانك إليَّ وتنصلك إلى فالدم في النصل شاهد عجب.

وويل لمن كانت غنيمته من الأيام عقد القلوب على البغضاء وإطلاق الألسنة بالمذام، ولولا أنني شريكك في كل ما تستوحيه من الناس لألقيت حبلك على غاربك وتركتك وما اخترت لنفسك، ولكن كيف بمن يرمي وليس برام ؟

ولكن سكوت الناس عن قبيحك مقابلة لجميل كثير مني فإذا أنت لا تنفق إلا من كيسي فأشفق على نفسك إن كنت تنظر في غد وعلى بيتك إن كنت تنظر في أمس، وعلى مكانك مني إن كنت لا تنظر إلا في اليوم، ولا تجاوبني إلا بلسان الرجل شاكراً لك فإنه وإن كان والله ما ذمك فقد ذممتك به عنه، وما أظن أنك تذكر أنني كتبت إليك كتاباً ولا كنت أوثره ولولا حافظ غليظ ما كتبته ولولا علمي أن الكثير مما قيل عنك في أمر الرجل هو القليل مما فعلته لأضربت عن هذا كما أضربت عن غيره وستعرفك الأيام ما كنت تجهل. والله يأخذ بنا صيتك إلى رضاه ويغمد سيف حليلتك عن مقلتك والسلام.

٦ – وكتب عبد الرحمن محمد بن طاهر المتوفى سنة ٩٣١ هـ:

كنت – أعزك الله – عن ضمير اندمج على سر اعتقادك دره وتبلج في آفق ودادك بدره وسال على صفحات ثنائك مسكه وصار في راحتي سناؤك ملكه، ولما ظفرت بفلان حملته من تحتي زهراً جنياً يوافيك عرفه ذكياً ويواليك أنسه نجياً ويقضي من حقك فرضاً مأتياً على أن شخص جلالك لي مائل وبين ضلوعي نازل لا يمله خاطر، ولا يمسه عرض دائر إن شاء الله عز وجل.

الباب الرابع عشر

الوصايا

أ - إضاءة:

ب - نماذج من وصايا عصر الدول المتتابعة:

١ - ومن وصية ابن سعيد المغربي المتوفى سنة ٩٦٧ هـ وقد أراد السفر:

أودعـــك الـــرحمن في غربتـــك ... مرتقبـــاً رحمـــاك في أوبتـــك

فـــلا تطـــل حبـــل النـــوى إننـــي ... والله أشـــتاق إلى طلعتـــك

واختـــصر التوديـــع آخـــذاً فـــما ... لي نـــاظرٌ يقـــوى عـــلى فرقتـــك

واجعـــل وصـــاتي نـــصب عـــين ولا ... تـــبرح مـــدى الأيـــام مـــن فكرتـــك

خلاصـــة العمـــر التـــي حنكـــت ... في ســـاعة زفـــت إلى فطنتـــك

فللتجـــارب أمـــور إذا ... طالعتهـــا تـــشحذ مـــن غفلتـــك

فـــلا تـــنم عـــن وعيهـــا ســـاعة ... فإنهـــا عـــون إلى يقظتـــك

وكـــل مـــا كابدتـــه في النـــوى ... إيـــاك أن يكـــسر مـــن همتـــك

فلـــيس يـــدري أصـــل ذي غربـــة ... وإنـــما تعـــرف مـــن شـــيمتك

وامـــش الهـــوينى مظهـــراً عفـــة ... وابـــغ رضـــا الأعـــين عـــن هيئتـــك

وانطـــق بحيـــث العـــي مـــستقبح ... واصـــمت بحيـــث الخـــير في ســـكتتك

ولـــج عـــلى رزقـــك مـــن بابـــه ... واقـــصد لـــه مـــا عـــشت في بكرتـــك

ووف كـــلاً حقـــه ولـــتكن ... تكـــسر عنـــد الفخـــر مـــن حـــدثك

وحيـــثما خيمـــت فاقـــصد إلى ... صـــحبة مـــن ترجـــوه في نـــصرتك

وللرزايـــا وثبـــةٌ مـــا لهـــا ... إلا الـــذي تـــذخر مـــن عـــدتك

ولا تقـــل أســـلم لي وحـــدتي فقـــد تقـــاسي الـــذل في وحـــدتك
ولتجعـــل العقـــل محكـــاً وخـــذ كـــلاً بـــما يظهـــر في نقـــدتك
واعتـــبر النـــاس بألفـــاظهم واصـــحب أخـــاً يرغـــب في صـــحبتك
كـــم مـــن صـــديق مظهـــر نـــصحه وفكـــره وقـــف عـــلى عثرتـــك
إيـــاك أن تقربـــه إنـــه عـــون مـــع الـــدهر عـــلى كرتـــك
وانـــم نمـــو النبـــت قـــد زاره غـــب النـــدى واســـم إلى قـــدرتك
ولا تـــضيع زمنـــاً ممكنـــا تـــذكاره يـــذكي لظـــى حـــسرتك
والـــشر مهـــما اســـطعت لا تأتـــه فإنـــه جـــور عـــلى مهجتـــك

يا بني الذي لا ناصح له مثلي، ولا منصوح لي مثله - قد قدمت لك في هذا النظم ما إن أخطرته بخاطرك في كل أوان وإن رجوت لك حسن العاقبة - إن شاء الله تعالى - وإن أخف منه للحفظ،وأعلق للفكر وأحق بالتقدم قول الأول:

يـــزين الغريـــب إذا مـــا اغـــترب ثـــلاث فمـــنهن حـــسن الأدب
وثانيـــة حـــسن أخلاقـــه وثالثـــة اجتنـــاب الريـــب

وأصغ يا بني إلى البيت الذي هو يتيمة الدهر، وسلّم الكرم والصبر:

ولـــو أن أوطـــان الـــديار نبـــت بكـــم لكنـــتم الأخـــلاق والآدابـــا

إذ حسن الخلق أكرم نزيل، والأدب أرحب منزل ولتكن كما قال بعضهم في أديب متغرب، وكان كلما طرأ على ملك فكأنه معه ولد، وإليه قصد، غير مستريب بدهره، ولا منكر شيئاً من أمره.

وإذا دعاك قلبك إلى صحبة من أخذ بمجامع هواه، فاجعل التكلف له سلماً وهب في روض أخلاقه هبوب النسيم، وحل بطرفه حلول الوسن،و انزل بقلبه نزول المسرة، حتى يتمكن لك وداده، ويخلص فيك اعتقاده وطهر من الوقوع فيه لسانك، وأغلق سمعك، ولا ترخص في جانبه لحسود لك منه، يريد إبعادك عنه لمنفعة، أو حسود له يغار لتجمله بصحبتك، ومع هذا فلا تغتر بطول صحبته ولا تتعهد بدوام رقدته، فقد ينبهه الزمان، ويتغير

منه القلب واللسان وإنما العاقل من جعل عقله معياراً، وكان كالمرآة يلقي كل وجه بمثاله، وفي الأمثال العامة (من سبقك بيوم سبقك بعقل)).

فاحتذِ بأمثلة من جرب واستمع إلى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الأقوال، فإنها خلاصة عمرهم وزبدة تجاربهم، ولا تتكل على عقلك، فإن النظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم وابتاعوه غالياً بتجاربهم يربحك ويقع عليك رخيصاً، وإن رأيت من له عقل ومروءة وتجربة فاستفد منه، ولا تضيع قوله ولا فعله، فإن فيما تلقاه تلقيحاً لعقلك وحثاً لك واهتداء.

وليس كل ما تسمع من أقوال الشعراء يحسن بك أن تتبعه حتى تتدبره، فإن كان موافقاً لعملك، مصلحاً لحالك، فراع ذلك عندك، وإلا فانبذه نبذ النواة، فليس كل أحد يتبسم ولا كل شخص يكلم، ولا الجود مما يعم به ولا حسن الظن وطيب النفس مما يعامل به كل أحد ولله در القائل:

ومـــا لي لا أوفي البريـــة قـــسطها عـلى قـدر مـا يعطـي وعقـلي ميـزان

وإياك أن تعطي من نفسك إلا بقدر، فلا تعامل الدون بمعاملة الكفء، ولا الكفء بمعاملة الأعلى، ولا تضيع عمرك فيمن يعاملك بالمطامع، ويثيبك على مصلحة حاضرة عاجلة، بغائبة آجلة ولا تجف الناس بالجملة، ولكن يكون ذلك بحيث لا يلحق منه ملل، ولا ضجر، ولا جفاء، فمتى فارقت أحداً فعلى حسني في القول والفعل، فإنك لا تدري هل أنت راجع إليه ؟ فلذلك قال الأول:

ولما مضى سلمٌ بكيت على سلم

وإياك والبيت السائر:

وكنـــت إذا حللـــت بـــدار قـــوم رحلـــت بخزيـــة وتركـــت عـــارا

واحرص على ما جمع قول القائل: (ثلاثة تبقي لك الود في صدر أخيك، أن تبدأه بالسلام وتوسع له المجلس وتدعوه بأحب الأسماء إليه)، واحذر كل ما بينه لك القائل: (كل ما تغرسه تجنيه إلا ابن آدم، فإذا غرسته يقلعك) وقول الآخر: (إن ابن آدم ذئب مع الضعف أسد مع القوة).

وإياك أن تثبت على صحبة أحد قبل أن تطيل اختباره، ويحكى أن ابن المقفع خطب من الخليل صحبته، فجاوبه: (إن الصحبة رق ولا أضع رقي في يدك حتى أعرف كيف ملكتك)، واستمل من عين على من تعاشره وتفقد في فلتات الألسن فإن الكلام سلاح السلم، وبالأنين يعرف ألم الجرح، واجعل لكل أمر أخذت فيه غاية وتجعلها نهاية لك:

وخذ الدهر ما أتاك به من قر عيناً بعيشة نفعه

إذ الأفكار تجلب الهموم وتضاعف الغموم وملازمة القطوب عنوان المصائب والخطوب يستريب به الصاحب ويشمت العدو والمجانب، ولا تضر بالوساوس إلا نفسك، لأنك تنصر بها الدهر عليك، ولله در القائل:

إذا ما كنت للأحزان عونا عليك مع الزمان فمن تلوم ؟

مع أنه لا يرد عليك الغائب الحزن ولا يرعوي بطول عتبك الزمن.

ولقد شاهدت بغرناطة شخصاً قد ألفته الهموم وعشقته الغموم ومن صغره إلى كبره لا تراه أبداً خلياً من فكره، حتى لقب (بصدر الهم).

ومن أعجب ما رأيته منه أنه يتنكد في الشدة، ولا تعلل بأن يكون بعدها فرج، ويتنكد في الرخاء خوفاً من أن لا يدوم، وينشد:

توقع زوالاً إذا قيل تم

وينشد

وعند التناهي يقصر المتطاول

وله من الحكايات في هذا الشأن عجائب، ومثل هذا عمره محسور يمر ضياعاً، ومتى رفعك الزمان إلى قوم يذمون من العلم ما تحسنه حسداً لك وقصداً لتصغير قدرك عندك، وتزهيداً لك فيه، فلا يجعلك ذلك على أن تزهد في علمك وتركن إلى العلم الذي مدحوه، فتكون مثل الغراب الذي أعجبه مشي الحجلة فرام أن يتعلمه فصعب عليه، ثم أراد أن يرجع إلى مشيه فنسيه، فبقي مخبل المشي كما قيل:

إن الغراب وكان يمشي مشية فيما مضى من سالف الأجيال

حـــسد القطـــا وأراد يمـــشي مـــشيها فأصـــــابه ضرب مـــــن العقـــــال

فأضـــل مـــشيته وأخطـــأ مـــشيها فلـــذاك كنـــوه (أبـــا مرقـــال)

ولا يفسد خاطرك من جعل يذم الزمان وأهله ويقول: ما بقي في الدنيا كـريم ولا فاضـل، ولا مكان يرتاح فيه، فإن الذين تراهم على هذه الصفة أكثر ما يكونون ممن صحبهم الحرمان،و استحقت طلعتهم للهوان وأبرموا على الناس بالسؤال فمقتوهم، وعجزوا عن طلـب الأمـور من وجوهها، فاستراحوا إلى الوقوع في الناس، وأقاموا الأعذار لأنفسهم بقطـع أسـبابهم، ولا تُزل هذين البيتين من فكرك:

لـــــن إذا مـــــا نلـــــت عـــــزا فـــــأخو العـــــز يلـــــين

فـــــإذا نابـــــك دهـــــر فكـــــما كنـــــت تكـــــون

والأمثال تضرب لذي اللب الحكيم، وذو البصر يمشي عـلى الـصراط المـستقيم، والفطـن يقنع بالقليل، ويستدل باليسير، والله سبحانه خليفتي عليك لا رب سواه.

الباب الخامس عشر

الحكم الإلهية

أ - إضاءة:

الحكم الإلهية مجموعة من الأقوال المأثورة والفقرات القصار يتجه بها صاحبها إلى - المريد - سالكاً طريق الوصول إلى رب العزة مبتغياً رضاه وهي مختلفة الأغراض والمعاني، وتزدان أحياناً بالسجع المتواتر، أما المعاني فيميل صاحبها إلى التجريد أحياناً. وتارة يميل في أسلوبه من التجريد إلى التجسيد والتصوير بالتشبيه كقوله: (ادفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه)، وتارة يقف عند المعنى فيديره في صور متشابهة من اللفظ لا تختلف إلا فيما تقره القافية. كقول السكندري:

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء؟

ب - حكم السكندري:

المتصفح في حكم ابن عطاء الله يجدها أقوالاً مأثورة لا يربط بينها رباط معنوي متسلسل يحكم فقراتها، فقد نظمت على فقرات في أوقات مختلفة ثم ضم بعضها إلى بعض وجاء في أقوال من ترجموا لحياته أن أنصاره ومريديه جمعوا له كلاماً كثيراً وكانت هذه الحكم من بين ما جمع ونلاحظ في الحكم المطبوعة تكرر المعنى الواحد في صور مختلفة من التعبير.

والمعنى العام لعبارات السكندري جميعها هو أن المريد ينبغي أن يقف حيث أقامه الله دونما ضجر من نقص أو طمع في زيادة فهو في هذه المجموعة من الحكم يدعو - على اختلاف

التعبير – إلى احترام واقع الإنسان ذلك أنه لا يرى عملاً أفضل من عمل ما دامت كل الأعمال بإرادة الله ومشيئته. ففي رأيه أن الاهتمام بالعمران والمعاش لا يتعارض مع أدب المريد، وإنما ينبغي أن يقف المريد حيث أراده الله وأن يتجرد من الأعمال الدنيوية حتى لا يخرب العالم.

ولكن الرضا عن الحال والعمل غير الرضا عن النفس، فلك أن ترضى عن حالك التي أقامك عليها في الحياة، أما النفس فإن الرضا عنها أصل كل معصية وغفلة وشهوة، ويعرض ابن عطاء الله بين ما يعرض له في حكمه لأدب الصداقة والصحبة بين الصوفية وينصح المريدين بعدم السعي للشهرة؛ لأن الشهرة تميت القلب وتقطع أسبابه بالله، ونعثر بين حكمه على عبارات توحي بمذهب الصوفية، ونلاحظ في أسلوبه كما في معانيه خلط بين عبارات الصوفية وطريقتهم في التعبير وميلهم للرمز والغموض واستخدامه مصطلحهم وبين أساليب الأدباء من ميل إلى الجزالة والإيجاز واستخدام بعض حلي اللفظ والمعنى.

ومن حكمه مجموعة استغاثات هي أقرب إلى أسلوب الابتهالات التي نظمها أبو حيان التوحيدي في الإشارات الإلهية في مجموعة من السجع القصير الفقرات، وتأثر فيها بطريقة شيخه أبي الحسن الشاذلي في حزب البر، ونحن فيها أمام رجل بليغ لا يكتفي بزخرف اللفظ وإنما يفتن افتناناً شائقاً في زخرف المعاني مع تكلف أو افتعال، فهو يستدل بالله على الموجودات؛ لأنه أصل كل شيء، وعبر عن هذا المعنى أكثر من مرة في الحكم ويكاد يكون من عقائده الرئيسة، ومع ذلك فهو لا ينكر تماماً أن تكون الآثار شواهد على الله تعالى؛ وكتب لحكم ابن عطاء الله أن تسير وتشتهر بين الناس فجرت عباراتها على ألسنتهم وتواترت في دعواتهم وابتهالاتهم.

ج - نماذج من الحكم الإلهية:

من حكم ابن عطاء الله السكندري قوله:

١ – من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل.

٢ – تنوعت الأعمال لتنوع واردات الأحوال.

٣ – كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء؟

٤ – كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء؟

٥ – كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء؟

٦ – كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؟

٧ – كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء؟

٨ – كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء؟

٩ – إن إرادتك التجرد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية.

١٠ – ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه.

١١ – لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج.

١٢ – أرح نفسك من التدبير فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك.

١٣ – ادفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه.

١٤ – إنما يستوحش العباد الزهاد من كل شيء لغيبتهم عن الله في كل شيء، ولو شهدوه في كل شيء لم يستوحشوا من كل شيء.

١٥ – علم منك أنك لا تصبر عنه فأشهدك ما برز منه.

١٦ – الأكوان ثابتة بثباته وممحوة بأحدية ذاته.

١٧ – إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري.

١٨ – إلهي أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي.

١٩ – إلهي إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك ولك المنة عليَّ وإن ظهرت المساوئ فبعدلك ولك الحجة عليَّ.

٢٠ – ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك، أم كيف أشكو إليك حالي وهي لا تخفى عليك وأم كيف أترجم لك بمقالي وهو منك برز إليك، أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك أم كيف لا تحسن أحوالي بك قامت وإليك.

٢١ – كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك.

٢٢ – إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فأرجعني إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها مصون السر عن النظر إليها ومرفوع الهمة عن الاعتقاد عليها أنك على كل شيء قدير.

٢٣ – إلهي منك أطلب الوصول إليك وبك أستدل عليك فاهدني بنورك إليك وأقمني بصدق العبودية بين يديك.

٢٤ – إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك وهذا حالي لا يخفى عليك.

٢٥ – بك أستنصر فانصرني وإليك أتوكل فلا تكلني وإياك أسأل فلا تخيبني، وفي فضلك أرغب فلا تحرمني ولجنابك أنتسب فلا تبعدني، وببابك أقف فلا تطردني.

الباب السادس عشر

الأدب الشعبي وأنواعه

أولاً

ماهية الأدب الشعبي وخواصه

أ - الأدب الشعبي:

هو الأدب الذي يكتب للعامة من الناس وبلغة غير فصيحة، والذي يميز الأدب الشعبي عن الفصيح خاصتان:

أولاهما: أن يكون بلغة عامية (ملحونة) أي بلغة عامة الشعب والناس في أحاديثهم العامة وقضاء حاجاتهم اليومية.

وثانيهما: أنه يعرض لحياة الناس من عامة الشعب، وخبايا وجدانهم، ومكنون مشاعرهم، كما يبين عن اهتماماتهم، وربما كان هذا الضرب من الأدب من صنع مجهول أو من صنع جماعة من الناس اشتركوا فيه في جيل واحد أو أجيال متعاقبة، في بلد واحد أو بلاد متفرقة، وربما كان من صنع علم معروف مشهور من رجال الأدب والفن، ولكن سار، وتناقلته ألسنة الناس.

ب - رواجه:

وهذا اللون من الأدب بدا رواجه منذ القرن السادس الهجري، وكانت قد تعددت ألوانه ظهوراً في المشرق والمغرب، في بلاد العراق وفارس، وفي الأندلس والمغرب ثم ما بينهما.

ج - أظهر ألوانه:

وأظهر الألوان الشعبية:

١- في المنظوم: (القوما - والكان كان - والمواليا والزجل والموشح).

٢- وفي المنثور (المقامة والقصة الشعبية والسيرة).

د - تأثيره على أدباء الفصحى:

ولم يقتصر دور الأدب الشعبي على ظهور تلك الألوان الجديدة في المنظوم والمنثور، بل تعداه إلى الأدب الفصيح فأثر فيه ومال به نحوه، وصار أدباء الفصحى يقلدون أدباء العامية

في اللفظ والأسلوب وبعض التغييرات السائرة، بل وفي الخيالات والصور. وممن تأثر بهذا كثير من أدباء العصر أمثال البهاء زهير، والأسعد ابن مماتي، والبوصيري، والحسين الجزار، ومحمد بن دانيال.

هـ - أنواع المنظوم:

وعدد الصفي الحلي أنواع النظوم المعروفة في عصره سبعة أنواع بين فصيح وشعبي. هي:

١ - الشعر،

٣ - القريض،

٣ - والموشح،

٤ - والدوبيت،

٥ - والزجل،

٦ - والمواليا،

٧ - والكان كان،

٨ - والحماق.

وأهل العراق وديار بكر ومن يليهم يثبتون الخمسة منها، ويبدلون (الزجل والحماق بالحجازي والقوما)، وهما فنان اخترعهما البغاددة للغناء بهما في السحور في شهر رمضان، خاصة في عصر الخلفاء من بني العباس، فأما عذرهم في إسقاط الزجل فلأن أكثرهم لا يفرق بين الموشح والزجل، والمرنم، فاخترعوا عوضه الحجازي، (وهو وزن بيتين من بحر السريع بثلاث قواف)، كما اقتطع الوسطيون المواليا (وهو بيتان من بحر البسيط)، وهذا يشبه الزجل في كونه ملحوناً، وأنه بعد كل أربعة أقفال منه بيت ويخالفه بكون القطعة منه لو بلغ عدد أبياتها ما بلغ لا تكون إلا على قافية واحدة. فأما عذرهم في إسقاط الحماق، فإنهم لم يسمعوه أبداً.

وإذا أضفنا الفنين اللذين أوردهما الصفي الحلي لأهل العراق، وهما الحجازي والقوما، ثم الثالث وهو المزنم، والبليق الذي عرفه المصريون وبعض شعراء أهل الشام كان عددهم أحد

عشر فناً منظوماً. وفيما عدا القريض - وهو الشعر الفصيح - يصبح عدد الفنون الشعبية المنظومة عشرة كاملة بعضها معروف الأشكال والأوزان محددها، وبعضها الآخر مختلط غير محدد. وذكر الحلي أن ثلاثة منها معربة أبداً لا يغتفر فيها اللحن هي القريض والموشح والدوبيت، ومنها ثلاثة ملحونة أبداً وهي الزجل وكان وكان والقوما، وواحد كالبرزخ بينهما يحتمل الإعراب واللحن وإنما اللحن فيه أحسن وأليق، وهو المواليا.

وإذا تأملنا قول الحلي وجدنا أنه لا يصح دائماً؛ لأن الموشح نظم باللغة العامية. كذلك لو أدخلت عليه العامية حتى في أولى أطواره في القرن الخامس الهجري، حين لجأ الوشاحون إلى تذييله بالخرجة، وهي أكثر ما تكون بالعامية الدارجة غير المعربة،والفصيح منها قليل نادر. كذلك الدوبيت ليس من فنون نظوم الفصيح، وما هو عامي كله بل تناقلته العامية والفصحى. ولا تزال أشكال من الدوبيت في اللهجات العامية تعيش إلى الآن في السودان. وكاختلاط اللغة اختلطت الأوزان والأشكال، وقد حاول بعض القدماء كالمجنى في (خلاصة الأثر) دراسة كل نوع منها، وبيان أوزانه وعروضه وبنائه.

ثانياً

فن التوشيح

الموشحات

أ - أول هذا النظم وأقربه إلى (القريض) (الموشح) لأنه يستخدم الأوزان الشعرية المعروفة، وإن تصرف فيها وأدخل بعض أشطرها على بعض أو استخدم تفعيلات مفردة منها وألف بينها. وله كذلك قوالب متوارثة مدروسة، تحد في ثلاثة أصول هي: القفل والغصن (أو الأبيات) ثم الخرجة، وهي القفل الأخير لكن بلفظ عامي، ويراعى فيها أن تكون خارجة في موضوعها عن تسلسل موضوع الموشح. فتجيء كالملحة في الختام.

ب - وهو نوعان:

١ - الأول يسمى الموشح الأقرع: ويتكون من خمسة أقفال، وخمسة أبيات أو أغصان. وسمي كذلك لحذف القفل الأول من مطلعه، وبدايته مباشرة بالغصن أو الأبيات.

٢ – والثاني يسمى البسيط: ويتكون من قفل بسيط من شطرين من وزن واحد وغصن من أربع شطرات.

٣ – والثالث يسمى المركب: وفيه يتركب كل من القفل والغصن بزيادة عدد الفقرات أو الشطرات أو بإدخال أجزاء منها وتفعيلات بينها أو في نهايتها.

ويشترط في الأقفال أن تكون موحدة القافية والوزن في الموشح كله من أوله إلى آخره.

وأما الأبيات والأغصان فهي موحدة الوزن متغيرة القوافي، في كل غصن قافية مختلفة، والخرجة، هي الجزء الثالث وهي من وزن القفل وقافيته، لكنها تكون غالباً باللغة الدارجة المعربة.

ج – إلا أن هذه الأصول لم تراع دائماً في الموشحات التي صنعت فيها في هذا العصر، بل تصرف الوشاحون تصرفاً كبيراً في عدد الأقفال والأغصان في الموشح الواحد، كما تصرفوا في بناء المركب ولم يراعوا حدود الموشح الأندلسي تماماً.

د – فمنهم من زاد كثيراً في عدد الأقفال والأبيات عن العدد المقرر وهو ستة أقفال وخمسة أبيات في التام أو خمسة وخمسة في الأقرع.

هـ – ونجد النصيري الأدفوي – على سبيل المثال ينظم موشحا من ثمانية أقفال وسبعة أغصان.

و – ونجد ابن مكانس فخر الدين ينظم موشحاً من واحد وخمسين قفلاً وواحد وخمسين غصناً.

ز – وقد يخلط بعض الوشاحين بين الدوبيت والموشح في نظم واحد مثل قول الشهاب العزازي في موشح دوبيتي:

أقسمت عليك بالأسيل القاني أن تنظري حال الكثيب الفاني

أو تقصر عن إطالة الهجران يا من سلب المنام من أجفاني

ما أليق هذا الحسن بالإحسان

والله لقد ضاعفت عندي الكمدا مذ جزت في الهجر الطويل الأمدا

أدرك رمقـــي أو هـــب فـــؤادي جلـــدا يـــا مـــن أخـــذ الـــروح وأبقـــى الجـــسدا

ما أصنع بعد الروح بالجثمان

ويمضي على هذا النسق حتى آخر الموشح، مكوناً من سبع فقرات، تجمع بين سبعة أغصان وسبعة أقفال، وهذا النظم من نوع الأقرع.

ح – وكانت الموشحات تصنع ليتغنى بها، وغالباً ما يكون الوشاح مغنياً أو عالماً بالموسيقا وعازفاً على آلة من آلاتها، ويراعى في بنائها أن تكون طيّعة اللحن تقبل ما يدخله عليها الموسيقا من فنون النغم.

ط – كذلك أظهر الوشاحون براعتهم في التلاعب بأصوات الحروف، وإيجاد ضروب من التناسق والتلاؤم أو الجناس الصوتي. كقول النصير الحمامي:

يـــا منتهـــى الآمـــال أمـــا لي في الحـــب مـــن مجـــير

أرثـــي لجـــسمي البـــالي يـــا بـــالي وارحـــم في أســـير

فقـــد بـــذلت الغـــالي يـــا غـــالي في القـــدر يـــا أمـــير

ي – وخرجت بعض موشحات العصر بأوزانها عن الأوزان المألوفة المعتادة، وإيقاعاتها عن الإيقاعات المعهودة في الشعر الفصيح، وحاولت أن تدخل إيقاعات جديدة، ممزوجة بكثير من التراث الشعبي والأجنبي والمحلي في كل إقليم.

ك – وقد وفد الموشح إلى مصر والشام في أخريات القرن السادس الهجري، فقد نظم فيه ابن سناء الملك الشاعر المصري، كما قيل: إن ابن البلطي المصري صنع موشحاً بديعاً في القاضي الفاضل على طريقة المغاربة. وحافظ فيه على أحرف العين والضاد والذال والطاء وصرع التوشيح بورودها.

ل – وكانت موضوعات الموشح التقليدية هي الغزل، والشراب والوصف، لكن استخدمه بعضهم في المديح والرثاء أي في مواقف الزلفى والتكسب كما استخدم شعر القصيد. قال ابن حجر: قال حميد الضرير يرثي ابن أبي الرضا الفقيه بموشح منسجم النظم:

عـــلى ابـــن الرضـــا مـــضى اصـــطباري وســـــــــــــارا

وعينـي قـد جـرت مـن عظـم نـاري بحـــــــــــــارا

مـــــدارس درســـــه حنـــــت إليـــــه

وحـــــن العلـــــم والعلـــــما لديـــــه

وأشـــــياخ الحـــــديث بكـــــت عليـــــه

ثالثاً

فن الزجل

أ - يعتبر فن الزجل الصورة العامية الخالصة للموشح، فهو يتخذ شكله ومادتـه وبنـاءه مـن الأقفال والأغصان وإن استخدم عروض الشعر الفصيح ونظام الموشح في التركيب والبساطة.

ب - وفد فن الزجل إلى مصر والشام بصحبة الموشح من الأنـدلس والمغـرب، وكـان قـد خرج هناك واشتد عوده على يد ابن قزمان، ولكن المصريين تفننوا فيه وبرعوا، وتمثـل للزجـل وكونه على صورة الموشح شكلاً ووزناً لكن كلامه عامي، يقول عبد الملك بن الأعز الإسـنائي (توفي سنة ٧٠٧ هـ) قال ابن شاكر: ((ومن شعره في وزن من أوزان الشعر العامي:

جفـــــوني مـــــا تنـــــام إلا لعـــــــلي أن أراك

فـــزرني قـــد بـــراني الـــشوق يـــا غـــصن الأراك

وطـــــرفي مـــــا رأى مثلـــــك وقلبـــي قـــد حـــواك

فهـــــو لم يـــــزل مـــــسكن

فـــــسبحان الـــــذي أســـــكن

وحـــــسنك كـــــم بـــــه أفـــــتن

ومـــــا قـــــصدي ســـــواك

حبيبـــــي آه مـــــا أحـــــلى هـــــواي في هـــــواك

ج - ويلاحظ على هذا الزجل ملاحظات:

أولاً: أنه لا يجري على صورة الموشح التقليدية فهو مكون من خمس فقرات، وكل فقرة من غصن مركب من ثلاثة أغصان، كل واحد منها ثلاثة أبيات مقفاة بقافية مشتركة، ثم قفل مكون من ثلاثة أجزاء منها جزءان بقافية مشتركة ملتزمة في طول الزجل، والوسطى مطلقة.

ثانياً: اللغة الغالبة هي العامية أو غير المعربة، فاللحن هو الأساس ويأتي الفصيح تملحاً وتوشية وسط اللفظ الملحون.

ثالثاً: هذا الشكل نادر في الموشح، نادر كذلك في الزجل العادي المألوف في العصر.

د - وقد أورد لنا الأدفوي زجلاً لهارون بن موسى بن محمد الرشيد المعروف بابن المصلي الأرمني المتوفى سنة / ٧٣٠ هـ / يسير فيه على نمط الموشح بتصرف، ويخرجه عن كونه موشحاً لغته العامية وتصرفه في أقفاله وأغصانه. يبدأ نظمه على شكل الموشح التام، يقول في القفل الأول:

بدويـــة في بيـــوتي ســـاكنة صـيرت عنـدي المحبـة كامنـة

اســـمها ســـت العـــرب هيجـــت عنـــدي الطـــرب

وبدوية اسم الفتاة التي يتغزل بها، وبدوية اسم بلدتها.

ويأخذ في بقية الموشح فيجيء الغصن الأول من جزأين يعرض فيه قصته فيقول:

أنا قاعد بين جماعة نستريح

عبرت واحدة لها وجه مليح

بقوام أعدل من الغصن الرجيح

في الملاحة زايدة

ووراها قايدة

لو تكون لي رايدة.

ثم يأتي القفل:

كنت نعطيها ألف دينار وازنه وبنـــدخل في بيـــوتي مادنـــه

وتـــرى منـــي العجـــب في تـــــــــصانيف الأدب

ويستمر في هذا الزجل اللطيف فيقول:

نفرت مني كما نفر الغزال
وأسفرت لي عن جبين يحكي الهلال
ورنت أرمت بعينها نبال
ثم قالت يا فلان
خذ من أحداقي أمان
معك على طول الزمان

فأنـــا والله مليحـــه فاتنـــة ومـــن الحـساد مـا أنـا آمنـة
والملـــوك وأهـــل الرتـــب يأخـــذو منـــي الحـــسب

قلت يا ستي أنا هوني نموت
ادفنوني عندكم جوا البيوت
والعذارى حولها يمشون سكوت
ثم قالو كلميه
يا غريبة وارحميه
دا غريب لا تهجريه

يشتهر حالك يصير لك كاينه يقتلوه أهلك وتبقـي ضـامنة
دا الحـــديث فيـــه العطـــب لـــيس دا وقـــت الغـــضب

هـ - ويمتاز هذا الزجل بطرافة موضوعه؛ لأنه يحكي قـصة حـب الزجـال لفتـاة بدويـة، أهلها أصحاب صولة، ولا تزال قـصص عـشق البـدويات تـدور في الأدب الـشعبي المنظـوم والمنثور، ويشكل هذا الزجل في أسماعنا نظماً طريفاً لـه موسـيقاه الجديـدة بالنـسبة لغـيره مـن الأزجال في عصره.

و - وليست كل منظومات الزجل كتلك المنظومة متعـددة الأوزان. بـل غالبـاً مـا تكـون المنظومة الزجلية متحدة الوزن وإن تعددت القوافي، كقول ابـن جـابر البغـدادي في دراويـش الصوفية:

لا بـد تظهـر بـين النـاس قلنـدري محلـوق الـرأس

تلـبس عـوض دا الكتـان وحلتـك صـوف الخرفـان

أو دلـق أو تـصبح عريـان

ز - ومن الزجل ما يمضي على شكل الرباعي أو الدوبيت.

ويمضي الزجل على هذه الصورة إلى آخره. ونلاحظ بدأه بمطلع مزدوج على قافية واحدة تتكرر في كل مقطع أو دور، تكرر القفل في الموشح، لكن الزجال يكتفي هنا بشطر واحد ذي قافية ثابتة. وشاع هذا الشكل الأخير في الزجل أكثر من غيره، ونظم فيه معظم زجالي العصر.

ح - وليس حصر الزجل في موضوعات الغزل، وحكاية الحال صحيحاً إلى حد كبير في هذا العصر، ذلك أن الزجل في عرفهم شمل كثيراً من الموضوعات (التقليدية) أو الرسمية التي خاضها شعر التكسب، كالمديح والرثاء. ومنه ما نظمه بدر الدين الزيتوني يرثي أهل مصر ممن أهلكهم الطاعون فقال:

وحـدوا مـن قـد حكـم بـالموت ونفـذ حكمـه بـما يختـار

واحتجـب عـن العيـون سـبحانه جـل مـن لا تـدركو الأبـصار

بـالمات رب البـشر لمـا قـد حكـم في الكائنـات بـأجمع

ط - وخلف الغباري زجلاً في مناسبات شتى، فقد كان يقوم بدور الشاعر الرسمي للبلاط المملوكي في عصره، ينظم في كل حدث أو مناسبة كبيرة، يؤرخ بها لوقائع سيده السلطان، فمن ذلك ما نظمه في وقعة العربان بالبحيرة سنة ٧٨١ هـ. يقول:

باسـم رب الـسما ابتـدي فـارج الهـم والكـرب

ونعيـد للـذي حـضر قـصة الـترك والعـرب

جـا الخـبر يـوم الأربعـا بـأن في ليلـة الأحـد

جـا دمنهـور عـرب خـدوا سـوقها وأخربـوا البلـد

وابـن سـلام أمـيرهم هـو الـذي للجميـع حـشد

فـــــبرز ايـــــتمش سريـــــع بمماليـــــك وروس نـــــوب

والزجل طويل قسمه الغباري إلى أدوار، كل دور من مقطعين، ويقص قصة تلك الواقعة بين العربان والمماليك، وهو صورة لاتخاذ الزجل شكلاً للملاحم التاريخية، وقد سار في هذا الطريق فورث الشعر الفصيح شيئاً فشيئاً في مصر المملوكية، وبعض البلاد العربية الأخرى.

رابعاً

فن البليق

أ - البليقة مفرد: جمعه بلاليق، وهي منظومة زجلية، لكنها اختلفت عند المصريين عن الزجل في موضوعاتها، إذ اقتصرت على الموضوعات الخفيفة السائرة الفكاهية، أو الساخرة. وغالباً ما تكون أوزانها خفيفة على السمع واللسان، ولذا كانت أكثر سيرورة بين العامة من الزجل، ونظم فيها العامة في صور مختلفة ومناسبات متعددة.

ب - ومن عصر السلطان الناصر نجد بليقة تداولها الناس، واشتهرت. قال ابن إياس: ((إن العوام صنعوا كلاماً ولحنوه، وصاروا يغنونه في أماكن التفرجات وغيرها، وهو هذا:

ســـــلطاننا ركـــــين ونـــــائبو دقـــــين

يجينـــا المـــاء منـــين

هـــاتوا لنـــا الأعـــرج يجـــي المـــاء يـــدحرج

يشيرون بذلك إلى ما أصاب مصر بعد سلطنة الناصر الأولى من انخفاض النيل، وما جرى من الشدة. وعزا العامة ذلك إلى ظلم المماليك والسلطان ركن الدين بيبرس الجاشنكيز الذي اغتصب هو ونائبه سلار السلطة من الناصر محمد وهو غلام سنة ٧٠٦ هـ ونفياه إلى الكرك. ويقصدون بركين ركن الدين تصغيراً للاحتقار، ودقين هو الأمير النائب سلار، لأنه كان قليل شعر الذقن، أجرد، فهو من أصل مغولي.

ومثل هذه البليقة الشعبية التي تتميز بخفة الوزن وسرعة الجريان على ألسنة الناس قول ابن مولاهم:

مــن قــال إني جنــدي خلــق فقــد صــدق
عنــدي قبــا مــن عهــد نــوح عــلى الفتــوح
لو صادفتو شـمس الـسطوح كــان احــترق

ج – وعلى هذا الوزن نفسه نجد بليقة أخرى نظمها الشيخ زيـن الـدين عبـد الـرحمن بـن الخراط الفقيه، مطلعها:

مــن قــال أنــا فقيــه بــشر فقــــد فــــشر

د – ومع هذا الشكل الخاص الذي غلب على كثير من بلاليق العـصر، إلا أن البنـاء العـام قريب الشبه ببناء الموشح والزجل.

هـ – فالبليقة تحتوي على المطلع أو القفل، والغصن، والخرجة، مع بعض التحـوير، ونـرى بليقة مما رواه الأدفوي في الطالع على هذا النحو:

ومقبــــل ابــــق عــــازب ســـاقتني المقـــادير
أزوجــــت صرت معــــدود مــن جملــة المــدابير

و – وبناء هذه البليقة بناء زجل بسيط، لكننا نلاحظ ملاحظتين، أولاهما أن صاحبها عمد إلى التضمين في القفل الأخير، كما عمد إلى الجناس شبه التام في القفل نفسه بين أساطير ومساطير.

ز – وترى صورة أخرى للبليقة من نظم الشرف الطفال (توفي سنة ٧٢٢ هـ) قال:

في دي المدرسة جماعا نسا
إذا أمسى المسا ترى قرقعة
نسادي الزمان عجيبة يفلان
يكونوا ثمان يصيروا أربعة

فقد استعان ناظم هذه البليقة بنظم الدوبيت، بالتزام ثلاث قواف مطلقة، والرابعـة مقيـدة في كل دوبيت، ومن مجموع الدوبيت تتكون البليقة، وهو نوع مما أشرنا إليه من قبل في الموشح الدوبيتي، وهذا دليل على اختلاط هذه الأوزان الشعبية المستحدثة، التي تنتمـي في أصـولها إلى أقاليم مختلفة في المشرق والمغرب.

ح – ومن البليق ما جاء على وزن المثنوي مثل قول (ساكن البليقي):

بسى من الدين التاني نرجع لدين الحقاني

نرجع عن الدين الأول عن النسا لن نتحول

إن كنت في ذا بتقول اصفع وقطع أذاني

ط – وربما عمد بعض الناظمين إلى إعرابها وإخراجها مخرج الشعر الفصيح المعرب، مع إدخال بعض الألفاظ العامية أو الملحونة على أسلوبها.

ي – واتخذها بعض شعراء القريض شكلاً مناسباً للهجاء أو الهزل والفكاهة في مواقف اللحهو ومجالس الأنس.

ك – وكان الأديب عبد الكريم بن علي الشهرزوري (توفي حوالي سنة ٧١٠ هـ) ينظم الأزجال والبلاليق في الهزل.

ل – وذكر صلاح الصفدي أن ابن فضل الله العمري (نظم كثيراً من القصائد والأراجيز والمقطعات والدوبيت والموشح والبليق).

م – وكان القاضي تقي الدين ابن دقيق العيد (ولد سنة ٦٥٧ هـ – وتوفي سنة ٧١٥ هـ) يقول البلاليق.

خامساً

فن المواليا

أ – وهو صورة أخرى من النظم الشعبي يجري على وزن واحد غالباً. أشبه بالقصيد في الشعر الفصيح. لكنه يلتزم أشكالاً خاصة في القافية.

ب – ويختلف الناس في نشأة المواليا وتاريخه فقوم يرجعونه إلى العراق ويرتدون به إلى أخريات الدولة العباسية في القرن الخامس أو في أخرياته وبداية السادس، ويبعد آخرون به في التقدم فيردونه إلى القرن الثاني في عهد البرامكة.

ج – ويرى بعضهم أن أصل نشأته بغداد ويرجح آخرون أن موطنه الأول هو البصرة. ولكنه على أية حال عراقي النشأة، وفد إلى مصر وتأصل كالزجل والموشح.

د – ويقول صاحب (تاريخ الموصل): إن أهل واسط هم الذين أحدثوا المواليا، فنظموا فيها الغزل، وتناولها العبيد والغلمان لسهولتها فصاروا يتغنون بها في بساتين النخل وسقي الأراضي، وكانوا يقولون في آخر كل صوت (يا مواليا) إشارة إلى أسيادهم، ثم أخذها عنهم البغداديون وأدخلوا عليها بعض الإصلاح حتى عرفت بهم دون مخترعيها)).

هـ – وقال ابن خلكان: ((وقد ألم بعض البغداديون في مواليا على اصطلاحهم فإنهم ما يتقيدون بالإعراب فيه، بل يأتون به كيفما اتفق. وهو:

ظفرت ليله بليلي ظفرة المجنون
وقلت وافي لحظي طالع ميمون
تبسمت فأضاء اللؤلؤ المكنون
صار الدجى كالضحى فاستيقظ الواشون

و – والشكل الشائع للمواليا هو هذا الذي أورد نموذجاً له ابن خلكان في المقطوعة السابقة، ووزنه من بحور الشعر (القريض) يجري على بحر واحد مع تنويع آخره وتغيره أحياناً في التفعيلة. وأكثر المواليا التي وصلتنا من هذا العصر من بحر البسيط ومن الرباعي.

ز – وأورد صاحب (مرآة الزمان) مواليا ليس من هذا الشكل الرباعي منسوباً إلى الشاعر البغدادي وهو قريب في صورته من الزجل. وربما أخطأ في جعله من المواليا، هو:

ما لي وما لي وما لي تغيرت أحوالي
لقيت ما لا يكيف ولا يدور ببالي
ما مثلهم يحسدوني ولا هم أمثالي
هم هم نفسي وضيقوا في حبسي
ومزقوا كتب درسي عمداً وهم رأسمالي

ح – ويدور موضوع المواليا كالموشح والزجل في الغزل غالباً أو شكوى الحال، فمن الغزل قول عز الدين أبي إسحق إبراهيم بن محمد بن طرخان:

البدر والسعد دا شبهك ودا نجمك

والقد، واللحظ، دا رمحك ودا سهمك

والبغض والحب، دا قسمي ودا قسمك

والمسك والحسن، دا خالك ودا عمك

ط – وقد استخدم صاحب هذا الموال ضروب البديع في القريض والكتابة الفنية في العصر، وخاصة الأنواع التي شاعت بين أدباء الشام ومصر كالتورية، ويظهر في البيت الأخير بوضوح في لفظي (خالك وعمك) إذ ورى في الخال معنى (خال) الحسن، الذي يشبه عادة بنقطة المسك، وفي عمك ورى فعل الشمول أو عموم الحسن.

ي – ويلجأ بعض الموالي إلى هذه الطريقة في نهاية كل دور، أو في نهاية الموال، ومنه قول البهاء خضر بن سحلول يمدح يلبغا الناصري صاحب حلب في أثناء النزاع بينه وبين السلطان الظاهر برقوق:

يا ناصري سهم عزك في العدا مرشوق

وأنت منصور، ومن حنت إليه النوق

اصبر فما دامت الشدة على مخلوق

إذا يجي الخوخ وتذهب دولة البرقوق

ك – ويقول حوبان بن مسعود (توفي سنة ٦٨٠ هـ) في موال يشكو موعداً مع حبيب وطول انتظاره:

تغيب وتبطي، أقول لسا تجي وأقوم

أجري عليها وأمسيها مسا ميشوم

تجي ومعها الشوا والنقل والمشموم

وأسكت ومن هوني قال الناس دا مطعوم

ك – وينظم في أغراض الشعر التقليدية كالمديح والرثاء، ولكنه قليلاً ما يستخدم في هذه الأغراض. ومن هذا القليل قول شمس الدين الواسطي في الرثاء:

ما مت حتى جفاني كل من في الحي

وملني وقلاني كل من لو شي

وأنت ما في العجم والعرب مثلك حي

يا من طوى بالمكارم ذكر حاتم طي

ل – ويغلب على لغة الموال اللفظ العامي، غير المعرب لكن يحلو لبعض الموالين استخدام بعض ألفاظ معربة في حشو مواويلهم تملحاً.

م – وربما غلب اللفظ المعرب عند بعضهم، كما في قول البطراوي الدمشقي في ذم الدنيا:

كيف اعتمدت على الدنيا وتجريبك

أراك فلك ثراها كيف تجري بك

ما زالت الخادعة تدنو فتغري بك

حتى رمتك بإبعادك وتغريبك

ن – واستخدم الصوفية الموال في نظم أغانيهم. كقول عبد العزيز أبي فارس عبد الغني بن أبي الفراج (توفي سنة ٧٠٣ هـ) من تلاميذ ابن عربي:

لم تدعي الذوق والوجدان والأحوال

وأنت خالي من الإخلاص في الأعمال

ارجع لجسمك فسم البين لك قتال

ترمي حجر ما يشيله خمسميت عتال

سادساً

فن الدوبيت

أ – الدوبيت: هو في الأصل كلمة فارسية أطلقت على شكل من أشكال النظم الفارسي هو (الرباعية).

ب – وانتشر الدوبيت على لسان شعراء الفرس منذ القرن الخامس.

ج – وزاده شهرة الشاعر الفارسي عمر الخيام بنظمه رباعياته المشهورة.

د – وكذا استخدمه جماعة من شعراء الصوفية الفرس في القرنين السادس والسابع.

هـ – ومن فارس انتقل مغرباً إلى سائر البلاد العربية، وكان أول البلاد العربية وأكثرها تأثراً به العراق، ثم الشام فالسودان. وظل الدوبيت في السودان شكلاً للتعبير في النظم العامي إلى يومنا هذا.

و – والدوبيت من بحور الشعر المهملة، وتفعيلاته ((فعلن متفاعلن فعولن فاعلن)). وقد لا يجري كل ما قيل من الدوبيت على هذا البحر، بل كثيراً ما يشذ بعض ناظميه ويخرجون عنه بضروب من التصرف، لكنهم يحافظون على شكله العام.

ز – وشكله العام أو بناؤه يتكون من أربع شطرات كالموال، لكنه لا يجري على قافية واحدة مثله، بل المشهور فيه ثلاث متشابهات وواحدة مطلقة مثل قول أحدهم:

الصب بك المنعوب والمتعوب والقلب بك الملسوب والمسلوب

يا من طلبت لحاظه سفك دمي مهلاً ضعف الطالب والمطلوب

ح – ويقسم الدوبيت إلى ثلاثة أقسام:

١ – الأول بأربع قواف كالمواليا.

٢ – والثاني أعرج بثلاثة.

٣ – والثالث مردوف بأربع واحدة فيها مطلقة هي الثالثة.

ط – وأكثرها شيوعاً النوع الثاني (الأعرج) ويليه النوع الأول. ومنه قول زين الدين عبد الله بن محمد بن عبد القادر الحلبي الشافعي، (توفي سنة ٧٢٤هـ):

يا عصر شبابي المفدى أرأيت ... ما أسرع ما أبعدت عني ونأيت
قد كنت مساعدي على كيت وكيت ... واليوم فلو أبصرت حالي لبكيت

ي – ويكون الدوبيت شعراً معرباً كالمثال السابق الذي يمكن قراءته معرباً وملحوناً، ومنه يمتزج اللحن فيه بالإعراب، واللفظ العامي بالفصيح، ومنه العامي الملحون أبداً.

ك – ويذكر أنه لا يجوز في الدوبيت اللحن. ومع ذلك فقد جاء الدوبيت ملحوناً، فيما ذكرنا من الأمثلة، وفي قول علي بن محمد بن جعفر القوصي (المتوفى سنة ٧٠١ هـ):

يا عين بحق من تحبي نامي ... نامي فهواه في فؤادي نامي
والله ما قلت ارقدي عن ملاله ... إلا لعسى تريه في الأحلام

ل – واستخدم في الدوبيت في أغراض الشعر كالغزل والعشق والتصوف، فمما قيل في الغزل قول علاء الدين الجويني:

لله مبيتنا بضوء القمر ... والحب نديمنا وصوت الوتر
قد رق فرق نسيم سحر ... ما أبرد ما جاء نسيم السحر

وقال عز الدين الإربلي (توفي سنة ٦٦٠ هـ):

لو كان لي الصبر من الأنصار ... ما كان عليك هتكت الأستار
ما كان يأسمر لو بت لنا ... في دهرك ليله من السمار

وقال:

لو ينصرني على هواه صبري ... ما كنت ألذ فيه هتك الستر
حرمت السمع سوى ذكرهم ... ما لي ستر سوى حديث السمر

وقال الباجي (توفي سنة ٧١٤هـ):

بالبلبل والهزار والشحرور ... يسبي طرباً قلبي الشجي المغرور

فـانهض عجـولاً وانتهـب اللـذة مـا جـادت كرمـاً بـه يـد المقـدور

ن – واستخدم الصوفية الدوبيت، فكثر نظمهم فيه، وربما تـأثروا بـصوفية الفـرس. فمـن نظم منهم محمد بن إسرائيل. قال:

قـد بـالغ في حديثـه بـالمين مـن قـال قـد رأيـت مثلـه بـالعين

مـا يبـصر مثلـه سـوى ذي نحـول مـن حيـث يـرى الواحـد كـالاثنين

ومنه قول محمد بن علي بن إبراهيم الواسطي (توفي سنة ٧٧٧ هـ) وكـان أحـد الـصوفية بخانقاه البيبرسية:

مـا زال بقلبـه لهيـب النـار حتـى تـرك الجـسم خيـال سـاري

دع عنـك ملامـه فـلا يعلـم مـا قاسـاه الواسـطي إلا البـاري

وقال:

إن ضر منـي بجـذوة التـذكار حبـي وبـري جـسمي شـكرت البـاري

فالعـاذل في هـواه لا عقـل لـه مـا أبلـد عـاذلي وأذكـى نـاري

وقال، نلاحظ اختلافاً في الوزن عن وزن الرباعية الشائع:

والـذي خـص بخـال عمـه الحـسن حـسن

لم يـذق جفنـي لمـا فـرض الهجـر وسـن

سابعاً

فن كان وكان

أ – ظهر هذا اللون من النظم الشعبي بالعراق، وأحدثه البغداديون، وسمي بهذا الاسم؛ لأنهم كانوا ينظمون فيه الحكايات والخرافات حتى جاء ابن الجوزي (توفي سنة ٥٩٧ هـ) وشمس الدين الكوفي فنظما فيه المواعظ والحكم.

ب – وظهر نظير لهذا النظم بمصر والشام في عهد الفاطميين، لكنه سمي بمصر بالزكالش.

ج – قال علي بن ظافر في بدائع البدائه: وأخبرني بعض أصحابنا المصريين أن بعض جلساء الصالح بن زريك أنشد بمجلسه بيتاً من الأوزان التي يسميها المصريون الزكالش، ويسميها العراقيون (الكان وكان):

النار بين ضلوعي ونا غريق في دموعي

كني فتيلة قنديل أموت غريق وحريق

د – ولاقى هذا النظم رواجاً في العراق والشام، وكان محدود الانتشار في مصر، والشكل المعتاد له في العراق يمثله قول البغدادي:

لما تزايد وجدي فيكم وقل اصطباري

وعرفتكم عداي وقلت الحركات

يا حاضرين بقلبي يا غائبين عن النظر

متى يجيني مبشر من عندكم بقدومكم

ويفرحون أصدقائي وأكمد الشمات

هـ – ومن اسم الكان وكان، وما روي عنه، نجد أنه كان شكلاً من النظم مخصوصاً بالقصص القصيرة التي يقصد بها الوعظ والتبصير، والنصح.

و - ولكنه مع ذلك استخدم في أغراض أخرى، فقد استخدمه ابن جابر البغدادي في وصف المدرسة المستنصرية ببغداد وفقهائها، وكان قد قيل لهم: من قد يرضى بالخبز وحده، وإلا عندنا غيره.

حاشا لست المدارس ... ومن بها يضرب المثل
تهون من بعد ذاك ... التعظيم والتشريف
مستنصرية شيبكي ... قد كنت في عصر الصبا
واليوم قد صرت بهرج ... مزيفة تزييف

ز - واتخذه بعضهم في الشام لتسجيل الأحداث، مثل الشاعر عمر بن الوردي الذي سجل أحداث الطاعون سنة ٧٤٩ هـ، الذي اجتاح مصر والشام وأفنى قوماً عديدين وخرب البلاد. قال:

أعوذ بالله ربي ... من شر طاعون النسب
باروده المستعلي ... قد طار في الأقطار
دولا بد هاساته ... ساعية على صارخ ما رثى
ولا قداً بذخيرة ... فتاشة التيار
يدخل إلى الدار يحلف ... ما أخرج إلا بأهلها
معي كتاب القاضي ... بكل من في الدار

ح - وساعد هذا الوزن. مع سهولة القافية لتعاقبها كل ثلاث شطرات على نظم الحكايات والقصص والأحداث، وقد سجل فيه التاريخ جماعة من الناظمين في وقعة الأمير قوصون سنة ٧٤٢ هـ.

خاتمة

وإلى جانب تلك الصور المنظومة من الأدب الشعبي نرى صوراً أخرى منثورة، كالقصة والسيرة الشعبية، والمقامة (بالعامية). وقد حفل هذا العصر بمجموعة من السير الشعبية الكبيرة مثل (الظاهر بيبرس - وسيف بن ذي يزن - وظهرت قصص أخرى، وأضيفت إلى مجموعة ألف ليلة وليلة بعض القصص التي تصور جو العصر وحياة المماليك وعامة الناس.

وكانت المقامة العامية التي تقلد المقامة الفصحى من فنون النثر الشعبي الشائعة واتخذت وسيلة للتعبير عن الموضوعات الخفيفة، الفكاهية والساخرة واتخذت وسيلة للهزل والإضحاك. وكلها تحتاج لدراسة موسعة مستقلة.

الباب السابع عشر
أعلام الأدب الشعبي

- ١ -

شرف الدين بن أسد
توفي سنة ٧٣٨ هـ

أ - وهو شيخ ماجن متهتك ظريف خليع، يصحب الكتاب، ويعاشر الندماء ويشبب في المجالس على القيان.

ب - التقى به صلاح الدين الصفدي بالقاهرة فقال عنه: ((رأيته غير مرة بالقاهرة، وأنشدني له شعراً كثيراً من البلاليق. والأزجال والموشحات وغير ذلك، وكان عامياً مطبوعاً، قليل اللحن يمتدح الأكابر، ويستعطي الجوائز، وصنف عدة مصنفات في ((شاشات الخليج)) و(الزوائد) التي للمصريين، والنوادر والأمثال، ويخلط ذلك بأشعاره. وهي موجودة بالقاهرة عند من كان يتردد عليهم، وتوفي رحمه الله تعالى بعد ما تمرض زماناً سنة ٧٣٨ هـ.

ج - ومن طريف ما رواه الصفدي من (مقاماته) مقامة هزلية يقلد فيها كلام النحويين المتشدقين بطريقة ساخرة. قال الصفدي: إنه وضع حكاية حكاها له وهو معه على الخليج سنة ٧٢٨ هـ، وهي: ((اجتاز بعض النحاة ببعض الأساكفة فقال له: أبيت اللعن واللعن يأباك، ورحم الله أمك وأباك، وهذه تحية العرب في الجاهلية قبل الإسلام، ولكن عليك أفضل السلام والسلام ومثلك من يعز ويكرم)).

ثم يسرد عليه قراءاته في كتب العلم واللغة والنحو. وينتهي إلى الغرض الذي جاء من أجله إلى الإسكافي فيقول: (وقد دعتني الضرورة إليك، وتمثلت بين يديك لعلك تتحفني من بعض حكمتك وحسن صنعتك بنعل يقيني الحر ويدفع عني القر، وأعرب لك عن اسمه حقيقياً لاتخذك رفيقاً، فيه لغات مؤتلفة،على لسان الجمهور مختلفة، ففي الناس من كناه بالمداس، وفي عامة الأمم من لقبه بالقدم، وأهل شرنوزه سموه بالسرموزة، وإني أخاطبك بلغات هؤلاء القوم، ولا إثم علي في ذلك ولا لوم، والثالثة به أولى، وأسألك أيها المولى أن

تتحفني بسرموزة أنعم من الموزة، وأقرى من الصوان وأطول منطقة، ثابتة في الأرض الزلقة. نعلها من جلد الأفيلة الخمير لا الفطير، أطول عمراً من الزمان، خالية البواشي، مطبقة الحواشي لا يتغير وشيها.

فلما أمسك النحوي عن كلامه، وثب الإسكافي على أقدامه وتمشى وتبختر، وأطرق ساعة وفكر، وتشدد وتشمر، وتجرب وتنمَّر، ودخل حانوته وخرج وقد داخله الحنق والحرج.

فقال له النحوي: جئت بما طلبته ؟

قال: لا، بل بجواب ما قلته.

فقال: قل وأوجز، وسجع ورجز.

فقال: (أخبرك أيها النحوي أن البشر سنجوري شطبطاب المتفوقل، والمتيعب من جانب الشرشنكل، والديوك تصهل كنهيق زقازيق الصولجانات... إلخ)، ويورد كلاماً مسجوعاً لا معنى له على تلك الصورة حتى يقول: ((أعيذك بالزحزاح وأبخرك بحصى لبان المستراح، وأرقيك برقوات مرقاة قرقرات البطون لتخلص من داء البرسام والجنون.). ونزل من دكانه مستغيثاً بجيرانه وقبض لحية النحوي بكفيه، وخنقه بإصبعيه حتى خر مغشياً عليه، وبربر في وجهه وزمجر ونأى بجانبه واستكبر وشخر ونخر، وتقدم وتأخر. فقال النحوي: الله أكبر الله أكبر الله أكبر، ويلك يا هذا الغفان. قال من هذا الهذيان. والسلام)).

وهكذا يتخذ في هذه المقامة الهزلية شكل المقامة الفصيحة الجدية، ولكنها تنحو أسلوب ابن دانيال في باباته.

د – ونقل لنا ابن شاكر مجموعة من منظوماته وبلاليقه، منها بليقة هزلية في شهر رمضان، وقد جاء في الصيف فأثقل على الناس، فيرجو رمضان أن يرحل خفيفاً ويعده بأن يصومه في شهر رطوبة، حيث البرد واليوم قصير، ولا حاجة للشرب ولا إرهاق العطش.

- ٢ -

إبراهيم المعمار
توفي سنة ٧٤٩ هـ

أ - ويعرف بغلام النويري.

ب - قال عنه ابن شاكر: إنه عامي مطبوع، تقع لـه التوريـات المليحـة المتمكنـة لاسـيما في الأزجال والبلاليق.

ج - وقال عنه ابن إياس: صاحب الأشعار اللطيفة العامرة بالمحاسن والتورية.

د - وقال ابن حجر: (الشاعر المشهور، كان عامياً إلا أنه كان ذكي بالفطرة، قوي القريحـة، لطيف الطبع، وشعره سائر مشهور. وكان يلزم القناعة، ولا يتردد إلى أحد مـن الأكـابر إلى أن مات في الطاعون سنة ٧٤٩ هـ. بعد أن نظم فيه البيتين المشهورين:

يـا مـن تمنـى المـوت قـم فـاغتنم ... هـذا أوان المـوت مـا فاتـا

قـد رخـص المـوت عـلى أهلـه ... ومـات مـن لا عمـره ماتـا

هـ - وأكثر نظمه في الخلاعة والمجون، ويكثر فيه من التوريات مثل قوله:

يـا قلـب صـبراً عـلى الفـراق ولـو ... رميـت ممـن تحـب بـالبين

وأنـت يـا دمـع إن ظهـرت بـما ... يخفيـه قلبـي سـقطت مـن عينـي

فقد ورى في كلمتي (سقطت من عيني).

و - ورَّوى له ابن إياس مقطعات عديدة من منظوماته الشعبية في مناسبات شتى.

ز - ونقل الغزولي في مطالع البدور، بعضها مثل قولـه في بـاب زويلـة وكـان يعلـق عليـه المجرمون ويصلبون:

حـاذر زويلـة إن مـررت ببابهـا ... وطعامهـا كـن آيـساً مـن خـيره

فموسـط القـتلى يقـول بـه انظـروا ... مـن لم يمـت بالـسيف مـات بغـيره

وقال فيه:

زويلـــــة بابـــــك هـــــذا ســـــيفه يـــشرب مـــاء الخمـــر جهـــراً بفيـــه

ولم يـــــزل يـــــألف ســـــفك الـــــدماء وكـــــل مـــــا يقطعـــــه الـــــشرع فيـــــه

ح - وكان المعمار من شعراء العوام الذين يترددون على مجالس السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وكان يرتاح له، ويأنس به، وبحديثه وفكاهته، وكان يمزج بالكلام بالملح. واعتبر شاعر السلطان ينشده في المناسبات.

الباب الثامن عشر

السير الشعبية

أولاً

تعريف وماهية

هي قصص شعبية تدور أحداثها حول مفاجآت وبطولات ومآزق ترسم صورة من صور المجتمع تعتمد في أسلوبها على السجع والترادف وتكرار الألفاظ والعبارات مع وصف حي للمدن والأرياف والجبال والأنهار، وتصوير واقعي للأسواق التجارية.

ثانياً

الشعب وحلم العدالة والتحرر

السير الشعبية نمط من الحكايات كتبها مجهولون من أبناء الشعب غالباً، وهي تعكس الوجدان الجماعي للأمة، ولا يزدهر هذا اللون من الأدب إلا في فترات تاريخية معينة أي حين تخبو روح الحضارة أو يشرع نجمها في الأفول، أو حين تسوء الأوضاع الاجتماعية فيجد الشعب في الأدب متنفساً له. وقد نشأت الخطوط الأولى للسير الشعبية منذ العصر الجاهلي على شكل حكايات يتناقلها الجوالون، وأسهمت مجالس السمر في نسج أساطير أضيفت إلى بعض الشخصيات الأدبية والتاريخية، فاكتست طابعاً ملحمياً أو أسطورياً يعكس رغبات الشعب وأمانيه، من هذه الشخصيات عنترة، ومجنون ليلى وأبو نواس على أن السير الشعبية لم تتخذ صورتها المعروفة إلا بعد بداية القرن الرابع الهجري، ويتعذر تحديد تاريخ نشأة كل سيرة؛ لأن مؤلفي أكثر هذه السير مجهولون تناقلها الرواة مشافهة، ولأن مؤرخي الأدب لم يولوها عنايتهم.

ثالثاً

أهم السير والقصص الشعبية

١ – عنترة بن شداد،

٢ – الأميرة ذات الهمة،

٣ – الملك الظاهر بيبرس،

٤ – ألف ليلة وليلة،

٥ – الملك سيف بن ذي يزن،

٦ – تغريبة بني هلال،

٧ – حمزة البهلوان،

وقد أُلف بعضها في أواخر العصر العباسي.

رابعاً

دوافع السير الشعبية

من المؤكد أن الملاحم والقصص الشعبية في أدبنا العربي نشأت في مرحلة من تاريخ الأمة العربية تميزت بالظواهر الآتية:

١ – ضعف الأمة العربية وانقسامها فالبويهيون في العراق والفاطميون في مصر والحمدانيون في حلب، وفي هذا التشتت ضعف الأمة.

٢ – مواجهة أعداء أقوياء يتربصون بالأمة العربية، ومنهم الروم والفرنجة.

٣ – سوء الواقع الاجتماعي والتباين الكبير في الفقر والغنى والظلم الاجتماعي الذي يثقل الطبقات البائسة، فلا تجد لها متنفساً للتعبير إلا في الخيال، ولا تستطيع أن تبدل واقعها إلا بتصور بطل أو منقذ يخلص الشعب من مآسيه.

٤ – ضعف الروح الحربية وفتورها، مما دفع القائمين على الأمر إلى إلهاب الضمائر وتحريك الهمم وبث الروح المقاومة والبطولة من خلال سير الأبطال والاقتداء بهم.

خامساً

الخيال والبطل الشعبي
في هذه القصص

١ – الخيال الشعبي: أداة من أدوات تضخيم تلك البطولة فهو خلاصة نقية لآمال الشعب.

٢ – والبطل رمز الجماعة ولسانها وممثلها الحقيقي، يمارس الخوارق، ويتخطى العقبات وينتصر في كل معركة، ويقهر أعداء الشعب.

وإلى جانب التصور الاجتماعي في هذه السير نلمس وصفاً للعادات والتقاليد ومعتقدات الشعب، وحياة مختلف طبقاته.

للسير الشعبية قيمة فنية ومع أنها في بنائها وتصميماتها تخالف الخصائص الفنية للقصة أو السيرة، ولا تخلو من تضخيم وتهويل وتجاوز للواقع والمنطق، ويغلب على أساليبها الركة والصنعة والتزويق من سجع وترادف وتكرار في العبارات والألفاظ وضعف في التحليل، إلا أنها تمتاز بالعفوية وصدق العاطفة وحيوية التعبير وواقعيته، واقترابها من الضمير الجمعي للشعب.

سادساً

سيرة علي الزيبق

أ – سايرت ظاهرة العيارة والشطارة والفتوة التاريخ العربي والحضارة العربية، وكان لهذه الطوائف مواقف نظر إليها على أنها خروج على السلطة، أما الوجدان الشعبي فقد رأى في أبطالها ثواراً مناضلين، فصاغ سيرهم على صورة حكايات شعبية منها سيرة علي الزيبق.

ب – ونواة هذه السيرة كانت مجموعة حكايات شعبية تسربت إلى ألف ليلة وليلة، ثم توسع الرواة في نسجها حتى تكاملت في أوائل الحكم العثماني.

ج – وأبطال هذه السيرة منتزعون من التاريخ العربي الإسلامي، فعلي الزيبق هو الذي تزعم فتنة العيارين ببغداد عام ٤٤٤ هـ وأستاذه أحمد الدنف أشطر الشطار الذين رسم السلطان بتوسيطهم عام ٨٩١ هـ ودليلة المحتالة شخصية تاريخية ذاع صيتها في القرن الثالث هجري في حروب المكر والحيلة، وقد استخدم المؤلف المجهول بعض الشخصيات التاريخية كابن طولون وهارون الرشيد استخداماً روائياً لا يعترف بالزمن التاريخي، فكأن المؤلف جمع بين زمن روائي وبيئة روائية لا علاقة لها بالواقع التاريخي.

د – تبدأ السيرة بقدوم دليلة إلى بغداد موفدة من ملك فارس وأصفهان والعجم في مهمة رسمية، ويطيب لها المقام، فتنسى مهمتها الرسمية وتطمع في أن تكون مقدماً لدرك بغداد، وتثير الفوضى في العاصمة بمكرها ودهائها، وتحتل منصب أحمد الدنف؛ لأن ذلك الزمان كان أيام دهاء ومكر، فأحبها الرشيد وأوكل إليها تدبير المملكة. وكان على درك مصر المقدم حسن الذي طرده مقدمها الحالي صلاح الدين الكلبي، فاختفى عن الأنظار وتزوج خفية بنت قاضي الفيوم، فأنجبت له ولداً ذكراً كأنه (فلقة القمر) أسمته علياً، وأعدته فروسياً، ليثأر لأبيه المظلوم وينتقم من أرباب الشر والفساد.

وقد رفض علي التعليم المدرسي في الأزهر، وتحول إلى ميادين المصارعة في الرميلة وقرة ميدان، واعترف له الأقران بالشجاعة والحيلة وهما مقياس الرجولة في ذلك العصر. واصطدم بخصم أبيه صلاح الدين الكلبي، وبعد أن دّوخه وحرمه النوم والهناءة شرع يحرض الناس عليه في المساجد، وكان يتنكر كل يوم في زي ليكيد خصمه، فلما وصل خبر إخفاق صلاح الدين إلى عزيز مصر استدعاه وبطانته، لكن وزير العزيز كان يناصره فاتفقا على الإيقاع بالبطل ولكنهما أخفقا في القبض عليه بفضل فاطمة الزهراء والدة الزيبق التي كان لها دور الأم المنقذة، التي تقوم بتوثيق الصلة بين ابنها البطل وأحمد الدنف كبير المقدمين.

وكان الدنف يعرف علياً بعد أن قام بتدريبه أنه ابن المقدم حسن، فيعهد إليه بالانتقام من صلاح الدين الكلبي والوزير، ثم ينال على (منديل الأمانة) من عزيز مصر، ويعين مقدماً لدرك مصر، فينصف المظلوم ويأخذ لصاحب الحق حقه، حتى أحبه الجميع. ويرفض صلاح الدين أن يتنازل للزيبق عن مقدمية مصر، ويحرجه أمام العزيز بطلب المستحيل لكن البطل ينجح في المهمات كلها، ويطهر البلاد من الفاسدين، وتتوالى سلسلة العوائق التي يواجهها، ليس في مصر

وحدها، بل في بغداد والمغرب والشام، ويدرك البطل أن أمن كل قطر مرتبط بـأمن القطـر الآخـر وتبلغ أنباء انتصاراته مسامع الرشيد ويقسم مقدميه درك بغداد مناصفة بينه وبين دليلة المحتالة.

وينشأ صراع بينه وبين دليلة (الصراع بين النفوذ العربي والأجنبي) ينتصر في نهايته ويـصل إلى السلطة وينشر الأمن والاستقرار في ربوع البلاد، وتلجأ دليلـة إلى فلـول العجـم والـروم، لكن الزيبق يموت فريسة مرض قتال، فتحزن الرعية لفقده، ويرثي فيـه الخليفـة بطـلاً عربيـاً وركنـاً مـن أركـان الإسـلام ويجمـع الخليفـة أولاده فيوصـيهم قبـل وفاتـه بـالحكم بالعـدل والإنصاف والمساواة بين الغني والفقير والسهر على حماية البلاد وراحة العباد.

سابعاً

نص من سيرة علي الزيبق
(وصية الرشيد إلى أولاده)

أ - تعكس هذه الوصية التي جاءت في سيرة علي الزيبق رغبة الوجـدان الـشعبي في إقامـة مجتمع عادل، يخلو من الفساد والحق وتروي السيرة أن الرشيد تأثر بما قام به البطل علي الزيبـق من إصلاح للأمور فجمع أولاده بعد وفاة علي الزيبـق وأوصـاهم بتـصريف الأمـور بالعـدل والإنصاف: ((وضعوا الأشياء في محلها، والمناصب في أيادي أهلها، ولاسـيما الـولاة وأربـاب الوظائف الكبار، فينبغي أن يكون هؤلاء مـن أهـل الفـضل والكـمال موصـوفين بالاسـتقامة والأمانة، وأن يكون مشهوداً لهم بالحلم وصدق الديانة، لا يميزون بين الحقير والـشريف، ولا يظاهرون القوي على الضعيف، فيهابهم جميع المأمورين ويقتدي بهم بـاقي المـستخدمين، فـإذا كانوا على هذه الحالة تستقيم أحوال الرعايا، فترعـى الـذئاب مـع الغـنم، أمـا إذا كـانوا عـلى خلاف هذه الأوصاف مائلين إلى الانحراف، لا يبالون بمنافع الخلق، ولا يفعلون مـا يقتـضيه الحق، بلٍ يصرفون الأوقات بالملاهي والملذات، ويسمعون كـلام الوشـاة، فـسوف تـضطرب الأحوال، ويقع الاختلال ويكون سببا لضرر البلاد عوض الإصلاح، وتقمـع العبـاد فيـضيع الحق والإنصاف، ويكثر الجور والاعتساف، فيسقط شرف الخلافة بعد علة شأنه، ويعلو فوقه الذل والهوان)).

ثامناً

البطل في السير الشعبية

أ – استطاع بطل السيرة الشعبية أن يسد حاجة المبدع العربي لتغطية المراحل التاريخية المختلفة للوطن العربي ككل في مواجهاته لأعداء حدوده التقليديين، فعن طريق الأحداث التي بنيت في السير الشعبية حول البطل الشعبي في المنطقة العربية قبل الإسلام وبعده.

ب – والواقع أن السير الشعبية يمكن أن تمثل الكتابة الشعبية للتاريخ العربي، أو يمكن أن تمثل الرؤية الاجتماعية لواقع المكونات الرئيسية في المجتمع العربي في أثناء لحظات التمزق الذي عانى منه هذا المجتمع في لحظات تكونه من أكثر من جنسية أو سلالة عرقية تدخل المجتمع الإسلامي الجديد، ولحظات التدمير الذي عانى منه هذا المجتمع تحت عرقيات غريبة عنه منذ نهاية العصر العباسي وخلال عصر الولايات والمماليك، وكذلك التفسخ الذي أدى إلى ظهور طبقات غنية متحكمة جاهلة بموروث الشعب وآماله وأحلامه، وتعيش متقوقعة داخل قيمها..

ومن هنا ظهر أبطال المقاومة الشعبية رداً على التناقض المرضي في المجتمعات داخل العواصم العربية: بغداد ودمشق والقاهرة، ظهر علي الزيبق وأحمد الدنف ودليلة المحتالة وزينب النصابة في سيرة علي الزيبق. كما ظهر عثمان ابن الجبلي وإبراهيم الحوراني وشيخه جمال الدين في سيرة الظاهر بيبرس، يرسمون مظاهر الفساد الاجتماعي والسياسي الذي أهمله المؤرخ العربي في كتابة هذه المراحل التاريخية في مختلف الأقاليم العربية، كما يبرزون الدور الشعبي لمقاومة هذا الفساد ومحاولة حصاره بتحديد أسبابه والقضاء عليه.

ومن هنا أخذ بطل السيرة الشعبية بعده التاريخي المميز، فهو هنا يقوم بدور بارز في تحويل المسار التاريخي للشعب، من الاستسلام المنهزم أمام إرادة المستغلين والمستبدين إلى قوة مقاومة دائمة لا تعرف السكون الغبي أمام حركة التاريخ، بل تقوم بدورها الفعال المؤثر في حركته وتياره، وتغليب مسار قوة على قوة لإحداث التغيير الذي لابد منه.

د - والبطل هنا أما عنصر حقيقي مستمد من المشاركين في أحداث حقبة تاريخية معينة بالفعل، ويخلق الخيال الشعبي بطله خلقاً فنياً، أي بعيداً عن الأبطال التاريخيين المعروفين داخل حدث معين. ويخلقه بمواصفات مستمدة من واقع ما تحتاج إليه هذه البيئة وهذه المرحلة التاريخية المعينة، ولهذا فالبطل قد يبدو واقعياً مغرقاً في الواقعية، وقد يكون بطلاً رومانسياً يحل المشكلات هذا الحل الفردي المبني على المهارة والتفوق وحدهما. كما قد يكون البطل قريباً من الشكل الخرافي الذي يختلط فيه عالم الحقيقة بعالم الحلم.

هـ - وهناك الأبطال اللصوص الذين يسرقون الأغنياء المستبدين لصالح الفقراء المستضعفين يظهرون كثيراً في علي الزيبق وفي الظاهر بيبرس، فالشريحة المجتمعية التي تتعرض لها السيرتان شريحة متقطعة من أسوأ العهود التاريخية التي مرت بالشعب العربي. فالبلاد تخوض حرباً طاحنة في مواجهة قوى الغزو الفرنجي وحكامها قساة لا يلتقون جماهير الشعب إلا في الطقوس الدينية وحدها، ومن المشكوك فيه أنهم كانوا يفهمونها الفهم الصحيح.

وهم يستنزفون قوى البلاد وثرواتها في شراهة لا يقف أمام ضراوتها شيء لا العدالة ولا القيم ولا حقوق الإنسان، فكل شيء عندهم مباح لا حرمة له، وهم يشكلون طبقة ذات تقاليد بعيدة عن فهم الجماهير العربية الكادحة المستنزفة المنهوبة، ومثل هذه الشريحة التي استقطعت من العصر المملوكي لا تفرز بالقطع إلا نوعين من الأبطال، أبطال الفروسية الأرستقراطية لأبناء الطبقة الحاكمة، وأبطال الحيلة والخفة والدهاء الذين يحاولون انتزاع حقوق العامة من أنياب الحاكمين، وهم من نسميهم الأبطال اللصوص.

وفي حسن شومان وأحمد الدنف ودليلة المحتالة من سيرة علي الزيبق سنجد البطل الواقعي الذي يمثل قدرات الإنسان العادي وطاقاته، كما يمثل احتياجاته ومثله المحدودة، ونظرته الضيقة إلى الأمور، فهو لص في مجتمع من اللصوص، يسرق ليعيش وليعيش من حوله، دون فلسفات أو معان، ودون خوارق في القدرة أو المهارة... أما علي الزيبق نفسه هو بطل السيرة، فيمثل البطل الرومانسي بكل معاني هذه الصفة من الناحية الفنية... فهو فرد متميز، قدراته وطاقاته أعلى من قدرات الإنسان العادي وطاقاته. تجتمع له مهارة السيف وقوة الجسد إلى

مهارة الذكاء وقوة الحيلة، وهو يملك ملكات متفردة لا يملكها الإنسان العادي تجعله يتميز بخاصية الإفلات السريع من أكثر الأشراك التي تنصب حوله إحكاماً ودقة، ومن هنا جاءت تسميته بالزيبق.

وعلي الزيبق بطل له هدف محدد منذ البدء فهو يريد أن ينتقم من قتلة أبيه، وأن يصل إلى احتلال المنصب الذي كان يشغله أبوه من قبل، وهو يستطيع أن يحقق هذا الهدف بعد أن يكشف أعداءه جميعاً، وبعد أن يعريهم لتبدأ بعد هذه المرحلة الملحمية من حياة البطل بحكم أنه زعيم المتمردين، وبحكم أن اسمه يلقي الرعب في قلوب من يستغل البسطاء من الناس في العواصم العربية.

فهو بطل صاحب رسالة طريفة تخلب الألباب وتستهوي أفئدة الناس؛ لأنه البطل المتمرد والخارج عن السلطة أبداً. ولأنه حامي الضعفاء، وسالب الأغنياء ليعطي الفقراء المسلوبين والمغلوبين على أمرهم، وهو بطل تمتزج الحيلة عنده بالشجاعة امتزاجاً يقربه من الحس الشعبي وخاصة في المدينة حيث يستبدل أهلها بقوة السواعد قوة الحيلة وسرعة البديهة والفكاهة الحادة، ولعلي الزيبق قصة حب تمتزج فيها الشاعرية بالتعامل الواقعي مع الحياة، وتزيد هذه القصة من تأكيد طابعه الرومانسي، إذ تجعل القضية الفردية عنده قضية محورية ومهمة.

الباب التاسع عشر

أبرز النثّار في هذا العصر

اشتهر في هذا العصر مجموعة كبيرة من الذين اهتموا بالنثر وتنافسوا في تجويده للوصول إلى المناصب العليا في الدولة، وقد كان هؤلاء الأعلام يجمعون بين صناعتين: صناعة الشعر وصناعة النثر على اعتبار أن البلاغة لا تنهل إلا بهما، ومن هؤلاء النثّار:

- ١ -

شهاب الدين
أحمد بن عبد الوهاب
المولود(٦٧٧هـ) والمتوفى عام(٧٣٣هـ)

أ - المولود سنة (٦٧٧هـ) والمتوفى عام(٧٣٣هـ) وقد كان بحاثة غزيرة الاطلاع.

ب - اتصل بالملك الناصر ووكل في بعض أموره وتولى نظر الجيش في طرابلس الشام.

ج - ومن أشهر كتبه (نهاية الأدب في معرفة فنون العرب) ويقع في ثلاثين مجلداً قسمه في أربعة فنون تتعلق بالسماء والإنسان والحيوان والنبات والتاريخ.

د - وأسلوب كتابه يحرص على الجمال الفني والصنعة من جهة وعلى الإبانة عن المعنى دون تكلف من جهة ثانية.

- ٢ -

أبناء الأثير

أ - أسرة تميزت بالكتابة مؤسسها شمس الدين سعيد بن محمد الكاتب أحد أعيان دمشق، انتقل إلى القاهرة وأنجب أبناءً عملوا في ديوان الإنشاء منهم شرف الدين محمد بن سعيد، وتاج الدين أحمد بن سعيد، وعلاء الدين كاتب سر السلطان محمد الناصر.

ب - تتشابه الأسرة في اللقب مع الأسرة الموصلية التي أنجبت جماعة من الكتاب والعلماء، وكان مقر هذه الأسرة الحلبية الأصل بالقاهرة، تولى جماعة من أبنائها مناصب مهمة في دولة المماليك الأولى منذ نهاية القرن الثامن، واشتغلوا بالكتابة والعلم والأدب.

ج – ورأس هذه الأسرة شمس الدين سعيد بن محمد بن سعيد الكاتب الرئيس، كان من أعيان دمشق وتولى الكتابة بها سنين طويلة ثم انتقل إلى القاهرة.

وأنجب أبناء عملوا في ديوان الإنشاء وصحبوا الملوك بالشام ومصر:

١ – شرف الدين محمد وقد عمل بدمشق كوالده وصار من أعيانها، وظل بها حتى غزو التتار سنة ٦٩٩ هـ، وشهد هزيمة الناصر محمد إمامهم في سلطنته الأولى. وتزوج ابنة العلامة القاضي محيي الدين بن فضل الله العمري، فأنجب منها الكاتب الأديب سعيد بن محمد، الذي مارس الكتابة بدمشق كذلك، ومات شاباً سنة ٧٢٠ هـ.

٢ – تاج الدين أحمد بن سعيد بن محمد.

٣ – وكان أشهرهم هو علاء الدين الذي تولى كتابة السر للسلطان محمد الناصر ولقي عنده حظوة كبيرة. وكان تاج الدين بارعاً فاضلاً، معظماً في الدولة باشر الإنشاء بدمشق، ثم بمصر للملك الظاهر بيبرس ثم للملك المنصور قلاوون. وكان له نظم ونثر ولكلامه رونق وطلاوة، ولم يزل تاج الدين هذا يترقى إلى أن ولى كتابة السر بمصر بعد فتح الدين محمد بن عبد الظاهر، ولما ولي السر سافر مع السلطان إلى الديار المصرية، فأدركه أجله فمات بغزة ودفن هناك. وتردد بين مصر والشام مرات، وروى ابن تغري بردي بعض ما حدث له بمصر، ومن عجيب ما اتفق أن الأمير عز الدين أيدمر السناني النجيبي الدوادار تاج الدين المذكور عند قدومه إلى القاهرة في الأيام الظاهرية أول اجتماعه به، ولم يكن يعلم اسم أبيه:

كانت مساءلة الركبان تخبرني عن أحمد بن سعيد أحسن الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري

فقال تاج الدين: يا مولانا، أتعرف أحمد بن سعيد ؟ فقال: لا، فقال: المملوك أحمد بن سعيد. والتقى مرة بالشام بفخر الدين بن لقمان في أثناء توليه ديوان الإنشاء بالقاهرة. تولى الإنشاء للأشرف خليل؛ لأنه خدم المنصور قلاوون، بعد الظاهر بيبرس، وقد بعث به قلاوون برسالة إلى الأمير الأشقر سنة ٦٨٤ هـ يلومه على مكاتبته التتار والاستنجاد بهم ويدعوه إلى الحضور، فذهب إليه تاج الدين ووبخه ولامه حتى أناب ووعد بإرسال ولده.

ورافق في الكتابة للمنصور قلاوون فتح الدين بن عبد الظاهر واضطرب المؤرخون في وقائع حياته، وخلطوا بينه وبين أقربائه، كما اضطربوا في تحديد سنة وفاته فمنهم من قال إنها سنة ٦٧٠ هـ، وهو في صحبة السلطان على تل العجول، وبعضهم يذكر أنها سنة ٦٧١ هـ، عند عودة السلطان بيبرس من الشام إلى مصر قرب غزة.

ولكن التاريخ الأقرب إلى الصحة ما ذكره صاحب النجوم الزاهرة وهو سنة ٦٩١ هـ. قال في وصف معركة: ((والمنجنيقات تفوق إليها سهام قسيها، وتخيل إليهم أنها ساعية إليهم بحبالها وعصيها، وهي للحصون من ألد الخصوم، وإذا أمت حصناً حكم بأنه ليس بإمام معصوم، ومتى امترى خلق في آلات الفتوح لم يكن فيها أحد من الممترين، وإذا نزلت بساحة قوم، فساء صباح المنذرين، تدعى إلى الوغى فتتكلم، وما أقيمت صلاة حرب عند حصن إلا كان ذلك الحصن ممن يسجد ويسلم)).

وقد أقام فكرة هذه المقطوعة في وصف المجانيق على أساس الصلاة والإمامة واشتق صوره ومعانيه وجناساته كلها منها. وكان له نظم كغيره ممن عرضنا لهم، وله يد في النظم والنثر. ومن شعره القصيدة التي أولها:

أتتني أياديك لو تصورت محاسنها كانت من الأنجم الزهر

وذكر المقريزي أن فتح الدين بن عبد الظاهر توفي سنة ٦٩١ هـ، وكان في تركته قصيدة رثاء تاج الدين بن الأثير عند مرضه، ولكن شاء الله أن توفي ابن عبد الظاهر، فرثاه ابن الأثير بعد موته وتولى كتابة السر عوضاً عنه. ولتاج الدين مؤلفات في الأدب والبلاغة، والكتابة منها ((كتاب كنز البلاغة)) واختصره ابنه علاء الدين وسماه (جواهر الكنز) ونقل عنه السبكي في مواضع كثيرة من عروس الأفراح.

٤ - عماد الدين بن الأثير:

هو ابن تاج الدين وتولى بعد أبيه كتابة السر فترة قصيرة، أعقبه عليها شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله العمري، وكان يخدم الأشرف خليل بعضاً من عامي ٦٩١ و٦٩٢هـ، وقد أخذ العلم على جماعة من علماء العصر، كابن دقيق العيد الذي كتب عنه شرح العمدة في الفقه وصحب الناصر محمد إلى الشام سنة ٦٩٩ هـ حيث قتل في وقعة حمص بينه وبين التتار.

ولد بالقاهرة سنة ٦٨٠ هـ وتعانى الخدم الديوانية، وعمل صاحباً لديوان الإنشاء مدة عزل أخيه إسماعيل، وكان ذكياً حسن الكتابة، كثير البر والمعروف، ولزم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون.

فلما توجه الناصر للكرك سنة ٧٠٨ هـ صحبه، ووعده بكتابة السر إذا عاد للسلطنة، فلما عاد سلطاناً للمرة الثالثة، عاد علاء الدين معه إلى القاهرة وأراد تذكيره بوعده، فقدم إليه هدية ثمينة من الحلوى، فقال السلطان لدويداره: ((اكتب إلى محيي الدين بن فضل الله يكتب إلى أخيه شرف الدين أن يطلب مني دستوراً إلى الشام، فاني أستحيي أن أواجهه بذلك، فكتب محيي الدين إلى أخيه فلم يلتفت إليه فواجهه السلطان بالأمر وعزله عن كتابة سر مصر إلى كتابة السر بدمشق. وقام مكانه علاء الدين سنة ٧١١ هـ)). وقد عظمه السلطان وأكرمه ونوّه بقدره، وبلغ عنده ما لم يبلغ أحد، حتى إنه كان يأمره أن يكتب إلى نواب الشام بأشياء يأمرهم بها عن نفسه فعظم قدره جداً، وباشر الوظيفة، وكان يركب في ستة عشر مملوكاً من الأتراك وكانوا يقفون في الديوان صفين، ولا يتكلم أحد معهم إلا بالتركي، وهم يترجمون عنه للناس.

وما كان يخرج من الديوان كتاب حتى يتأمله، ولابد أن يزيد فيه شيئاً بقلمه، وظل في كتابة السر للناصر إلى أن أصابه الفالج سنة ٧٢٦ هـ فقدم السلطان ابنه بدر الدين مكانه، ثم ما لبث أن استدعى محيي الدين بن فضل الله العمري من دمشق وعهد إليه بكتابة السر.

وردد المؤرخون والأدباء ذكر وجاهته وجلال قدره، وكان ذا سعادة جليلة وحرمة وافرة، وجاه عريض، ويضرب به المثل في الحشمة. وكان ممدحاً، اتصل به جماعة شعراء العصر وكبار أدبائه ومدحوه مدائح كثيرة مذكورة، ومنهم شهاب الدين محمود وجمال الدين بن نباتة المصري.

وكان يكتب خطاً قوياً منسوباً. قال الشوكاني: ((وله اقتدار على إصلاح اللفظة وإبرازها من صورة إلى صورة)). ومن رسائله الديوانية ما كتبه على لسان السلطان الملك الناصر محمد من الكرك سنة ٧٠٨ هـ إلى بيبرس الجاشنكير والسلار القائمين بالحكم بالقاهرة آنذاك يقول: ((بسم الله الرحمن الرحيم، حرس الله تعالى نعمة الجنابين العاليين الكبيرين الغازيين

المجاهدين، وفقهما الله توفيق العارفين. أما بعد، فقد طلعت إلى قلعة الكرك، وهي من بعض قلاعي وملكي، وقد عولت على الإقامة فيها، فإن كنتم مماليكي ومماليك أبي فأطيعوا نائبي، ولا تخالفوه في أمر من الأمور، ولا تعملوا شيئاً حتى تشاوروني، فأنا ما أريد لكم إلا الخير، وما طلعت إلى هذا المكان إلا لأنه أروح لي وأقل كلفة، وإن كنتم ما تسمعون مني فأنا متوكل على الله، والسلام)).

وتوفي علاء الدين وهو مفلوج سنة ٧٣٠ هـ.

٥ - بدر الدين بن علاء الدين الأثير:

تولى الكتابة للسلطان بعد مرض أبيه حقبة وجيزة، ثم عزل بابن فضل الله العمري، ولم يعرف عنه تأليف ولم تنقل عنه رسائل.

٦ - نجم الدين أحمد بن عماد الدين إسماعيل بن أحمد بن سعيد بن الأثير:

عمل بالكتابة ضمن كتاب الدرج، ولم يبلغ مراتب آبائه وأقربائه من أبناء الأثير، لكنه لقب بالصدر الكبير، وذكر أنه كان من كبار الرؤساء بالقاهرة، ومن المتقدمين في كتابة الإنشاء، وكان ممن يحضرون دار العدل مع السلطان. سمع صحيح البخاري عن ابن الشحنة، وتوفي سنة ٧٣٧ هـ. ولم يؤثر عنه كذلك شيء من الكتب أو الرسائل.

٧ - كمال الدين محمد بن عماد الدين إسماعيل:

أخو نجم الدين، تولى كتابة السر بدمشق زمناً بعد محيي الدين بن فضل الله العمري، ثم عزل سنة ٧٣٦ هـ وتوجه إلى مصر معزولاً وحل مكانه القاضي علم الدين.

٨ - جمال الدين عبد الله بن كمال الدين محمد بن عماد الدين إسماعيل:

ابن كمال الدين السابق. ولد سنة ٧٠٨ هـ وعين كاتباً بدمشق سنة ٧٣٤ هـ، وفي كتابة السر سنة ٧٦٤ هـ. سمع من الحجار ووزيره وحدث بالصحيح، وكان ماهراً في العربية، ثم اعتزل المناصب وانقطع في أخريات حياته بالقاهرة للعبادة إلى أن توفي سنة ٧٧٨ هـ. وكان هذا آخر من اشتهر من أسرة ابن الأثير في الدولة الأولى.

- ٣ -

أسرة آل فضل الله العمري

أ - مؤسسها محيي الدين بن فضل الله العمري كاتب السلطان الناصر في القاهرة، وقد أنجب علاء الدين كاتب السر وشهاب الدين الكاتب الفقيه، وبدر الدين كاتب السر بعد علاء الدين. وقد كانت هذه الأسرة تنافس أسرة أبناء الأثير في الوصول إلى أعلى مناصب الدولة.

ب - وهي أسرة كبيرة جليلة من الأسر التي تولت مناصب الكتابة في القاهرة ودمشق زمناً طويلاً أيام حكم الدولة الأولى.

ج - ورأس الأسرة محيي الدين ابن فضل الله العمري:

١ - محيي الدين بن فضل الله العمري:

ولد سنة ٦٤٥ هـ بالكرك وكان صدراً كبيراً معظماً في الدولة التركية وشاركه في مكانته أخوه شرف الدين. تولى كتابة السر للسلطان الناصر بالقاهرة، ثم نقل إلى دمشق بعد تولي علاء الدين بن الأثير منصبه. ولما عزل ابن الأثير لمرضه عاد إلى القاهرة مرة أخرى ليتولى كتابة السر للمرة الثانية. وخدم في الكتابة قبل تولي السر جماعة من السلاطين، كالسلطان حسام الدين لاجين والأشرف خليل، ثم الناصر محمد، وخدم في دمشق الأمير تنكز نائب السلطنة.

وكان محيي الدين رجلاً فاضلاً كاملاً عالماً محترماً لنفسه يدعو الناس إلى إجلاله. وتوفي بالقاهرة سنة ٧٣٧ هـ، وهو على كتابة السر. وأنجب ثلاثة من الأبناء، تولى أحدهم، علاء الدين كتابة السر بعده. وكان ممدحاً مدحه جماعة من شعراء عصره. وقال فيه ابن نباتة:

يا سائلي عن كاتب السر الذي ... يعزى علاه إلى أب أواه

هذاك غيث الله محيي الأرض من ... بعد الممات، وذاك فضل الله

٢ - شهاب الدين عبد الوهاب بن فضل الله العمري:

شقيق محيي الدين، ولد سنة ٦٢٣ هـ، وتعانى الكتابة، وأجاد الخط وفاق في الترسل المنسجم العاري من السجع والتكلف والتصنع. ولما مات الصاحب فتح الدين بن عبد الظاهر تولى بعده الكتابة عماد الدين إسماعيل ابن الأثير حقبة وجيزة، ثم قرر السلطان الأشرف خليل شرف الدين هذا في كتابة السر فباشرها بقية حكم الأشرف، وبقي في هذا المنصب حتى رجع السلطان الناصر من الكرك سنة ٧٠٩ هـ، فنقل إلى كتابة السر بدمشق عوضاً عن أخيه محيي الدين، فدخلها في المحرم سنة ٧١٢ هـ، واستمر بها حتى مات سنة ٧١٧ هـ وكان مرتبه كل شهر ألف درهم.

وبلغ في دمشق من الوجاهة وعلو المكانة درجة كبيرة، وقصده الشعراء والأدباء مثل شهاب الدين محمود وعلاء الدين بن غانم. وكانت مكانته في الكتابة مذكورة مرموقة، وكان إماماً في الكتابة والإنشاء عارفاً بتدبير الملك مليح الخط غزير العقل، وكان كاملاً في فنه، لم يكن في عصره من يداينه أو يقاربه. كان مترسلاً ممتعاً بحواسه، ولم يفقد منها شيئاً ولم تتغير كتابته. وكان مقدراً من سلاطين المماليك وأمرائهم كأخيه محيي الدين، بل فاقه في ذلك.

حكي أنه كان يوماً بالكرك يقرأ على تنكز نائب الشام كتاب بريد جاء من السلطان والمماليك قد رموا جلة على عصفور، فاشتغل تنكز بالنظر إليها، فبطل شرف الدين القراءة وأمسك وقال: يا خوند إذا قرأت عليك كتاب السلطان اجعل بالك كله مني، ويكون ذهنك عندي، لا تشتغل بغيري أبداً وافهمه لفظة لفظة. وكان مبدأ أمره يلبس القماش الفاخر، ويأكل الأطعمة الشهية، ويعمل السماعات ويعاشر الفضلاء أمثال بدر الدين بن مالك وابن الظهير وغيرهم، ثم انسلخ من ذلك كله لما دخل الدولة، وقتر على نفسه واختصر في ملبسه وامتنع عن الناس امتناعاً كلياً.

وتوفي شرف الدين وهو جالس على كرسيه يراجع بعض الرسائل وخلف بعد وفاته أموالاً طائلة، ورثاه شهاب الدين محمود وهو بمصر وكتب بها إلى أخيه محيي الدين يقول:

لتبك المعالي والنهى الشرف الأعلى ... وتبكي الورى الإحسان والحلم والفضلا

وتنتحب الدنيا لمن لم تجد له ... وإن جهدت من حسن أوصافه مثلا

سـأندبه دهـري وأرثيـه جاهـدا وأكثـر فيـه مـن بكـاي وإن كـلا
ولم لا وقـد صـاحبته جـل مـدتي أراه أبـاً بـراً ويعتـدني نجـلا

إلى أن يختمها بقوله:

إلى الله أشـكو فقـد صـحب رزئـتهم وفقـد ابـن فـضل الله قـد عـدل الكـلا

وتوفي شهاب الدين سنة ٧١٧ هـ بدمشق.

٣ - شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري

ثاني أولاد محيي الدين يحيى. ولد بدمشق سنة ٧٠٠ هـ، وكان إماماً بارعاً، وكاتباً فقيهاً. درس على كثير من علماء عصره وأدبائه. واتصل بمشاهيرهم ممن كانوا يرتادون مجلس والده محيي الدين أثناء توليه كتابة السر بمصر أو بالشام. ولما ولي والده كتابة السر بمصر صار يعاونه في وظيفته فيقرأ البريد على السلطان الناصر محمد، وينفذ في المهمات، ثم صرفه السلطان سنة ٧٣٨ هـ، وأقام ثالث إخوته عليّاً مكانه. وذلك لأنه كقول ابن العماد، فاجأ السلطان بكلام غليظ.

تخرج في الكتابة بوالده وبشهاب الدين محمود، وأخذ الأصول عن الأصبهاني، والنحو عن أبي حيان أثير الدين، والفقه عن برهان الدين الفزاري وابن الزملكاني، وفي الأدب على شهاب الوداعي، وشمس الدين ابن الصائغ الكبير، وقد عدد الصفدي شيوخه تفصيلاً. وكان قوي الشخصية معتداً بنفسه، يتوقد ذكاء مع حافظة قوية وصورة جميلة، واتهمه ابن العماد بأنه كان شرساً لا يهاب السلطان، بل عارضه وأغلظ عليه، فأبعده وصادره وسجنه بالقلعة زمناً.

ثم أخرج إلى الشام سنة ٧٤٠ هـ حيث ولي كتابة السر بدمشق حقبة، ثم عزل مرة ثانية ورسم عليه أربعة أشهر وطلب إلى مصر. فشفع فيه أخوه علاء الدين فعاد إلى دمشق. وظل بها لا يشغل وظيفة إلى أن مات. وعاصر في دمشق نائبها بعد أن قبض على تنكز. ويروي ابن حجر أنه عمّر بدمشق داراً آهلة بسفح قاسيون مع أبيه وأخيه، وخرج للحج سنة ٧٤٣ هـ وجاور بمكة حيث توفي هناك سنة ٧٤٩ هـ، ولم تتجاوز سنه الخمسين ونقل إلى دمشق حيث دفن بها مع أبيه وأخيه بسفح قاسيون. وأجمع المؤرخون للعصر والأدباء المعاصرون، على أنه كان مقتدراً في الكتابة والنظم.

وكان يكتب من رأس القلم ما يعجز عنه غيره في مدة. وكان يشبه القاضي الفاضل في زمانه. وقال الصفدي: هو الإمام الفاضل البليغ المفوه الحافظ حجة الكتاب. إمام أهل الأدب أحد رجالات الزمان كتابة.

مثل الحمام إذا تألق والشهاب إذا توقد

كالسيف يقطع وهو مسلو ل ويرهب حين يغمد

وأنشأ كثيراً من التقاليد والمناشير والتواقيع ومكاتبات الملوك. وله كتب معروفة متداولة أشهرها كتاب ((مسالك الأبصار في ممالك الأمصار))، في ٢٧ مجلداً وهو كتاب حافل ما أعلم أن لأحد مثله. وكتاب في الإنشاء والتوقيعات قال عنه ابن إياس: (وصنف كتاباً في صناعة التوقيع وصار العمل عليه إلى الآن بين الموقعين، وبه يقتدون). وكتاب التعريف بالمصطلح الشريف، وفواصل السمر في فضائل آل عمر في أربع مجلدات، والدعوة المستجابة، وصبابة المشتاق في المدائح النبوية، وسفرة السفرة ودمعة الباكي ويقظة الشاكي، ونفحة الروض، وله كتاب دمية القصر جمع فيه تراجم ومختارات لبعض الشعراء المعاصرين على طريقة (خريدة القصر للعماد).

وأما نظمه فيقول العلماء: إنه وسط، لا يبلغ فيه مبلغ نثره متانة ورصانة، وروي أنه نظم الشعر الفصيح أو القريض، من قصائد وأراجيز كما نظم المقطعات والدوبيت والموشح والبليق.

ومما روي من شعره قوله يرثى نفسه:

قلت لأقلامي اكتبي وانطقي فقالت الأقلام وا سوأتاه

وشقت الألسن من حزنها وولولت واسود وجه الدواه

٤ – علاء الدين علي بن محيي الدين بن فضل الله:

تولى كتابة السر للسلطان الناصر محمد سنة ٧٣٥ هـ بعد عزل أخيه شهاب الدين. قال فيه إبراهيم المعمار الشاعر:

لابن فضل الله فضل غمر الناس ووفى

كيف لا وهو على علم السر أخفى

وظل بكتابة السر بعد موت الناصر وطوال حكم السلطان المظفر حاجي والسلطان الناصر حسن.

٥ - بدر الدين بن محيي الدين بن فضل الله:

تولى بعد أخيه علاء الدين كتابة السر. وهو آخر من اشتهر ذكرهم من آل فضل الله العمري ممن ولي الكتابة في هذا العصر.

٦ - محيي الدين بن عبد الله بن عبد الظاهر:

المولود عام(٦٢٠هـ) والمتوفى عام(٦٧٢هـ) وتولى رئاسة ديوان الإنشاء في عصر الظاهر بيبرس وكتابة سر المنصور قلوون، وابنه الأشرف خليل، وقد كان كاتباً وشاعراً اهتم بالمحسنات البديعية، وبرع فيها وألف كتاباً في سيرة الملك المنصور، وكتاباً آخر سماه (النجوم الدرية في الشعراء المصرية) وله ديوان شعر معظمه في المناسبات والإخوانيات. ويعتبر الكاتب الأديب محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي المصري من أشهر كتاب المصريين في دولة المماليك الأولى في النصف الثاني من القرن السابع ولد سنة ٦٢٠ هـ، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٩٢ هـ، وقال عنه ابن شاكر: ((الكاتب الناظم الناثر، وشيخ أهل الترسل ومن سلك الطريق الفاضلية في إنشائه)). وقال: وكان بارع الكتابة وله في قلم الرقاع طريقة غريبة حلوة. تدرج في ديوان الرسائل حتى تولّى رئاسة الإنشاء في عهد الظاهر بيبرس وقيل: إنه أول من تولى منصب (صاحب ديوان الإنشاء) كما قيل: إنه أول من تولى كتابة السر لسلاطين المماليك، وصار لا يشغل هذا المنصب من بعده إلا كل خطير عظيم القدر من كبار الكتاب، فهو الذي يشير على السلطان في الرسائل والمراسيم ويتلقى عنه المرسوم شفاهاً لصوغة بعبارته، ثم يوقع السلطان عليه بخاتمه.

وقد ينوب عن السلطان في التوقيعات على الشكاوى والقصص التي تقدم له بإيجاز وعبارات مقتضبة في الرقاع التي يبعث بها السلطان إلى من يشاء من الأعوان أو الولاة. وكان كاتب السر يقرأ كل الرسائل الواردة للسلطان، وعليه أن ينشئ الرد، وهو أول كاتب سر كان في الدولة التركية وغيرها، وإنما كانت هذه الوظيفة في ضمن الوزارة، والوزير هو المتصرف في الديوان، وتولاه ابن عبد الظاهر كما يقول - صاحب النجوم - سنة ٦٧٨ هـ لأول مرة

للمنصور قلاوون، وابنه الأشرف خليل، ولما أسنَّ تولى ابنه فتح الدين الملقب بالصاحب. وعرف معاصروه قدره في كتابة الرسائل فقرظوه.

وهو آخر من برز في هذا الفن على أهل زمانه، وسبق أقرانه. وكان من سادات الكتاب ورؤسائهم وفضلائهم. وهو صاحب النظم الرائق والنثر الفائق. والتزم محيي الدين في كتابته شكل السجع، واتبع المحسنات البديعية، وخاصة التورية. ووضع كثيراً من صيغ الكتابة الرسمية، التي ظل الكتاب محافظين عليها طوال عصر المماليك وإلى العصر العثماني.

وتأثر في كتابه بالقاضي الفاضل، وقد تتلمذ على طريقته وكان مخلصاً لها، واهتم بإنشاء الفاضل فجمع كثيراً من رسائله في كتاب سماه الفاضل من رسائل القاضي الفاضل. وتأثر من فن الفاضل الكتابي بصفة خاصة بالتورية والاقتباس، والاهتمام بنشر المنظوم والاستعانة بالقرآن الكريم في ترصيع القول، وكثرة استخدام شعر القدامى، لكنه لم يستطع مجاراته في الصور البيانية، وإتقان التشبيه والاستعارة في عبارات موجزة مشرقة موحية، وانتزاع أوجه الشبه من حقول غريبة ببراعة ودقة. ومن أمثلة كتابته قوله في وصف شمعة: (في حين ما شق ريحي الدجى عن ترائبه جيباً، ونشر الظلام ضفائره وقد اشتعل رأسه من النجوم شيباً، في ضوء شمعة نشرت على الورق رداء الأصيل، وأخفت من الدجى سواد جفنه الكحيل وسترت ذوائبه معصفرة أبهج من وجنتي بثينة لولا أنها في صفرة وجه جميل).

ويتضح من النص اقتباسه من الآية (واشتعل الرأس شيباً) والتورية في قوله: (صفرة وجه جميل). ونراه يستخدم في رسالة أخرى الاستعارات الجارية، والتشبيهات المعروفة على لسان الشعراء والكتاب، يقول في رسالة يصف روضاً: (والأغصان قد اخضر نبات عارضها، ودنانير الأزهار ودراهمها قد تهيأت لتسليم قابضها والمنثور قد انتظمت قلائده، وصيغت ولائده، والحور وقد جاوز السها بالتباشير والسرور، وقد كشفت عن سوقها، والسوسان وقد لاحظ جفنه الوسنان، والورد وقد ورد، والبان وقد بان).

ويسترعي الانتباه في هذه السطور من الرسالة التورية والاستخدام واقتباس الصورة القرآنية والاستطراد مع إيحاءاتها، ومنه التورية في وصف شجر الحور، وتشبيهها ببلقيس ملكة سبأ حين دخلت صرح سليمان عليه السلام فشمرت عن ساقيها. وألف ابن عبد الظاهر كتباً

في الأدب والتاريخ والسيرة، منها تشريف الأيام والعصور، في سيرة الملك المنصور، و(النجوم الدرية في الشعراء المصرية). و(رسالة في الخيل) وكتاب في التاريخ والخطط والمسالك يسمى (الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة). نقل عنه المقريزي في خططه.

وإذا ما نظرنا في سيرة قلاوون وجدناه يؤرخ لحياة السلطان وعصره وأعماله ويهتم ببطولاته في معاركه ضد أعدائه من الصليبيين والتتار.

ويجري الكتاب بأسلوب مرسل في سرد أعمال قلاوون عن إظهار عظمته وشجاعته وتصميمه واقتداره على جلائل الأعمال مما لم يستطعه من سبق من الملوك. يقول في وقعة حصن المرقب: ((وهو حصن عظيم منيع ما زال مولانا السلطان الملك المنصور - نصره الله - يدأب في أمره، ويتحيّل في تحصيله للإسلام ويستفيد الرأي والتدبير في افتتاحه، وأصحاب جماحه؛ لأنه كان قد أعجز الملوك ولم يقدر أحد منهم على التقرب منه، فكيف النزول عليه، واجتهد الملك الظاهر في الإغارة عليه مراراً فما قدر الله ذلك ولا سهله ولا عجله وتوجه إليه مرة من حماة فصادفته ثلوج وبرد وأمطار وحجبته عنه، وحجزته المضايق والأوعار ومرة من غير حماة ولم يحصل له منه قصد بالجملة الكافية وخبأه الله لمولانا السلطان، ليكون من فتوحاته المنيرة، ولتطرز به أحسن سيرة، وكان بيت الاسبتار الذين به قد زاد بغيهم وعدوانهم وكثر فسادهم، حتى بقيت أهل البلاد المجاورة لهم كأنهم في حبس، بل في رمس، وكان الفرنج يعتقدون أنه لا يدرك بحول ولا حيلة، وأن الحيلة فيه قليلة، واستمروا على هذا الطغيان، ولم يقفوا عند الإيمان، وعملوا في نوبة القليعات كل قبيح من الغدر والأسر والنهب ومولانا السلطان المنصور رابض لهم كالأسد الهصور، وهو يهتم بأمر هذا الحصن من غير إظهار، وكلما أوقدوا ناراً للحرب أمدته من الهداية الربانية الأنوار)).

ولا يترك المؤلف فرصة دون أن يكيل له صفات المديح من الشجاعة والبسالة إلى حسن التدبير، إلى الصلاح والرشاد وهداية الله له، وإمداده بنوره.

شعره:

وللشيخ محيي الدين شعر كشعر غيره من الكتاب أكثره في المناسبات الإخوانية أو الرسمية، والغزل ينمقه تنميق الرسائل، ويثقله بصنعة البديع:

إن كانت العشاق من أشواقهم جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولا
فأنا الذي أتلو لهم يا ليتي كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

وروى له قوله:

يا من غدا لي من عوا صف هجره الريح العقيم
أترى يطيب لي الهوى ويقال لي رق النسيم ؟

وروى لنفسه قصيدة في كتاب (تشريف الأيام والدهور) في رقعة السلطان المنصور قلاوون في فتح حصن المرقب بالشام. قال:

يا فاتح الحصن الذي فتحه يأتي به شكرك من يثرب
حصن عظيم القدر في سيرة لمن مضى قبلك لم يكتب
إذا بدا والغيم من حوله تقول نجم لاح في غيهب
وإن تلح للعين أبراجه يقال هذا موكب الكوكب

وروى عنه شهاب الدين محمود قوله في شبابة:

وناطقة بالنفخ عن روح ربها تعبر عما عندنا وترجم
سكتنا وقالت للقلوب فأسمعت فنحن سكوت والهوى يتكلم

ويجري أكثر شعره المنقول في كتب المجموعات على هذا النسق.

- ٤ -

القلقشندي

(٧٥٦ - ٨٢١ هـ - ١٣٥٥ - ١٤١٨ م)

أ - حياته ومسيرته:

هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله الفزاري القلقشندي القاهري الشافعي، عربي محض من فزارة من ذبيان من غطفان حيث وردت فزارة إلى مصر

أيام الفتح العربي الإسلامي وبعده ونزلوا بإقليم القليوبية ويبدو أن أصل القلقشندي العربي دفعه ليدافع عن أصله العربي فيكتب كتابين (نهاية الأدب في معرفة أنساب العرب) و(قلائد الجمان في الفقر بين قبائل عرب الزمان). تلقى ثقافته الأولى في مسقط رأسه فتعلم القرآن ونال حظه من ثقافة عصره وبقي في بلده حتى الخامسة عشرة من عمره، ثم انتقل إلى الإسكندرية؛ لأن بلده لم تتسع لطموحه وآماله وأخذ عن مشاهير العلماء ابن الملقن وغيره الذي أجازه مرتين إجازة في الفتيا والتدريس، وأجازه بأن يروي عن أستاذه كل ما له من مؤلفات في الفقه والحديث، ثم عكف على التأليف والتصنيف في الفقه كشرحه لجامع المختصرات للمدلجي، وشرحه للحاوي الصغير لنجم الدين القزويني وشرحه لقصيدة كعب بن زهير بانت سعاد، كما وأفاد الناس بعلمه من خلال مجالس التدريس، ثم اختير ليكون منشئاً في ديوان الإنشاء عام ٧٩١ هـ في مصر وألف القلقشندي كتاباً مستقلاً لتعريف الكتاب على صناعة الإنشاء فكان كتابه (صبح الأعشى) ثم اختير لينوب في الحكم حتى وفاته ليلة السبت في العاشر من جمادى الآخرة ٨٢١ هـ ١٤١٨م - في القاهرة عن خمس وستين سنة.

ب - مؤلفاته:

وقد خلف لنا مجموعة من المؤلفات هي:

١ - الغيوث الهوامع في شرح المختصرات ومختصرات الجوامع.

٢ - شرح كتاب الحاوي الصغير في الفروع.

٣ - حلية الفضل وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم.

٤ - كنه المراد في شرح بانت سعاد.

٥ - الكواكب الدرية في المناقب البدرية.

٦ - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء.

٧ - ضوء الصبح المسفر.

٨ - نهاية الأدب في معرفة أنساب العرب.

٩ - قلائد الجمان في التقريب لقبائل عرب الزمان.

١٠ - مآثر الإنافة في معالم الخلافة.

والمعروف أن القلقشندي بدأ بكتابة هذه الموسوعة بعد التحاقه بديوان الإنشاء مباشرة بمدة يسيرة سنة ٧٩١ هـ، ولا شك أن المقامة البدرية ليست إلا المنهج والخطة الشاملة لما يحويه هذا السفر الضخم الذي تفتخر به المكتبة العربية، وقد وضعها ليفسح أمامه طريق البحث والتصنيف في صناعة الإنشاء فكراً وعملاً وسلوكاً، وهكذا بقي المؤلف يستزيد من فنون الكتابة وضروبها وصناعتها حتى فرغ من تأليفه يوم الجمعة في الثامن والعشرين من شهر شوال سنة ٨١٤ هـ أي قبل وفاته بسبع سنوات، وقد استغرق العمل فيه قرابة عشرين عاماً، وقد تمت طباعة هذا السفر الضخم في أوائل القرن العشرين.

ولا شك أن كتاب الأعشى يمثل عصراً بكامله، هذا بالإضافة إلى أنه استوعب التراث العربي المتعلق بموضوع الكتاب. وقد كان اعتماده على المصادر العربية القديمة عامة. والمصادر المتعلقة بموضوعه في صناعة الإنشاء خاصة، وقد أحصى جامع فهارس الصبح مئات الكتب التي ورد ذكرها فيه، وهي مختلفة الأنواع تشمل معظم العلوم المعروفة في عصره. يتألف الكتاب من مقدمة مهمة جداً وعشر مقالات أسهب المؤلف في كتابة المقدمة، فتحدث فيها عن فضل الكتابة ومدح أفاضل الكتاب، ثم تطرق إلى مدلول الكتابة، وبيان معنى الإنشاء وترجيحه النثر على الشعر، وذكر آداب الكتاب وصفات الكتاب، ثم حدثنا عن تاريخ ديوان الإنشاء منذ وجوده حتى عصره.

انتقل المؤلف بعد ذلك فتحدث عن صناعة الإنشاء في عشر مقالات كبيرة: المقالة الأولى في ثقافة كاتب الإنشاء، والثانية في ثقافته الجغرافية والتاريخية. والثالثة في ثقافته الديوانية، والرابعة في أصول تحرير المكاتبات، والخامسة في الولايات والبيعة، والسادسة في الوصايا والمسامحات والإطلاقات في الإيمان، والتاسعة في كتب الأمان والعقود وغيرها، والعاشرة في كتب أخرى غير ديوانية.

وقد نوَّه المستشرق كراتشكوفسكي بأهمية هذا الكتاب وذكر: (أن مصنف القلقشندي يمثل ظاهرة مبرزة فريدة في نوعها في مجال الأدب الجغرافي أيضاً، ويختتم بجدارة سلسلة موسوعات عهد المماليك التي تكاد تكون أكثر ذلك العهد أصالة في محيط الأدب).

ولم يكتف بذلك، وإنما وقف وقفة مطولة في تبيان وتوضيح خصائص هذه الموسوعة القيمة، وخلص إلى القول:(بأن صبح الأعشى يختتم عصراً معيناً في تاريخ الأدب الجغرافي، إذ إن عهد الجغرافيا العامة... قد انتهى وحل محله نمط الجغرافيا الإقليمية).

أما كتاب مآثر الإنافة في معالم الخلافة فقد قصد في تأليف الديوان العزيزي العالي. المعتضدي. وقد ألفه في الوقت الذي كانت فيه الخلافة العباسية قائمة في القاهرة بعد سقوط بغداد، وقد أشار القلقشندي في خطبة هذا الكتاب في معرض التحميد إلى ذلك بقوله: ((أحمده على أن رفع قدر الديار المصرية بنقل الخلافة إليها، وقدمها على سائر الممالك فأمست ومدارها في المهمات عليها)).

ثم تحدث بعد ذلك عن الخليفة المعتضد بالله أبي الفتح داود، وقال: ((أحببت أن أخدم خزانته العالية بتأليف في معالم الخلافة، يشتمل دقائق حقائقها، ويتكفل بذكر لوازمها المستطرفة ولواحقها، محلياً، ويرتفع به ذكره، ليسير هذا التأليف بانتسابه إليه في الآفاق وتعاقب الدول وسميته (مآثر الإنافة في معالم الخلافة) على أني أعتذر مما أتيت وأستغفر مما لمثله تصديت، إذ لم أكن من قبيل هذا الشأن ولا من فرسان هذا الميدان، بل أمير المؤمنين أمتع الله وجود الوجود بوجوده بذلك أدرى، وبمعرفته أجدر وأجرى)).

وقد رتب المؤلف الكتاب على مقدمة وسبعة أبواب وخاتمة، تحدث المحقق في مقدمته عن أهمية هذا الكتاب وحدد لنا تاريخ تأليفه اعتماداً على ما جاء في هذا الكتاب من دلائل.

ج - الفنون النثرية عند القلقشندي:

تعددت الفنون النثرية التي استخدمها الكاتب وهو في ديوان الإنشاء، وكان في مقدمة الكتاب المنشئين الذين يتصرفون في الأمور الديوان بما يتطلبه الظرف الطارئ، ولكل حدث أسلوب وفن متبع ولا شك أنه كان يخطط لذلك كله، ويوعز إلى صغار المنشئين ليقوموا بما يقتضيه منهم متطلبات الحكم في الأمور السياسية والدينية والاجتماعية وغيرها. والظاهرة الواضحة أن الأسلوب المشجع شرط لابد منه في كل ما يصدر عن ديوان الإنشاء السلطاني والدواوين الأخرى المتفرعة عنه.

ويمكن أن نجمل أنواع النثر الديواني في ثلاثين نوعاً وهي التالية كما جاءت في صبح الأعشى: (الإجازات العلمية والأمان، والإيمان، والتذاكر والتفاويض، والتقاريظ، والتقاليد، والتهاني، والتواقيع، والخطب والرسائل الإخوانية، والسجلات، والصدقات الشرعية، والمراسيم الطرخانية، والظهورات، وعقود الصلح، والعمرات، والعهود، وقدمات البندق، والكتب والمكاتبات والمبايعات والمثالات الاجتماعية، والمراسيم الوظيفية، والمسامحات المالية، والمطالعات، والمقامات، والملطفات، والمنشورات، والمهادنات، والوصايا).

وتدلنا هذه الأنواع الكثيرة للفنون النثرية الديوانية على الأهمية الكبرى التي يعتمد عليها في ديوان الإنشاء في العصر المملوكي، ولذلك وجدنا أن المختارين للعمل فيه كانوا من الأعلام المنشئين المبرزين في حقل اللغة والأدب والدين. وأورد المؤلف شواهد كثيرة عن هذه الأنواع، ولم تكن في معظم الأحيان من إنشائه، وإنما كان يختار النص الجيد والمناسب من الكتاب السابقين والمعاصرين، ويبدو أن اهتمامه الكلي كان متعلقاً بالذين اشتهروا وعرفوا في مضمار الإنشاء والترسل كالشهاب محمود، وهم من شيوخ دواوين الإنشاء والموقعين والمنشئين.

١ - الإجازات العلمية:

إن الإجازات العلمية في العصر المملوكي ظاهرة علمية أصيلة قديمة، بلغت عند هؤلاء العلماء الذين وضعوا لها طرائق وشروطاً خاصة، بعد أن كانت بسيطة تعتمد على الإجازة الشفوية، ولكنها الآن أخذت منهجاً آخر. وتلك هي الثقافة العامة في هذا العصر يتدرج الطالب في مراحل تعليمه حتى يصبح فقيهاً منتهياً، ويختص بعلم من العلوم التي يؤثرها، وينال إجازته العلمية، ويشهد المدرس لطالبه أنه أتم دراسته وأصبح أهلاً للتدريس والفتوى ومنحه الإجازة العلمية، فيذكر فيها اسم الطالب، وشيخه الموجز ومذهبه، وتاريخ الإجازة وغير ذلك.

وقد أورد المؤلف الإجازة التي نالها في ثغر الإسكندرية، وهو في الحادية والعشرين من عمره، وهي الإجازة التي كتبها له كما رأينا أستاذه العلامة الشيخ سراج الدين أبو حفص بن أبي الحسن الشهير بابن الملقن، ويزيد من قيمة هذه الإجازة أنها كتبت بخط موقع الحكم العزيز بالإسكندرية القاضي تاج الدين بن غنوم.

٢ - الإجازة بعراضة الكتب:

يذكر القلقشندي أنه (جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتاباً في الفقه أو أصول الفقه، أو النحو، أو غير ذلك من الفنون، فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب، ويفتح منه أبواباً ومواضع يستقرئه إياها من أي مكان اتفق، فإن مضى فيها من غير توقف ولا تلعثم استدل بحفظه تلك المواضع على حفظه جميع الكتب.

٣ - الإجازة بالمرويات على الاستدعاءات:

أن يكتب بعض طلبة العلم إلى الفقهاء والعلماء الأعلام المختصين والمشهورين في بعض فروع العلم استدعاءات يطلبون فيها منهم إجازتهم على ما يطلبون من حق الرواية وغير ذلك. وقد جرت العادة في مثل هذه الأحوال أن يكتب الإجازة وترسل إلى طالبها. وهذا النوع من الإجازات يبين المدى الذي بلغته الثقافة في هذا العصر.

٤ - التفاويض والتقاريظ:

كالتفويض الذي كتبه المقر شهاب الدين بن فضل لقاضي دمشق شهاب الدين بن المجد عبد الله، حيث تحدث من خلاله عن شامة الشام وذكر أن: ((دمشق حرسها الله هي أم ذلك الإقليم ومدده الذي يحنو على مشارعها حنو الوالدة على الفطيم، وتنبت منها فوائد لا تأمن معها الغواني حتى تلمس جانب العقد النظيم وهي دار العلم ومدار الحكم، ومواطن علماء تتعاقب فيها كواكبهم وتتناوب فيها سحائبهم...)).

التقاريظ هي التي تكتب عادة على المصنفات والقصائد،((إذا صنف في فن من الفنون أو نظم شاعر قصيدة، فأجاد فيها، أو نحو ذلك، أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته بالتقريظ والمدح، ويأتي كل منهم بما في وسعه من البلاغة في ذلك)).

٥ - التقاليد:

نذكر منها التقليد الذي أنشأه المؤلف بالإشارة للأمير جمال الدين يوسف البشاشي استادار في الدولة الناصرية (فرج)، وذلك حين فوضت إليه الإشارة مضافة إلى الإستادارية، وكتب له به المقر الشمس العمري في سنة ٨٠٩ هـ. استهله كالعادة بالحمد والتشهد في أكثر من صفحة

ونصف الصفحة، ثم قال: ((هذا وقد علا في الدولة القاهرة مقامه، ورشقت أغراض مقاصدها بانقضاء الآجال في الوقائع سهامه، وساس العساكر فأحسن في سياستها التدبير وبذل في نفقاتها الأموال بمجامع القلوب واقتاد النفوس الأبية قهراً فأطاعه من بين الشمال والجنوب)).

٦ - التواقيع:

كتب القلقشندي تواقيع كثيرة في هذا الباب، نشير منها إلى توقيعه الذي كتبه بتصدير أحمد الأنصاري الشهير بالشاب التائب في الجامع الأزهر، وتوقيعه الذي كتبه عن الناصر فرج بن الظاهر برقوق للقاضي ناصر الدين محمد الطناجي في سنة ٨٠٤ هـ وتوقيعه الذي كتبه بالقضاء للقاضي شرف الدين مسعود، وتوقيعه الذي كتبه لقاضي القضاة بدر الدين محمد وولده جلال الدين محمد بإعادة تصدير كان باسمهما بالجامع الأموي بدمشق، وتوقيعه الذي كتبه بالخطابة للشيخ شهاب الدين حاجي، ومما جاء فيه قوله بعد التقديم والحمد والتشهد: ((لاسيما الجوامع التي هي منها بمنزلة الملوك من الرعية، وأماثل الأعيان من سائر البرية، ومن أعظمها خطراً، وأبينها في المحاسن أثراً، وأسيرها في الآفاق النائية خبراً، بعد المساجد الثلاثة التي تشد الرحال إليها، ويعول في قصد الزيارة عليها، جامع دمشق الذي رست في الفخر قواعده، وقامت على ممر الأيام شواهده...)).

٧ - الرسائل:

للرسائل أنواع مختلفة، وقد أورد القلقشندي عدداً لا بأس به منها، ويهمنا أن نقف عند الرسائل التي أنشأها المؤلف نفسه، وهي ثلاث رسائل أدبية مهمة.

١+٢-الأولى والثانية: كتبهما المؤلف في تقريظ المقر الفتحي أبي المعالي فتح الله صاحب دواوين الإنشاء بمصر، والملاحظ أنه كتب الثانية منهما في سنة ٨١٤ هـ.

٣ - أما الرسالة الثالثة: فهي رسالة طويلة في المفاخرة بين العلوم المختلفة، أنشأها المؤلف سنة ٧٩٨ هـ لقاضي القضاة شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن البلقيني، وهذه الرسالة على غاية من الأهمية لطرافة موضوعها، وهي طويلة جداً ذكر منها نيفاً وسبعين علماً، ابتدأها بعلم اللغة واختتمها بفن التاريخ، وقد ذكر فخر كل علم على الذي قبله، محتجاً عليه بفضائل

موجودة فيه دون الآخر، وأهمية هذه الرسالة ترجع إلى أنها تعطينا صورة عن الحياة الفكرية في هذا العصر. يضاف إلى هذه المفاخرة رسالة أخرى بين السيف والقلم أنشأها للمقر الزيني أبي يزيد الدوادار الظاهري سنة ٧٩٤ هـ، وسماها (حلية الفضل وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم)، والمعروف أن لابن نباتة المصري رسالة أيضاً في المفاخرة بين السيف والقلم أوردها ابن حجة كاملة في كتابه خزانة الأدب (تقديم أبي بكر).

٨ - السجلات:

ذكر القلقشندي أن العادة جرت ((أن أبناء العلماء والرؤساء تثبت عدالتهم على الحكام، ويحكم الحاكم بعدالة من تثبت عدالته لديه، ويشهد عليه بذلك، ويكتب له بذلك في درج عريض)).

وأورد لنا بعد ذلك نسخة سجل أنشأه سنة ٨١٣ هـ، كتب به لولده نجم الدين أبي الفتح محمد، وكتب له ثبوت عدالته على الشيخ العلامة ولي الدين أحمد بن زين عبد الرحيم العراقي.

٩ - الصداقات:

ذكر القلقشندي أنه جرت العادة إذا تزوج سلطان أو ولده أو أحد من الأمراء الأكابر وأعيان الدولة أن تكتب له خطبة صداق تكون في الطول والقصر بحسب صاحب العقد، فتطال للملوك وتقصر لمن دونهم بحسب الحال.

ومن جملة الصدق التي استشهد بها الصداق الذي أنشأه لزين الدين صدقة السيفي أزدمر على بنت أمير المؤمنين المتوكل على الله، في خلافة أخيها المستعين بالله العباسي.

١٠ - العهود:

تحدث القلقشندي عن طريقتين في إنشاء العهود، الطريقة الأولى اتبعها المتقدمون، والطريقة الثانية اتبعها المحدثون. أما طريقة المتقدمين فهي أن لا يأتي بخطبة في أثناء العهد، ولا يتعرض الكاتب إلى ذكر أوصاف المعهود إليه والثناء عليه، أو يتعرض لذلك باختصار، ثم يأتي بالوصايا، ثم يختمه بالسلام أو بالدعاء أو بغير ذلك مما يناسب، وعلى ذلك كانت عهود

السلف من الصحابة والتابعين، ويهتدي بذلك فيما كتبه أبو بكر الصديق لعمر بن الخطاب. أما طريقة المحدثين والمتأخرين من الكتاب في هذا العصر فهي يأتي بالتحميد في أثناء العهد، ويأتي من ألقاب ولي العهد بما يناسب على الاختصار....يقول القلقشندي: ((وقد أنشأت عهداً، امتحاناً للخاطر: لأن يكون عن الإمام المتوكل على الله أبي عبد الله محمد بن المعتضد أبي الفتح بن أبي بكر، خليفة العصر، لولده العباس، ليكون نموذجاً ينسج على منواله)).

١١ - الكتب والمطالعات:

تحدث القلقشندي عن أنواع المكاتبات وأساليبها، وأورد نماذج كثيرة منها، نشير إلى ما كتبه محيي الدين بن عبد الظاهر عن السلطان المظفر قطز بالبشارة بهزيمة التتار بعد معركة عين جالوت. أما المكاتبة الثانية فهي للمؤلف نفسه القلقشندي، وهي المكاتبة التي كتبها عن السلطان الناصر فرج بن برقوق جواباً إلى صاحب فاس بالمغرب ابن أبي الحسن المريني الذي بعث بكتاب يستخبر فيه عن وقعة تيمورلنك.

١٢ - المبايعات:

ذكر القلقشندي المبايعات وما يقع عليه عقد المبايعة، ويأتي بما سنح من أمر البيعة، ثم يذكر الحلف عليها، وعلى ذلك جرى كتاب خلفاء بني أمية، ثم خلفاء بني العباس من بعدهم.

د - أسلوب الكاتب ومذهبه الفني ومكانته العلمية:

استخدم القلقشندي ضربين من النثر في كتابه، الضرب الأول الأسلوب الحر، الضرب الثاني الأسلوب المقيد السجع.

١ - الأسلوب المطلق

تحرر القلقشندي في كتابه صبح الأعشى من قيود السجع، وقد لاحظنا ذلك حين يبدي رأيه في بعض الأمور التي يتحدث عنها، ويعلق على ما يورده من النصوص بقوله (قلت) وما يأتي من مقوله بعد ذلك لا يلتزم فيه أي سجع. وفي المقدمة التي كتبها المؤلف (في فضل الكتابة) وقال في مستهلها: ((أعظم شاهد لجليل قدرها، وأقوى دليل على رفعة شأنها أن الله تعالى نسب تعليمها إلى نفسه واعتده من وافر كرمه وأفضاله، فقال عز اسمه: (اقرأ وربك

الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) وفي ذلك من الاهتمام بشأنها ورفعة محلها مما لا خفاء فيه)).

واستطرد بعد ذلك ليقول: ((والكتابة إحدى الصنائع فلابد فيها من الأمور الأربعة: فمادتها الألفاظ التي تخيلها الكاتب في أوهامه وتصور من ضم بعضها إلى بعض صورة باطنة تامة في نفسه بالقوة، والخط الذي يخطه بالقلم، ويقيد به تلك الصور، وتصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة صورة محسوسة ظاهرة، وآلتها القلم، وغرضها الذي ينقطع الفعل عنده تقييد الألفاظ بالرسوم الخطية فتكمل قوة النطق، وتحصل فائدة للأبعد كما تحصل للأقرب، وتحفظ المستثمر منها، وهي انتظام جمهور المعاون والمرافق العظيمة، العائدة في أحوال الخاصة والعامة بالفائدة الجسيمة في أمور الدين والدنيا). ولا نستغرب أن نجد الأسلوب نفسه في الكتاب كله على الرغم من ضخامته، ما عدا النصوص التي يوردها مستشهداً بها على الفنون النثرية الديوانية سواء كانت من إنشائه أم من إنشاء غيره.

٢ - الأسلوب المسجع:

التزم المؤلف بالأسلوب المسجع في إنشائه الرسمي الذي يتعلق بالأغراض الديوانية وظاهرة السجع في هذا العصر، وكأنما كان الكتاب يهدفون من وراء ذلك إلى إعطاء الخلافة والسلطنة والملك أبهة ليضاهي النثر عزة أولي الأمر. لقد كان النثر صورة عن الحياة في العصر المملوكي، ولذلك كان الكتاب يجودون إنشاءهم الديواني؛ لأنه مظهر من مظاهر السلطان، ولأنه يجب أن يكون زينة وحلية، ولذلك آثر الكتاب في الإنشاء تعمد الصيغة في التزام السجع وغيره من ضروب الالتزام الفنية كاقتباس الآيات القرآنية والمزاوجة بين الجمل والفقرات في سياق النص. وقد أشار المؤلف إلى ذلك في صبحه فقال: ((وقد اخترت أن أضع في هذا المحل ما وافق الصنعة وجرى على أسلوب البلاغة)).

هـ - مذهبه الفني:

كان مذهب الكاتب الفني كان ذا طابع ازدواجي، إذ إنه جمع بين مذهبين متباينين متناقضين، مذهب النثر المطلق، ومذهب النثر المسجع ولكل مذهب من المذهبين مكانه من أدب القلقشندي. وهذه الازدواجية النثرية ظاهرة مهمة في هذا العصر.

وهكذا يتضح مما تقدم معنا من بحث القلقشندي أنه يمثل عصره خير تمثيل، وإن صناعة الإنشاء عنده إنما كانت علماً قائماً بذاته له أصوله وأحكامه والتزاماته.

يضاف إلى ما تقدم ذكره عناية كثير من المستشرقين بهذا الكتاب والمؤسف حقاً أن يتنبهوا قبل العرب أنفسهم إلى أهميته وسوف نوضح هذا الجانب في خاتمة بحثنا عن المؤلف.

و - أهمية القلقشندي:

اهتم المفكرون العرب والأجانب بالقلقشندي في تاريخه صبح الأعشى لما يحمله من الدراسات الاجتماعية والإدارية وترجمه المستشرقون إلى اللغات المختلفة للإفادة مما فيها من أخبار مروية ونظريات اجتماعية واقتصادية وسياسية معروفة في عصر المؤلف. كحديث المستشرق كودوفري ديمومبين عن القلقشندي في كتابه (سورية في العصر المملوكي) حيث بين فيها نظام الحكم عند المماليك، وتكلم على الوظائف الإدارية والمالية والقضائية، وعلى موظفي الحاشية والبلاط السلطاني، والإقطاعات وتطوراتها في العصور المختلفة. وتحدث ميشيل برنارد وقد ترجم ما ورد في كتاب صبح الأعشى عن موارد الدولة المالية في مصر والإقطاعات، وذلك في كتابه (التنظيم المالي المصري عند القلقشندي).

وذكر وستنفيلد في كتابه (النظام الإداري والحربي في مصر في عصر الفاطميين)، ما في كتاب صبح الأعشى. وتحدث المستشرق الروسي كراتشكوفسكي عن القلقشندي حديثاً مسهباً أشاد فيه بأهميته الكبيرة في كتابه المهم (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) وقد أورد فيه طرفاً من حياة المؤلف، ووضح لنا أهميته في عصره، ووقف عند كتابه (صبح الأعشى في صناعة الإنشا)، ولخص لنا هذا الكتاب، وذكر أهمية ما فيه من الوثائق الديوانية الواردة في مقالاته. أما المحدثون فقد انتبهوا إلى أهمية (صبح الأعشى).

١ - كصباح محمود الحلي، حيث تحدث عن المعرفة الجغرافية عند القلقشندي فذكر شكل الأرض وأقسامها وأقاليمها وانتقل لذكر المناخ، فتحدث عن الرياح وأنواعها، والسحاب والبرق والرعد والمطر والثلج والبرد، ووصف بعض الظواهر الضوئية من الهالة وقوس قزح وطبائع الفصول الأربعة وغير ذلك.

٢ - ومحمد بن تاويت، الذي اهتم باستقصاء ما في صبح الأعشى مما يتعلق بالأندلس والمغرب.

٣ - وكذلك الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، فقد أشرف على وضع فهارس مفصلة لهذا الكتاب، وكتب في مستهلها مقدمة مهمة تحدث عن أهمية هذه الموسوعة بين موسوعات هذا العصر (نظراً لغزارة مادتها وتنوعها ومكانة مؤلفها وسعة أفقه وغزارة علمه وخطورة المنصب الذي وليه في الدولة).

- ٥ -

شافع بن عباس
(ولد سنة ٦٤٩ هـ وتوفّي سنة ٧٣٠ هـ)

أ - حياته ونشأته:

وهو سبط ابن عبد الظاهر، وقيل: ابن أخته وربما خلط المؤرخون بين محيي الدين وابنه فتح الدين، فهو سبط محيي الدين وابن أخت فتح الدين. ولد سنة ٦٤٩ هـ وتوفي سنة ٧٣٠ هـ الإمام الكاتب باشر الإنشاء بمصر زماناً إلى أن أضر؛ لأنه أصيب بسهم في نوبة بحمص الكبرى سنة ٦٨٠ هـ، ولزم بيته بعد ذلك إلى أن توفي.

ب - شخصيته:

وكان أحد كتاب الإنشاء، وكان أديباً مشاركاً في عدة علوم وله مصنفات، وله نظم جيد ونثر مليح. سمع الحديث وأخذ عن جمال الدين بن مالك وتعانى الأدب وأتقن الخط والنظم والإنشاء، وكتب في الديوان زماناً. واتصل بجماعة من العلماء والأدباء وأخذ عنهم، وخاصة عن الشيخ محيي الدين جده لأمه وابنه فتح الدين، وعمل معهما في ديوان الإنشاء. وروى عنه وأخذ منه جماعة من أدباء العصر المشهورين في مصر والشام من بينهم الشيخ أبو حيان، وعلم الدين البرزالي المؤرخ الأديب، والشاعر المصري السراج الوراق، وقد استشفع عبد الفتح بن عبد الظاهر. ولقيه صلاح الدين الصفدي فأجازه ببعض كتبه، ولم يحفظ لنا من رسائله ومؤلفاته شيء، مع كثرة ما يذكر عنها.

ج - مؤلفاته:

قال الصفدي: ((وله النظم الكثير والنثر الكثير)). وروى له الصفدي بعض كتبه وذكر منهاك

١ - ديوان شعره.

٢ - مجموعة سير لبعض السلاطين مثل:

أ- سيرة الناصر محمد بن قلاوون.

ب - والأشرف الخليل.

٣ - وله كتب في الأدب مثل:

أ - قلائد الفرائد وفرائد القلائد فيما للشعراء المصريين الأماجد.

ب - ومناظرة ابن زيدون في رسالته.

ج - و قراضات الذهب المصرية في تقريظ الحماسة البصرية.

د - والأحكام العادلة فيما جرى بين المنظوم والمنثور من المفاضلة.

هـ - والرأي الصائب فيما لابد منه للكاتب.

و - والإشعار بما للمتنبي من الأشعار.

ز - وعدة الكاتب وعمدة المخاطب.

ح - وشوارد المصائد فيما لحل الشعر من الفوائد.

ط - ومخالفة المرسوم في الوشي المرقوم.

ي - وشنف الآذان في مماثلة تراجم قلائد العقيان.

ك - وأفاضل الحلل على جامع قلعة الجبل.

د - رؤية في أدبه: ومما روي من رسائله ما كتبه:

١ - يصف شمعة، قال: ((وشمعة قد استتم نبتها في روض الأنس حتى نور، ولأن عطفها بدوحة المفاكهة حتى أزهر، وأومأ بنان تبلجها إلى طرق الهداية، وأشار، ودل على نهج التبصر، وكيف لا وهي علم في رأسه نار، كأنما هي قلم امتد بمزاليق من ذهب، أو صعدة إلا أن

أسنانها ذهب، وحسبها كرماً أن جاءت بنفسها وأعلنت بامتناعها عن جموده حسها، سائلها في الجود بأمثالها مسؤول، ودمعها بالعفو للصفو من سماحتها مطلول، تحيتها: عموا صباحاً بتألق نحرها وتمام بدرها في أوائل شهرها، قد حميت من ماء دمعها ونار توقدها بين نقطتين، ومن حسن تأثرها وعين تبصرها بين الأثر والعين)).

٢ - وله شعر وسط قريب من شعر جده محيي الدين وأمثاله من كتاب عصره.

٣ - وكان شافع محباً للكتب واسع الاطلاع، وكان جماعاً للكتب خلف ثماني عشرة خزانة مملوءة كتباً نفيسة أدبية. وكان من شدة حبه للكتب يقول: هذا الكتاب الفلاني ملكته في الوقت الفلاني، وإذا طلب منه أي مجلد قام إلى الخزانة فتناوله كأنه كما وضعه.

- ٦ -

النويري
شهاب الدين
أحمد بن عبد الوهاب البكري
(ت النويري سنة ٧٣٣ هـ)

أ - حياته ونشأته:

وينعت بالشهاب، نويري المحتد، قوصي النشأة. سمع الحديث على الشريف موسى بن علي وعلي بن يعقوب بن أحمد الصابوني. وأحمد الحجار وزينب بنت يحيى وقاضي القضاة ابن جماعة.

تقلب في الخدم السلطانية وحصل له قرب من السلطان الناصر ووكله ببعض أموره وتولى نظر الجيش بطرابلس الشام. ونظر الديوان بالدقهلية.

ب - شخصيته:

١ - قال الأدفوي: وكان ذكي الفطرة حسن الشكل وفيه مكرمة وأريحية وفيه ود لأصحابه.

٢ – وذكر المقريزي واقعة له مع أحد وكلاء السلطان واسمه أحمد بن عبادة وكيل الناصر محمد فقد ضربه بالمقارع سنة ٧١٠ هـ؛ لأنه كان استنابه بالمدرسة الناصرية والمنصورية وغيرها، وجعله يدخل على السلطان ويطالعه بالأمور فاغتر بذلك، وبسط القول في ابن عبادة، فلم يعجب السلطان تلك الوقيعة من النويري، فعرف ابن عبادة ما قاله في حقه وسلمه إليه ومكنه منه فضربه بالمقارع ضرباً مبرحاً.

٣ – وذكره ابن تغري بردي فقال: إنه كان فقيهاً فاضلاً ومؤرخاً بارعاً وله مشاركة جيدة في علوم كثيرة، وكتب الخط المنسوب.

٤ – وصحب جماعة من علماء عصره كالأدفوي، وكان يواظب على القراءة، فكان كل يوم بعد الظهر يستفتح بالقرآن إلى قرب المغرب، وقيل: إنه كتب صحيح البخاري ثماني مرات، وكان يبيع كل نسخة منه بخطه بألف درهم، وكان يكتب في كل يوم ثلاث كراريس.

ج - مؤلفاته:

وأشهر ما ألف كتابه الجامع (نهاية الأرب في علم الأدب) في ثلاثين مجلداً، قال ابن تغري بردي: رأيته واقتنيته ونقلت منه بعض شيء في هذا التاريخ يعني: (النجوم الزاهرة) وغيره وله نظم يسير، ونثره لا بأس به.

ومات النويري سنة ٧٣٣ هـ بمرض أصاب أطراف أصابع يديه.

- ٧ -

علاء الدين بن غانم
أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان
(ولد سنة ٦٥١ هـ، توفي سنة ٧٣٧ هـ)

أ - حياته ونشأته:

علاء الدين بن غانم أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان أحد الكتاب المشهورين بالفضائل وحسن الترسل وكثرة الأدب والأشعار والمروءة التامة. وقد ولد سنة ٦٥١ هـ بالقدس وتوفي

سنة ٧٣٧ هـ، وسمع الحديث الكثير وحفظ القرآن، وباشر الجهات، وقصده الناس في الأمور المهمات. وكان كثير الإحسان إلى الخاص والعام.

ب - شخصيته:

تعانى الأدب. قال الصفدي: ((كتب في ديوان الإنشاء وعرض عليه كتابة السر فامتنع، وله نظم كثير وأعمال جيدة في الآداب والمكاتبات ومراجعات مع فضلاء عصره من زمن محيي الدين بن عبد الظاهر وهلم جراً)). وكان رئيساً كبيراً كثير القضاء لحاجات الناس حتى كان صدر الدين بن الوكيل يقول: ما أعرف أحداً في الشام إلا وعلاء الدين بن غانم في عنقه منه مأثرة. وكان وقوراً مهيباً، ولما أسن صار منور الشيبة ملازماً للجماعات منطرح الكلفة.

ج - مشاركاته لبني عصره:

لم يحبه ابن الزملكاني وكانت بينهما نفرة، ومع ذلك قال ابن الزملكاني: ما أردت أن أذكره إلى واحد بسوء إلا قال لي: ما في الدنيا مثل علاء الدين بن غانم. قال الذهبي: كان ديناً وقوراً، مليح الهيئة، ذا مروءة وفتوة. وقال ابن شاكر: هو الشيخ الفاضل البليغ، الكاتب الشاعر، صدر الشام، بقية الأعيان، كان حسنة من حسنات الزمان، وبقية ما ترك الأعيان، ذا مروءة فاقت الواصف، وجود أخجل الغمام الواكف. وقيل: إنه أوذي من الدولة مراراً، ومع ذلك لم يرجع عن عمل الخير والشهامة والمروءة وخدمة أصحابه ومعارفه ممن يقصده.

وكان صديقاً للقاضي ابن صصرى، وسعى لدى الحكام لتعيينه في قضاء الشام، وكان ابن الزملكاني يسعى إلى ذلك المنصب كذلك. ولهذا كانت الكراهة والنفرة. وقام ابن غانم بكثير من الرحلات طاف فيها البلاد، وكان يتكلم بالتركي والعجمي والكردي، ويلبس زي العرب إذا سافر.

كتب بين يدي الصاحب بن غبريال، وأقام ردحاً من الزمن بحماة عند الملك المنصور أبي الفداء، واتصل بكثير من علماء عصره وأدبائه، ومدحه بعض شعرائه كالشهاب محمود وابن نباتة، وكان حلو المحاضرة، جميل المعارضة، وصف ابن حجر علمه باللغة، وأسلوب كتابته فقال: ((وكان مستحضراً لكثير من اللغة، وكان يتقرى في كلامه ويحفظ من شعر أبي العلاء المعري شيئاً كثيراً، ويتعانى في نظمه ونثره الحوشي من الكلام، وإذا أراد أن ينظم أو ينشئ يطيل الفكر)).

د - أدبه:

١ - ومن نثره

قوله في وصف قلعة ذات أودية ومحاجر: ((لا ترى العيون لبعد مرماها إلا شزراً، ولا يرى سكانها العدد الكثير إلا نزراً، ولا يظن ناظرها إلا أنها طالعة بين النجوم بما لها من الأبراج ولها من الفرات خندق يحفها كالبحر، إلا أن هذا عذب فرات. وهذا ملح أجاج، ولها واد لا يقي لفحة الرمضاء ولا حر الهواجر، وقد توعرت مسالكه فلا يداس فيه إلا على المحاجر، وتفاوت بين مرآه العلي وبين قراره العميق، ويقتحم راكبه في هبوطه، فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق)).

٢ - ومن نظمه

وصف روضة يقول:

وكم سرحة لي بالربا زمن الصبا ... أشاهد معنى حسنها متلمسا

ويسكرني عرف الشذا من نسيمها ... فاقضي هوى من طيبة حتف أنفيا

وأسأل فيها مبسم الروض قبلة ... فيبرز من أكمامه لي أياديا

- ٨ -

شهاب الدين محمود
محمود بن سليمان بن فهد بن محمود الحلبي ثم الدمشقي
ولد سنة ٦٤٤ هـ

أ - حياته ونشأته:

ولد سنة ٦٤٤ هـ وسمع من جماعة بينهم جمال الدين بن مالك، وتأدب به وبابن الظهير الأربلي ولازم ابن الظهير هذا وكان شاعراً فحذا حذوه في الشعر. وسلكه طريقه في النظم والكتابة كما يقول ابن تغري بردي، ومما كتب له من أبيات قوله:

أبارقٌ لاح في صباح ... أم نظم الدر في سحاب

أم أســـطر مثـــل جـــيش صـــب حـــين تـــسارعن في طـــلابي

وكان يمت بصلة إلى محيي الدين بن عبد الظاهر. فقد كان جده وكان ابنه علاء الدين خاله، وقد كتب إليه شعراً يقول فيه:

فلـــم تنقطـــع كتبـــي لـــنقص مـــودة ولكـــن دهـــاني صرف دهـــري فـــأذهلا

رمـــاني عـــن قـــوس القـــساوة عامـــدا بأســـهم أوصـــاب فـــصادفن مقـــتلا

وتولّى ديوان الإنشاء بدمشق، ذكر ابن العماد أنه خدم فيه نحواً من خمسين سنة.

وكان يكتب التقاليد على البديهة، تعلم الخط المنسوب، ونسخ بالأجرة بخطه الأنيق كثيراً من الكتب واشتغل بالفقه.

ب - شخصيته:

١ - كان أول صلته بالإنشاء في مصر مع جده لأمه محيي الدين بن عبد الظاهر وخاله علاء الدين، ولكنه ذهب إلى دمشق فعلا بها نجمُه، ولقيه هناك ابن خلكان في المدرسة النجيبية سنة ٦٨١ هـ، واتصل به وكان يعوده في مرضه الذي مات فيه، وكان تولّيه سر دمشق سنة ٧١٧ هـ.

٢ - قال ابن كثير: ((وفي بكرة نهار الثلاثاء الثامن والعشرين من شوال وصل الشيخ الإمام العلامة شيخ الكتاب شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي على البريد من مصر إلى دمشق متولياً كتابة السر بها عوضاً عن شرف الدين عبد الوهاب ابن فضل العمري)).

٣ - وانتقل مرة أخرى إلى مصر، قال ابن حجر: ((إنه كتب الإنشاء أولاً بدمشق، ثم نقله ابن سلعوس إلى الديار المصرية عقب موت محيي الدين بن عبد الظاهر أيام الملك الأشرف خليل فكتب بها في ديوان الإنشاء، ثم عاد فولي كتابة السر بدمشق بعد موت شرف الدين بن فضل الله، وظل بها إلى أن مات، وظل شاغلاً لمنصب السر ثمانية أعوام.

٤ - واتصل بسلاطين المماليك من الأشرف خليل حتى الناصر محمد، وتقرب من نواب السلطنة بالشام، ولقي ترحيباً واحتراماً من صاحب حماة الملك المنصور. وخلد في شعره مدائح لكل هؤلاء.

٥ - كذلك اتصل بجماعة من العلماء والأدباء والشعراء والكتاب، وكانت بينه وبينهم مكاتبات ومحاورات، وكانت بينه وبين الكاتب علاء الدين ابن غانم صداقة وطيدة. قال ابن غانم: عتبني يوماً القاضي شهاب الدين محمود وقال: بلغني أن جماعة ديوان الإنشاء يذمونني وأنت حاضر ما ترد غيبتي، فكتبت إليه:

ومن قال إن القوم ذموك كاذب ... وما منك إلا الفضل يوجد والجود
وما أحد إلا لفضلك حامد ... وهل عيب بين الناس أو ذم محمود

فكتب إليَّ أبياتاً منها:

علمت بأني لم أذم بمجلس ... وفيه كريم القوم مثلك موجود
ولست أزكي النفس إذ ليس نافعي ... إذا ذم مني الفعل والاسم محمود
وما يكره الإنسان من أكل لحمه ... وقد آن أن يبلى ويأكله الدود

فلم يبق إلا أيام قليلة وتوفي.

ج - شعره:

١ - ورثى القاضي ابن صصري، وكان من أصدقائه بمرثية جيدة سنة ٧٢٣ هـ مطلعها:

قاضي القضاة ومن حوى رتباً محت .....

٢ - واتصل به صلاح الدين الصفدي، فأجازه ببعض كتبه وأنشده كثيراً من شعره، رواه في كتبه (شرح اللامية) و(الوافي بالوفيات).

٣ - ويلقب الشهاب محمود بلقب القاضي كما أول الكلام، وربما أثار هذا تساؤلاً، لكن ابن حجر يجيب على ذلك بقوله: إنه عين مرة لقضاء الحنابلة، لكن المشهور أنه كان كاتباً ناثراً وناظماً بليغاً.

٤ - قال ابن حجر: فاق الأقران في النظم والإنشاء والكتابة، وكان نثره يدخل في ثلاثين مجلدة.

د - مؤلفاته:

١ - له كتاب في صناعة الإنشاء مشهور وهو (حسن التوسل إلى صناعة الترسل)، جوَّده وقيل: إنه كان يكتب التقاليد الكبار والتواقيع تظهر بخطه وثوقاً حتى جمع منها بعض الراغبين مجلدين.

ومن محاسن نثره الكتاب الذي وصف فيه الخيل، والرسالة التي في وصف البندق، قال ابن العماد: ويقال: لم يكن بعد القاضي الفاضل مثله، وله من الخصائص ما ليس للقاضي الفاضل من القصائد المطولة الحسنة الأنيقة.

٢ - وقال الصفدي: وقرأت على الشيخ الإمام شهاب الدين أبي الثناء محمود الكاتب كتاباً أنشأه في وصف الخيل جاء منه ((لا يستن داحس في مضماره ولا تطمع الغبراء في شق غباره، ولا يظفر لاحق من لحاقه بسوى آثاره، تسابق يداه مرامي طرفه، ويدرك شوارد البروق ثانياً من عطفه)).

ويقول فيها: ((فمن أشهب غطاه النهار بحلته، وأوطأه الليل على أهلته، يتموج أديمه رياً، ويتأرج رئياً، ويقول من استقبله في حلى لجامه: هذا الفجر قد أطلع الثريا، إن التقت المضايق انساب انسياب الأيم، وإن انفرجت المسالك مر مرور الغيم، كم أبصر فارسه يوماً أبيض بطلعته. وكم عاين طرف السنان فقاتل العدا في ظلام النقع بنور أشعته..)).

٣ - وله في الشعر قدم ثابتة، برع فيه وفاق أقرانه، وعد من شعراء عصره المتقدمين، بدأ في النظم في باكورة شبابه، ومن أوائل شعره الجيد قصيدته في مديح الظاهر بيبرس ووصف انتصاره على التتار وخوضه خلفهم الفرات.

هـ - من أغراض شعره:

١ - المدح:

مدح كثيراً من سلاطين المماليك المعاصرين مثل المنصور قلاوون والأشرف خليل، والناصر محمد، كما مدح غيرهم من نواب السلطنة والأمراء وكبار رجال الدولة من القضاة والكتاب، ومدح زملاءه من الشعراء والأدباء؛ وله في المدائح قصائد كثيرة جمعها في كتاب سماه (أسنى المنائح في أهنى المدائح) ومقدماتها تروي الشوق للديار المقدسة المشرفة بالكعبة والروضة الشريفة، وتجيش في رحلته الوجدانية عواطفه وأحاسيسه فيقول:

أعـد حـديث الحمـى فالركـب في طـرب وقـص أنبـاء مـن بـالجزع مـن عـرب
كـرر حـديث الثنايـا فهـي أعـذب لي عـلى الظـما مـن رضـاب الخـرد العـرب
إذا الكـرى ذر في أجفاننـا سِـنة مـن النعـاس نفـضناها مـن الهـدب

ويقول:

ألا حبـذا مـسرى الركـاب وقـد رأت لهـا معلـماً عنـد الثنيـة معلـما
وقـد نـزل الركبـان فيهـا وعفـروا سـحيراً عـلى الأرض الوجـوه تكرمـا

٢ - الإخوانيات:

وله قصائد في مناسبات مختلفة وموضوعات متعددة يجاري فيها الشعراء فيما يعرضون لـه. ويتأنق تأنقهم في التعبير ويذهب مذاهبهم في التوريـة والتجنـيس وضروب البـديع الأخـرى الشائعة آنذاك.

١ - ومن إخوانياته قصيدة بعث بها من القاهرة إلى صديقه الشاعر عبد الله بن أحمد بن تمام بجبل الصالحية بالشام يتشوق فيها ويبنيها بناء الرسائل، فيقول:

هـل عنـد مـن عنـدهم برئـي وأسـقامي علـم بـأن نـواهم أصـل آلامـي
وأن قلبـي وجفنـي بعـد بعـدهم ذا دائـم وحـده فـيهم وذا دامـي

والأبيات مبنية بناء الرسالة، من مقدمة ثم نتيجة ومـا بيـنهما وصـلة مـن صـنوف البـديع وصنعة اللفظ والمعنى. وكان شهاب الدين خبيراً بهما كل الخبرة. وينتقل بين أجزاء موضـوعه فصلاً فصلاً فيذكر بقاءه في مصر وشوقه إلى الشام:

يـا ليـت شـعري ألم يبلغـه أن لـه أخـاً بمـصر ضـعيف الجـسم مـذ عـام
مـا كـان ظنـي هـذا في مودتـه ولا الحـديث كـذا عـن سـاكني الـشام

ويذكر بلوغه السبعين من عمره:

ولَّـت بـشاشة أيـامي فلـو عرضـت عـليَّ أعرضـت عنهـا غـير مـستام
هـل بعـد سـبعين لي إلا التأهـب مـن أجـل الرحيـل بـإسراج وإلجـام

ولا يتخلى عنه ميله للصنعة حتى في هذا الموقف الذي يذكر فيه الموت والبعث والندم على ما فوَّت من العمر في الآثام والمعاصي، والرجاء في العفو وفي شفاعة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وسبيله إلى ذلك فرط من المحبة له.

ويختم هذه القصيدة ختام الرسائل فيقول:

فاذكر أخاك بظهر الغيب وادع له ... فأنت في نفسه من خير أقوام

عليك مني سلام الله ما ابتسمت ... أزاهر الروض من دمع الحيا إلهامي

وأعجب به الصفدي:

أستغفر الله أين الغيث منفصلا ... من بره وهو طول الدهر متصل

من حاتم ؟ عد عنه واطرح فيه ... في الجود لا بسواه يضرب المثل

٣ - الوصف:

ويعجب الصفدي بوصفه لحصن المرقب الذي فتحه المنصور قلاوون إذ يقول:

ولقد ذكرتك والسيوف لوامعٌ ... والموت يرقب تحت حصن المرقب

والحصن من شفق الدروع كأنه ... حسناء ترفل في رداء مذهب

٤ - غزله:

أ - كذلك أعجب علماء عصره وكثير ممن أرّخوا حياته بقصيدة لامية رقيقة اختارها ابن شاكر:

يا من أضاف إلى الجمال جميلا ... لا كنت إن طاوعت فيك عذولا

عوضتني من نار هجرك جنة ... فسكنت ظلاً من رضاك ظليلا

وحللت من أحشائي ربعاً دارسا ... فغدا بقربك عامراً مأهولا

ب - ومن قصائده الجيدة قصيدة بعث بها إلى فتح الدين بن عبد الظاهر يقول فيها:

هل البدر إلا ما حواه لثامها ... أو الصبح إلا ما جلاه ابتسامها

أو النار إلا ما بدا فوق خدها ... سناها وفي قلب المحب ضرامها

أقامـــت بقلبـــي إذ أقـــام بحبهـــا فـــدارتها قلبـــي وداري خيامهـــا

ج - وأورد الصفدي في شرح اللامية بيتين من القصيدة، وأعجب بتشبيهه فيهما الثريا والهلال والدارة. قال: أنشدني من لفظه لنفسه الشهاب أبو الثناء محمود بدمشق سنة ٧٢٣ هـ:

كـــأن الثريـــا والهـــلال ودارة حوتـــه وقـــد زان الثريـــا التئامهـــا

حبـاب طفـا مـن حـول زروق فـضة بكـف فتـاة طـاف بـالراح جامهـا

د - وكاتب بشعره بعض شعراء المصريين فكتب إلى السراج الوراق المصري في سجادة:

وشـــهاب تجـــاوز الـــشهب قـــدرا فغـــدت عـــن عـــلاه ذات انحطـــاط

لم أحـــاول تقبيلهـــا غـــير خمـــس حـــال زهـــدي فيهـــا وحـــال اغتبـــاطي

هـ - ويتلاعب فيها بالتورية مداعباً إليه بشهاب الدين مجيباً:

يـــا سراجـــاً لمـــا ســـمت بـــه الـــشمس غـــدا البـــدر دونهـــا في انحطـــاط

أنـــت بحـــر نـــداك مـــوج وألفـــا ظـــك در وصـــنع يمنـــاك شـــاطي

لا تلمنـــي إذا نظمـــت معانيـــك فمـــن در فيـــك كـــان التقـــاطي

و - أثره في عصره:

١ - كان شهاب الدين ذا أثر بين في عصره لما أتيح له من طول العمر. ولأنه شغل منصب كتابية الإنشاء ردحاً طويلاً من الزمن بلغ خمسين عاماً كان خلالها على صلة بالشعراء والأدباء في مصر والشام.

٢ - وعده الصفدي من الكتاب الذين عاصرهم وقال: ((ولم أر من يصدق عليه اسم الكاتب غيره؛ لأنه كان ناظماً ناثراً عارفاً بأيام الناس وتراجمهم ومعرفة خطوط الكتاب مع الأدب الكثير والديانة والعلم والرواية)).

ز - من مؤلفاته:

١ - ترك مجموعة كبيرة من الرسائل قال الصفدي: إنها بلغت ثلاثين مجلدة.

٢ - وترك من الشعر ما بلغ ثلاث مجلدات.

٣ - ومما ذكره ابن حجر من كتبه ذيل على كتاب القطب اليونيني في التاريخ.

- ٩ -

جمال الدين بن نباتة
نثره وكتابته

مقدمة:

لم يكن ابن نباتة شاعراً فحسب، بل كان ناثراً بليغاً، فقد كتب في مختلف الفنون النثرية مع العلم أنه لم يكن من كتاب الرسائل الديوانية، وإن تولى بعض مناصب الإنشاء،ومن الفنون النثرية التي كتب بها:

أ - الرسائل الأدبية والإخوانية:

١ - من رسالة في تولي الشباب:

((أي والله تولى الشباب وخمد آب الذهن اللهاب، وخلا الفكر الحائم من صوب والفهم الخارم من صواب، وأقصر من نظمه ونثره من كانت له في الإنشاء نضأة وكانت له في الشعر أسباب، وغض بصر القريحة وتقلص ذيلها، فما يرفع لها ولا يجر أهداب، واختبأ لسان المنشئ والمنشد عجزاً وأغلق له من شفتيه مصراعي الباب)).

٢ - رسالة فكهة في حمام يشكو فيها من سرقة شاشه.

٣ - وكتب للصفدي رسالة مطولة يجيزه فيها بما روى وألف.

٤ - رسالة في الخيل تشبه رسالة شهاب الدين محمود في الخيل.

ب - التواقيع الأدبية:

١ - من تواقيعه في أثناء توليه الكتابة التوقيع بدمشق بمسامحة بعض الأوقاف بدمشق سنة ٧٤٨ هـ يقول: ((الحمد لله الذي أرهف لعزائم الموحدين عزباً، وأطلعهم بهممهم حتى في مطالع الغرب شهياً، وعرف بين قلوب المؤمنين حتى كان البعد قرباً، وكان القلبان قلباً وأيد بولاء هذا البيت الناصري ملوك الأرض وعبيد الحق سلماً وحرباً، وعضد ببقائه كل ملك. إذا نزل البر أنبته يوم الكفاح أسلاً، ويوم السماح عشباً، وإذا ركب البحر لنهب الأعداء وكان

وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً، وإذا بعث هداياه المتنوعة كانت عراباً تصحب عرباً، ورياضاً تسحب سحباً، وإذا وقف أوقاف البر سمعت الآفاق من خط يده قرآناً عجباً، واهتزت بذكره عجباً)).

٢ - ومنها: ((وذو الولاء قريب وإن نأت داره. ودان بالمحبة وإن شط بحره ومزاره، وهو بأخباره النيرة محبوب كالجنة قبل أن ترى، موصوف كوصف المشاهد وإن حالت عن الاكتمال بطلعته أميال السرى. ولما كان السلطان أبو الحسن، سر الله ببقائه الإسلام والمسلمين وسره بما كتب عن اسمه في أصحاب اليمين وما أدراك ما أصحاب اليمين، هو الذي مد اليمين بالسيف والقلم وكتب في أصحابها وسطر الختمات الشريفة، فنصر الله حزبه بما سطر من أحزابها ومد الرماح أرشية فاشتقت من قلوب الأعداء قلباً، والأقلام أدوية فشفت ضعف البصائر وحسبك بالذكر الحكيم طبيباً)).

ج - الوصف:

١ - شارك في الحديث عن وقائع العصر العسكرية، فوصف حصاراً بالنار قال:

((فما كان إلا ريثما ابتسمت له النار عن الموت العابس، وعاملتهم من أعمال وقودها باليابس، وجاءت بما يفضح ملابس الجلود وجلود الملابس. وأصلتهم ناراً بنت بها أيدي الأبراج حمالة الحطب، وإذا بأبدان البدنات القائمة قد قعدت، والأبراج لتلاوة الحرب قد سجدت، فهنالك هجمها المسلمون هجوم الليث الكرار، وقطعت ألسنة السيوف المجادلة حجج رقاب الكفار)).

خاتمة:

ونثره يشبه نثر معاصريه، يكثر فيه من صنعة البديع وخاصة التورية والجناس والطباق والمقابلة، وحسن التعليل، والاقتباس من القرآن ومأثور الكلام شعراً ونثراً، وهو في مستواه العام أقل درجة من شعره، وأقل إشراقاً من كتابة غيره من الكتاب النابهين في هذا الفن ممن مر ذكرهم كالشهاب محمود، ومحيي الدين عبد الظاهر.

- ١٠ -

الشهاب محمود

(٦٤٤ - ٧٢٥ هـ، ١٢٤٧ - ١٣٢٥ م)

أ - حياته ومسيرته:

ولد أبو الثناء، شهاب الدين، محمود بن سليمان بن فهد بن محمود، في شهر شعبان ٦٤٤ بدمشق الفيحاء.

عكف منذ طفولته على طلب العلم، ثم لقي بعدئذ مشاهير علماء عصره، فأخذ عنهم ثقافته الدينية والأدبية. اشتغل بالنحو على ابن مالك وتأدب بالمجد بن الظهير، ولازمه وسلك طريقه وحذا حذوه في الشعر والنثر، فبرع في الأدب وتضلع من الفقه، وفاق أقرانه في عصره، حتى اختير وهو شاب لِيَلِي قضاء الحنابلة، على الرغم من صغر سنه بعد أن أجازه يوسف بن خليل.

ب - شخصيته:

عرف الشهاب محمود بحسن الخلق، فكان هادئ الطبع، وجم التواضع، وعرف بالمقدرة والعلم، فعين لكتابة الإنشاء، وهو في الثلاثين من عمره تقريباً؛ لأنه ((كان من أئمة الكتاب، ورأس البلغاء في عصره، وكانت له معرفة بأيام الناس وتراجمهم ومعرفة بخطوط كتاب الخط المنسوب، وكانت بينه وبين أهل عصره مكاتبات ومراجعات)).

ج - أدبه ومكانته:

وجدير بالذكر هنا أنه أصبح كاتب الدرج في ديوان الإنشاء بدمشق في عهد السلطان المملوكي المنصور قلاوون سنة ٦٧٨ هـ.

ويبدو أن شهرته قد اتسعت حين مدح السلطان المذكور خلال قدومه إلى بلاد الشام وفتحه قلعة المرقب المنيعة التي كانت بيد الصليبيين والتي لم يستطع الأيوبيون تحريرها من قبل.

الله أكـــبر هـــذا النـــصر والظفـــر هـــذا هـــو الفـــتح لا مـــا تـــزعم الـــسير

ويمدح الملك قلاوون ويذكر فتحه طرابلس والقصيدة أولها:

علينـــا لمـــن أولاك نعمتـــه الـــشكر لأنـــك للإســـلام يـــا ســـيفه ذخـــر

أعجب به الصاحب الوزير شمس الدين بن السلعوس، وأحبه كثيراً فنقله إلى مصر عقب موت محيي الدين بن عبد الظاهر، فكتب بها في ديـوان الإنـشاء فتقـدم ببلاغتـه وبـديع كفايـة وإنشائه وأصبح أثيراً لدى السلطان المنصور لاجين.

فنظم في الحال بيتين:

ثيـــاب مملوكـــك يـــا ســـيدي قـــد بيـــضت حـــالي بتـــسويدها

مـــا وقـــع الحـــبر عليهـــا بـــلى وقـــع لي منـــك بتجديـــدها

فأمر له المنصور بتفصيلتين وخمسمئة درهم، فقال (يا خوند مماليكك الجماعة رفـاقي يبقـى ذلك في قلوبهم) فأمر لكل منهم بمثل ذلك وصارت راتباً لهم كل سنة)).

وهكذا ارتفعت منزلته كثيراً حتى أصبح صاحب ديـوان الإنـشاء عنـد الـسلطان بيـبرس البندقداري سنة ٧٠٨ هـ، بقي مستمراً في منصبه حتى وفاة شرف الدين بن فـضل الله، فأعيـد إلى دمشق سنة ٧١٧ هـ وولي مكانه نظر ديوان الإنشاء وكتابة الـسر فيهـا. تـرجم لـه الـشاعر جمال الدين بن نباتة المصري في كتابه (سجع المطوق) ووصف مكانته في الشام ومصر.

د - أخلاقه:

لم يغتر الشهاب بما بلغه من منزلة سامية ومكانة مرموقة في دواوين الإنـشاء قرابـة خمـسين عاماً، وإنما كان دمث الخلق مستقيماً في عمله، أحسن معاملة الناس جميعاً، فأحبوه واحترمـوه، كما كان محباً لأهل الخير ومواظباً على التلاوة والنوافل، فلا عجب أن رأينا تنكز نائب السلطنة بدمشق يحترمه ويجله، شأنه في ذلك شأن من سبقه، فلم يعرف عنه أنه عُزل أو طُرد مـن عملـه طوال حياته المديدة، ولكن شأنه شأن كل ذي نعمة أن يكون محسوداً على ما حباه الله من منزلة تطمح إليها الأبصار، وقد توضح لنا ذلك في كتابه لعلاء الدين بن غانم حيث بلغـه أن جماعـة في الديوان كانوا يذمونه، وهو حاضر لا يرد غيبته. أقام بعد عودته من مـصر في منـصبه ثمانيـة

أعوام إلى أن توفي ليلة السبت الثاني والعشرين من شعبان سنة ٧٢٥ هـ في منزله ودفن في تربته التي أنشأها في سفح قاسيون بالقرب من اليغمورية.

هـ - آثاره الأدبية:

كان شيخ صناعة الإنشاء في عصره، ونثره كثير جداً يبلغ أضعاف نظمه، وذكروا أن له (تصانيف تملأ الأذهان فهماً، وتسع فنون الآداب علماً، ومواقع أقلام تخرس الأفواه والأفواه توسعها رشفاً ولثماً). من تصانيفه أيضاً:

١ - (منازل الأحباب ومنازه الألباب) وهي في الهوى العذري، وما زال مخطوطاً.

٢ - وله أيضاً كتاب (ذيل على الكامل لابن الأثير) وهو مخطوط.

٣ - و(الذيل على ذيل القطب اليونيني) وهو مفقود.

٤ - تقاليده الرسمية.

٥ - وتواقيعه الكثيرة.

٦ - ورسائله الإخوانية التي كان يشنها، وقد أشار الصفدي أنها تدخل في ثلاثين مجلدة، جمع منها بعض الفضلاء الراغبين مجلدين.

٧ - أما قصائده فكثيرة تدخل في ثلاث مجلدات، ولم تجمع في ديوان شعر مستقل، وأما المقاطيع فقليلة.

٨ - المدح النبوية: جمعها في ديوان خاص سماه (أهنا المنائح في أسنى المدائح)، وعدد أبياته ألفا بيت وثلاثمئة وخمسة وستون بيتاً، وقد سمعه أستاذه يوسف بن خليل من لفظه، وذكر الذهبي أنه لم يخلف في معناه مثله.

٩ - (حسن التوسل إلى صناعة الترسل).

و - أشهر تصانيفه:

(حسن التوسل إلى صناعة الترسل).

استهل الشهاب محمود مقدمة الكتاب المذكور بالتحدث عن مكانته في كتابة الإنشاء، وذكر العوامل الشخصية التي حدث به إلى تأليف الكتاب المذكور. تحدث بعد ذلك أمور

كلية لابد للترشيح لهذه الصناعة من التصدي لها والاطلاع عليها، وعن أمور خاصة في علوم المعاني والبيان والبديع، ثم ختمها بذكر بعض ما يتصل بخصائص الكتابة كالاقتباس والاستشهاد والحل، وشفعها بمجموعة قيمة من رسائله، اختارها مما أنشأه بحكم عمله الرسمي أو مما أنشأه (رياضة للخاطر لصعوبة مسلكه) وهي تبرز لنا مختلف فنون نثره.

ز - نثره ومذهبه:

١ - فنون النثر:

أ - أجمع معاصرو الشهاب محمود على أنه كان رأس البلغاء في عصره وشيخ صناعة الإنشاء دون منازع، وذكروا أنه أربى على كثير من تقدمه، وأصبح المنظور إليه في البلاد الشامية والمصرية على السواء، وقد بقي في ديوان الإنشاء بدمشق والقاهرة قرابة نصف قرن من الزمن؛ لأن له في نثره خصائص ليست لغيره.

ب - أشار الشاعر جمال الدين بن نباتة المصري إلى هذه المنزلة الكبيرة التي عرف الشهاب في الأوساط الثقافية والسياسية في كتابه (سجع المطوق) الذي ترجم فيه الشاعر لكل من زكى كتابه (مطلع الفرائد ومجمع الفوائد).

٢ - كتب الحروب:

أ - أشار الشهاب محمود إلى الكتب التي كان ينشئها في أوقات الحروب إلى نواب الملك عنه، والى مقدمي الجيوش والسرايا، وذكر أنها تتميز بالإيجاز والألفاظ البليغة.

ب - وأشار إلى الكتب التي كان ينشئها في أوقات الحروب إلى نواب الملك، يعلمهم بالحركة للقاء عدوهم، وقد ذكر أنها تتميز بالبسط في القول في وصف العزائم: ((أصدرناها ومنادي النفير قد أعلن بـ (يا خيل الله اركبي)، و(يا ملائكة الرحمن اصحبي)، و(يا وفود التأييد والظفر اقربي)، و(العزائم قد ركضت على سوابق الرعب إلى العدا)، و (الهمم قد نهضت إلى عدو الإسلام) فـ (لو كان في مطلع الشمس لاستقربت ما بينها وبينه من المدى).

٣ - كتب التهاني والفتوح:

أ - يشترط فيها الشهاب محمود أن يبسط الكلام في مضمونها، فتتصف بالإطناب في الأوصاف، وخاصة إن كان المكتوب إليه ملكاً صاحب مملكة.

ب – فمن ذلك رسالة كتبها في جواب ابن الأحمر، صاحب حمراء غرناطة من الأندلس: ((أما بعد حمد الله... فإننا أصدرناها، ونعم الله بنا مطيفة، ومواقع نصره عندنا لطيفة، ونبدي لعلمه الكريم ورود كتابه الجليل مسفراً عن لوامع صفائه مبيناً بجوامع وده ووفائه، مشرقاً بلآلئ فرائده، محدقاً بروض كرمه الذي سعد رأى رائده، بما بلغه من أنباء النصرة التي سارت بها إليه سرعان الركبان، وذلت بعز ما تلي عليه منها عباد الصلبان، وطبق ذكرها المشارق والمغارب، ومزقت أعداء الله التتار، وهم في رأي العين أعداد الكوكب، وخلطت التربة بدمائهم حتى لم يبح بها التيم)).

نلاحظ أهمية هذا النص، إذ إنه يوضح لنا بجلاء علاقة المشرق بالمغرب وموقف الأخير من الأحداث الكبرى الطارئة في فترة اكتنفتها الحروب في الشرق والغرب على حد سواء، كما يوضح لنا تصميم المسلمين على دحر التتار وإرجاع الخلافة العباسية إلى بغداد بعد أن تقوضت أركانها.

٤ - كتب التقاليد والتواقيع والمناشير

تحدث الشهاب محمود عن هذا النوع من الإنشاء في عصره، وأشار إلى كثرة ما أنشأه منها، فقال: ((وفي أيدي الناس مما كتبت فيه شيء كثير)).

١ – فمن تقليد كتبه لصاحب سيس بإقرار على ما قاطع النهر من بلاده قوله في خطبة التقليد: ((الحمد لله الذي خص أيامنا الزاهرة باصطناع ملوك الملل، وفضل دولتنا القاهرة بإجابة من سأل بعض ما أحرزته لها البيض والأسل، وجعل من خصائص ملكنا إطلاق الممالك وإعطاء الدول. وبعد، فإنه لما أتانا الله ملك البسيطة، وجعل دعوتنا بأعنة ممالك الأقطار محيطة، ومكَّن لنا في الأرض، وأنهضنا من الجهاد في سبيله بالسنة والفرض، وجعل كل يوم تعرض فيه جيوشنا من أمثلة يوم العرض، وأظلتنا بوادر الفتوح وأظلت على الأعداء سيوفنا التي هي على من كفر بالله وكفر بالنعمة دعوة نوح، وأيدنا بالملائكة والروح، على من جعل الواحد سبحانه ثلاثة، فانتصر بالأب والابن والروح)).

وتطالعنا هذه الرسالة ببعض المعاني الدينية التي كانت معروفة في أدب هذا العصر، وقد حاول الكاتب أن يبرز لنا من خلالها صورة جمعت بعض المعاني الإسلامية والنصرانية.

ح - الطرديات:

يرى الشهاب محمود أن الكاتب يكون مقيداً في نثره الرسمي بقيود يجب أن يرعاها ويطبقها في إنشائه، غير أنه حينما يتحدث عن الطرديات من ذكر أوصاف الخيل والجوارح والسلاح وآلات الحرب وأنواع الرياضات من لعب الكرة والصيد ورمي البندق، كان يشير إلى أن الكاتب مطلق العنان ليبز مهارته وبراعته بالأسلوب الذي يشاء. وقد أورد في طردياته:

رسالة البندق، وهي تشتمل على أنواع من الأوصاف وفنون النظم والنثر، يستعين بها الكاتب على ما شاء من إنشاء قدمه في أي نوع أراد من الطير الواجب ومنها قوله: ((فبرزنا وشمس الأصيل تجود بنفسها، وتشير من الأفق الغربي إلى جانب رمسها وتغازل عين النور بمقلة أرمد، وتنظر إلى صفحات الورد نظر المريض إلى وجوه العود، فكأنما كئيب أضحى من الفراق على فرق، أو عليل يقضي بين صحبه بقايا عمر بالرمق، وقد أخضلت عين الورد لوداعها، وهمَّ الروض بخلع حليته المموهة بذهب شعاعها)).

ط - الإخوانيات

انتشرت الإخوانيات في هذا العصر شعراً ونثراً، وقد عدها الشهاب محمود من الكتب التي يكون الكاتب فيها مطلق العنان، مخلى بينه وبين قوته وضعفه.

أورد من إخوانياته صورة كتاب إلى إنسان يتضمن مخاطبته تزويج أمة.

((يقبل الأرض ابتداء بالخدمة من حين ظهر إلى الوجود، وشوقاً إلى امتطاء صهوات الجياد بين يدي سيده قبل المهود، وتمنينا أن يكون أول شيء يقطع عليه نظره من الدنيا وجه مولانا الذي تعلو بنظرة الجدود، ويتيمن برؤية كواكب السعود، وينهي أنه تعجل الشوق على صغره، وكان كمال المسرة به أن يقع نظر مولانا الشريف عليه قبل البشرى بخبره لتلقى سعادة مولانا في ساعة ظهوره، ويكسي قبل أن تلقى عليه الملابس من إشراق محياه الكريم حلل نوره، ويكون أول ما يلج مسامعه صوت مولانا يحمد ربه على الزيادة في خدمه، وتكثير من يضرب بين يديه في الحرب بسيفه، ويقف في السلم أمامه على قدمه، فإن من يكون نجل مولانا تنطق بالنجابة مخايله، وتدل على الشجاعة سماته قبل أن تدل عليه شمائله، والهلال سيصير في أفلقه بدراً منيراً، والشبل سيعود كأبيه أسداً هصوراً، والله تعالى يهب العبد عمراً، ويبلغ من طاعة مولانا ما يجب عليه، ويرزقه عملاً صالحاً يتقرب به إلى ربه، وإليه بمنه وكرمه)).

ي - مذهبه الفني

أوردنا في باب الشعر قصائد الشهاب محمود في وصف الحروب التترية، وقد رأينا أنه كان شاعراً مجيداً، شأنه في ذلك شأن العماد الكاتب، إذ جمع الصناعتين، فكان شاعر المعارك التترية، بينما كان العماد شاعر المعارك الصلاحية فقد كان شيخ الكتاب وإمام البلغاء في عصره بالشام ومصر، وقد قال عنه معاصروه: ((أنه لم يكن بعد القاضي الفاضل مثله))، وذكروا عنه أنه كان يقيم في دار القاضي الفاضل نفسه بدمشق قرب باب الناطفيين. جرى الشهاب محمود في إنشائه على سنة من سبقه من الكتاب على رأسهم العماد الكاتب وابن الأثير الكاتب، فاستخدم الأسلوب المسجع وضمنه دون تكلف وتصنع ما راقه من الزخارف البديعية والصور البيانية، أما السجع فقد لاحظنا أنه كان يستخدمه في أسلوبه خلال رسائله وكتبه الرسمية والذاتية، كما رأينا منه شواهد مختارة، أنه كان كابن الأثير من قبله، كان يحاول أن يتحرر من قيود السجع في بعض تصانيفه، وقد لاحظنا ذلك في كتابه (حسن التوسل) ما عدا خطبة الكتاب فقد جاءت كالعادة مسجعة، أما الفنون البلاغية، فقد نعتها بالأمور الخاصة؛ لأنها ((من المكملات لهذا الفن، وإن لم يضطر إليها ذو الذهن الثاقب، والطبع السليم، والقريحة المطاوعة، والفكرة المنقحة والبديهة المجيبة، والروية المتصرفة، وهو يرى أن الأديب والكاتب العاريين من هذه الفنون قاصران عن أدنى رتب الكمال؛ لأنهما يجيدان ولا يدريان.

ك - موقفه من الإبداع:

أشار الشهاب محمود في الأمور الخاصة إلى (الإبداع): ((وهو أن يأتي في البيت الواحد من الشعر أو القرينة الواحدة من النثر عدة ضروب من البديع بحسب عدد كلماته أو جمله، وربما كان في الكلمة الواحدة المفردة ضربان من البديع ومتى لم تكن كل كلمة بهذه المثابة فليس بإبداع)).

- ١١ -

ابن عطاء الله السكندري
الحكيم الصوفي العابد

أ - كتب ابن عطاء الله السكندري مجموعة من الحكم الإلهية ومن هذه الحكم تبتلات لله تعالى، وهي في جملتها مجموعة من الفقرات القصار مختلفة الأغراض والمعاني تتجه بالخطاب إلى المريد يخاطبه المؤلف فيها خطاب المفرد وتزدان أحياناً بالسجع المتواتر، أما المعاني فهي صوفية يميل صاحبها إلى التجريد أحياناً كقوله:

((من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل وكقوله: تنوعت الأعمال لتنوع واردات الأحوال)).

ب - وتارة يميل في أسلوبه من التجريد إلى التجسيد والتصوير بالتشبيه كقوله: (ادفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه).

ج - وتارة يقف عند المعنى فيديره في صور متشابهة من اللفظ لا تختلف إلا فيما تقره القافية. كقوله:

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء؟

د - وتجد بصورة عامة أن حكم ابن عطاء الله أقوال مأثورة لا يربط بينها رباط معنوي متسلسل يحكم فقراتها نظمت على فقرات في أوقات مختلفة، ثم ضم بعضها إلى بعض، وجاء في أقوال من ترجموا لحياته أن أنصاره ومريديه جمعوا كلاماً كثيراً وكانت هذه الحكم من بين ما

جمع ونلاحظ في الحكم المطبوعة تكرر المعنى الواحد في صور مختلفة من التعبير مثل قوله: (إن إرادتك في التجرد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية) وقوله:(ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه) وقوله:(لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج) وقوله: (أرح نفسك من التدبير فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك) والمعنى العام لهذه العبارات جميعاً هو أن المريد ينبغي أن يقف حيث أقامه الله دونما ضجر من نقص أو طمع في زيادة، فهو في هذه المجموعة من الحكم يدعو – على اختلاف التعبير – إلى احترام واقع الإنسان، ذلك أنه لا يرى عملاً أفضل من عمل ما دامت كل الأعمال بإرادة الله ومشيئته.

ففي رأيه أن الاهتمام بالعمران والمعاش لا يتعارض مع أدب المريد، وإنما ينبغي أن يقف المريد حيث أراده الله وأن يتجرد من الأعمال الدنيوية حتى لا يخرب العالم.

ولكن الرضا عن الحال والعمل غير الرضا عن النفس فلك أن ترضى عن حالك التي أقامك عليها في الحياة أما النفس فإن الرضا عنها أصل كل معصية وغفلة وشهوة.

هـ – ويعرض ابن عطاء الله بين ما يعرض له في حكمه لأدب الصداقة والصحبة بين الصوفية وينصح المريدين بعدم السعي للشهرة؛ لأن الشهرة تميت القلب وتقطع أسبابه بالله فيقول: (ادفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه).

(إنما يستوحش العباد الزهاد من كل شيء لغيبتهم عن الله في كل شيء، ولو شهدوه في كل شيء لم يستوحشوا من كل شيء) وكقوله: (علم منك أنك لا تصبر عنه فأشهدك ما برز منه) (الأكوان ثابتة بثباته وممحوة بأحدية ذاته).

و – ونلاحظ في أسلوبه كما في معانيه خلطاً بين عبارات الصوفية وطريقتهم في التعبير وميلهم للرمز والغموض واستخدامه مصطلحهم وبين أساليب الأدباء من ميل إلى الجزالة والإيجاز واستخدام بعض حلي اللفظ والمعنى.

ز – ومن حكمه مجموعة استغاثات هي أقرب إلى أسلوب الابتهالات التي نظمها أبو حيان التوحيدي في الإشارات الإلهية في مجموعة من السجع القصير الفقرات وتأثر فيها

بطريقة شيخه أبي الحسن الشاذلي في حزب البر فأنت فيها أمام رجل بليغ لا يكتفي بزخرف اللفظ، وإنما يفتن افتناناً شائقاً في زخرف المعاني مع تكلف أو افتعال، ومن تلك الاستغاثات قوله: (إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري. إلهي أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي وكقوله: (إلهي إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك ولك المنة علي وإن ظهرت المساوئ فبعدلك ولك الحجة علي) وقوله: (ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك أم كيف أشكو إليك حالي وهي لا تخفى عليك وأم كيف أترجم لك بمقالي وهو منك برز إليك، أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك أم كيف لا تحسن أحوالي بك قامت وإليك) و(كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك متى غبت حتى نحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك).

ح - فهو يستدل بالله على الموجودات؛ لأنه أصل كل شيء، وعبَّر عن هذا المعنى أكثر من مرة في الحكم ويكاد يكون من عقائده الرئيسة، ومع ذلك فهو لا ينكر تماماً أن تكون الآثار شواهد على الله تعالى فيقول: (إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فأرجعني إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها مصون السر عن النظر إليها ومرفوع الهمة عن الاعتقاد عليها إنك على كل شيء قدير).

ويقول: (إلهي منك أطلب الوصول إليك وبك أستدل عليك فاهدني بنورك إليك وأقمني بصدق العبودية بين يديك).

وكتب لحكم ابن عطاء الله أن تسير وتشتهر بين الناس فجرت عباراتها على ألسنتهم وتواترت في دعواتهم وابتهالاتهم من مثل قوله وقد جرى على كل لسان في دعواتهم وصلواتهم: (إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك وهذا حالي لا يخفى عليك).

وقوله: (بك أستنصر فانصرني وإليك أتوكل فلا تكلني وإياك أسأل فلا تخيبني وفي فضلك أرغب فلا تحرمني ولجنابك أنتسب فلا تبعدني وببابك أقف فلا تطردني).

وتنوع أدب الصوفية النثري في هذا العصر بين تأملات فلسفية وسبحات صوفية ومواعظ ومواجد ورواتب للسالكين وأدعية واستغاثات وقصص وعبر.

- ١٢ -

ابن غانم المقدسي

(٠٠٠ - ٦٧٨ هـ، - ٠٠٠ - ١٢٨٠ م)

أ - حياته وآثاره:

عز الدين عبد السلام بن أحمد بن غانم بن علي بن عساكر بن حسن الأنصاري المقدسي. اشتهر أمره بالوعظ، وطبق في الآفاق ذكره، وهو ينزع في أدبه إلى مدرسة وعظية شعبية ظهرت في هذا العصر، ونسجت على منوال ابن الجوزي وأمثاله من الوعاظ المتقدمين. ولقي قبولاً كثيراً عند عامة الناس، وكان يحضر وعظه في المجلس الذي عقده مرة تجاه الكعبة كثير من الناس بالإضافة إلى الصفوة المختارة من العلماء الكبار أمثال تقي الدين بن دقيق العيد وتاج الدين الفزاوي وابن العجيلي وغيرهم. وتوفي هذا الواعظ الكبير في القاهرة سنة(٦٧٨ هـ) - (١٢٨٠ م). نظم الشعر، ولكن نثره الوعظي كان أشهر من نظمه، كما خلف لنا بعض الآثار في التصوف وغيره.

ب - آثاره الأدبية:

صنف هذا الواعظ آثاراً متعددة، وقد عرفنا منها ما يلي:

١ - حل الرموز: وهو كتاب في التصوف.

٢ - الروض الأنيق: وهو كتاب في المواعظ.

٣ - كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار.

٤ - تفليس إبليس، وهو كتاب محاورات ومناظرات مع الشيطان.

الباب العشرون

القاضي الفاضل

نص أدبي

الجولة الأخيرة

لما تم تحرير القدس من الفرنجة عام ٥٨٣ هـ، ودخلها الجيش العربي باحتفال مهيب، كتب القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة العباسي الناصر ببغداد يبشره، ويصف له المعركة الأخيرة التي دارت رحاها حول الأسوار:

((.. ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليها كل شريد منهم وطريد، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد، ظنوا أنها من الله مانعتهم، وأن كنيستها إلى الله شافعتهم، فلما نازلهم الخادم رأى بلداً كبلاد وجمعاً كيوم التناد، وعزائم قد تآلفت وتألبت على الموت، فزاول البلد من جانب فإذا أودية عميقة ولجج وعرة غريقة، فعدل إلى جهة أخرى كان للمطامع عليها معرج وللخيل فيها متولج.

فنزل عليها وأحاط بها، وقرب منها وضربت خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه، ويزاحمه السور بأكتافه، قابلها ثم قاتلها، ونزلها ثم نازلها وبرز إليها، ثم بارزها وحاجزها ثم ناجزها، فضمها ضمة ارتقب بعدها الفتح وصدع أهلها فإذا هم لا يصبرون على عبودية الجد من عتق الصفح، فراسلوه ببذل قطيعة إلى مدة وقصدوا نظرة من شدة، وانتظاراً لنجدة، فعرفهم في لحن القول، وأجابهم بلسان الطول، فشّج مرادع أبراجها، وأسمع صوت عجيجها، ورفع مثار عجاجها، وتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله، وأظهر من صناعته الكثيفة ما يدل على لطافة أنمله، وأسمع الصخرة الشريفة أنينه حتى كادت ترثي لمقتله)).

الباب الحادي والعشرون

النقد في عصر الانحدار

- أولاً -

النقد الأدبي

عند صلاح الدين الصفدي

صلاح الدين الصفدي أديب وشاعر وناقد يعرف معنى الكلمة وُبعدها النفسي والأدبي، وقد جاء نقده منسجماً مع أدبه ورؤيته للأدب.

أ - نقده الأدبي للشعر والنثر:

لا نعدم لدى صلاح الدين الصفدي ذوقاً أدبياً في النقد يعكس إحساسه بالجمال والحياة والأدب من خلال الفطنة لمعايير النظم الجيد، وقد كتب الناقد صلاح الدين الصفدي في النقد النظري والعملي، فكان يستخدم التطبيق في نقده على الشعراء ونصوصهم، وقد انقسم نقده إلى قسمين:

أولاً - النقد النظري:

١ - رأيه في التشبيه:

وقال في التشبيه بالهلال: ((وقد جمع بعض الأفاضل في وصف الهلال ما يقارب السبعين وأنا أذكر الآن هنا ما يمكن من تشبيهه، ولم أذكر الشاهد عليه خوفاً من الإطالة، فأقول المقدم على ذلك كله تشبيه القرآن العظيم – له – بالعرجون. وشبه بحاجب النوبي الشائب وبقلامة الظفر وبضلع ملقاة في فلاة، وبالصدع في الزجاجة، وبالزورق، وبحرف النون، وبشفرة السكين، وبالسرج وبطوق العروس وبناب من الفيل، وبالخلخال والسوار وبالدملج وبوقف من عاج، وبالقوس وبمليحة انتقبت، وبأثر الظفر في تفاحة، وبزنابي عقرب من فضة، وبمقبض سرطان من ذهب وبراكع منحن وبخشكنانة، وبعين المليحة، وبقراصة دينار وبالفخ والمنجل وبطرف الصدغ، وبالمكرك وبشفة الكأس، وبوجه مسافر رفع العمامة عن جبينه، وبجانب مرآة انكشف عنها الغلاف، وبإكليل ملك وبأثر الحافر وبنعل الحافر وبالعذار الشائب، وبالسنان المنعطف، وبعطفة اللام وبصولجان وبطيلسان مقور، وبنصف زردة، ولقد ذكرت الشواهد على هذه التشبيهات في مقتضب لي سميته (التنبيه على التشبيه)).

ويعلق على التشبيه المعنوي الذي أورده أبو العلاء المعري في بعض شعره فيقول: ((وقد استعمله أبو العلاء المعري. وهو الأديب أيضاً فقال:

خبريني ماذا كرهت من الشيب فلا علم لي بذنب المشيب

أضياء النهار أم وضح اللؤلؤ أم كونه كثغر الحبيب

واذكري لي فضل الشباب وما يجمع من منظر يروق وطيب

غدره بالخليل أم حبه للعشي أم أنه كدهر الأديب

وهذا هو التشبيه المعقول بالمحسوس، وهو أعلى مراتب التشبيه طبقة؛ لأنه ينشأ عن لطف ذوق وسلامة فطرة وصحة تخيل فهو صعب على من يرومه متقاعس عمن جذب زمامه؛ لأن العلوم العقلية تستفاد من الحواس في المقادير والألوان والطعوم والرائحة وطيب النغم ونعومة الملمس وخشونته، ولهذا قالوا: من فقد حاسة فقد طعماً، وإذا كان كذلك فالمحسوس أصل والمعقول فرع، وتشبيه المعقول بالمحسوس من باب رد الفرع أصلاً والأصل فرعاً.

٢ - ويعلق على الكناية في قول الطغرائي:

تؤوم ناشئة بالجزع قد سقيت نصالها بمياه الغنج والكحل

قال الصفدي: ((وفي بيت الطغرائي من أنواع البديع الكناية وهي أبلغ من التصريح وأوقع في النفوس، ألا ترى أن قولك (بعيدة مهوى القرط) أبلغ من قولك: طويلة العنق، وقول امرئ القيس:

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

أبلغ من قوله منعمة ذات خدم وجوار يخدمونها، فهي تنام الضحى ولم تشد وسطها بنطاق الخدمة، وامرؤ القيس أبدع الناس في الكتابة؛ لأن الناس كانوا يقولون أسيلة الخد حتى جاء هو فقال أسيلة مجرى الدمع، وكانوا يقولون طويلة القامة ونامة العنق حتى قال: بعيدة مهوى القرط وكانوا يقولون في الفرس السابق: يلحق الظليم والغزال، وما أشبه ذلك حتى قال: قيد الأوابد. وقد لا يهتم الصفدي في نقد النصوص بالإشارة إلى ما جاء فيها من البديع وتحليله وبيان جماله، بل يبدي إعجابه بالنص في ألفاظ تعبِّر عن هذا الإعجاب ليس لها دلالة محددة سوى أنها تعبير عن نشوته وتأثره بوقع النص، قال: قال ابن الوكيل:

ما الكأس عندي بأطراف الأنامل بل بالخمس تقبض لو يحلو لها الطرب
شججت بالماء منها الرأس موضحة فحين أعلقها بالخمس لا عجب

لا يخفى ما في هذا الثاني من المحاسن التي تقف الأفهام دون غايتها، وتؤمن الأسماع بآيتها وتمتد كف الثريا إلى رفع رايتها، ولولا خوف الإطالة لأعطيت هذا المقام ما يستحقه ونبهت على ما تضمنه من أنواع البديع الذي يمتلك القلب الغليظ ويسترقه، وإن كان قد أخذه من قول عكاشة العمي في أصل المعنى:

حمراء مثل دم الغزال وتارة بعد المزاج تخالها جريالا
وإذا المزاج علا فشج جبينها نفشت بألسنة المزاج حباب

ولكنه أخذه ذهباً فجعله يتوقد لهباً، وتناله قبساً فأطلعه من أفق البلاغة شهباً وزاده من الفقه رقصت بها الأعطاف طرباً: وهزت الرؤوس عجباً، ومن تأمله وجد التورية قد مدت فيه على المجرة طنباً وأخذت محاسن النيرين سلباً)).

وعلق على قول ابن خفاجة:

لقد جبت دون الحي كل تنوفة يحوم بها نسر السماء على وكر
وخضت ظلام الليل يسود فحمه ودست عرين الليث ينظر عن جمر
وجئت ديار الحي والليل مطرف منمنم ثوب الأفق بالأنجم الزهر
أشيم بها برق الحديد وربما عثرت بأطراف المثقفة السمر
ولا شمت إلا غرة فوق أشقر فقلت حباب يستدير على خمر
فسرت وقلب البرق يخفق غيرة هناك وعين النجم تنظر عن شزر

قلت: وهذا هو النظم الذي تخجل منه درر العقود، ويستحيي من طرسه رقم البرود، وقد جمع الانسجام والجزالة، وأضاف إلى الاستعارة حسن التخييل، فقلت: هذا البدر ضمن هالة وأبرز في صورة تفرق منه الضراغم، وتتوج على من تلبس بتلك الحالة، ساجعات الحمائم، فإذا حاول محاكاتها ناظم وجدها كالحرير ملبساً، وأين الثريا من يد المتناول.

وقوله أيضاً:

وليـــل طرقـــت المالكيـــة تحتـــه أجـــد عـــلى حكـــم الـــشباب مـــزارا
فخالطـــت أطـــراف الأســـنة أنجـــما ودســـت لهـــالات البـــدور ديـــارا

ثانياً - النقد العملي:

١ - نقده لجرير:

وقد نقل لنا السبكي مثالاً من نقده وتذوقه للنصوص قال:

قال جرير:

طرقتـــك صـــائدة القلـــوب ولـــيس ذا وقـــت الزيـــارة فـــارجعي بـــسلام

فعيب عليه قوله ((فارجعي)) وهو نقد حسن فإنه ليس هناك لفظة أبشع من قول المحب لمن يحبه: ارجع.

ورأيت الشيخ صلاح الدين الصفدي نفع الله به، قد قال راداً عليه:

يـــا خجلـــة لجريـــر مـــن قـــول كفانـــا الله عـــاره
طرقتـــك صـــائدة القلـــوب ولـــيس ذا وقـــت الزيـــارة
هـــل كـــان يلقـــى إن أتـــاه خيـــال صـــاحبه خـــسارة ؟

فعجبت له كيف ترك لفظة ارجعي وهو أبشع ما عيب به جرير ؟. وقلت:

أمـــا جريـــر فجـــر ثـــوب العـــار في دعـــوى الـــصبابة وازديـــاد غـــرام
إذ كـــذب الـــدعوى وقـــال لهـــا وقـــد زارتـــه في الغلـــس ارجعـــي بـــسلام

ثم قلت: لعل الشيخ صلاح الدين إنما ترك لفظة الرجوع لنكارتها وقلت:

إني لأعيـــب مـــن جريـــر وقولـــه قـــولاً عـــدوت بـــه لأنكـــر حالـــه
طرقتـــك صـــائدة القلـــوب ولـــيس ذا وقـــت الزيـــارة فاســـتمع أقوالـــه
فاعـــذر فلـــست بقـــادر والله أن أحكـــى الـــذي بعـــد الزيـــارة قالـــه

فلما وقف الشيخ صلاح الدين على كلامي هذا كله زعم أني أعترف له بحسن النقد وقال:

أمـــا جريـــر فلـــم يكـــن صـــباً ولكـــن يـــدعي
أولم تجئـــه صـــا ئـــدة القلـــوب فلـــم يـــع
بـــل قـــال جهـــلاً لـــيس ذا وقـــت الزيـــارة فـــارجعي
لـــو كنـــت حـــاضر أمـــره قلـــت ارجعـــي ولـــه اصـــفعي

٢ - نقده للطغرائي:

ومن الأمثلة الأخرى لنقدة لألفاظ الشعر قوله في بيت الطغرائي:

فـــيم الإقامـــة بـــالزوراء لا ســـكني بهـــا ولا نـــاقتي فيهـــا ولا جمـــلي

انظر إلى قلق المثل في بيت الطغرائي؛ لأنه عطف الناقة والجمل على السكن، ولو عطف ما يناسب على ذلك من أهل وولد لكان أحسن وأوقع في النفس.

وانظر إلى وروده في أبيات الشهاب محمود فإنه جاء في مكانه منسجم التركيب ثابتاً في معناه حتى كأنه ما برز إلى الوجود إلا في هذا المكان ولا ظهر إلا في هذا القالب، ولست أنكر أن الناس ضمنوه كثيراً في أغراض مختلفة طلباً للتبري مما ينتفي الإنسان عنه، ولكن كلما كان الكلام أكثر ارتباطاً وتعلقاً في أجزائه كان أحسن، ألا ترى إلى قول شمس الدين محمد بن العفيف التلمساني:

وعيـــون أمرضـــن جـــسمي وأضرمـــ ـــن بقلبـــي لـــواعج البلبـــال
وخـــدود مثـــل الريـــاض زواه مـــا لأيـــام حـــسنها مـــن زوال
لم أكـــن مـــن جناتهـــا علـــم الله وإني لجمرهـــا اليـــوم صـــالي

ما أحلاه وما أرشقه وكيف خدمته لفظة جناتها. فصارت من الجنى لا من الجناية.

٣ - نقده لعيسى الناسخ:

ومن نقده للألفاظ تعليقه على قول عيسى الناسخ:

شـــكوت إلى ذاك الجـــمال صـــبابة تكلـــف جفنـــي أنـــه قـــط لا يغفـــو
فلانـــت لي الأعطـــاف والخـــصر رق لي ولكـــن تجـــافى الـــشعر واثّاقـــل الـــردف

قال الصفدي: لا أعرف يغفو - بالواو - إنما هو: غفا يغفي، وإن كان فهو لغة رديئة غير فصيحة؛ لأن غفا يغفو لم يرد في كلام فصيح، والله أعلم.

٤ - نقده لعبد الرحمن بن بابك:

ومنه قوله ناقداً بيتي عبد الرحمن بن بابك:

ألـــوح وأخفـــي والعيـــون رواصـــد وشـمس الـضحى تنـأى منـا ولا تقـرب

فيـــضمرني جـــو مـــن الأرض غـــابر ويطلعنـي حقـف مـن الرمـل أجـدب

قلت: هذا نقلته من خط ابن خروف النحوي. ولـو قـال بـدل ((جـو)) ((وهـد)) لكـان أحسن؛ لأن الجو لا يقابل الحقف. وإنما يقابله ((وهد)) ولو قال بدل الأرض والرمل الـسهل والحزن لكان أبدع. فإنه لا تضاد بين الأرض والرمل.

ومن تلك الأمثلة تتضح نظرة الصفدي إلى الشعر باعتباره صـوراً مـن الزخـرف اللفظـي والمعنوي. ومما يتصل بنقده للألفاظ النظر في تمكن القافية، ووقوعها موقعها دون قلق. يقول: ((والقافية المتمكنة هي التي يبنى البيت من أوله إلى آخره عليها، فإذا ختم البيت بهـا نزلـت في مكانها ثابتة فيه متمكنة في محلها، وقد رسخت في قرارها ودفعت إلى مركزها، فهي لا تتزحزح ولا تتغير منه، غريبة من تركيبه، عارية عن الالتحاف بها والالتحـاف بحـسبه، ومتـى غـيرت القافية المتمكنة بغيرها جاءت نافرة عن الطباع في غاية الركاكة)).

٥ - نقده لابن الرومي:

ويمثل لقلق القوافي بأبيات لابن الرومي:

لمـــا تـــؤذن الـــدنيا بـــه مـــن صروفهـــا يكـــون بكـــاء الطفـــل ســـاعة يولـــد

وإلا فـــــما يبكيـــــه منهـــــا وإنهـــــا لأفـــسح ممـــا كـــان فيـــه وأرغـــد

إذا أبـــصر الـــدنيا اســـتهل كأنـــه بـــما ســـوف يلقـــى مـــن أذاهـــا يهـــدد

قال الصفدي: ((وأنت ترى قافية ابن الرومي الدالية كيـف أن لفظـة (أرغـد) فيهـا قلـق، وكيف أن " أوسع " أحسن منها. وكيـف أن لفظـة " يهـدد " أليـق، وهـذا أمـر يـشهد بـه الذوق). ويكشف عن ذوقـه الأدبي مـا علـق بـه عـلى فنـون التعبـير البديعيـة كالاسـتعارات

والتشبيهات ويهتم منها بصفة عامة بتقارب الصورة وتناسبها ودلالتها المعنوية والشعورية، لكنه لا يغفل عن التنبه إلى اللفظ وتمكنه في السياق أو نفوره وقلقه.

٦ - ومنه تعليقه على قول الطغرائي:

خبروهـــا أني مرضـــت فأضـــ ـــنى طارفـــاً شـــكا أم تليـــدا
وأشـــاروا بـــأن تعـــود وســـادي فأبـــت وهـــي تـــشتهي أن تعـــودا
وأتتنـــي في خيفـــة وهـــي تـــشكو ألم الوجـــد والمـــزار البعيـــدا
ورأتنـــي كـــذا فلـــم تتمالـــك أن أمالـــت عـــليَّ عطفـــاً وجيـــدا

قال الصفدي: قلت هذه الأبيات يرشفها السمع مداماً، ويفضلها الشاهد على العقود نظاماً، ويظن الناظر ألفاتها غصوناً، والهمزات عليها حماماً.

ب - نقده البلاغي:

١ - الحديث عن التورية:

وفي فض الختام يخصص حديثه عن التورية، وهو الفن التعبيري المقابل للتجنيس، والذي نال شهرة في العصر بين أدبائه.

يقول في مقدمته: ((ومن أنواع البديع ما هو نادر الوقوع، ملحق بالمستحيل الممنوع، وهو نوع التورية والاستخدام الذي تقف الأفهام حسرى دون غايته عند مرامي المرام:

نـــوع يـــشق عـــلى الغبـــي وجـــوده مـــن أي بـــاب جـــاء يغـــدو مقفـــلا

لا يفرع هضبته فارع ولا يقرع بابه قارع إلا من تنحو البلاغة نحوه في الخطاب، ويجري ريها بأمره رخاء حيث أصاب. على أن المتقدمين ما قصدوه جملة كافية، ولا شعروا به لما شعروا أنه دخل معهم في بيت تحت قفل قافية. وأما المولدون من الشعراء كالفرزدق وجرير ومن عاصرهم وخاض معهما لجة بحر البلاغة، فلم يرد أحد منهم ورد هذا الغدير، وأما الذين تفقهوا بعدهم في الأدب وتنبهوا لتخلل طرقه بالطلب فربما قصدوا بعض أنواع البديع، فجادت إذ جاءت، وفاتت مرة أخرى وأخرى فاءت، وقد قصد أبو تمام كثيراً من الجناس. وفتح أبوابه، وشرع طرقه للناس.

أما التورية والاستخدام فما تنبه لمحاسنهما وتيقظ، وتحرى وتحرر وتحفز وتحفظ إلا من تأخر من الشعراء والكتاب وتضلع من العلوم، وتطلع من كل باب، وأظن أن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى هو الذي ذلل منها الصعاب وأنزل الناس بهذه الساحات والرحاب، حتى ارتشف هذه السلافة أهل عصره وأصحابه الذين نزلوا ربوع مصره، وخفقت راياتهم بالإخلاص في نصره، كالقاضي سعيد هبة الله بن سناء الملك، ومن انخرط معه في هذا السلك. ولم يزل هو ومن عاصره على هذا المنهج في ذلك الأوان، ومن جاء بعدهم من التابعين بإحسان إلى أن جاء بعدهم حلبة أخرى وزمرة أخرى، فكلهم يرمون هذا الإحسان عن قوس واحدة)). وفي نصرة الثائر ينقد ضياء الدين بن الأثير في كتابه المثل السائر، مؤيداً ابن أبي الحديد.

- ثانياً -

ابن سينا

((فن الشعر))

في ترجمته المعدلة لكتاب ((فن الشعر)) لأرسطو، يقدم ابن سينا مجموعة من الأفكار الأساسية:

أولاً - الشعر: هو كلام مخيل كلام مؤلف من أقوال موزونة متساوية وعند العرب مقفاة. ومعنى كونها موزونة أن يكون لها عدد إيقاعي. ومعنى كونها متساوية هو أن يكون كل قول منها مؤلفاً من أقوال إيقاعية. فإن عدد زمانه مساو لعدد زمان آخر. ومعنى كونها مقفاة هو أن يكون الحرف الذي يختم به كل قول منها واحداً. (في إطار علم الموسيقا وعلم العروض وعلم القوافي).

ثانياً - الخيال: ينظر المنطقي في الشعر من حيث هو مخيل. والمخيل هو: الكلام الذي تذعن له النفس فتنبسط عن أمور وتنقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار، وبالجملة تنفعل له انفعالاً إنسانياً غير فكري، سواء أكان المقول مصدقاً به أو غير مصدق، فإن كونه مخيلاً أو غير مخيل: فإنه قد يصدق بقول من الأقوال ولا ينفعل به، فإن قيل مرة أخرى، وعلى هيئة أخرى انفعلت النفس عنه طاعة للتخييل لا للتصديق، فكثيراً ما يؤثر الانفعال ولا يحدث تصديقاً، ربما كان المتيقن كذبة مخيلاً.

وإذا كانت محاكاة الشيء بغيره تحرك النفس وهو كاذب فلابد أن تكون صفة الشيء على ما هو عليه تحرك النفس وهو صادق، بل ذلك أوجب، لكن الناس أطوع للتخييل منهم للتصديق، وكثير منهم إذا سمع التصديقات أنكرها وهرب منها، وللمحاكاة شيء من التعجيب ليس للصدق؛ لأن الصدق المشهور كالمفروغ منه ولا طراءة له، والصدق المجهول غير ملتفت إليه، والقول الصادق إذا حرف عن العادة وألحق به شيء تستأنس به النفس ربما أفاد التصديق والتخييل معاً، وربما شغل التخييل عن الالتفات إلى التصديق والشعور به.

والتخيل إذعان والتصديق إذعان لكن التخيل إذعان للتعجب والالتذاذ بنفس القول، والتصديق إذعان لقول أن الشيء على ما قيل فيه، فالتخييل يفعل القول لما هو عليه والتصديق يفعله القول فيه عليه، أي يلتفت فيه إلى جانب حال المقول فيه.

ثالثاً - الشعر:

قد يقال للتعجيب وحده وقد يقال للأغراض المدنية، وعلى ذلك كانت الأشعار اليونانية والأغراض المدنية هي أحد أجناس الأمور الثلاثة أعني: المشورية والمشاجرية والمنافرية وتشترك الخطابة والشعر في ذلك. لكن الخطابة تستعمل للتصديق والشعر يستعمل للتخييل.

رابعاً - الأمور التي تجعل القول مخيلاً:

١ - منها أمور تتعلق بزمان القول وعدد زمانه وهو الوزن.

٢ - أمور تتعلق بالمسموع من القول.

٣- أمور تتعلق بالمفهوم من القول.

٤ - أمور تتردد بين المسموع والمفهوم.

وكل واحد من المعجب بالمسموع أو المفهوم على وجهين:

أ - لأنه إما أن يكون من غير حيلة، بل يكون نفس اللفظ فصيحاً من غير صنعة فيه أو يكون نفس المعنى غريباً من غير صنعة إلا غرابة المحاكاة والتخييل الذي فيه.

ب - وإما أن يكون التعجب منه صادراً عن حيلة في اللفظ أو المعنى:

١ - إما بسبب البساطة.

٢ - أو بحسب التركيب.

وكل حيلة فإنما تحدث بنسبة ما بين الأجزاء:

١ - إما بمشاكلة.

٢ - أو مخالفة.

والمشاكلة والمخالفة:

١ - تامة.

٢ - أو ناقصة.

وجميع ذلك:

١ - إما بحسب اللفظ.

٢ - وإما بحسب المعنى.

والذي بحسب اللفظ:

١ - فإما في الألفاظ الناقصة الدلالات.

٢ - أو العديمة الدلالات كالأدوات والحروف.

٣ - وإما في الألفاظ الدالة البسيطة.

٤ - وإما في الألفاظ المركبة.

والذي بحسب المعنى:

١ - فإما أن يكون بحسب بسائط المعاني.

٢ - وإما أن يكون بحسب مركبات المعاني.

خامساً: الشعر من جملة ما يخيل ويحاكي بأشياء ثلاثة:

١ - باللحن الذي يتنغم به، فإن اللحن يؤثر في النفس تأثيراً لا يرتاب بـه، ولكـل غـرض لحن يليق به، بحسب جزالته أو لينه أو توسطه، وبالكلام نفسه إذا كان مخيلاً محاكياً.

٢ - وبالوزن، فإن من الأوزان ما يطيش ومنها ما يوقر، وقد تكون أقاويل منثـورة مخيلـة، وقد تكون أوزان غير مخيلة؛ لأنها ساذجة بلا قول.

٣ - وإنما يوجد الشعر بأن يجتمع فيه القول المخيل والوزن.

سادساً: علتان تولدت منهما الشعرية:

١ - أحدهما: الالتذاذ بالمحاكاة، فالإنسان أقوى على المحاكاة من سائر الحيوانات.

٢ - وثانيهما: حب الناس للتأليف المتفق والألحان طبعاً. ثم قـد وجـدت الأوزان مناسـبة للألحان فمالت إليها الأنفس وأوجدتها.

سابعاً: يجب أن يكون تقويم الشعر على هذه الصفة:

١ - بأن يكون مرتباً فيه أول ووسط وآخر.

٢ – وأن يكون الجزء الأفضل في الوسط.

٣ – وأن تكون المقادير معتدلة.

٤ – وأن يكون المقصود محدود لا يتعدى ولا يخلط بغيره مما لا يليق بذلك الوزن، ويكـون بحيث لو نزع منه جزء واحد فسد وانتقص.

ثامناً: إن الشاعر يجري مجرى المصور: فكل واحد مـنهما محـاك، والمـصور ينبغـي أن يحاكي الشيء الواحد بأحد أمور ثلاثة:

١ – إما بأمور موجودة في الحقيقة.

٢ – وإما بأمور يقال إنها موجودة وكانت.

٣ – وإما بأمور يظن إنها ستوجد وتظهر.

فلذلك ينبغي أن تكون المحاكاة من الشاعر بمقالة تشتمل على اللغات والمنقولات من غير التفات إلى مطابقة الشعر للأقاويل السياسية التعقلية، فإن ذلك من شأن صناعة أخرى.

- ثالثاً -

ابن خلدون

((صناعة الشعر))

يعد ابن خلدون بالإضافة إلى كونه أحد المؤسسين لعلم الاجتماع أحد النقاد العرب في عصره، وقد لخص لنا نقده من خلال:

أولاً: يرى ابن خلدون أن لكل لسان أحكاماً في البلاغة تخصه.

والشعر في لسان العرب: كلام مفصل قطعاً متساوية في الوزن متحدة في الحرف الأخير الذي تتفق به روياً وقافية ويسمى جملة الكلام إلى آخره قصدية وكلمة. وينفرد كل بيت منه بإفادته في تراكيبه ويراعي فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد.

ثانياً - الشعر: من بين فنون الكلام صعب المأخذ:

ولنذكر مدلول لفظة الأسلوب: عبارة عن المنوال الذي تنسج فيه التراكيب، أو القالب الذي يفرغ فيه. وهذا يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها، ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة.

ثالثاً: إن معرفة قوانين البلاغة لا تكفي؛ لأن قوانين البلاغة هي قواعد علمية وقياسية، تفيد جواز استعمال التراكيب على هيئتها الخاصة بالقياس.

رابعاً: القوالب كما تكون في المنظوم، تكون في المنثور، فإن العرب استعملوا كلامهم في كلا الفنين، ففي الشعر بالقطع الموزونة والقوافي المقيدة واستقلال الكلام في كل قطعة، وفي المنثور يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالباً، وقد يقيدونه بالأسجاع وقد يرسلونه. ولكن قول العروضيين في حدة: إنه الكلام الموزون المقفى ليس بحد لهذا الشعر وصناعتهم إنما تنظر في الشعر من حيث اتفاق أبياته بعد المتحركات والسواكن على التوالي ومماثلة عروض الأبيات لضربها.

خامساً: الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزائه متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب الغريب المخصومة به.

سادساً: الألفاظ والمعاني: إن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني وإنما المعاني تبع لها. وهي أصل والمعاني موجودة عند كل واحد، فلا تحتاج إلى تكلف صناعة الشعر في تأليفها، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة. ومن شروط صناعة الشعر: الحفظ من جنس شعر العرب، ومن شرطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة.

سابعاً: وقت الشعر: خير الأوقات أوقات البكر عند الهبوب من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر، وفي هواء الجمام، وربما قالوا: إن من بواعثه العشق والانتشاء، ذكر ذلك ابن رشيق في ((العمدة)).

- رابعاً -

النقد عند

ضياء الدين بن الأثير

- أولاً -

موهبة وأدوات وطبع

أ - آلات الكتابة:

في عرضنا للنقد عند ضياء الدين ابن الأثير نتدرج في حديثه عن جوانب مختلفة من قضايا النقد العديدة التي تتعرض لتلك الأمور. وعن المؤلف شاعراً وكاتباً وأثر تكوينه في عمله:

ويحدثنا ضياء الدين عن المؤلف في أول حديثه عن آلات الكتابة والنظم فيرى أن من هذه الآلات الطبع أو الاستعداد الفطري، وعن طريق هذا الطبع يهتدي الشاعر والكاتب إلى البديع المخترع من المعاني: ((إن المعاني المخترعة لم يتكلم فيها أحد بالإشارة إلى طريق يسلك فيها؛ لأن ذلك مما لا يمكن، ومن هاهنا أضرب علماء البيان عنه، ولم يتكلموا فيه كما تكلموا في غيره، وكيف تتقيد المعاني المخترعة بقيد أو يفتح إليها طريق يسلك وهي تأتي من فيض إلهي بغير تعليم، ولهذا اختص بها بعض الناثرين والناظمين دون بعض. والذي يختص بها يكون فذاً واحداً يوجد في الزمان المتطاول)).

ب - الموهبة:

ويشبه الموهبة الكامنة لدى الشاعر الموهوب أو الكاتب المبدع بالنار الكامنة في حجر الزناد تظهر وتتطاير بالاحتكاك والقدح، وإنه لا يجدي التحصيل والمعرفة بآلات الكتابة والشعر من حفظ أو تمرس بصناعتها دون الموهبة: ((فإنه إذا لم يكن ثم طبع فإنه لا تعني تلك الأدوات شيئاً)) ومثل ذلك مثل النار الكامنة في الزناد والحديد الذي يقدح بها، ألا ترى أنه إذا لم يكن في الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيئاً)).

ج - تفاوت درجات الموهبة:

وبتفاوت درجة الموهبة لدى الأديب تتفاوت درجات ما يصدر عنه من الأدب فالأديب المطبوع تحس في أدبه روح الابتكار والصدق، وغير المطبوع الذي ليست له موهبة تلمس في أدبه روح التكلف وأثر الصنعة، وتتراوح درجات الطبع والصنعة تبعاً لدرجات الموهبة والمعرفة لدى الشاعر، والشاعر المطبوع العارف العالم يأتي شعره في الدرجة العليا وضربوا المثل في ذلك بأبي تمام والمتنبي.

وقد أعجب بهما ابن الأثير وضرب المثل بأشعارهما وقارن بين شعر أبي تمام وشعر أبي العلاء المعري فقال:((إن حسن هذا مطبوع وحسن ذاك مصنوع. ثم يشرح علة اتهامه لأبي العلاء وشعره في اللزوميات بالتكلف والصنعة، قال: لا شك أن صورة الخلقة غير صورة التخلق، فإن قيل: ما الفرق بين المتكلف من هذه الأنواع وغير المتكلف قلت في الجواب: أما المتكلف فهو الذي يأتي بالفكرة والروية، وذلك يضني الخاطر في طلبه، ويبعث على تتبعه واقتصاص أثره، وغير المتكلف يأتي مستريحاً من هذا كله وهو أن يكون الشاعر في نظم قصيدته أو الخطيب أو الكاتب في إنشاء خطبته أو كتابته، فيما هو كذلك، إذ سنح له نوع من هذه الأنواع بالاتفاق لا بالسعي والطلب)).

د – القول المطبوع: كالحسن المطبوع يكون خلقة، ومن صنع الفطرة وهو مقبول يقع في القلب، ولا يدعو إلى التقصي والتعب في التتبع، وللمعرفة شأنها مع الطبع؛ لأنها تقويه وتغنيه، وتطيل من تدفقه وحيويته، فالاطلاع على الأدب القديم والحديث، وحفظ مختاره والتدرب على تقليده أمر لازم فإن في ذلك فوائد جمة؛ لأن الشاعر أو الكاتب يعلم منه أغراض الناس ونتائج أفكارهم، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم، وإلى أين ترامت به صنعته في ذلك، فإن هذه الأشياء مما يشحذ القريحة ويذكي الفطنة، وإذا كان صاحب هذه الصناعة عارفاً بها تصير المعاني التي ذكر، وتعب في استخراجها كالشيء الملقى بين يديه يأخذ منه ما أراد، وأيضاً فإنه إذا كان مطلعاً على المعاني المسبوق إليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه، ومن المعلوم أن خواطر الناس وإن كانت متفاوتة في الجودة والرداءة فإن بعضها: ((يكون عالياً على بعض أو منحطاً عنه إلا بشيء يسير، وكثيراً ما تتساوى القرائح والأفكار في الإتيان بالمعاني حتى إن بعض الناس قد يأتي بمعنى موضوع بلفظ، ثم يأتي الآخر بعده بذلك المعنى واللفظ بعينهما من غير علم منه ما جاء به الأول)).

- ثانياً -
نظرية النص الأدبي
عند ابن الأثير

أ – استغرق كلام ضياء الدين بن الأثير عن النص الأدبي كل آرائه النقدية كغيره من علماء البلاغة. فتكلم عن:

١ – الصياغة من جوانبها المختلفة.

٢ – الألفاظ المفردة وما ينبغي أن يتوفر لها من الفصاحة التي لها شروط، ومن حيث التأليف وتركيبها بعضها إلى جانب بعض.

٣ – ثم من حيث المعاني ودلالة التأليف على المعاني المختلفة.

٤ – دلالات تناولت بأوضاع التأليف وأشكاله.

٥ – وبالقدرة على تخيل المعاني وتصويرها ليستجيب لها الإدراك وتثبت في الذهن أو تؤثر في المشاعر بأحاسيس مما يتطلبها الموقف.

ب – ولم يتعرض ضياء الدين لمراحل الخلق الأولى للعمل الأدبي كما حاول ابن طباطبا في عيار الشعر. ولكنه حاول الفصل بين المعنى واللفظ، وليس بقصد بالمعنى " المدلول " اللفظي المحدود، ولا معنى اللفظ المفرد، وإنما يقصد معنى العبارة أو المعنى البلاغي في الجملة.

ج – ويرى أن الشاعر إذا قال شعراً فينبغي له أن يعيد النظر فيه لعله يتراءى له أن يثقفه أو يعدل ويبدل حتى يستقيم كما ينبغي، فكأنه ارتأى أن لا يكتفي الشاعر بالتعابير الأولى أو التعبير الشعري، بل يجب التعديل أو محاولة الوصول للمرحلة الثانية وهي التعبير البلاغي بإدخال الصنعة والزخرف اللفظي والموازنة والتناسب بين المعاني وما إلى ذلك، ويرى جماعة أن أي تعديل في الصيغة إنما يعني تعديلاً في المعنى.

د – ويدافع ضياء الدين عن الخصائص المنفصلة أو المستقلة لكل من الألفاظ والمعاني، والتي يمكن أخذها بعين الاعتبار، أو مراعاتها في عمل الشعر والكتابة فيقول: ((وإن القول

بتلاؤم اللفظ والمعنى وعدم إمكان الفصل بينهما قول شبيه بالسفسطة، وهو باطل من وجهين أحدهما أن المعاني إذا كانت لا تزيد عن الألفاظ فيلزم من ذلك أن الألفاظ لا تزيد أيضاً على المعاني؛ لأنهما متلازمان على قياس من يقول بعدم الانفصال، ونحن نرى معنى قد دل عليه بألفاظ، فإذا أسقط من تلك الألفاظ شيء لا ينقص ذلك المعنى، بل يبقى على حاله، والوجه الآخر الإيجاز بالحذف أقوى دليل على زيادة المعاني على الألفاظ؛ لأنا نرى لفظاً يدل على معنى لم يتضمنه وفهم ذلك المعنى ضرورة لابد منه، فعلمنا حينئذ أن ذلك المعنى الزائد على اللفظ مفهوم من دلالته عليه)).

هـ - ولذلك فقد عرض لجملة من الخصائص التي تتوفر في اللفظة المفردة لتكون فصيحة وافق فيها كثيراً مما ذكر ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة من قبل وخالفه في بعض مسائل الجزئية.

فما وافقه فيه أن تكون متناسبة المخارج حتى يسهل على اللسان النطق بها وإن اختلفا في معنى هذا التناسب فقد حدده ابن سنان بالتقارب جداً أو التباعد جداً، ورأى ابن الأثير أن لهذه القاعدة شواذ، وأن القياس الذي لا يخطئ هو الثقل إلى جانب تركيبها من حروف متنافرة لا تروق في السمع فتثقل على الأذن.

و - وينبغي أن تكون الألفاظ مألوفة سهلة، تقع معانيها قريبة من إفهام الناس ولا تكون صعبة مستغفلة. يقول: ((وقد رأيت جماعة من مدعي هذه الصناعة يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذي يعز فهمه ويبعد مناله، فإذا رأوا كلاماً وحشياً غامض الألفاظ يعجبون به ويصفونه بالفصاحة، وهو بالضد من ذلك؛ لأن الفصاحة الظهور والبيان لا الغموض والخفاء)).

ز - كذلك ينبغي للألفاظ أن تتفق معانيها مع أصواتها وتراكيبها، فالألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزالة ورقيقة، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه، فالجزل منها في مواقف الحروب، وفي القوارع والتهديد، والتخويف وأشباه ذلك، ولست أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه عنجهية البداوة، بل أعني بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع، ولست أعني بالرقيق أن يكون ركيكاً سفافاً، وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية، الناعم الملمس)).

ح – ويرى أن بعض الألفاظ تحتفظ في بعض أبيات الشعر أو جمل النثر بخصائص معينة فتحيط نفسها بهالة من المعاني والظلال الجانبية والإيحاءات المختلفة فوق مدلولها المباشر، أو معناها اللغوي، وتبدو براعة الأديب في القدرة على استغلال هذه الخصائص في الألفاظ، كما فعل الشاعر في استغلال لفظتي ((كل حاجة)) في قوله:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

قال ضياء الدين: ((إن في قول هذا الشاعر كل حاجة)) ما يستفيد منه أهل النسيب والرقة والأهواء والمقة ما لا يستفيده غيرهم، ولا يشاركهم فيه من ليس منهم، ألا ترى أن حوائج منى كثيرة، فمنها التلاقي، ومنها التشاكي ومنها التخلي للاجتماع... إلى غير ذلك مما هو تال له ومعقود الكون به)).

ط – وقد تسمى تلك الألفاظ (جوامع الكلم) ويعني تلك التي تتضمن من المعنى ما لا تتضمنه أخواتها مما يجوز استعماله في مكانها مثل قول النبي – صلى الله عليه وسلم – ((بعثت في نفس الساعة)). وقد أعجب بمثل هذه الألفاظ حتى قال: ((وكنت إذا مررت بنظري في ديوان من الدواوين يلوح لي فيه مثل هذه الألفاظ فأجد لها نشوة وطرباً كطرب الألحان)).

ي – وأما آراؤه في تأليف العبارة، فهو يرى أن الترتيب المنطقي حسب قواعد اللغة ليس الترتيب الأمثل في التعبير الأدبي، وإنما المقياس فيه الذوق والإحساس الصادق بقوة المعنى وقوة التعبير عنه لا سلامته، فالسلامة العقلية التي تتوخاها قواعد اللغة، ويتوخاها المنطق لا اعتبار لها وحدها في ميزان النقد والبلاغة ((فأسرار الفصاحة لا تؤخذ من علماء العربية، وإنما تؤخذ منهم مسألة نحوية)).

ومما ضربه للجائز لغة، القبيح بلاغة لفظة الفقود في بيت عنترة:

فإن يبرأ فلم أنفث عليه وإن يفقد فحق له الفقود

فقوله الفقود جمع مصدر من قولنا فقد فقداً، واستعمال هذه اللفظة غير سائغ ولا لذيذ، وإن كان جائزاً، ونحن في استعمال ما نستعمله من الألفاظ واقفون مع الحسن لا مع الجواز، وهذا كله يرجع إلى حاكم الذوق السليم، فإن صاحب هذه الصناعة يصرف الألفاظ بضروب التصريف، فما عذب في فمه منها استعمله وما لفظه فمه تركه.

ك – وتختلف عنده العبارة الأدبية أو الفنية عن العبارة العلمية أو المنطقية في أن الثانية تقصد إلى المعنى مباشرة دون زيادة أو نقصان، بخلاف الأولى التي تحتمل أشياء كثيرة، وقديماً حاول اللغويون والمناطقة وبعض النقاد قياس الشعر بالمنطق ومقاييسه وحدوده فثار عليهم البحتري:

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغني عن صدقه كذبُه

يعني أن المنطق يبحث عن الصدق أي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وأما الشعر فيحتمل كثيراً من المجاز والتأويل. ولهذا استخدم الأدب الأسلوب المجازي بفنونه التعبيرية المختلفة من إيجاز وإطناب ومجاز واستعارة وكناية وتورية ومبالغة وتقديم وتأخير وما إلى ذلك. وقد عمد إلى عدم الاكتفاء بمخاطبة العقل، بل إلى ضرورة التأثير على المشاعر والأحاسيس وإثارة الانفعالات المختلفة عن طريق التخيل أو مخاطبة الحواس، والإيهام، وذكر ضياء الدين أن دور المجاز في التعبير الأدبي هو ((إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد ينظر إليه عياناً)).

ل – وكلما قويت الصورة المجازية في ذهن السامع قويت دلالتها، فالتشبيه المضمر أبلغ من المظهر وأوجز، أما كونه أبلغ فلجعل المشبه مشبهاً به من غير وساطة أو أداة فيكون هو إياه، فإنك إذا قلت: زيد أسد كنت قد جعلته أسداً من غير إظهار أداة التشبيه... ((وإن الغرض المقصود من قولنا: زيدٌ أسدٌ أن نتبين حال زيد في اتصافه بشهامة النفس وقوة البطش، وجراءة الإقدام وغير ذلك مما يجري مجراه، إلا أنا لم نجد شيئاً يدل به عليه سوى أن جعلناه شبيهاً بالأسد حيث كانت هذه الصفات مختصة به، فصار ما قصدناه من هذا القول أكشف وأبين من أن لو قلنا: زيدٌ شهم شجاع، قوي البطش جريء الجنان وأشباه ذلك، لما قد عرف من اجتماع هذه الصفات في المشبه أعني الأسد، وأما زيد الذي هو المشبه به فليس معروفاً أنها كانت موجودة فيه)).

م – والتصوير في التعبير الأدبي ضرب من المحاكاة، وهو عنصر أساسي في كل الفنون، فإذا خلت المحاكاة أو الصورة الأدبية من هذه المضامين قلَّت قيمتها الفنية لدى بعض النقاد ومنهم ضياء الدين بن الأثير، فهو لا يكتفي من الشاعر مثلاً بأن يصور ما يرى تصويراً مجسماً أو دقيقاً فينقله إلى السامع بحيث يتصوره وكأنه يراه ويلمسه بيده.

فهو مجرد حكاية حال مشاهدة بالبصر. والمعنى أو الصورة المخترعة على غير مثال أبدع عنده وأجمل. ((المعاني التي تستخرج من غير شاهد حال متصورة فإنها أصعب مثالاً مما يستخرج بشاهد الحال، ولأمر ما كان لإبكارها سر لا يهجم على مكانه إلا جنان شهم، ولا يفوز بمحاسنه إلا من دق فهمه حتى جل عن دقة الفهم)).

ن - ومع ذلك فلا يصح أن يجتلب الأديب الصور بحيث تكون غريبة غير مألوفة، أو يركب بعضها إلى بعض بحيث لا تقبل عقلاً ولا تتصور في الواقع، وإنما عليه أن يلائم ما استطاع ويوفِّق بين ما تقع عليه الحواس وبين ما يخترعه فيأتي بالجديد، وكأنه واقع مشاهد وهو على مثال معروف أو ممكن غير مستبعد.

ص - ويوازن ضياء الدين بين بيتين من الشعر أحدهما محاكاة أو صورة، والآخر تجربة أو شعر له غاية غير مجرد التعبير عن صورة، فيفضل الثاني عن الأول وذكر قول امرئ القيس يصف عش العقاب وما به من بقايا صيدها من الطير:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

وقول النابغة يصف تجربته مع الأصدقاء:

ولست بمستبق أخاً لا تلمّه على شعث أي الرجال المهذب

قال ضياء الدين: ((قالوا هذان البيتان لا يمكن المفاضلة بينهما؛ لأنهما اشتملا على معنيين مختلفين، فهذا حسن في بابه وهذا حسن في بابه، وأما أن يقال هذا أفضل من هذا فلا؛ لأن التفاضل إنما يظهر بالاشتراك في صفحة واحدة، وهذا المذهب عندي فاسد. والمذهب الصحيح الذي يثبت على محك النظر أن المفاضلة تقع بين الكلامين سواء كانا متفقين في المعنى أو مختلفين)).

ويرى أن هذين البيتين قد اختلفا في المعنى ((ومعدلة الحكم تقضي بأن بيت النابغة أفضل؛ لأنا إذا نظرنا إلى لفظيهما ومعنييهما وجدناهما من جهة اللفظ سواء... وأما من جهة المعنى فإن بيت النابغة أفضل وذلك لأنه تضمن حكمة تعرف عن تجربة الإخوان فيتأدب بها الغر الجاهل وينتبه لها الفطن الأريب، والناس أحوج إلى معرفته من معرفة التشبيه الذي تضمنه بيت امرئ القيس، وغاية ما فيه أنه رأى صورة فحكاها في المماثلة بينها وبين صورة أخرى، وليس ثم سوى ذلك وبيت النابغة حكمة مؤديةٌ تستخرج بالفكر الدقيق)).

فالتصوير هنا يحوي مضموناً جمالياً، فهو يدل أو يوحي من وراء هذه الصور المحكية بقوة العقاب وشراستها في الإغارة على صغار الطير وافتراسها. وليست المعاني المفصلة أو المقدمة دائماً هي المعاني الأخلاقية كما في بيت النابغة المفيدة للناس والمجتمع، وضياء الدين فيما ذهب إليه يرى نفع الأدب للحياة كما كان كثير من علماء العرب، وخاصة ابن قتيبة. وليس معنى ذلك أن ضياء الدين ابتعد عن قياس الأدب بمقياس الجمال واللذة أو بمقياس الذوق، والحق أن المنفعة واللذة كانتا دعامتي مقاييس ضياء الدين في النقد والبلاغة.

ففي مجال اللفظ اهتم بما كان له وقع حسن يلذ السمع، وقد تكون لذة سرور أو نشوة البهجة أو لذة الألم. كما ينبغي أن لا تكون مما يقبح أخلاقياً أو مما ابتذله العامة في معان قبيحة.

ع - وكثيراً ما تراه يحكم على الشعر بأنه يثير النشوة فيقول مثلاً: ((وكنت إذا مررت بنظري في ديوان من الدواوين، ويلوح لي فيه مثل هذه الألفاظ أجد لها نشوة وطرباً كطرب الألحان)).

ف - ويصف وقع الشعر في النفوس وقعاً مطرباً فيقول في أبيات الشاعر:

بأبي غزالٌ غازلته مقلتي ... بين الغوير وبين شطي بارق

عاطيته والليل يسحب ذيله ... صهباء كالمسك الفتيق الناشق

وضممته ضم الكمي لسيفه ... وذؤابتاه حمائلٌ في عاتق

حتى إذا مالت به سنة الكرى ... زحزحته شيئاً وكان معانقي

أبعدته عن أضلع تشتاقه ... كي لا ينام على وساد خافق

((وهذا من الحسن والملاحة بالمكان الأقصى، ولقد خفَّت معانيه على القلوب حتى كادت ترقص رقصاً، والبيت الأخير هو الموصوف بالإبداع، وبه وبأمثاله أقرت الأبصار بفضل الأسماع)).

- ثالثاً -
موقف ابن الأثير
بين النثر والشعر

انتصر ضياء الدين بن الأثير للكتابة النثرية على الشعرية، وعلل تفضيله للكتابة بعدة أسباب رددها قبله بعض المنتصرين للكتاب على الشعراء منها:

١ - أن القرآن نص نثري وأن الإعجاز متصل بالنثر.

٢ - وأن الكتابة أصعب طريقاً.

٣ - وأن الكاتب أحد دعامتي الدولة، فكل دولة تقوم على السيف والقلم ((وربما لا يفتقر الملك في ملكه إلى السيف إلا مرة أو مرتين، أما القلم فإنه يفتقر إليه على الأيام، وكثيراً ما يستغنى به عن السيف.

٤ - وأن الشعر بني على حدود مقررة وأوزان مقدرة، وفصلت أبياته فكان كل بيت منها قائماً بذاته، وغير محتاج إلى غيره إلا ما جاء على وجه التضمين وهو عيب، فلما كان النَّفَس لا يمتد في البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه وضربه - وكلاهما قليل - احتيج إلى أن يكون الفضل في المعنى، فاعتمد أن يلطف ويدق، والترسل مبني على مخالفة هذه الطريق إذا كان كلاماً واحداً لا يتجزأ.

وانتقد مسألة الغموض في الشعر، قائلاً: إن الأحسن في الفنين إنما هو الوضوح والبيان. وكذلك رأى أن القول بأن سبب عمد الشعر إلى التركيز المؤدي إلى الغموض أحياناً مراعاة للبيت الواحد في عروضه وقافيته هذا القول فاسد. كذلك فإن موضوعات الشعر والنثر متقاربة، بل هما يشتركان في كثير منها: ((وأي فرق بين الشاعر والكاتب في هذا المقام ؟ فكما يصف الشاعر الديار والآثار، ويحن إلى الأهواء والأوطان، فكذلك يكتب الكاتب في الاشتياق إلى الأوطان ومنازل الأحباب والإخوان)).

ويتلخص الفرق بين النثر والشعر عنده في ثلاثة أمور هي:

١ – النظم.

٢ – وجواز استخدام بعض الألفاظ في الشعر وعدم جوازها في النثر، أي أن للشعر لغة خاصة أو ما يمكن أن يعد لغة أو مستوى لغوياً خاصاً به.

٣ – تفاوت عرض الشاعر لموضوعه بين الجودة والرداءة أو الارتفاع والهبوط لضيق مجال الوزن والقافية بعكس الكاتب الذي يستوي نفسه في الرسالة في كل أجزائها.

ويعرض ضياء الدين لمقارنة طريفة بين الشعر العربي والشعر الفارسي فيقول: ((وعلى هذا فإني وجدت العجم يفضلون العرب في هذه الناحية المشار إليها، أي التقيد بالوزن والقافية، فإن شاعرهم يذكرهم كتاباً مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً وهو شرح قصص وأحوال، ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم، كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بشاهنامة، وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس، وقد أجمع فصحاؤهم أنه ليس في لغتهم أفصح منه، وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها، وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من بحر)).

- رابعاً -
موقف ابن الأثير
من الكتاب والشعراء

تعرض ضياء الدين في كتابيه "المثل السائر" و"الاستدراك" لنقد بعض الكتاب والشعراء:

١ - وأكثر من تعرض لهم من سابقيه أبو هلال الصابي، فلم تعجبه طريقته في الكتابة، وخاصة في تكرار معاني عباراته وتناسب فقراته، ويعرض جملة من رسائل الصابي ورسائله الخاصة، ثم يعقب عليها بقوله: ((وكلام الصابي في هذه التقاليد الأربعة لم أقصد به الوضع من الرجل، وإنما ذكرت ما ذكرته لبيان موضع السجع الذي يثبت على المحك. وكيف أضع من الصابي وعلم الكتابة قد رفعه وهو إمام هذا الفن والواحد فيه.

وقد اعتبرت مكاتباته فوجدته قد أجاد في السلطانيات كل الإجادة وأحسن كل الإحسان، ولو لم يكن له غير كتابه الذي كتبه عز الدولة بختيار بن بويه إلى سبكتكين عند خروجه عليه ومجاهرته إياه بالعصيان لاستحق به فضيلة التقدم، كيف وله من السلطانيات ما أتى فيه بكل عجيبة، ولكنه في الإخوانيات مقصر، وكذلك في كتب التعازي، وعندي فيه رأي لم يره أحد غيري، ولي فيه قول لم يقله أحد سواي، وذاك أن عقل الرجل في كتابته زائد على فصاحته وبلاغته)).

ثم يحيل القارئ على ما أورده من رسائله منبهاً إلى ما فيها من وصايا وشروط واستدراكات وأوامر ما بين أصل وفرع وكل جزء، وقليل وكثير. يقول: ((ولا نرى ذلك في كلام غيره من الكتاب أنه عبّر عن تلك الوصايا والأوامر والشروط والاستدراكات بعبارات في بعضها ما فيه من الضعف والركة. وقد قيل: إن زيادة العلم على المنطق هجنة، وزيادة المنطق على العلم خدعة، ومع هذا فإني أقر للرجل بالتقدم، وأشهد له بالفضل)).

٢ - ويتعرض من حين لآخر للقاضي الفاضل ويحاول غمزه والإقلال من شأن كتابه، وقد أخذ عليه مرة التقصير في موضوع رسائله ومرة أخرى عدم مناسبتها للمقام، ومرة ثالثة

المبالغة وعدم التناسب في الصور البيانية بين تشبيه واستعارة، ولكن موقفه من القاضي الفاضل مشوب بالهوى إلى حد كبير لما كان بينهما من تعاصر ولتقدم الفاضل عليه ووقوفه مع العادل والعزيز عثمان ضده.

٣ – أما عن موقفه من الشعراء فقد ذكرنا أنه أعجب بأبي تمام والمتنبي؛ لأنهما جمعا بين الفن والعقل، أو بين الصنعة والطبع.

٤ – وثالث من يعجب بهم من الشعراء البحتري ويعرض لبعض المحدثين، فيعجب بهم أحياناً ويؤاخذهم على بعض ما سقطوا فيه أحياناً.

ولا يتعصب كغيره من العلماء وأكثر النقاد القدماء لتقدمهم، بل يحكم على الشعر سواء القديم أو المحدث بما له أو عليه، وإن كان أكثر ميلاً إلى معاني المحدثين وجمال صنعتهم.

الباب الثاني والعشرون

أعلام النقد الأدبي في عصر الانحدار

- أولاً -

صلاح الدين الصفدي

(خليل بن أيبك)

ولد بصفد سنة ٧٦٦ هـ

أ - حياته ومسيرته:

ولد بصفد سنة ٧٦٦ هـ، وتعانى أول حياته صناعة الرسم فبرع فيها، ثم حبب إليه الأدب فولع به وذكر عن نفسه أن أباه لم يمكنه من الاشتغال حتى استوفى عشرين سنة، فطلب بنفسه. وكان أول ما ولي من الوظائف كتابة الدرج ببلده صفد، ثم كتابة الدرج بالقاهرة زمناً، ثم التوقيع بدمشق وكتابة السر بحلب والرحبة، ثم كتابة السر بالقاهرة فترة حتى عاد إلى دمشق فولي في أخريات عمره وكالة بيت المال وظل بها حتى وفاته.

ب - شخصيته:

أتيحت له الرحلة مرات بين الشام ومصر، وسجَّل في بعض كتبه تواريخ تشير إلى تنقله، فقد ذكر أنه كان بالديار المصرية سنة ٧٢٩ هـ، وروى عن عيسى الناسخ شعراً، وكان إذ ذاك في الثلاثين من عمره، وظل بمصر حتى سنة ٧٣٢ هـ حيث جاء في شرح اللامية أنه كان ينظم مقطوعات في النيل.

وكان الصفدي رجلاً حسن العشرة ذا مروءة محبباً إلى كل أصدقائه ومخالطيه من الرؤساء أو الزملاء وظل يود الناس والناس يودونه، ويتقرب إلى الشيوخ والأعيان. وكان مختصاً ببعض أدباء العصر وشعرائه كجمال الدين بن نباتة الذي لازمه وتأثر به كثيراً في كتابته وشعره. وقد كان يجتمع به دائماً بالحائط الشمالي من الجامع الأموي بكرة النهار وبعد العصر يتذاكران.

وطلب الصفدي الحديث وكتب بعض الطباق، ولكنه انصرف إلى الشعر والأدب وكان من شيوخه فيهما شهاب الدين محمود. وابن نباتة وغيرهما، وقرأ على شهاب الدين زمناً

ولازمه وسمع منه كثيراً من شعره وأجازه وبكثير من مؤلفاته، وروى بعضه في شرح اللامية وما قرأه عليه من كتب مقامات الحريري.

ج - من خالطهم:

وسمع من ابن سيد الناس بالقاهرة وروى عن دقيق العيد. وابن دانيال سنة ٧٢٨ هـ وسمع بعض كتبه، قال: سمعته وهو يقرأ علينا من لفظ كتابه الذي وسمه بـ (منح المدح). والتقى بالقاهرة كذلك بأبي حيان أثير الدين سنة ٧٢٨هـ، وأنشده بعض شعره وروى عنه بعض كتبه.

وسمع الحديث بالقاهرة عن يونس الدبوسي. وطاف مع الطلبة وكتب الطباق. وكان لإقامته بمصر أثرها في جمعه كثيراً من آثار شعرائها وأدبائها في عصره.

والتقى في دمشق بكثيرين كابن نباتة الذي قلنا: إنه لزمه زمناً وأجازه برواية كتبه عندما لقيه بالقاهرة في مستهل شعبان سنة ٧٣٩ هـ.

واتهم الصفدي لتأثره الواضح بأستاذه ابن نباتة بسرقة شعره ومعاني نثره ونظمه. وسمع منه جماعة من أعيان العصر في الأدب والعلم كابن كثير الدمشقي. روى ابن كثير قال: ((وأنشدني القاضي الصفدي ليلة الجمعة رابع عشر صفر سنة ٧٦٤ هـ لنفسه فيما عكس عن المتنبي في بديه من قصيدة، وهو قوله:

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا ... فأيسر ما يمر به الوصول

قال الصفدي:

دخول دمشق يكسبنا نحولا ... كأن لها دخولاً في البرايا

إذا اعتاد الغريب الخوض فيها ... فأيسر ما يمر به المنايا

د - عمله:

واشتغل الصفدي كذلك بالتدريس في أخريات حياته بالجامع الأموي بدمشق. قال ابن حجر: وكان قد تصدّى للإفادة بالجامع. وقد سمع منه الذهبي وابن كثير والحسني وغيرهم، قال الذهبي سمع مني وسمعت منه.

وبرع الصفدي في الآداب. وافتن الكتابة والتأليف. قال الذهبي: ((الأديب البارع الكاتب. شارك في الفنون وتقدم في الإنشاء، وجمع وصنف)). وقال: ((ساد في علم الرسائل)). وقيل: إن مؤلفاته بلغت مئتين من المجلدات، ولعل الذي كتبه من الرسائل في ديوان الإنشاء ضعف ذلك.

قال ابن سعد: ((كان من بقايا الرؤساء الأخيار، وقد وجد بخطه: كتبت بخط يدي ما يقارب خمسمائة مجلدة. قال: ولعل الذي كتبه في الإنشاء ضعف ذلك)).

هـ - مؤلفاته:

أولاً - من كتبه في التاريخ والتراجم:

١ - كتاب (الوافي) المذكور، وهو في نحو ثلاثين مجلدة، رتبه على حروف العجم. ونقل عنه ابن شاكر في فوات الوفيات كثيراً.

٢ - (أعوان النصر وأعيان العصر)، وأفرده لأعيان عصره من الأعلام، والأدباء والشعراء خاصة.

ثانياً - ومن كتبه في الأدب:

١ - شرح لامية العجم.

٢ - ((التذكرة الصفدية)): وجمع فيها مجموعة من المختارات الأدبية، ضم الجزء الأول منها مجموعة القصائد البائية التي نظمها الشعراء في عصره معارضة أو مماثلة للقصيدة البائية التي ادعاها كل من الخيمي وابن إسرائيل وسبقت الإشارة إليها والتي مطلعها:

((يا مطلباً ليس لي في غيره أرب)).

٣ - ((نكت الهميان في نكت العميان)) وجمع فيه تراجم مشاهير العميان.

٤ - ((ألحان السواجع)): وجمع فيه جملة من الرسائل المتبادلة بينه وبعض الشيوخ عصره من الأدباء.

٥ - مجموع مختار من شعر الأربعة الكبار أبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي العلاء المعري.

٦ - ((تشنيف الدمع بانسكاب الدمع)) وهو مجموع في الأدب.

٧ - ((لوعة الشاكي ودمعة الباكي)) مقامة في المحبة والعشق.

٨- فض الختام عن التورية والاستخدام.

٩ - ((جنان الجناس)).

١٠ - ((نصرة الثائر على المثل السائر)).

١١- تمام المتون وشرح رسالة ابن زيدون.

ثالثاً - رسائله:

١ - رسالة في وصف الخيل على غرار رسالة الشهاب محمود سماها ((جر الذيل في وصف الخيل)).

٢ - وأخرى في وصف الخال سماها ((كشف الحال في وصف الخال)).

٣ - ومن أمثلة رسائله المسجوعة قوله من رسالة في البشارة بالنيل:

((فلو خاصمك النيل مياه الأرض لقال: عندي قبالة كل عين إصبع ولو فاخرها لقال: أنت بالجبال أثقل وأنا بالملق أطبع، والنيل له الآيات الكبر العجائب والعبر، منها وجود الوفاء عند عدم الصفاء وبلوغ الهرم إذا احتد واضطرم وأمن كل فريق إذا قطع الطريق، وفرح قحطان الأوطان إذا كسر، والماء كما يقال سلطان، إلى غير ذلك من خصائصه وبراءته مع الزيادة من نقائصه، وهو أنه في هذا العالم المبارك جذب البلاد من الجدب وخلصها بذراعه وعصمها بخنادقه التي لا تراع من تراعه، وحصنها بسواري الصواري تحت قلوعه وما هي إلا عمد تحت قلاعه)).

و - أسلوبه:

ويختلف أسلوب الصفدي في مؤلفاته بين السرد والتأنق حسب الموضوع الذي يكتب فيه، لكنه يعمد في رسائله ومقاماته دائماً إلى تكلف السجع والبديع.

وهو في شعره أقل مستوى من نثره على كثرته. وقد عدد القول في كثير من الموضوعات واشتهر بسرقاته من ابن نباتة. قال ابن حجة: ((وكان بينهما صداقة وأحوال، وكان الصفدي يسرق معاني ابن نباتة، ألف كتاباً في سرقاته سماه " خبز الشعير ")). قال الشوكاني: ((وكان

يختلس معاني شعر شيخه وينظمها لنفسه. وقد صنف ابن نباتة في ذلك مصنفاً سماه " خبز الشعير " المأكول المذموم، بين فيه سرقاته لشعره)). وذكر ابن نباتة سبب تأليفه ذلك الكتاب فقال: ((وعجبت له كيف رضي لنفسه هذا الأمر منكراً وكيف حلا لذوقه اللطيف هذا الحرام مكرراً)).

ز - كتبه في البلاغة:

وللصفدي مجموعة كتب في البلاغة والبديع نذكر منها:

١ - ((جنان الجناس)).

٢ - وفض الختام عن التورية والاستخدام.

٢ - ونصرة الثائر على المثل السائر، ويتصدى الأول لعرض أصل الجناس، ثم يبين فنونه وتصرف الشعراء فيه، ومر بنا غرامه بالجناس، وقد استشهد في الكتاب بكثير من قوله نظماً ونثراً.

ط - خاتمة:

وهكذا عاش الصفدي أديباً كاتباً شاعراً ناقداً، مؤرخاً جمع كثيراً من تراث عصره وأخباره، وعلَّق عليه، وعادت كتبه مرجعا قيماً له.

- ثانياً -

ابن خلدون

(٨٣٢هـ - ٩٠٨ هـ)

أ - حياته ومسيرته:

أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، نزح أجداده من المشرق وسكنوا إشبيلية، ثم انتقلوا إلى تونس، وفيها ولد ابن خلدون. ولي الكتابة والوساطة بين الملوك في المغرب والأندلس، ثم كثر خصومه فارتحل إلى مصر، حيث قلده السلطان برقوق قضاء المالكية، فاستدعى أسرته إليه فغرقت في البحر قبل وصولها، فانقطع عن العمل في منصبه وانصرف إلى التدريس والتأليف، إلى أن مات بمصر.

كتب ابن خلدون في التاريخ مؤلفاً عنوانه: ((كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)).وهو يقع في ثلاثة كتب تتألف من سبعة مجلدات، أهمها الكتاب الأول المسمى: ((مقدمة ابن خلدون)) وقد ضمنها المؤلف أصول فلسفة التاريخ والاجتماع، ونقد فيه المؤرخين قبله، ثم وصف تطور الأمم من البداوة إلى الحضارة، وترقي الشعوب في الاجتماع والدين والسياسة، والاقتصاد والعلوم والفنون، وعوامل نشأة الدولة وضعفها وانهيارها، وطبائع أهل البدو والحضر، وقد نالت مقدمته اهتمام الغربيين فترجمت إلى اللغات الأجنبية، وعد ابن خلدون بها مؤسساً لعلم الاجتماع؛ إذ لم يسبقه أحد إلى إرساء أسس هذا العلم.

وأسلوب ابن خلدون سائغ سهل لا تكلف فيه، ولا التزام بالسجع والبديع اللذين طغيا على الكتابة في عصره وهو يعرض فكره الجبار بأسلوب منطقي يعززه بالشواهد والأدلة المنتزعة من التاريخ والحياة. ويعد ابن خلدون علماً متميزاً في الثقافة العربية الإسلامية وعبقرياً في فكره التحليلي المبدع في عصر جمد فيه الإبداع وانصرف فيه الناس إلى الجمع والتصنيف دون استنباط أو استقراء أو تجديد.

ب - مقدمته:

- الترف مؤذن بخراب الدولة:

يقدم ابن خلدون تحليلاً مفصلاً لعواقب ابتزاز الرعية الذي يميز الدول التي بلغت حد الانهيار، ويستنتج أحكامه من الواقع المضطرب لدول المغرب في عصره في القرن الرابع عشر الميلادي.

((إن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم. وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب. فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك، لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها، فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران واختل حال الدولة... ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور، بل الظلم أعم من ذلك، وكل من أخذ ملك أحد، أو غصبه في علمه، أو طالبه بغير حق، أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه، فجباة الأموال بغير حقها ظلمة، والمعتدون عليها ظلمة، والمنتهبون لها ظلمة، والمانعون لحقوق الناس ظلمة، وغصاب الأملاك على العموم ظلمة، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها.

ومن أشد الظلامات وأعظمها في إفساد العمران تكلف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق. وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان، ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع، فتكسد الأسواق ويبطل معاش الرعايا؛ لأن عامته من البيع والشراء وإذا كانت الأسواق عطلاً منها بطل معاشهم وتنغص جباية السلطان أو تفسد، لأن معظمها من أواسط الدولة وما بعدها إنما هو من المكوس على البياعات كما قدمناه.

واعلم أن الداعي لذلك كله إنما هو حاجة الدولة والسلطان إلى الإكثار من المال بما يعرض عليهم من الترف في الأحوال فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرج ولا يفي به الدخل على القوانين

المعتادة. فيستحدثون ألقاباً ووجوهاً يوسعون بها الجباية ليفي الدخل بالخرج، ثم لا يزال النزف يزيد، والخرج بسببه يكثر والحاجة إلى أموال الناس تشتد ونطاق الدولة بذلك يزيد، إلى أن تنمحي دائرتها ويذهب رسمها ويغلبها طالبها)).

ج - **نقده للأدب:** كتب ابن خلدون عن علم الأدب في مقدمته: ((هذا العلم لا موضوع له، ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه أن تحصل به الكلمة من شعر عالي الطبقة، وسجع متساو في الإجادة، ومسائل في اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة، ويستقري منها الناظر في الغالب قوانين العربية، مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة، والأخبار العامة.

والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم، ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه؛ لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه، فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه، ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف، يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم، وتوسلهم بالاصطلاحات العلمية، فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم قائماً على فهمها.

وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين، وهي (أدب الكاتب) لابن قتيبة، وكتاب (الكامل) للمبرد، وكتاب (البيان والتبيين) للجاحظ، وكتاب (النوادر) لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها، وكتب المحدثين في ذلك كثيرة وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر، إذ الغناء إنما هو تلحينه، وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على أساليب الشعر وفنونه. فلم يكن انتحاله قادحاً في العدالة والمروءة.

وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصفهاني كتابه في (الأغاني) جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم، وجعل مبناه على الغناء في المئة صوت التي اختارها المغنون للرشيد، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه. ولعمري إنه ديوان العرب، وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال، ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها وأنى له بها، ونحن الآن نرجع بالتحقيق على الإجمال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان، والله الهادي للصواب)).

- ثالثاً -

ضياء الدين بن الأثير

أ - بيئته:

ولد ضياء الدين بن الأثير بجزيرة ابن عمر من أعمال الموصل وينسب إليها فيقال الجزري، وهي قرية صغيرة في إقليم الجزيرة شمالي العراق على الشاطئ الغربي لدجلة شمالي الموصل، ويذكر ياقوت أن سبب تسميتها بابن عمر؛ لأن أول من عمرها هو الحسن بن عمر بن الخطاب. وكان في عهده يحيط بالبلدة سور قوي على نهر دجلة يضم داخله مسجداً والقلعة والمدرسة، وكانت في القرن السادس تتبع والياً من قبل أتابك الموصل، ثم تولاها والده أثير الدين محمد، وضياء الدين، لا يزال صبياً. وكانت له بساتين وضياع. وانتقل هو وأسرته إلى الموصل وأتم بها أبناؤه تعليمهم ومن بينهم ضياء الدين والموصل حينذاك أتابكية عظيمة لآل زنكي، وقد ازدهرت في عهدهم ازدهاراً كبيراً، وتعتبر الموصل أكبر المدن العراقية في الشمال. قال ابن جبير عن أهلها: ((أهلها أحسن طبعاً وأكرم حيلة من أهل بغداد وهم على طريقة حسنة يستعملون أعمال البر)).

ب - نشأته وحياته:

ولد ضياء الدين سنة ٥٥٨ هـ بجزيرة ابن عمر من أسرة عربية شيبانية عريقة، فقد كان والده أثير الدين محمد بن عبد الكريم من سراة قومه، ولا نجد كثيراً عنه فيما بين أيدينا من المراجع، كذلك لا يحدثنا عنه ضياء الدين كثيراً، لكن ابنه الثاني عز الدين المؤرخ يذكر في مواطن متفرقة من كتبه نتفاً من أخباره كلما عرضت مناسبة.

وكان أثير الدين فيما جاءنا من أخباره رجلاً عاقلاً وقوراً ذا مكانة في الدولة من آل زنكي أتابكة الموصل، ويبدو مما أورده عز الدين أنه بدأ اتصاله برجال الشهيد عماد الدين زنكي مؤسس دولتهم بين عامي ٥٢٢ هـ و٥٤١ هـ، أو في خلال تسع عشرة سنة، وعقب مقتله تولى ابنه سيف الدين غازي، ثم قطب الدين مودود عهد إليه بولاية بلدته جزيرة ابن عمر وتولى

خراجها أي خلال الفترة من سنة ٥٤١ إلى ٥٦٥ هـ، وكان أثناء ولايته أمرها باراً بأهله، لا يثقل عليهم في تحصيل المكوس ومسح الأرض وجني الخراج مما دعا إلى غضب الأتابك ووزيره عليه أحياناً.

فقد ذكر عز الدين أن قطب الدين استدعى والده مرة ولامه لتهاونه في الجباية فهو رجل ذو حكمة وسياسته ودهاء، وحب لأهله وعشيرته فقد استطاع التوفيق بين خدمة أتباعه ومصلحة أهل بلدته. وكان يجمع إلى هذا الحب لمواطنيه والإخلاص لرؤسائه، وحسن الرأي والنصيحة والعفة وعدم التكالب على المال.

وكان لكرم خلقه وحسن تدبيره وولائه أثرها في نفس أتابك الموصل، إذ قويت ثقته به وصار يطمئن له فيما يكله إليه من عمل ويجزيه عنه خير الجزاء. وزاد تقريب قطب الدين له فولاه الخزانة العامة. قال عز الدين عن والده: ((وكان - أي قطب الدين - يدخل إلى الخزانة بعض الوقت ونحن فيها إذ كنت أتولاها فلا يخرج منها إلا وقد وهب كلاً من الحاضرين منها شيئاً صالحاً. وربما يرسل إلى من غاب سهمه)).

وانتقل بهذا المنصب الجديد إلى الموصل وظلت مكانته في قربى ووثوق بالأتابكة، وكذلك أولاده من بعده حتى وثقوا بهذا البيت، وصار أبناؤه يخدمون بيت قطب الدين في ولاء وتولوا لهم الوزارة والكتابة على ما يتعرف بعد قليل. وبلغ من الجاه والمنصب ما تتوق إليه النفوس، كما بلغ من الثروة القدر الوفير الذي مكَّن له وأولاده أن يعيشوا في بحبوحة وخير وفير. فكانت له ضياع وبساتين ببلده وبالعقيمة مقابلها، وكانت له تجارة تغدو وتروح بين الموصل والشام ومصر وتمخر البحر إلى أوروبا.

ويذكر عز الدين أن الفرنج نهبوها مرة عام سبع وستين وخمسمئة باللاذقية وأخذوا مركبين منها مملوءين بالأمتعة. إذاً فقد اجتمع لأسرة ضياء الدين الأصل العربي الكريم والثراء والجاه وكان له عدد من الإخوة نبغ بينهم ثلاثة. اثنان يكبرانه هما مجد الدين (ولد سنة ٥٤٤ هـ) وعز الدين (ولد سنة ٥٥٥ هـ)، ولا نعرف كثيراً عن طفولته ولا ما تلقى من العلوم، وكل ما نعلمه أنه ولد بجزيرة ابن عمر سنة ٥٨٨هـ. وأغلب الظن أيام أن كان والده متولياً أعمال الجزيرة فتلقى دروسه الأولى كغيره من أطفال المسلمين والعرب

في عصره، فحفظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وتعلم شيئاً من اللغة والأدب والحساب.

وحفظ بعض الأحاديث والشعر القديم، وقد ذكر أخوه عز الدين أنه كان يتردد على المدرسة بجزيرة ابن عمر يسمع شيئاً من الحديث سنة ٥٧٤ هـ. وانتقل بعد ذلك مع أسرته إلى الموصل حيث عمل أبوه صاحب خزانة قطب الدين مودود، أي بعد سنة ٥٦٥ هـ، وقد ظل والده يعمل في خدمة الأتابكة إلى أن استعفى وتولى بعده ابنه مجد الدين خدمة عز الدين مسعود في حدود سنة ٥٨٩ هـ، وظل ضياء الدين يواصل دراسته في صباه المبكر بالموصل، في إحدى مدارسها الكثيرة، وأن يدرس على جماعة من شيوخها المشهورين وخاصة على أخيه الأكبر مجد الدين العالم المحدث.

وانتقل ضياء الدين إلى الشام عام ٥٨٧ هـ، والتحق بخدمة صلاح الدين وأبنائه وعمره إذ ذاك تسعة وعشرون ربيعاً. ويذكر ابن خلكان أنه لدى وصوله إلى دمشق اتصل أولاً بالقاضي الفاضل، فألحقه بخدمة السلطان، وكان القاضي الفاضل يعطف على الأدباء والكتاب، ويجل العلماء ويقربهم، وربما كانت له صلة بأخيه الأكبر مجد الدين، أو كان قد سمع به وبعلمه، ومن حوادث هذه السنة ٥٨٧ هـ أن صلاح الدين كان مشغولاً بحرب الصليبيين على سواحل فلسطين في عكا وغيرها من المواقع.

ويذكر ابن خلكان أن القاضي الفاضل قدم ضياء الدين للسلطان في شهر جمادى الآخر من السنة نفسها. وكان السلطان إذ ذاك مستجماً في بيت المقدس شتاء، وقد سرح جنده في إجازة استجمام، وكان ابنه الأفضل في دمشق، وسمح بالتحاق ضياء الدين بخدمة ابنه الأفضل علي، وربما التقيا من قبل حول عكا فأعجب الملك الأفضل بالكاتب الشاب ورغب إليه أن يلازمه، واستأذن أباه في أن يستلحق ضياء الدين، فبعث السلطان لضياء الدين بأن يختار بين البقاء في صحبته أو اللحاق بابنه فاختار جوار الأفضل ولحق به في شوال سنة ٥٨٧ هـ.

وتلازما منذ ذلك التاريخ ولم يفترقا، وعاد معه في خريف ذلك العام وبداية العام التالي سنة ٥٨٨ هـ حيث كانت جيوش السلطان تتجمع من جديد لتقف متربصة بجيوش الصليبيين المتحفزين على الساحل قرب يافا وغيرها من الثغور. ويذكر ضياء الدين أنه كان بأرض

فلسطين ((قبالة العدو الكافر من الفرنج – لعنهم الله – وتقابل الفريقان على مدينة يافا عام ثمن وثمانية وخمسمئة)). ولم يحرز أحد الفريقين انتصاراً حاسماً في هذا العام فتوقفا عن القتال وعقدت الهدنة، وعاد السلطان وولده الأفضل وكبار رجال الدولة كالقاضي الفاضل والعماد الأصبهاني، والقاضي ابن شداد وضياء الدين بن الأثير جميعاً إلى دمشق.

وفي عام تسعة وثمانين أي في العام الثالث لحضور ضياء الدين للشام توفي صلاح الدين وتولى من بعده ابنه الملك الأفضل على الشام، وكان شاباً في الثانية والعشرين من عمره يملؤه الغروروالطيش، ويحالفه سوء الحظ، وتنتابه من حين لآخر نوبات تدل على الاضطراب وعدم الاتزان، فتارة تراه قاسياً عنيفاً، وتارة يغلبه الضعف ويستسلم للبكاء. وحيناً تراه معربداً يشرب الخمر ويستبيح الحرمات ويسهر في معاقرة ملاذه للصباح، وحيناً يستبد به الوجد والتصوف والتزام حدود الدين فيعكف على القرآن يقرؤه أو ينسخه بخطه، تاركاً الأمور كلها بيد وزيره الشاب ضياء الدين.

والأفضل بعد هذا وذاك كله أديب يعشق الأدب وينظم الشعر. وتصرف الملك الأفضل بعد وفاة والده صلاح الدين تصرفاً يوحي بالتسرع والحمق إلى حد كبير. نفر منه كثيراً من كبار الدولة والمقربين من والده. ومن ذلك أنه بعد وفاة أبيه تصدر دست الحكم ولم يفرغ المشيعون من جنازته، ومنه طرده الأمراء الكبار، وإقصاء كبار معاوني والده عن بلاطه بإيعاز من وزيره ضياء الدين كما يقول أكثر المؤرخين.

قال ابن كثير: ((وكان الأفضل بعد وفاة أبيه قد أساء التدبير، فأبعد أمراء أبيه وخواصه، وقرب الأجانب، وأقبل على اللعب وشرب المسكر واللهو. واستحوذ عليه وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزري، وهو الذي كان يحدوه إلى ذلك فتلف وأتلفه، وضل وأضله وزالت النعمة عنهما)). كذلك ذكر المؤرخون أن أهل دمشق ضجوا من سياسة الوزير الكاتب ضياء الدين. فقال فيه أحد شعرائهم:

متى أرى وزيركم ... وما له من وزر

يقلعه الله فذا ... أوان قلع الجزر

ومن هذه النصوص التاريخية نتبين حقيقة في سياسة الوزير ضياء الدين وصاحبه الأفضل وهي سخط رجال الدولة الكبار عليهما، وقد أشرنا إلى أن ذلك ربما كان راجعاً إلى طبيعة في خلق الأفضل وتصرفاته، فقد غلب عليه الطيش والاضطراب، وربما وجد من ضياء الدين ما ساعده على ذلك، وقد نشتم مما جاء من أخبار ضياء الدين ضرباً من الاعتداد الشديد بالنفس والافتقار إلى الكياسة وحسن التصرف والسياسة ولين الجانب على عكس والده أثير الدين.

ونلاحظ تطاوله على الوزير الخطير والكاتب ونائب الملك أحياناً في مصر القاضي الفاضل في كتابه المثل السائر ومحاولته الإقلال من شأنه وتقديم نفسه عليه في الكتابة. وربما رأى رجال صلاح الدين المخلصون تدخل هذا الرجل في شؤون دولته وهو أصلاً ابن أحد كبار رجال دولة الأتابكة الموصليين الأعداء التقليديين، والمنافسين الخطيرين في المعسكر العربي الإسلامي خطراً على دولتهم أو تطفلاً.

وهكذا تجمع الساخطون ممن طردهم الأفضل من دمشق بإيعاز من ضياء الدين في مصر عند العزيز عثمان وعمه العادل، وأوغروا صدريهما للإطاحة بهما، ودبت عقارب الفتنة. واتسعت شقة الخلاف، وثارت نار الحرب بين الأخوين عثمان والأفضل وزكاها العادل ليكسب من ورائها، وليحقق أطماعه في وراثة ملك أخيه العريض. وحاصر العزيز عثمان دمشق ودخلها وتدخل العادل، فأصلح بين الأخوين ونصح الأفضل بإقصاء وزيره ضياء الدين، ثم غادر دمشق بعد أن زوج الأفضل ابنته واصطحب معه العزيز متجهين إلى مصر. وما لبثا غير قليل حتى جاءتهما الأنباء من جديد بعودة الأفضل إلى سيرته الأولى، ورجوع ابن الأثير إليه، وإمعانه في غيه وسوء تصرفه، فنهض العادل ومعه العزيز مرة أخرى، وانتزعا دمشق من الأفضل، وقد أعانهما قادة الأفضل وأمراؤه الذين أغضبهم ابن الأثير وأبعدهم عن بلاطه فسلموا دمشق خيانة لسيدهما.

وكانت النتيجة أن استسلم الأفضل كما يقول المؤرخون، وفتحت أبواب دمشق بعد أن تخلى عنه أنصاره، ونزل من القلعة مستسلماً يبكي ويعتذر ويطلب الصفح، وانتهى الأمر بينه وبين عمه وأخيه إلى الصلح وأن ينتقل من ملك دمشق والشام إلى ولاية صغيرة، في صرخد. ودبر حاجبه جمال الدين أمر هروب ابن الأثير متخفياً في جملة الصناديق التي تحمل متاع الأفضل ليلاً.

وبالاستيلاء على دمشق ونفي الأفضل إلى صرخد وهروب ضياء الدين متخفياً تنتهي المرحلة الثانية من حياة صاحبنا الحافلة المثيرة، وتنتهي إلى حد كبير أطماعه السياسية وآماله العريضة التي كان يبنيها لنفسه كرجل دولة له شأنه. ولم يمض على مجيئه إلى دمشق من بلده الموصل مهاجراً أكثر من أربع سنين.

وأهم ما أثر في ثقافة ضياء الدين وفنه الكتابي في هذه الفترة اتصاله بعلماء دولة صلاح الدين وكبار كتابه وعلى رأسهم القاضي الفاضل وعماد الدين الأصفهاني، وقد كتب للأفضل كثيراً من الرسائل الديوانية، كما تبادل بعض الرسائل الإخوانية حفظ لنا نماذج منها في كتابه المثل السائر وفي ديوان رسائله. وحرص ضياء الدين أثناء توليه زمام الأمور في دمشق مع الأفضل على اقتناء الأموال فأخذ أموالاً كثيرة مما ادخره من أموال دمشق وأعمالها ثلاث سنين، وهرب بها إلى بلاده. وصحب ضياء الدين الأفضل إلى صرخد، ويقال: إنه خرج من دمشق إلى الموصل، ثم عاد فلحق بالأفضل في صرخد، وتبادل معه قبل اللحاق به بعض الرسائل واتصل في الموصل بخدمة نور الدين أرسلان شاه (٥٨٩ هـ - ١١٩٣ م) - (٦٠٧ هـ - ١٢١٠ م)، وظلا متصلين عن قرب أو بطريق الرسائل حتى تجددت الأحداث بموت العزيز في تلك الصلة بين الأفضل ووزيره السابق، وتحفز الأفضل لاستعادة السلطة، ووراثة ملك أخيه وكان عمه العادل مشغولاً بحصار أحد حصون ديار بكر، وكانت لا تزال المناوشات والنزاع قائماً بين أتابكة الموصل ومن تبعهم وبين العادل وأبناء صلاح الدين.

واتفق بعض قادة العزيز بعد وفاته على استدعاء الأفضل إلى مصر ليكون وصياً وأتابكاً لابن العزيز الطفل. وجاء الأفضل القاهرة من الشمال متخفياً حتى لا يعلم عمه العادل أو بقية أعدائه في مصر والشام فيقفون في طريقه. واستولى على مقاليد الأمور بالقاهرة في ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ، ولحق به ضياء الدين بن الأثير بعد أن ظن أن الأمور قد استتبت. فبعد استيلاء الأفضل على الحكم بعث إليه برسالة يهنئه بملك مصر من الموصل على لسان صاحب الموصل.

وأسرع ضياء الدين بالسفر إلى مصر في العام نفسه سنة (٥٩٥ هـ) ليتصل بخدمة الأفضل مرة أخرى، ومكث في القاهرة عاماً وبعض عام من سنة ٥٩٥ هـ إلى سنة ٥٩٦ هـ، وذكر شيئاً

عن هذه الرحلة إلى مصر في " الوشي المرقوم " فقال: وكنت سافرت إلى مصر سنة ست وتسعين وخمسمئة. واتصل بالقاهرة بجماعة من علمائها وخاصة علماء الأدب واللغة، وتركت إقامته في القاهرة ومصر آثارها على إنتاجه وكتابته، يذكر ابن خلكان أن له رسالة في " مصر والنيل " يقول فيها: " وعذب رضابه فضاهى جنى النحل، واحمرّ صفيحه فعلمت أنه قتل المحل ".

واشترك في الحياة الأدبية، وناظر العلماء والأدباء، وسجل بعض ذلك في كتبه قال: " ورأيت الناس مكبين على شعر أبي الطيب المتنبي دون غيره، فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك، وقلت: إن كان لأن أبا الطيب دخل مصر فقد دخلها قبله من هو مقدم عليه، وهو أبو نواس الحسن بن هانئ، فلم يذكروا لي في هذا شيئاً، ثم إني فاوضت عبد الرحيم بن علي البيساني في هذا فقال: إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس، ولقد صدق فيما قال ".

ولم يمهله القدر طويلاً بالقاهرة، إذ ما لبثت الرياح أن جرت بغير ما يهوى فعاد العادل من الشمال بعد وفاة العزيز، وكان الأمل الذي يراوده بالانفراد بملك أخيه لا يزال يقوى ووجد الفرصة مواتية بوفاة صاحب مصر، فأراد أن يملك مصر ويخلع عنها الأفضل؛ لأنها بيضة الملك وسرته، ومن امتلكها سيطر على بقية دولة صلاح الدين، ولما علم الأفضل بوصول عمه إلى مصر وبنيته في خلعه هرب، وفي أعقابه وزيره ضياء الدين متخفياً مرة أخرى، إلى سميساط إحدى ولايات الشمال الصغيرة. وتم الاتفاق بين الأفضل وعمه العادل على أن يسلم له الأفضل حكم مصر نظير أن يخرج هو إلى بعض بلاد الشمال حيث أعطاه العادل ميافارقين وحران وسميساط من بلاد الجزيرة.

ولكن الأمور لم تستقر بينهما مع ذلك وظل الأفضل في محاولاته لاستعادة ملك أبيه من عمه فسار بجيش سنة ٥٩٧ هـ يؤازره أخوه الملك الظاهر صاحب حلب لحصار دمشق، وكان عليها أحد أبناء العادل الملك المعظم عيسى، ولكنهما فشلا في الاستيلاء عليها، وكان الملك المعظم قد أحسن السيرة، واجتذب قلوب أهل دمشق فأعانوه والتفوا حوله، وخاصة عند علمهم بعودة الأفضل. وعادوا حصار دمشق مرة أخرى سنة ٥٩٨ هـ، ولكن الأفضل عاد ثانية مدحوراً إلى الشمال إلى حمص، ثم إلى سميساط التي لم يبق له سواها.

ولزم ضياء الدين الأفضل في سميساط سنوات من سنة ٥٩٦ هـ إلى سنة ٦٠٦ هـ أو سنة ٦٠٧، وشاهد اندحار صاحبه، وفشل كل محاولاته لاستعادة ملكه وتقلصت آماله واقتصرت على تلك المدينة من مدن الشمال بعد الملك العريض والجاه والسلطان. وفي تلك الأثناء دبت الوحشية بينهما. ولم يلبث الأفضل أن انقطعت به الأسباب واختلف مع أخيه الملك الظاهر صاحب حلب، وأصبح خلفاء أبيه جميعاً ضده، وحالفه سوء الحظ، فلم يجد مخرجاً من تلك الخطوب التي حلت به إلا أن يلجأ إلى صاحب الروم من سلاجقة آسيا الصغرى - فيضع نفسه وولايته تحت إمرته ويدين له بالولاء ويقطع خطبة عمه ويخطب له، يريد بذلك أن يرد على نكايته بنكاية، وقابله على تآمره بخيانة !. ويشير ضياء الدين إلى هذه المحن في حياته مع أميره في سميساط وبلاد الروم في مواضع كثيرة من المثل السائر.

ويغادر ضياء الدين الأفضل بعد زوال دولته، وخروجه على عمه وإخوته إلى أعدائهم سلاجقة الروم، فيلجأ إلى الملك الظاهر صاحب حلب سنة ٦٠٧ هـ، ولم يكن اللقاء بينه وبين الظاهر جديداً، بل سبقه لقاء آخر في سفارة له بين أخيه الأفضل وبينه مرات، وربما ظن ضياء الدين أن خروجه عن كنف الأفضل إلى الظاهر سيبعد عنه نجم النحس الذي لازمه، وأنه ربما حقق بعض ما خاب ظنه في تحقيقه مع الأفضل، ولكن سوء الحظ أبى إلا ملازمته حتى في صحبته للظاهر.

فلقيه الظاهر بفتور، وربما كان ذلك لحذره منه وحرصه من مغامراته وتصرفاته أو لعله كان حريصاً على رضا رجاله وقواده، وكان كثير منهم من أعوان والده. والذين قد يسوءهم تدخل ضياء الدين وخاصة بعد أحداث دمشق والقاهرة ولم يبق في حلب طويلاً فأسرع في لم شمله متجهاً إلى موطنه الموصل، فإنه كتب لعز الدين مسعود رسالة عقب توليه الملك سنة ٦٠٧ هـ بعد وفاة أبيه وهي السنة نفسها التي غادر فيها جوار الأفضل في سميساط والظاهر في حلب.

وانتهى به المطاف مرة أخرى بالموصل في ذلك العام، والتحق بخدمة أميرها عز الدين مسعود الثاني في أولى سنوات توليه (٦٠٧ - ٦١٥هـ) وكان أخو ضياء الدين الأكبر مجد الدين المبارك قد توفي قبل وصوله بشهور سنة ٦٠٦هـ بينما كان أخوه الثاني عز الدين في خدمة

البلاط. وتنقل بين الموصل وأربل وبغداد في هذه الفترة الأخيرة من حياته منذ ٦٠٧ هـ إلى سنة ٦٣٧ هـ فذهب إلى أربل سنة ٦١١هـ، ثم إلى سنجار ثم عاد إلى الموصل سنة ٦١٨ هـ، وكانت هذه الفترة التي تنقل فيها بين الموصل وأربل وسنجار فترة نزاع بين البلاد الثلاثة فقد كانت أربل وسنجار يعاضدهما الأشرف موسى ضد الموصل وعليهما خلفاء الملك مسعود من أبناء زنكي، وانتهى النزاع بين أربل والموصل.

وتم الصلح بين كوكبوري صاحب أربل وبدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل والوصي على أميرها سنة ٦١٧ هـ، وكان إذ ذاك الأمير ناصر الدين محمود (٦١٦ - ٦٣١هـ) وتولى طفلاً في الخامسة وقام على دولته أتابكة بدر الدين. ولزم ضياء الدين بلاط ناصر الدين محمود وخدم أتابكة لؤلؤ، وكتب له الإنشاء وظل كذلك إلى أن مات ناصر الدين محمود، وتولى لؤلؤ الملك سنة ٦٣١ هـ وهو الذي أوفده في سفارة إلى خليفة بغداد في السنة التي مات فيها سنة ٦٣٧هـ.

وظل ضياء الدين طوال تسعة عشر عاماً، وهي الفترة الأخيرة من عمره مستقراً بالموصل بعد طول أسفاره شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً سعياً وراء المجد والغنى، وتفرغ للأدب قراءة وكتابة وتعليماً، وقال ابن كثير في حوادث سنة ٦٢٧هـ، بعد تولية الخليفة المستنصر العباسي ببغداد: ((وقدم رسولٌ من صاحب الموصل يوم غرة شعبان يحمل رسالة من الوزير ضياء الدين أبي الفتح نصر الله بن الأثير فيها التهنئة والتعزية بعبارة فصيحة بليغة)).

وظل يدرس كتبه وخاصة " المثل السائر " لطلبته، وذاع أمره بين الناس وتوافد عليه طلاب العلم يتزودون من فضله وأدبه، وكذلك تولى تدريس كتب أخيه مجد الدين المبارك. وقد لقيه في هذه الفترة من علماء العصر علي بن أنجب المعروف بابن الساعي صاحب تاريخ " الجامع المختصر " والمتوفي سنة ٦٧٤ هـ، وجلس إليه وحدثه بكتب أخيه.

وتمنى ابن خلكان - وكان وقتئذ بأربل ومر بالموصل - أن يلتقي به ليأخذ عنه شيئاً. وبعد أن ترك ضياء الدين للأدب والعلم ثروة من رسائله ومؤلفاته كما خلد اسمه بين علماء عصره وطلاب علمه، توفي سنة ٦٣٧ هـ، وقد بلغ من العمر ثمانين عاماً.

ج - ثقافته وشيوخه:

تلقى العلم صغيراً في بلدته جزيرة ابن عمر، ثم أتمه بالموصل بمدارسها، وكان شافعياً كأبويه وإخوته. واهتم ضياء الدين بدراسة القرآن والحديث، وحفظه صغيراً كما استوعب كثيراً من الحديث حفظاً وتفسيراً، واستعان بهما في دراساته البيانية، وفي كتابته إذ اقتبس منهما وضمنهما كثيراً من كتاباته، وتتلمذ فيهما على أخيه الأكبر مجد الدين صاحب الكتب المشهورة في الحديث ورجاله.

كذلك نستطيع أن نقول مما أورد في كتبه أنه قرأ من الكتب المتصلة بالقرآن " جواهر القرآن " للغزالي و" تفسير الكشاف " للزمخشري، وعن اهتمامه بالحديث يقول في كتاب الوشي المرقوم: ((وكنت أتعبت نفسي زماناً في ذلك حتى جمعت كتاباً يشتمل على أكثر من ثلاثة آلاف خبر من الأخبار النبوية، كلها يحتاج إليه في أسباب الكتابة، وكنت ألزم مطالعة ذلك الكتاب، ولا أزال في مطالعته كالحال المرتحل، حتى صار لدي مقصوداً وبلسان قلمي معقوداً)).

وقرأ في الفقه وأصول الدين بعض كتب أبي حامد الغزالي مثل " إحياء علوم الدين " و" كتاب الأربعين " كذلك قرأ له في أصول الفقه كتاباً لم يعينه. وقرأ في اللغة والنحو وعلم البيان والأدب مجموعة كبيرة وفي اللغة قرأ لأبي علي الفارسي، وقرأ للمبرد كتاب الروضة وربما كتاب الكامل أيضاً، والخصائص لابن جني، والأمثال للميداني وإصلاح ما تغلط فيه العامة لأبي منصور الجواليقي، وفي الأدب كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ومقامات الحريري، وفي الشعر ديوان الحماسة لأبي تمام، واستوعب أكثره ونقل عنه واستشهد بما فيه. كما قرأ اللزوميات لأبي العلاء المعري، وله عليه مآخذ، ونقائض جرير والفرزدق ودواوين كثير من الشعراء القدامى والمعاصرين ورسائل مشاهير الكتاب أمثال أبي هلال الصابي.

ويعبر ضياء الدين في مناسبة أخرى عن هذا الاهتمام من جانبه بشعر هؤلاء الثلاثة دون غيرهم فيقول: ((وقد اكتفيت في هذا بشعر أبي تمام حبيب بن أوس وأبي عبادة الوليد وأبي الطيب المتنبي وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعزاه ومناته الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته، وقد حولت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء)).

ومحصوله في البيان وكتب البلاغة والنقد أوفر من غيرها، وانكشفت له أقوال الأئمة المشهورين كأبي الحسن بن علي بن عيسى " الرماني " وأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، وأبي عثمان الجاحظ، وقدامة بن جعفر الكاتب، وأبي هلال العسكري، وأبي العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي، وأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي وغيرهم ممن له كتاب يشار إليه، ويقول: تعقد الحناجر عليه)).

كذلك قرأ لابن المعتز ونقل عن كتابه البديع والقاضي الجرجاني ونقل عن الوساطة بين المتنبي وخصومه، وأبو علي الحاتمي توفي ٣٨٨ هـ وكتابه حلية المحاضرة، كما قرأ كتاب " مقدمة ابن أفلح البغدادي " التي قصرها على تفصيل أقسام البلاغة كما قرأ تذكرة ابن حمدون البغدادي.

ولم يهتم ابن الأثير بذكر شيوخه مع أن الموصل كانت حافلة بكثير من رجال العلم في هذا العصر أمثال الفقيه محمد بن يونس الموصلي (٥٣٥ - ٦٠٨هـ) وقد انتهت إليه رياسة أصحاب الشافعي، وقصده الفقهاء من البلاد، ودرس بالموصل بعدة مدارس، ومن علماء اللغة ابن الدهان سعيد بن المبارك (توفي ٥٦٩ هـ) وقد تناول ضياء الدين كتابه ((المآخذ الكندية)) بالنقد، وكان أخوه مجد الدين قد درس عليه.

د - جوانب ضياء الدين

١ - ضياء الدين المؤلف:

تنقسم كتب ضياء الدين إلى ثلاثة أقسام هي:

أ - قسم المختارات والبلاغة.

ب - صناعة الإنشاء.

ج - المعارف العامة.

ويندرج تحت القسم الأول مجموعة من كتب المختارات في الحديث والشعر والأمثال، كتابه من مختارات الأحاديث، ولم يصلنا شيء عن هذا الكتاب، وربما لم يهتم ضياء الدين بعرضه على الناس أو ربما ضاع بين ما ضاع من مؤلفاته. وله كتاب مختصر جرد فيه أمثال

الميداني. قال في المثل السائر: وكنت جردت كتاب الأمثال للميداني أوراقاً خفيفة تشتمل على الحسن من المثال الذي يدخل في باب الاستعمال. ومن مختاراته الشعرية مجموعة من مختار شعر أبي تمام والبحتري وديك الجن والمتنبي في مجلد واحد كبير، ثم موضوعات الشعر الأخرى، ووجه النظر أثناء عرضه لمقطوعات الشعر أو أبياته المختارة إلى ما فيها من المعاني والتشبيهات، وتدل على ذوق حسن في فهم الشعر.

وله مجموع في معاني الشعر أشار إليه في كتاب الاستدراك وسماه (عمود المعاني) قال: (وقد ألفت في ذلك كتاباً وسميته عمود المعاني، وجعلته مقصوراً على ضروب المعاني الموجودة في النظم والنثر وما فيها من الأعمدة المطروقة، وما يخرج عنها من الشعب. وهكذا كتاب تعبت في تأليفه زماناً طويلاً، وأنا ضنين به).

وأما كتبه في البلاغة فأشهرها كتابه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر وهو أكبرها، ويغلب الظن أنه آخر ما ألف من الكتب، أو ربما سبق كتاب الاستدراك، ولكنه ألفه على أية حال في العشرين عاماً الأخيرة من عمره، وليس بعد ذلك على الأرجح، وظل يدرسه بالموصل، ويعيد فيه ويزيد أو ينقص حسب ما يتراءى له، ونقول أنه انتهى من تأليفه قبل وفاته بأكثر من خمس عشرة سنة؛ لأنا نجد نسخة قديمة منه بدار الكتب المصرية فرغ كاتبه منه في يوم السبت الحادي والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٦٢٢هـ، وفي أوله إجازة بخط المؤلف كتبها بالموصل في شهر شعبان سنة ٦٢٢هـ أجاز بها الشيخ عضد الدين أبا محمد مظفر بن محمد بن علي بن جعفر المشقي.

ويقوم موضوع الكتاب على أساس علم البلاغة بكل أبوابه، وما يتصل منها بالنثر أو الشعر جميعاً بالإضافة إلى مجموعة من النصائح والإرشادات الموجهة إلى الشعراء والكتاب في أصول الصناعة، وبناه الكاتب على مقدمة وقسمين كبيرين أحدهما خاص بالألفاظ أو الصنعة اللفظية والثاني بالصنعة المعنوية. وتناول في المقدمة أصول صناعتي الشعر والكتابة. واهتم بالكتابة أكثر من اهتمامه بالشعر ونصح الكتاب نصائح لإجادة الصنعة فيها، وأول ما ينصح به الكاتب أن يكون له طبع وميل للكتابة، وأن يتعلم العربية والنحو، وأصول اللغة، ويحفظ أمثال العرب وأشعارهم القديمة والمحدثة، ويحفظ القرآن ويتدرب على استعماله، والحديث

والأخبار النبوية، ومعرفة الأحكام السلطانية والتاريخ وأيام العرب وأخبارهم والاطلاع على تأليفات من تقدم من المنظور والمنثور، ومعرفة العروض والقوافي.

ثم يتحدث في المقالة اللفظية عن خصائص الألفاظ المفردة، ويجمعها في سهولة النطق، والبعد عن الغرابة والحوشية والابتذال، مع حسن وقعها في السمع، وأن يقبلها الذوق ولا ينفر منها الطبع وتكون جارية على قواعد اللغة وأصولها في البناء والإعراب. وأما خصائص اللفظ المركب فأكثرها شبيه باللفظ المفرد، وفصاحة المركب متصلة كذلك بحسِّ التأليف وهو أن لا يثقل على اللسان النطق به فيصير متعسراً في النطق أو ثقيلاً على السمع لتعاقب الأفعال مثلاً، وأن يكون في تأليفه قريباً من المألوف غير شاذ كالتراكيب في الضمائر وتعاقب حروف الجر وما إليها. ويجعل من أبواب الألفاظ المؤلفة مما اعتاده الناس من أبواب البديع والبلاغة السجع في المنثور، والتصريع في المنظوم، والتجنيس، والترصيع ولزوم ما لا يلزم، والموازنة في المنثور.

والقسم الثاني الخاص بالمعاني يتحدث فيه عن أبواب المعاني المعروفة في علم البلاغة أو معاني القول أي المعاني الإجمالية والجزئية كمعاني الغزل، ومعاني المدح وما إليها والمعاني القسم الخاص والمصطلح البلاغي الذي يندرج تحته أبواب التقديم والتأخير والالتفات والإيجاز والإطناب والاستعارة والكناية وما إليها. ثم يختم الكتاب بالكلام في السرقات باعتبار أن السرقات ضرب من المآخذ المعنوية، وتصرف الشعراء في المعاني المختلفة والمشتركة.

والكتاب الثاني الذي ثبت لضياء الدين، واتضحت فيه ملامح شخصيته هو كتاب " الاستدراك على المآخذ الكندية " وهو في السرقات أو المعاني المشتركة بين الشعراء، وجعله استدراكاً على كتاب " المآخذ الكندية من المعاني الطائية " أو سرقات المتنبي من أبي تمام لابن الدهان. وثبوت الكتاب لضياء الدين دون غيره من أبناء الأثير إخوته أو من بعدهم واضح، فقد أشار في المثل السائر إلى أنه ألف مقالاً أورد فيه كلاماً عن السرقات والمعاني فقال: " ولي في هذا مقالة مفردة ضمنتها الحكم على المعنيين المختلفين، وتكلمت فيه كلاماً طويلاً عريضاً، وأقمت الدليل على ما نصصت عليه وما منعني من إيرادها في كتابي هذا إلا أنها سنحت لي بعد تصنيفه وشياعه في أيدي الناس، وتناقل النساخ له ".

كذلك أشار في الاستدراك إلى المثل السائر قائلاً: ((ولو أخذت في استقصائه لاتسع المجال، ولكنه يوجد في كتابي الموسوم بالمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، فإنه موضوع لبيان أسرار الألفاظ وتفصيل أقسامها)).

وأهم ما في الكتاب مقدمته الطويلة في المعاني المشتركة والمآخذ بين الشعراء ويبدو منها انتصاره للمتنبي وتقديمه له ولشعره وتفضيله تجاهه وتجاه أبي تمام وأمثالهما من شعراء الحكمة وأصحاب المعاني العقلية والتجارب المستمدة من الحياة على الشعراء الوصافين المصورين كامرئ القيس وأبي نواس في بعض شعره.

ثم يظهر في الكتاب ميله إلى عدم الارتكان إلى تحكيم اللغويين وأصحاب القواعد والأصول في معاني الشعر أو المبالاة بآرائهم في جودة الشعر أو شرحه وفهمه، فإن منهم من يحسن فهم الشعر ولا يتذوقه لاقتصاره منه على تتبع غريبة، وما يحتاج من لفظة إلى بيان أو تفسير. أو ربما اهتم عالم النحو بإعرابه وتوجيه بعض ألفاظه. وهذا عنده لا يجدي في صنعة الشعر فتيلاً.

وحاول في هذا الكتاب أن يستدرك على ابن الدهان باعتباره عالماً لغوياً ونحوياً مشهوراً في بلده وعصره، مبيناً نظريته التي قال بها وهي أن معرفة اللغة والإلمام بقواعد النحو شيء والمعرفة بأسرار علم البيان وحسن تذوق الشعر شيء آخر.

وبعد هذه المقدمة الطويلة التي يعرض فيها لجوانب مختلفة من أصول نقد الشعر مع بيان مذهبه في ذلك يأتي الكتاب أو صلب الكتاب وهو استدراكاته على ابن الدهان فيما نسبه إلى المتنبي من سرقات من أبي تمام مبيناً أن بعض ما اتهمه فيه بالسرقة ليس؛ كذلك لأنه مأخوذ من معاني القدماء أو مثله في ذلك مثل أبي تمام فكلاهما وارد على ما ورد عليه صاحبه، كما بين في استدراكاته خطأ ابن الدهان أحياناً في نسبة بعض الشعر إلى المتنبي أو إلى أبي تمام وليس لكليهما أو أنه اتهم المتنبي بالسرقة في بعض المعاني، ولا يمكن أن تعد كذلك لبعد ما بينهما أو لعدم وجود صلة واضحة بين المعنيين، وهكذا متتبعاً في ذلك ما اتبعه ابن الدهان من تناول المتنبي حسب ترتيب القوافي.

وأما القسم الثالث من كتبه وهو الخاص بصناعة الإنشاء فنستطيع أن ندرج فيه كتابين أحدهما " الوشي المرقوم في حل المنظوم " و" المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء ".

أما الكتاب الأول فقد طبع منذ زمن، وهو صغير الحجم ويتعرض لجانب من جوانب الصناعة وهو حل الشعر، أي نثره في أسلوب جميل مناسب، ويعرض نماذج لذلك من صنعته. وبالإضافة إلى هذه الكتب فإن له ديوان رسائل كبير قال ابن خلكان وغيره: إنه في عدة أجزاء والمختار منه في مجلد.

٢ - ضياء الدين الكاتب المترسل:

عمل ضياء الدين بكتابة الرسائل منذ شبابه المبكر فقد التحق بالأفضل بن صلاح الدين وكتب لصلاح الدين ثم للأفضل، ثم لأصحاب الموصل. وظل على ذلك إلى أن توفي. وكان يعارض القاضي الفاضل في رسائله، فإذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها، وكانت بينهما مكاتبات ومجاوبات، ولم يكن له في النظم شيء حسن.

وقد استشهد بكثير مما كتب في المثل السائر والوشي المرقوم، وأخذه ابن أبي الحديد في الفلك الدائر على ذلك. قال: ((وضرب كلامه أمثلة أكثرها جيد وفيها ما ليس بجيد مثل قوله: فسرنا في غمامة من الكتائب، تظللها غمامة من الطيور الأشائب، فهذه يضمها بحر من حديد وهذه بحر من صعيد، وذلك لأن الصعيد وجه الأرض، والطيور التي تظل الجيش إنما يضمنها بحر من الجو والهواء لا من الأرض)).

إلا أنه مع ذلك يعجب بطريقته في حل المنظوم، ويعتبر أنه أقام صناعته على هذا الفن أي حل الشعر. فقد اعترف في أول المثل السائر بأنه قد حفظ القرآن الكريم وكثيراً من الحديث والسنة النبوية المشرفة والأخبار والشعر وما إلى ذلك واستخدمها في كتابه عن طريق الحل والاقتباس والتضمين والاستعانة بالألفاظ والمعاني، أو المجاراة في النسق وطريقة التأليف وما إلى ذلك.

ولكنه مال أيضاً إلى طريقة العصر في أن عمد إلى أسلوب السجع، ولم يكن يميل في سجعه إلى الفقرات القصار، كذلك لم يكن يستخدم السجع الطويل الفقرات، بل كان يراوح بين

فقراته طولا وقصراً. وعد هذا أحسن وأدعى إلى طول نفس الكاتب وأتم لإظهار معانيه واستيعاب ألفاظه لها.

وتأثر بالقاضي الفاضل في كثير من خصائص فن الكتابة، ونعلم أن الفاضل استغل الاستعارة والتشبيه أتم استغلال كما استخدم التضمين والاقتباس من القرآن الكريم والشعر القديم أجمل استخدام، كذلك أشاع التورية في كتابه حتى عدت من دعائمها كما يقول ابن حجة الحموي، ومن ثم كانت من خصائص المدرسة المصرية في الكتابة. وكان الفاضل نفوراً من السجع المتكرر المتكلف، وكذلك كان ضياء الدين، ولم يكن ميالاً إلى تكرار الكلام في السجع أي تكرار المعنى الواحد في فقرتين متتاليتين، وعد ذلك عيباً في الصناعة وعِياً.

ولكنه بالرغم من هذا كله كان يفتقر إلى حد كبير في كتابة الرسائل إلى الرشاقة وخفة الظل التي اتسمت بها رسائل القاضي الفاضل وإن لم تسرف في الثقل إسراف رسائل العماد الأصبهاني، وأسلوبه المرسل في المثل السائر والاستدراك أجمل من أسلوب رسائله المتكلف.

الباب الثالث والعشرون

الحكمة والفلسفة العربية والإسلامية

- أولاً -

فلسفة السهروردي

إن مبدأ الفلسفة الإشراقية وأساسها الأول (أن الله نور الأنوار ومصدر جميع الكائنات فمن نوره خرجت أنوار أخرى هي عماد العالم المادي والروحي، والعقول المفارقة ليست إلا وحدات من هذه الأنوار تحرك الأفلاك وتشرف على نظامها)).

فالإشراق، بمدلوله العميق، هو " الكشف " أي ظهور الأنوار العقلية ولمعانها وفيضانها بالإشراقات على الأنفس عند تجردها.

لقد شغل السهروردي بالإشراق عن كل شيء بالحياة، وإنا لنلمس نفحات هذه الفلسفة في الكثير من كلماته ودعواته التي كان يرددها في خلواته:

((الإشراق سبيلك اللهم، ونحن عبيدك، نعتز بك، ولا نتذلل لغيرك، لأنك أنت المبدأ الأول والغاية القصوى، منك القوة وعليك التكلان...أعنا على ما أمرت، وتمم علينا ما أنعمت ووفقنا لما تحب وترضى،...إلخ)).

إن الإشراق هو سبيله إلى الفيض العلوي هذا الفيض الذي لا يتجلى إلا على من أُشرب قلبه بحب الحكمة، وقد أحب السهروردي الحكمة ومزج نفسه بها حتى لقب بالحكيم. ولا يطلق لقب الحكيم عنده إلا على من له مشاهدة للأمور العلوية، وذوق مع هذا وتأله.

ويرى أن أول الشروع في الحكمة:

١ - الانسلاخ عن الدنيا.

٢ - مشاهدة الأنوار الإلهية.

٣ - ما لا نهاية له.

لقد قرن السهروردي الفلسفة إلى التصوف كما قلنا، وأطلق على الفيلسوف المتصوف لقب " الحكيم المتأله " وهو عنده أن يكون على ارتباط وثيق بالصوفي الذي يتذوق. وإلى هذا أشار في كتابه " حكمة الإشراق" أن كتابه هذا ((لطالبي التأله والبحث، وليس للباحث الذي لم

يتأله ولم يطلب التأله فيه نصيب... ولا نباحث في هذا الكتاب ورموزه إلا مع المجتهد المتأله، أو الطالب للتأله. فمن أراد البحث وحده فعليه بطريقة المشائين، فإنها جنة للبحث وحده، محكمة، وليس لنا معه كلام ومباحث في القواعد الإشراقية، بل الإشراقيون لا ينتظم أمرهم دون سوانح نورانية)).

ويشرح لنا هذه الفكرة بوضوح أشمل فيقول: ((وفي الجملة " الحكيم المتأله " هو الذي يصير بدنه كقميص يخلعه تارة ويلبسه تارة أخرى... ولا يعد الإنسان في الحكماء ما لم يطلع على الخميرة المقدسة وما لم يخلع ويلبس، فإن شاء عرج إلى النور، وإن شاء ظهر في أي صورة أراد. وأما القدرة فإنها تحصل عليه بالنور الشارق عليه. ألم ترى أن الحديدة الحامية إذا أثرت فيها النار تتشبه بالنار وتستضيء وتحرق ؟ فالنفس من جوهر القدس إذا انفعلت بالنور واكتست لباس الشروق أثرت وفعلت: فتومئ فيحصل الشيء بإيمائها، وتتصور فيقع على حسب تصورها... فالدجالون يحتالون بالمخارق والمستنير الفاضل المحب للنظام. البريء من الشر يؤثر بتأييد النور؛ لأنه وليد القدس)).

وفلسفته تستمد أصولها من روح صوفية مشرقة، وهو يريد من الصوفي الفيلسوف أن يصل إلى مرتبة " الحكيم المتأله الذي يجمع في أطواء نفسه الحكمة والتجرد والانسلاخ عن الدنيا والوصول إلى الذات الإلهية".

فما هي صفات ((الحكيم المتأله))

وما مراتبهم عند السهروردي ؟

إنهم أصناف متباينو الاتجاهات وإن كانوا يلتقون عند هدف واحد وهو ((الاستضاءة بنور الله)) ويصنفهم إلى مراتب:

١ – حكيم إلهي متوغل في التأله عديم البحث، وهو كأكثر الأنبياء والأولياء والصوفية أمثال أبي يزيد البسطامي وسهل بن عبد الله التستري، والحسين بن منصور الحلاج.

٢ – وحكيم بحاث عديم التأله، وهو كالمشائين من أتباع أرسطو في المتقدمين، وكالفارابي وابن سينا في المتأخرين.

٣ – وحكيم إلهي متوغل في التأله والبحث، وهذا هو الحكيم الإشراقي الـذي يجمـع بـين الحكمية والذوق والبحثية، وهذه الصفة تنطبق على السهروردي نفسه.

٤ – وحكيم إلهي متوغل في التأله، ضعيف في البحث.

٥ – وحكيم إلهي متوغل في البحث، ضعيف في التأله.

وليس من شك أن أرقى هذه المراتب وأسماها هي مرتبة الحكـيم الإلهـي المتوغـل في التألـه والبحث جميعاً.

يقول الأستاذ مهدي علام: إن وضع السهروردي الحكيم الإشراقي فوق مرتبة الأنبياء هو الذي أثار عليه ثارة عصره. والسهرودي حين أضفى صفة التأله على الحكيم لم يحالفه التوفيـق في التعبير عن فكرته، إذ إنه لم يرد أن يصل الحكيم الإشراقي إلى درجـة الألوهيـة، بـل أراد أن يقبس من أنوارها ما يعينه على البحث والوصول إلى البرازخ العليا التي تبعده عن الدنيويات.

وهذا المذهب يدور عنده على محور واحد وهو " النور " وألفينا لهذا النور مراتـب هـي في حقيقتها مراتب الوجود من أعلاها إلى أدناها ((فالمبدأ الأول لكل وجود هو النور القـاهر، أو النور الأول المطلق. وحقيقة النور وماهيته إنما هي في ظهوره)). وهذا يعني أن الظهـور لـيس صفة من الصفات التي تحمل على النور إذ لو كان كذلك لترتب عليه أن لا يكون للنور في ذاته ظهور ما، وأن يكون ظاهراً بشيء آخر ظاهر في ذاته وهذا محال.

((ومن هنا لم يكن للنور الأول المطلق علة أخرى غير ذاته، وكان كل نور سوى هذا النـور الأول المطلق تماماً حادثاً وممكناً ومفتقراً إليه، بقدر ما هو قديم وواجب وغني)). ثم عبَّر عـن حقيقة النور بقوله: ((إن كان في الوجود ما لا يحتاج إلى تعريفه وشرحه فهو الظاهر، ولا شيء أظهر من النور. ولا شيء أغنى منه عن التعريف، وإذا كان ذلك هو النور، فإن الظلمة ليـست عبارة عن عدم وجود النور فحسب، فقـد رأى أن الـشيء ينقـسم إلى نـور وضـوء في حقيقـة نفسه، وإلى ما ليس بنور وضوء في حقيقة نفسه)).

وهكذا فقد أظهرنا السهروردي على حقيقة " نـور الأنـوار " مـن خـلال الـصفات التـي وصفه بها. فنور الأنوار: نور محيط؛ لأنه يحيط بجميع الأنوار لـشدة ظهـوره وكـمال إشراقـه، ونفوذه فيها للطف. وهو قيوم لقيام الجميع به. وهو مقـدس؛ لأنـه منـزه عـن جميـع صـفات

النقص. وهو الأعظم الأعلى إذ لا أعظم ولا أعلى منه بين جميع الأنوار جميعاً. وهو قهار؛ لأنه يقهر ما دونه من الأنوار. وذلك لشدة إشراقه وقوة لمعانه. وهو غني مطلق إذ ليس وراءه شيء يفتقر إليه، ولا دونه شيء يستغني عنه. وهو قبل كل هذا وبعد كل هذا كله واحد. ومن هنا ينتهي السهروردي إلى أن " نور الأنوار " بحكم طبيعته وحقيقته وأحديته إنما هو " واجب الوجود " بذاته، وما عداه واجب به، ومفتقر إليه.

و((حكمة الإشراق " هي نوع من تصوف الأفلاطونية الحديثة، فهي الفلسفة المشرقية التي ظهرت في أيام ابن سينا وصنف فيها رسالة سماها " الحكمة المشرقية " وكان لها طابع مع الإبهام تحررت منه بعد ذلك)). و((الإشراقيون الحكماء، أتباع المذهب القائل بحكمة الإشراق أو الحكمة المشرقية، ويطلق بوجه خاص على تلاميذ السهروردي. وهذه الحكمة هي عبارة عن مذهب التوفيق في الفلسفة اليونانية الذي انتقل إلى الشرق في كتب الأفلاطونية الجديدة، وما شابهها وامتزج بكتب الفرس وغيرهم، وهي فلسفة روحانية لها في نظرية المعرفة مذهب صوفي، وتعبر عن الله وعن " عالم العقول " بالنور... والمعرفة الإنسانية في هذا المذهب عبارة عن إلهام من العالم الأعلى يصل إلينا بوساطة عقول الأفلاك، وأكبر أصحاب هذا المذهب هم هرمس وأجاثوميين، وأبندوقليس وفيثاغورس وغيرهم، ولأفلاطون بهذا المذهب أكثر من صلة أرسطوية، وهؤلاء الفلاسفة يوصفون غالباً بأنهم أنبياء وحكماء وملهمون، وقد تأثرت الفلسفة الإسلامية بهذا المذهب منذ نشأتها إلى وقتنا الحاضر تأثراً كبيراً، وأتباع مذهب المشائين في الإسلام متأثرون بالفلسفة الإشراقية بعض الشيء...وربما كان أقلهم تأثراً بها الفيلسوف ابن رشد)).

ومع اتصال فلسفة الإشراق ببعض المذاهب التي انبثقت في فارس وعند الإغريق فقد صهر السهروردي آراء من تقدم ببوتقة من كشفه وذوقه ومواجيده وخرجها صورة نقية تعبر عن روح وحكمة وفلسفة، وهذا الذي جعل هذه الفلسفة توسم باسمه. رد السهروردي كل شيء في العالم إلى نور الله وفيضه، وهذا النور هو الإشراق.((وإذا كان العالم قد برز من إشراق الله وفيضه، فالنفس تصل كذلك إلى بهجتها بوساطة - الفيض والإشراق - فإذا تجردنا عن الملذات الجسمية تجلى علينا نور إلهي لا ينقطع مدده عنا. وهذا النور صادر عن كائن منزلته منا

كمنزلة الأب والسيد الأعظم للنوع الإنساني وهو الواهب لجميع الصور، ومصدر النفوس على اختلافها، ويسمى " الروح المقدسة " أو بلغة الفلاسفة " العقل الفعال " ومتى ارتبطنا به أدركنا المعلومات المختلفة، واتصلت أرواحنا بالنفوس السماوية التي تعيننا على كشف الغيب في حال اليقظة والنوم)).

وأكد السهروردي هذا المعنى بقوله: ((إن النفوس الناطقة من جوهر الملكوت، إنما يشغلها عن عالمها هذا القوى البدنية ومشاغلها. فإذا قويت النفس بالفضائل الروحية، وضعف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر، تتلخص أحياناً إلى عالم القدس. وتتصل بأبيها المقدس منه المعارف وتتصل بالنفوس الفلكية العالمة بحركاتها وبلوازم حركاتها، وتتلقى منه المغيبات في نومها ويقظتها كمرآة تنتقش بمقابلة ذي نقش)).

- ثانياً -

فلسفة ابن خلدون

في المجتمع والتاريخ والدولة

استطاع ابن خلدون من خلال عقله النيرِّ أن يقدم للعالم أهم العلوم الإنسانية (علم الاجتماع)، فهو المؤسس الأول له، وفلسفته في ذلك واضحة.

أولاً- نظريته الاجتماعية:

تقسم هذه النظرية إلى قسمين: يكشف (ابن خلدون) في القسم الأول عن أسباب وأسس نشوء المجتمعات البشرية ويسوغ في القسم الثاني القوانين الفاعلة في التطور الاجتماعي.

١ - أسباب نشوء المجتمع:

يرى (ابن خلدون) أن ثمة أسباباً أساسية لنشوء المجتمع البشري تعبِّر عن حقيقة أي مجتمع كان أصدق تعبير، وهذه الأسباب هي:

أ - الحاجات المادية:

فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وركبه على صورة لا تستقيم حياته ولا يكتب له البقاء إلا بالغذاء، لكن لما كانت قدرة الواحد من البشر قاصرة على تحصيل حاجته فيه فلابد من اجتماع عدد كبير من أبناء جنسه لتحصيل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة المذكورة لأكثر منهم بأضعاف.

ب - تقسيم العمل:

إن التعاون المتبادل بين الناس من أجل إرضاء الحاجات المادية يستدعي القيام بتقسيم الأعمال فيما بينهم، وذلك لأن حاجة الناس إلى الأدوات المختلفة والضرورية لسير العمل هي التي تفرض ذلك، وبهذا الصدد يقول ابن خلدون: " فالناس إنما يجتمعون للتعاون في تحصيل المعاش ابتداء بما هو ضروري وبسيط قبل الحاجي والكمالي فمنهم من يستعمل الفلح ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان، ومن هؤلاء من ينتحل الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة ".

ج - الدولة:

لكن لما كانت مصالح الأفراد متناقضة فيما بينهم فإن بقاء المجتمع رهن بوجود من يوازن بين الخاصيات الفردية المتناقضة، وهنا يأتي دور الدولة لقيادة ذلك المجتمع وتحقيق السلام بين أفراده، وهكذا نجد أنه لأول مرة في تاريخ العلوم يتحدد المجتمع لا كجماعة سياسية بالمعنى التقليدي الذي يقول: إن الإنسان مدني سياسي بطبيعته كما عبَّر عن ذلك (أرسطو) في الفكر اليوناني ولا كجماعة مثالية كما هي الحال عند (الفارابي) بل كجماعة قائمة على أساس العمل التعاوني المشترك الذي تفرضه حاجات تلك الجماعة المادية.

٢ - التطور الاجتماعي:

يمكننا القول: إن (ابن خلدون) كان أول من درس مراحل التطور الاجتماعي الذي وجد أنها تمثل انتقال المجتمع من حالة معيشية إنتاجية إلى حالة معيشية أكثر منها تقدماً، وقد رأى أن الاختلاف في أسلوب المعاش بين الجماعات يرجع إلى الاختلاف بينها في طرق تحصيلها لرزقها، فكل جماعة تبدأ بما هو ضروري منه وحين تشبعه تنتقل إلى " الحاجي والكمالي " وبناء على ذلك فإن المجتمعات مرت بحالتين: حالة العمران البدوي (ويقصد الحالة الرعوية) وحالة العمران الحضري " ويقصد الحالة الزراعية والصناعية ".

وهكذا يكون (ابن خلدون) أول من رسم طريق التطور الصاعد من المراحل الدنيا الى المراحل العليا بعد أن بين أن المجتمعات ليست ثابتة، بل عرضة للتغير دائماً، وأن طرق تحصيلها لرزقها هي القوة المحركة الدافعة لها إلى الأمام باستمرار، وقد أفصح عن ذلك صراحة حين قال في المقدمة: (اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلهم من المعاش وأن اجتماعهم إنما يكون للتعاون في تحصيله).

وعلى هذا النحو يكون (ابن خلدون) أول من صاغ نظرية في التطور الاجتماعي تقوم على أساس أن المجتمعات تتقدم من مراحل دنيا إلى مراحل عليا من خلال إنتاجها لشروط حياتها الضرورية والكمالية، وأول من ربط بين تطور أشكال الحياة الاجتماعية وتطور الطرق الإنتاجية التي تخدم تلك الشروط والحقيقة أنه وصل إلى ذروة الفهم الممكنة في عصره لقوانين التطور الاجتماعي مما جعله بحق صاحب فضل على العلوم الاجتماعية في التاريخ الحديث والمعاصر.

ثانياً: قيام الدولة:

يرى(ابن خلدون) أن هناك سببين لقيام الدولة:

الأول: حفظ أمن المجتمع ليتمكن الناس من العيش والتكاثر والإنتاج، فقد أودع الله في الإنسان الحاجة إلى الاجتماع لتحصيل ما يلزم لبقائه من طعام وشراب وكساء ومأوى ودفاع عن النفس.

الثاني: هو عصبية العشيرة وذلك أن الاجتماع البشري له شكلان هما البدوي والحضري.

والشكل البدوي: هو الأصل في كل أمة وهو السابق على الحضارة ونشوء الدولة نزوح نواتها العشائرية إلى المدينة وهجرها البادية فغاية العمران البدوي أن يصبح حضرياً، وقد عرف التاريخ بدواً كثيرين أصبحوا حضراً، ولكنه لم يشهد إلا قلة من الحضريين عادوا إلى الحالة البدوية فالبداوة أصل الحضارة.

وكل عصبة عند ابن خلدون تعيش أربعة أجيال:

١ – الجيل الأول: المترع بالعصبية والشجاعة والنشاط والتقشف.

٢ – الجيل الثاني: الذي ربي على يد الأول فاحتفظ ببعض مزاياه وفقد بعضها الآخر بسبب التحضر.

٣ – الجيل المقلد: الذي ولد وربي في النعيم وحسب أن الأمور تسلم له ولأهله قيادتها بلا مشقة فيشغل بالملذات.

٤ – الجيل الهادم: الضعيف ضعفاً مطلقاً المتفسخ بفعل تراكم الانحلال في شخصيته وبه تزول الدولة وعندما تؤذن الدولة بالانهيار قد يقوم ملك متحمس قوي بمحاولة إرجاع شبابها وتجنيبها الهاوية التي تنحدر إليها، ولكنه يفشل لأن فعل القوانين الاجتماعية الحتمية أقوى من فعل الأفراد، وأن العصبية هي التي تُنشئ قادتها وليس القادة هم الذين ينشئون العصبية.

ثالثاً: القوانين الناظمة للدولة عند ابن خلدون

هذا وإن أهم القوانين التي توجه سير الدولة نستطيع إجمالها عند ابن خلدون فيما يلي:

١ – قانون التخلص من الأعوان الأصليين أو قانون الميل إلى الحكم الفردي؛ لأن من طبيعة الملك الميل إلى الانفراد بالحكم والمجد ففي مرحلة تأسيس الدولة تكون القيادة جماعية والرئيس واحد من الجماعة يشاركهم في الرأي والغنائم والأمجاد، ولكن بعد النصر يبدأ يضيق بهم ويحاول ترويضهم أو التخلص منهم حتى ينفرد بالحكم من دونهم، ثم يصطنع له أعواناً من غير أهل عصبيته أقرب إلى الخدم المأجورين يرضون غرور الملك، ولكنهم يكلفونه غالياً مع ضعف قدرتهم على التضحية في سبيله، وهكذا ينقلب نظام الحكم فيغدو حكماً فردياً بعد أن كان ضرباً من ضروب حكم الخاصة.

٢ – قانون الانتقال من البداوة إلى التحضر: فبعد تحضر العشيرة الضافرة بانتقالها إلى سكنى المدن وكثرة المال في أيديها يستيقظ ميل الإنسان الطبيعي إلى الترف وتحسين الحياة، فيأخذ بالتفتح على ملاذ الحياة من طعام وشراب ومسكن وملبس فترق طباعه، فيطلب المتعة في العلوم والآداب والفنون وهذه نعيم من جهة وجحيم من جهة أخرى؛ لأنها تؤدي إلى إضعاف الهمم واعتياد الراحة والجشع إلى المال والانكباب على الشهوات ويرافقها الفسق والإسراف وذهاب العصبية التي يؤذن بذهاب الدولة.

٣ – قانون الحاجة المتزايدة إلى المال: تزداد حاجة الدولة إلى المال؛ لأن إقبالها على الترف وإحلالها الأعوان المرتزقة محل الأعوان الأصلاء يفجران حاجتها إلى المال فتحتال للحصول عليه بزيادة الضرائب والرسوم، وقد تصادر بعض أموال الرعية وربما سخرت الناس مصادرة بذلك عملهم الذي هو سبب زرقهم، وقد تدخل الدولة إلى السوق بائعة شارية وتفرض على الناس التعامل معها.

٤ – قانون الانتقال من البساطة إلى التعقيد: فأجهزة الدولة في أول أمرها بسيطة، لكنها ما إن تستقر وتتسع أعمالها حتى تنشئ الأجهزة المتعددة المختصة بإدارة الشؤون المتنوعة، ويحتاج القائمون بالأمر إلى أصحاب الكفاءات لإدارة هذه الأجهزة فقلما يعثرون على متصف بالكفاءة والأمانة معاً فإن شاؤوا أن يقنعوا بإحدى الصفتين ففضيلة الكفاءة مقدمة على فضيلة الأمانة.

رابعاً- أطوار الدولة:

خلال عمر الدولة تكون سياسة ملوكها قد مرت بخمسة أطوار هي:

١ – طور الظفر بالبغية حيث تكون الأمور شركة بين الملك وبين أقطاب عصبيته.

٢ – طور الاستبداد والتفرد بالحكم وتصفية الشركاء الأوليين.

٣ – طور التفرغ للبناء والعمران والتنظيم والتفاخر بالمنشآت.

٤ – طور التقليد حيث يقلد الملوك أسلافهم وتكون مقدرتهم دونهم.

٥ – طور الموادعة والمسالمة أو الضعف والعجز عن مدافعة المنشق والمنافس.

وهنا تؤذن الدولة بالزوال، ومن علامات اقتراب نهاية الدولة تجزئها واستقلال أصحاب الولايات بولاياتهم وتبدأ بالانفصال ولايات الأطراف حيث تكون قبضة الدولة أضعف منها في بقية المناطق وتجهز على الدولة الهرمة عادة دولة جديدة ما تزال في طور الفتوة والعنفوان والعصبية وإذا لم توجد هذه الدولة الجديدة فقد تعيش الدولة المتداعية أكثر من عمرها الطبيعي لتأخر وصول من ينفذ حكم القدر فيها، وعلى كل حال فإن مآلها إلى السقوط لا محالة كالثمرة التي تنتظر النأمة حتى تهوي.

خامساً - فلسفة التاريخ:

يعرف (ابن خلدون) التاريخ (بأنه خبر عن الاجتماع الإنساني وما يعرض له من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع).

ويشهد " ابن خلدون: بفضل علم التاريخ من حيث قيامه على الفكر الدقيق والبحث العميق حتى يدخله في علوم الحكمة، ومن حيث أهميته بالنسبة إلى كل من يفكر في شؤون المجتمعات الإنسانية؛ لأنه يقدم ما يجب الاقتداء به ويعلم كيفية التصرف والسلوك، وهو لذلك ساخط على الدرك الذي تردت إليه أحوال التاريخ حتى ادعاه من لا يفهمه ولا يدرك أصوله.

ويعتقد (ابن خلدون) أن المؤرخ يجب ان يكون دائماً على حذر عند نقله الأخبار؛ لأن مجال الوضع والتشويه واسع والنفس الإنسانية سهلة الانخداع لما فيها من نقاط الضعف، وقد توضع الأخبار الكاذبة تسويغاً لسلوك معوج يزيد عن طريق تشويه سلوك الأوائل أن يحصل على فتوى لاعوجاجه، أو تشيعاً للآراء والمذاهب أو كيداً للمنافس والخصم أو تقرباً للحكام بتعظيم شأنهم وتحقير أمر منافسيهم ولا ننسى أن نفوس الناس تسرع إلى التصديق؛ لأن المحاكاة والتقليد من طبائعها، ولأن الغالبية تجهل أصول التحقيق التاريخي والقوانين الاجتماعية التي تفرق بين المعقول وغير المعقول من الحوادث كما أن النفس مولعة بكل عجيب وغريب فيجب عدم الثقة بالناقلين الذين يلجؤون إلى التعديل والتجريح.

ومنه نجد أن منهج التحقيق التاريخي عند (ابن خلدون) هو العودة إلى الثقات والموازنة بين الأخبار وقياس بعضها على بعض والعلم بطبائع العمران أو القوانين الاجتماعية التي تسير الحوادث بموجبها سيراً منتظماً، ويعطي (ابن خلدون) أهمية كبيرة لمرحلة تحقيق الحوادث حتى أن علم الاجتماع الذي أسسه يعتبره وسيلة من وسائل التحقيق لما يقدمه من قوانين تساعد المؤرخ على تبين الحوادث الممكنة والمستحيلة في عصر من العصور.

فالتعليل التاريخي أو الكشف عن أسباب الحوادث يهدي المؤرخ إلى الحوادث التي يمكن أن تقع أو لا تقع في شروط معينة لذلك فالخبر قبل راويه فعلى المؤرخ أن يتأكد أولاً أن الخبر ممكن بحسب قوانين الكون والاجتماع، ثم يبحث ثانياً في راويه هل هو صادق أم هو كاذب إذ إن (ابن خلدون) هو واضع فلسفة التاريخ المبنية على تتبع الحوادث إلى عللها وكشف قوانينها ولو استطعنا ذلك لأصبح التاريخ علماً.

لذلك فمن أهم قواعد البحث التاريخي أن الحوادث يرتبط بعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول أي أنه لو تشابهت الظروف لتشابهت تبعاً لذلك الوقائع وإذا سلمنا أن طباع الناس ثابتة أو شبه ثابتة كانت معرفة الحاضر معرفة صحيحة هي وسيلتنا المأمونة إلى معرفة الماضي ومعرفة المستقبل ومادام الواقع الحاضر مدار حكمنا وجب علينا رفض ما قد يروى لنا من أخبار عن الماضي مما نراه مستحيل الوقوع.

سادساً - نظرة نقدية:

رأى (ابن خلدون) أن الإنسان محكوم بقوانين التاريخ ذات الطبيعة الدائرية بصورة حتمية، فصعود العشيرة يؤدي إلى استيلائها على السلطة واستقرارها يؤدي إلى انحلال عصبيتها واضمحلالها فالسلطة والحضارة تنتقل من يد إلى يد وكل حضارة تصنع ما صنع أسلافها وتهتم باهتماماتهم ذاتها، وقد تأخذ عنهم وقد تكون إنجازاتها أقل أو أكثر من إنجازاتهم إلا أنها لا تخطو خطوة جديدة على طريق مؤد إلى هدف منشود للإنسانية.

إن هذا يبين أن البشر مهما حاولوا فلن يستطيعوا أن يغيروا شيئاً، وفي ذلك إهدار لفاعلية الإرادة الإنسانية عبر التاريخ، ومع ذلك كان (ابن خلدون) رائداً فيجب ألا يحاسب إلا على أساس أنه رائد؛ لأن الرواد قوم مخضرمون يعيشون في مستويين المستوى الذي نشؤوا فيه وربوا، والمستوى الذي تطلعوا إليه وطمحوا، لهذا لا يحاسب (ابن خلدون) بصفته عالم من علماء القرن العشرين في البلاد المتقدمة وإنما ينظر إليه من خلال مرحلته وعصره فيبدو عند ذلك عملاقاً مستشرفاً للآفاق البعيدة وأباً راسخ القدم من آباء الاتجاه العلمي على الرغم من احتفاظه برواسب من بيئته وعصره.

(عن الظلم مؤذن بخراب العمران)
ابن خلدون

الباب الرابع والعشرون

أعلام الحكمة والفلسفة العربية والإسلامية

- أولاً -

السهروردي

أ - مولده ونشأته الأولى:

في منتصف القرن السادس الهجري بين سنتي (٥٤٥ و٥٤٩ هـ) (١١٥٠ - ١١٥٥م) ولد شهاب الدين السهروردي في قرية سهرورد، من أعمال زنجان، وزنجان منطقة خصبة تزهو بطبيعة جميلة باسمة، ومناظر رائعة خلابة وأدغال وغابات كثيفة. وكانت سهرورد أزهى قرى تلك المنطقة، وقد نشأ فيها غير واحد من الفضلاء، وكان شهاب الدين أشهرهم بما تميزت به حياته من ألوان.

نشأ الطفل شهاب الدين، فحفظ القرآن، ودرب على تلاوة الأوراد، وكان يؤدي الصلوات الخمس بفرح نفساني عميق. كانت الصلاة عنده وهو صغير ليست ركوعاً وسجوداً وتلاوة سور فحسب، بل اتجاهاً كلياً نحو الخالق العظيم أن يأخذ بيده إلى طريق الخير ويوجه خطواته نحو الصراط المستقيم... تعلم وهو طفل، القراءة والكتابة في فترة قصيرة لم تطل، وكانت إحاطته بهما بهذه السرعة، موضع حديث القرية وما جاورها من القرى. كان الجميع يتحدثون عن ذكاء الطفل وعن سيره في طريق تختلف كل الاختلاف عن الطريق التي يسلكها أطفال القرية.

وإذ بلغ مراحل الفتوة، شعر من الأعماق أن هذه القرية التي نشأ في ظلالها لن تطمئن نزعاته إلى ما كانت تهجس به أخيلته... فقد ضاق بسهرورد. أو ضاق به أطفال سهرورد الذين كانوا يريدون منه أن يجاريهم في أهوائهم وعبثهم... وأن يصعد معهم في الجبال ويهبط الأودية يلعبون ويقنصون. فكان حبه للعلم وتفتق ذهنه اليقظ من البواعث الملحة التي حفزته أن يترك بليدته إلى بلدة تكون فيها الدراسة أعم وأشمل.

ب - أساتذته:

كانت " مراغة " وهي من أعمال أذربيجان من المدن التي استفاضت شهرتها بالعلم. فخرّجت أكابر العلماء وأنبتت شخصيات فذة في شؤون الدين وفي علوم الأولين.. وكان

عالمها الأشهر لزمن السهروردي، هو الشيخ مجد الدين الجيلي، وهو من أكابر العلماء الذين عرفوا ببعد النظر وسعة العلم، وقد أشرب قلبه بالحب الإلهي فتتلمذ عليه غير واحد من الأعلام كان في طليعتهم الإمام فخر الدين الرازي.

وما كاد الفتى شهاب الدين التلميذ الناشئ المحب للمعرفة يسمع علو كعب هذا الرجل حتى هرع إليه يطلب العلم من وطابه. وكانت حلقة دروسه تضم مختلف الشباب ممن استهوى العلم أفئدتهم، وكانوا من مناطق مختلفة وجنسيات متباينة، وقد التقى في حلقة الشيخ مجد الدين، مع فخر الدين الرازي، فكانا يسمعان إلى دروسه بكثير من الوعي دون أن يكون أية صلة سابقة بين التلميذين اللهم إلا هذه الصلة الجديدة، صلة التزاحم على اغتراف علم الشيخ، فكان الرازي مأخوذاً بدروس علم الكلام، بينما كان السهروردي مأخوذاً بعلم الكلام والمنطق كمدخل للدراسات الفلسفية.

استهوت السهروردي دروس الفلسفة أكثر من بقية العلوم لمواءمتها نزعته، وكان إلى فرط ذكائه وقوة حججه كثير الجدل وكانت مقدرته الجدلية موضع حديث كل من عرفه أو دخل معه في نقاش، وهذا الذي دفعه أن يمعن في دراسة الفلسفة لتقوي حجته على مناظريه. وقد شعر بعد ملازمته للشيخ مجد الدين الجيلي، وبعد أن حضر عليه زبدة دروسه،أنه في حاجة إلى أفق أوسع، وكانت أصفهان ذات شهرة واسعة في العلم أيضاً.. من زنجان إلى أذربيجان إلى أصفهان يغشى مدارسها ويتصل بعلمائها ويبحث عن نفيس كتبها فقرأ وهو في أصفهان كتاب " البصائر النصيرية " لابن سهلان الساوي. وقد أهمته بصورة خاصة كتب الرئيس ابن سينا، نعم لقد درج على هذه الحياة منذ نشأته الأولى فما يكاد يسمع برجل له شهرته أو بكتاب له قيمته حتى يشد إليه الرحال.

وفي هذه الفترة من بدء حياته المتأرجحة بين علوم الدين من جهة، وعلوم الفلسفة من جهة ثانية، وبين نزعته الدينية التي قادته إلى عوالم صوفية مشعة بالأنوار، في تلك الفترة من حياته، أخذت الحلقات الصوفية تجتذبه إلى رحابها، وقد تأثر أي تأثر بهذه الحلقات وبما كتبه الأئمة من المتصوفين فسار سيرهم وأخذ يرسم اختلاجاته النفسية في رسائل تعبِّر عن نزعاته في الدين والحياة والكون وهي مشربة بروح فلسفية تصوفية، وقد أهدى هذه الرسائل، إلى أصدقائه في أصفهان.

ج - نبوغه المبكر:

نشأ السهروردي نشأة أولئك الذين استهوتهم حياة العقل منذ نعومة أظفارهم وما زال حتى بلغ أوج هذه الحياة. وعانى في سبيل الوصول إلى عالم الحق والذات الإلهية الكثير من العذاب والمشقة والعنف والجهد والإرهاق. بدأ حياة التلمذة في أروقة المدارس وحلقات الجوامع يستمع إلى الأئمة والشيوخ في لهف وشوق... ولكن هذه الفترة من حياته لم تطل، فسرعان ما تخطى عهد التلمذة ووصل إلى مصاف الأساتذة: فمن تلميذ حاد الذكاء شديد النهم إلى المعرفة إلى معلم مرشد وإمام من كبار الأئمة، ومن دروس النحو والصرف والفقه والتفسير والمنطق، إلى عالم التصوف ودرجات الفلسفة يقرأ ويتأمل، يجادل ويناقش، يكتب ويؤلف يتقشف ويتفلسف.

ولقد هال هذا النبوغ المبكر أساتذته الذين كانوا يضيقون بأسئلته ومناقشاته وبجدله وتخريجاته، كان يحرجهم بمختلف الاستطرادات. وكثيراً ما كان يبزهم بدرايته ويتفوق عليهم في الفهم. تخطى في برهة قصيرة كل من سبقه من أعلام الفكر وجهابذة المعرفة واستطاع، وهو في شبابه، أن يرسم فلسفته الإشراقية التي لم توطد ركائزها على ما كتبه الفلاسفة والمتصوفون فحسب، بل على ما أحسه وشعر به إلى أن ينسى كل ما في الكون في سبيل الوصول عن طريق " التجرد " إلى الذات العليا.

قرأ ما كتبه فلاسفة اليونان وفلاسفة الفرس والهند وما كتبه المتكلمون والمتصوفة من الإسلاميين، وكوَّن لنفسه فلسفة جديدة قام بعضها على هذا المزيج من الفلسفات، وأكثرها على حياة " التفكير " و" التجرد "... وقد خلص من صوفيته ومن شتى دراساته المنطقية إلى نظرات فلسفية جديدة أملاها في الكثير من رسائله وكتبه وكونت بمجموعها " الفلسفة الإشراقية " التي اعتبر زعيمها الأول ومؤسس مدرستها الكبرى.

د - أسفاره:

كانت الأسفار والنقل في مختلف الأقطار بعض هواياته، فلا يكاد ينزل ببلدة جديدة حتى يبحث كما قلنا، عن علمائها ونفيس كتبها، بل عن أئمة الصوفيين يقبس من أنوارهم ما يسدد خطواته نحو المثل العليا: مثل الصوفيين الذين يتجردون عن كل ما في الحياة من مباهج في

سبيل الوصول، على قدم التجرد إلى مشاهدة أنوار الحق، وكما قال تلميذه الوفي الشهرزوري عنه إنه ((كثير الجولان والطوفان في البلدان، شديد الشوق إلى مشارك له في علومه)). فحين هبط ديار بكر اتجه إلى خربوط فأنس عند أميرها عماد الدين قره أرسلان الذي كان يحكم تلك المناطق - أنس كل مكرمة وتقدير فأهداه كتاب الألواح وهو كتاب في العلوم الحكيمة ومصطلحاتها، فحين توجه باسم عماد الدين سماه ((الألواح العمادية)).

وبالرغم من الرعاية التي أحيط بها في ديار بكر وخربوط، فإن مقامه في هاتين البلدتين لم يطل.. إن نفسه نزاعة إلى آفاق أوسع: ((وها هو ذا... قد بلغت سني إلى قريب من ثلاثين سنة، وأكثر عمري في الأسفار والاستخبار والفحص عن مشارك مطلع على العلوم ولم أجد من عنده خبر عن العلوم الشريفة، ولا من يؤمن بها)).

إن هذه السنوات التي قضاها في الأسفار، لم ترو غلته ولم تشبع نهمه لقد قرأ كثيراً واتصل بأعلام متفوقين، وغشي حلقات العلماء وأروقة الصوفيين وعاش لحظات طويلة مع الفلاسفة وأقطاب الحكمة. ومع ذلك كان يحس في قرارة نفسه، أن أشياء عويصة لا تزال مغلقة عليه. إنه يريد أن يطوف في مختلف أنحاء الدنيا ليصل إلى ما يكشف له هذه الأمور المغلقة وينتزع من قلبه هذه الغشاوة التي تعقد سحبها في كل خلية من خلايا وجدانه العقلي. إن المناقشات التي أدارها مع من اتصل بهم في رحلاته لم تطمئن نزعاته إنه يريد أن يصل إلى ما هو أسمى في حقيقة الكون، في النبوات، في الذات الإلهية... وحين كان يضيق بالمجادلات العميقة كان يلجأ إلى الوحدة والتأمل، ففي عالم الوحدة والتأمل كانت تنكشف له حالات ترتفع به إلى تلك الآفاق الروحية التي يجد في رحابها بعض ما يطمئن نزعاته ويهدئ من ثوراته.

لقد ذاع صيته وطبقت شهرته الآفاق، وأصبح السهروردي وهو في هذه السن من النوابغ والأعلام. وما زال ينتقل من بلد إلى بلد حتى حط عصا التسيار بمدينة حلب.

هـ - آراء العلماء فيه:

١ - آراء الأقدمين:

وصفه الشيخ فخر الدين المارديني وهو عالم متبحر وطبيب قد تصدى لشرح كتب ابن سينا، وكان السهروردي قد قصده في ماردين وناقشه مناقشات حادة. قال الشيخ فخر الدين:

((ما أذكى هذا الشاب وأفحصه لم أجد أحداً مثله في زماني. إلا أني أخشى عليه لكثرة تهوره واستهتاره وقلة تحفظه، أن يكون ذلك سبباً لتلافه)).

وقد صدقت فراسة هذا الشيخ فيه. وفي معجم الأدباء لياقوت (٥٧٥ - ٦١٦ هـ): ((شهاب الدين أبو الفتوح السهروردي، كان فقيهاً شافعي المذهب أصولياً أديباً شاعراً حكيماً نظاراً لم يناظره مناظر إلا خصمه وأفحمه)). وفي عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة (٥٩٥ - ٦٨٦ هـ) قوله: ((كان السهروردي أوحد أهل زمانه في العلوم الحكمية، جامعاً الفلسفية، بارعاً في الأصول الفقهية، مفرط الذكاء جيد الفطرة، فصيح العبارة، وكان علمه أكثر من عقله)).

وقال ابن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١ هـ): ((كان السهروردي من علماء عصره قرأ الحكمة وأصول والفقه على الشيخ مجد الدين الجيلي إلى أن برع فيهما)). وردد غير واحد من معاصريه كلاماً مماثلاً لما قدمناه، وقد رأينا الاكتفاء بهذه الفقرات التي تسجل رأي بعض الأئمة والمؤرخين بعبقرية هذا الشاب.

٢ - آراء المحدثين:

يعد السهروردي الزعيم الأول للمدرسة الإشراقية التي وضع أسسها. فقد نشر المستشرقون بعض كتبه ولخصوا آراءه الميتافيزيقية وفلسفته الإشراقية وعرضوا عرضاً شاملاً لنواحي حياته. وقارنوا بين آرائه وآراء من تقدمه من فلاسفة الإغريق والفلاسفة المعاصرين، وكان في طليعة المستشرقين الذين اهتموا بآرائه وكتبه " بروكلمن " و" أ. ريتر " الألمانيان، و" فان دي برج " المستشرق الهولندي الذي كتب عنه فصلاً في " دائرة المعارف الإسلامية " وترجم كتابه " هياكل النور " إلى الهولندية،و " ماسينيون " الذي عرض له في أثناء بحوثه عن الحلاج، و" باول كراوس " الذي كتب عنه كثيراً ونشر بعض رسائله ولاسيما رسالة " أصوات أجنحة جبرائيل " وكذلك "هنري كوربان " المستشرق الفرنسي الذي اهتم بالغ الاهتمام بحياة السهروردي وفلسفته فنشر كتاباً ضم رسائله الكثيرة بعنوان " الحكمة المشرقية " وشخصية السهروردي وكتبه تمثلان عند " كوربان " لحظات جوهرية في تاريخ الفكر في الإسلام.

و - صورته الجسمانية:

كان الحكيم شهاب الدين السهروردي شاباً غض الإهاب، ولكنه أهمل نفسه أو كاد وبلغ الإهمال به حتى كان على حد قول بعض من أرخ له ((زري الخلقة دنس الثياب وسخ البدن، لا يغسل له ثوباً ولا جسماً ولا يداً ولا يقص ظفراً أو شعراً)) وزادوا على ذلك فقالوا: ((إن القمل يتناثر على وجهه ويسعى على ثيابه وإن كل من يراه يهرب منه)).

فالواقع أن السهروردي كان لا يعنى بالمظاهر فهذه الناحية اتفق عليها أصدقاؤه وخصومه معاً. ولكن ليس للدرجة التي أشير إليها فقد وصفه تلميذه المحب الشهرزوري صاحب كتاب " نزهة الأرواح": ((إنه كان مستوي القامة، يضرب شعره ولحيته إلى الشقرة، وإنه كان يميل إلى السماع - يريد الموسيقا - وكان يبدي احتقاراً شديداً لكل مظاهر السلطان والأبهة الدنيوية، وكان - في بعض الأحيان - يلبس ثوباً واسعاً طويلاً وعمامة زاهية الألوان، و - أحياناً أخرى - كان يبدو على العكس من هذا، في ثياب مهلهلة ومراراً كان يقتنع بارتداء خرقة الصوفية)).

وقد روى ابن رقيقة هذه الملحة الطريفة فقال: ((كنت وإياه نتمشى في جامع " ميا فارقين " وهو لابس جبة قصيرة مضربة زرقاء، وعلى رأسه فوطة طويلة وفي رجليه زربول، ورآني صديق لي فأتى إلى جانبي وقال: ما جئت تماشي إلا هذا الخربندا، فقلت له: اسكت هذا سيد الوقت شهاب الدين السهروردي فتعاظم قولي وتعجب وانصرف !)).

وبالرغم من هذا الإهمال لمظهره فقد أحاط به العلماء يتعرفون إليه ويرحبون به. وحكى بعض فقهاء قزوين قال: نزلت برباط بأرض الروم في وقت الشتاء فسمعت صوت قراءة القرآن فقلت لخادم الرباط: من هذا القارئ ؟ فقال: شهاب الدين السهروردي... قلت: إني منذ مدة سمعت به وأردت أن أراه فأدخلني عليه. فقال: لا يدخل عليه أحد، لكن إذا علت الشمس يخرج ويصعد السطح ويقعد في الشمس فأبصره ! قال: فقعدت على طرف الصفة حتى خرج، فرأيت عليه لباداً أسود وعلى رأسه أيضاً قلنسوة من لباد أسود، فقمت وسلمت عليه وعرفته إني قصدت زيارته وسألته أن يجلس معي ساعة على طرف الصفة، فطوى مصلاه، وجلس فجعلت أحدثه وهو في عالم آخر...فقلت: لو لبست شيئاً غير هذا اللباد !

فقال: يتوسخ. فقلت: تغسله. فقال: يتوسخ. فقلت: تغسله. فقال: ما حييت لغسل الثياب. لي شغل أهم من ذلك. وبالرغم من هذا الإهمال لمظهره الذي لا يثير التجلة والاحترام فقد أحاط به العلماء يتعرفون إليه ويرحبون به، ولكن ترحيب الحذر من شاب جريء ذكي الجنان بليغ العبارة يحمل آراء اعتبرها بعض الفقهاء هرطقة وخروجاً على روح الدين.

وقد حرص العلماء حين استقر به المقام في حلب أن يتفرقوا إلى هذه الشخصية العجيبة التي بلغت هذه المرتبة من العلم وما يزال في هذه السن المبكرة، وقد أضيف إلى معلوماته علم السيمياء، فألصقت به حكايات وأساطير، منهم من ردها إلى كرامات الأولياء، ومنهم من ردها إلى شعوذات السميائيين الأذكياء. قال ابن أصيبعة نقلاً عن الحكيم إبراهيم بن أبي الفضل بن صدقة: إنه اجتمع بالسهروردي وشاهد منه ظاهر " باب الفرج " وهم يتمشون إلى الميدان الكبير ومعه جماعة من التلاميذ وغيرهم، وجرى ذكر هذا الفن – السيمياء – وبدائعه، وما يعرف الشيخ منه، وهو يسمع. فمشى قليلاً وقال: ما أحسن دمشق وهذه المواضع ؟ قال: فنظرنا، وإذا من ناحية الشرق جواسق عالية متدانية بعضها إلى بعض، مبيضة، وهي أحسن ما يكون بناية وزخرفة، وبها طاقات كبار فيها نساء ما يكون أحسن منهن قط، وأصوات مغان وأشجار متعلقة بعضها مع بعض، وأنهر جارية كبار لم نكن نعرف من ذلك من قبل. فبقينا نتعجب من ذلك وتستحسنه الجماعة وانذهلوا لما رأوا.

وقال الحكيم إبراهيم فبقينا كذلك ساعة... ثم غاب عنا وعدنا إلى رؤية ما كنا نعرفه من طول الزمن... قال لي: إلا أنه عند رؤية تلك الحالة الأولى العجيبة بقيت أحس في نفسي كأني في سنة خفية ولم يكن إدراكي كالحالة التي أتحققها مني)). أصحيح أن دمشق انتقلت إلى حلب بغوطتها وجوسقها وأنهارها وحسانها ونغمات فنانيها ؟ لا فقد خيل إليهم ذلك ؟ ولكن ما هي الطريقة التي لجأ إليها السهروردي حين سأل عن علمه بفن السيمياء، حتى أقنعهم أنه يملكه !. ألجأ إلى التنويم المغناطيسي أم إلى ظواهر الروح ؟ إن العلم الحديث يقر اليوم " ظاهرة الجلاء البصري" وفيها يرى الوسيط صورة لشيء ما لا يراها الغير، وتكون الرؤية باستعمال حس فوق الحس الفيزيقي طبعاً، وتختلف حالات الرؤية وضوحاً: من صورة ذهنية قوية إلى أخرى خارجية يراها الوسيط كما يرى الرائي أية صورة بالحس العادي. كما أنها

تختلف مكاناً: إذ قد يراها الوسيط تتخذ محلها في نفس المكان الذي يكون فيه، وقد تبدو لـه في مكان آخر يبعد عن مكانه، وربما وصل هذا البعد آلاف الكيلو مترات، بـل ربـما تبـدت هـذه الصورة للوسيط من جانب العالم الآخر، فيرى منه مناظر وأشخاصاً رؤية حقيقية. وقد أثبـت الدكتور ج. ب. راين أستاذ علم النفس بجامعة دبوك بالولايات المتحدة:

١ - إمكان التفاعل بين عقلين، عن قريب أو بعيد، بغير ما وسيلة مادية.

٢ - استطاعة العقل البشري الدخول في علاقة نشاط إدراكي مع المـادة بغـير اسـتعمال أي من الوسائل الحية الذاتية المعروفة.

٣ - استطاعة هذه القوى العقلية أن تعلو على الحدود المكانية.

٤ - استطاعتها كذلك أن تعلو على الحدود الزمنية.

ز - مأساته:

أخذ السهروردي يحضر كتلميذ متواضع دروس شيخ المدرسـة الحاويـة الـشريف افتخـار الدين، يريد أن يقبس من شيخ حلب أنـوار العلـم ومـصباح الهدايـة ممـا لم يـصل إلى سـمعه. ومرت الأيام وهو يستمع، فشعر أنه لم يفد شيئاً... وبدأ حياة المناظرة والجدل مع أستاذه ومـع فقهاء حلب وكانوا يكوِّنون عنه فكرة سيئة، وبدأت آراؤه وأقواله تنفذ إلى الهيئات العلميـة في المدارس والجوامع والمنتديات، وأصبح له شأنه، أحبه أناس وكرهـه آخـرون، شـأنه في ذلـك شأن ذوي المواهب الفذة الذين لا يكادون يظهرون حتى تتألب عليهم عناصر الجهل والغبـاء، وتعمل على إطفاء نورهم ووأد ملكاتهم وعبقرياتهم.

وقد تطور الجدل العلمي إلى خصومة رعناء،أخذ الفقهاء يتقولـون عليـه أشـياء لم يقلهـا، وينسبون إليه آراء لم يفُه بها. واستطاعوا أن يثيروا عليـه نقمـة الـرأي العـام، ولاسـيما بعـد أن ناظرهم في عدة مسائل فلم يثبت له أحد منهم، وظهر عليهم كلهم،... عدا شيخه المفـضال - شيخ المدرسة الحلوية - الذي ظهر فضله له فقرب مجلسه وأدناه...وقد زاد هـذا التقـرب مـن الشيخ بغضاً وضغينة من خصومه الذين يقلبون علمـه جهـلاً، وهديـه ضـلالا ويقينـه شـكاً وإيمانه كفراً وتصوفه شعوذة وفلسفته هرطقة، وكل حسناته سيئات ! وأكثروا مـن تـشنيعهم حين أخذ الشيخ يمهِّد له عند السلطان، الذي حرص بعد هـذه الـضجة التـي ثـارت حولـه،

وبعد أن أفرطوا في الحط من مكانته العلمية، وبعد أن اتهموه بالزيغ وانحلال العقيدة حرص الملك الظاهر أن يتعرف عليه وأن يلمس مدى الصدق في أقوال علماء مملكته، ورثة الأنبياء ومصابيح الأمة الهداة ! استقبله الملك الظاهر في قصره الجميل، ورحب به أجمل ترحيب، ودارت الأحاديث حول الضجة القائمة حوله، فما كاد السهروردي يفيض في الحديث، حتى لمح فيه سمو الحكمة وإشراق الذهن. وتبين البون الشاسع بين عقلية " علماء المملكة " وبين عقلية السهروردي المتحررة من كل قيد.

وهنا رأى المليك أن يكون الحكيم شهاب الدين من خلصائه، فقربه إليه وأنزله أعظم منزلة من نفسه... ولكن هذا العطف السامي زاد قلوب العلماء عليه حقداً، فأخذوا يشنون عليه الحملة تلو الحملة، ولم يتركوا نقيصة من النقائص - عدا رميه بالإلحاد والزندقة - إلا ألصقوها به ! لقد كان السهروردي في واد... وكان خصومه الفقهاء كما قلنا في واد آخر.

إنه جاء مدينة حلب ليتابع رسالته الإشراقية، ليكتب ما اختزنه صدره من آراء واتجاهات، ليبدع في الفلسفة الإسلامية أصدق النظريات. وبعد ليتابع رحلاته إلى مختلف عواصم الدنيا في الشرق وفي الغرب، يقف على مدى تطور الفكر ويستزيد علماً ومعرفة، شأنه في ذلك شأن الأفذاذ الذين لايروى نهمهم من العلم... إن صدره ممتلئ بالآمال الجسام. لقد وعى فلسفة الإغريق وفلسفة الهند وفارس والفلسفة الإسلامية على مختلف عصورها، وهو يريد أن يبدع من هذا المزيج، فلسفة جديدة رسم خطوطها الواضحة في فلسفته الإشراقية... إنه بلغ هذه المرتبة العلمية وهو في الثلاثين من عمره. فماذا يكون شأنه حين يبلغ الستين مثلاً ؟

ولقد وضع في حلب برنامجاً ضخماً لحياته الفلسفية وللمؤلفات التي ستخطها براعته. ولكن إرهاصات الفقهاء، لم تقف دون إبداعه فحسب، بل ائتمرت على حياته. لقد استطاعوا أن يثيروها عليه حملة شعواء وكادت تنشب فيه أظفارها لولا حماية الملك له... وقد انشطر الرأي العام الحلبي شطرين: هذا معه وذاك عليه. وعلام ؟ إن انتصاره عليهم حفزهم أن يزيلوه من الوجود. ولاسيما أن هذا الانتصار قد مس مركزهم في المجتمع ولدى الملك وعند الدهماء بصورة خاصة. وألفوا وفداً لمقابلة الملك الظاهر. وجروا معهم جمهوراً كثيفاً من الدهماء للتأثير فيه.

وقد استمع إليهم بصدر رحب وأخذ يناقشهم بهدوء ورفق فذهبت محاولتهم عبثاً. لقد طلبوا من الملك أن يصدر أمره بهدر دمه فهاله الطلب. كيف يهدر دم شاب عالم متصوف رأى فيه إنساناً أُشرب قلبه بحب الله، وصوفياً يعد في مرتبة كبار المتصوفين، وقد سمع منه آيات بلغت السمو في الإشراق ؟ !. لقد هال الملك الظاهر أن يصبح الفكر المشرق هزأة بيد أنصاف العلماء فردهم من حيث أتوا، ولم يلتفت إلى هذه الإرهاصات التي تعطل حرية الفكر وحيوية الإنتاج والإبداع.

وضاق الفقهاء كل الضيق من موقف الظاهر منهم وحمايته للسهروردي. فماذا يعملون ؟ لجؤوا إلى أبيه الملك صلاح الدين يستفزون عاطفته الدينية، وسيرة صلاح الدين مشهورة بالتقى والورع وببغضه كتب الفلاسفة وأرباب المنطق، ومما أوهموا به صلاح الدين قولهم أن صحبة الملك الظاهر للسهروردي ستكون مدعاة لفساد عقيدته وعقائد الناس، وزادوا في التهويل حين ضمنوا رسالتهم العبارة الآتية ((أدرك ولدك وإلا تتلف عقيدته)).

فما كان من صلاح الدين إلا أن كتب إلى ابنه بإبعاد السهروردي ونفيه ولكن الملك الظاهر، وهو عليم بسر هذه المأساة التي أجادوا تمثيلها، لم ينّفذ أمر أبيه. فثار اللغط من جديد. وضج العلماء وانقسم الناس قسمين: قسم معه وقسم عليه. قال القاضي ابن شداد: ((أقمت بحلب فرأيت أهلها مختلفين فيه، منهم من يصدقه، ومنهم من يزندقه والله أعلم)).

ضج العلماء من سلوك الظاهر وتحيزه للرجل الذي حجبهم وكشف الكثير من جهالتهم، وكان أكثرهم غيظاً وضجيجاً وأشدهم نقمة الشيخان زين الدين ومجد الدين ابنا حميد...فما كان منهما إلا أن أثارا ثائرة العلماء فجمعوا جموعهم من جديد، وطلبوا إلى الملك الظاهر في إلحاح شديد أن ينفِّذ أمر أبيه. ويظهر أنهم أحرجوه عند أبيه وعند سواد الشعب معاً. ورأى أن خير طريقة للخروج من هذا الإلحاح أن يعقد مجلساً للمناظرة فيما هم مختلفون فيه مع غريمهم لاعتقاده أن السهروردي سيحجُّهم وينتصر عليهم وتهدأ ثائرة هذه الضجة... واستمهلهم أن يكتب إلى أبيه بذلك فرفضوا بهذا الحل، وكتب إلى أبيه يطلب منه الموافقة على عقد مجلس للمناظرة قبل أن ينفيه، فوافق صلاح الدين على هذا الاقتراح.

وذاع الخبر في المدينة. وفي حلقات المدارس وأروقة الجوامع. وسرى في نفوس العوام سريان النار في الهشيم، وباتوا ينتظرون الحكم بالموت على هذا الزنديق المارق بلهف وشوق.

وقد حكموا هم عليه بالموت سلفاً قبل أن ينعقد مجلس المناظرة وقبل أن يصدر أمر السلطان بهدر دمه.

وبعد أيام انعقد المجلس واحتشد العلماء. وأخذت الأسئلة تنصب عليه من كل صوب، وكان يجيب بهدوء واتزان، ويدعم أجوبته بالبراهين والحجج، براهين أصحاب المنطق وحجج الفلاسفة وروحانية المتصوفين الذين يستمدون قواهم من روح الله... ودحضت هذه الحجج والبراهين. فالفلسفة لون من الضلال والزيغ.. ومن اشتغل بها كان فاسد العقيدة. وارتفعت الأصوات في وجه السهروردي تنكر عليه الاستدلال بالمناطقة في مناظرته. ولم تكن حججه مستمدة من أقوال الفلاسفة، بل من صميم الدين. ومع ذلك فقد اعتبروا حججه سفسطة.

فمزج العلوم الشرعية بالمنطق من البدع والمنكرات، بهذا المنطق كانوا يجادلونه، ومع ذلك فقد تغلب عليهم وأفحمهم في جميع القضايا التي أثاروها، ولما طال الجدال بدون أن ينتهي إلى نتيجة، وجهوا إليه السؤال الآتي: ((قالوا:... إنك قلت في بعض تصانيفك إن الله قادر على أن يخلق نبياً، وهذا مستحيل. قال: وما وجه استحالته ؟ فإن الله القادر هو الذي لا يمتنع عليه شيء)).فلم يفرق لسائليه بين الممكن في حد ذاته والممكن الذي أخبر القرآن بأنه لم يقع. ولم يتركوه يدلي برأيه فوقفوا عند هذا الجواب وحكموا عليه بالكفر وجردوه من الإيمان واتهموه بانحلال العقيدة والتعطيل، وسرعان ما نظموا وثيقة كفره وأذاعوها على الناس وهي تفتي بهدر دمه.

أين هذه الوثيقة ؟ إن جميع من أرخ للملك الظاهر أو للسهروردي لم يوردوا نصها، واكتفوا بالإلماح إليها. وهكذا فقد نجحت المؤامرة، ورمي السهروردي بالكفر والتعطيل. وحكم عليه بالموت، وقد تأثر الملك الظاهر لهذه النهاية. حاول أن يصونه من دسائس الفقهاء وأن يحميه من مؤامراتهم، ولكن محاولته ذهبت بدداً. وشاءت إرادة الله الذي لا يمتنع عليه شيء حتى خلق النبوات أن يكون مصرع هذا الحكيم على يد من اصطفاه وفضله على الكثيرين.

فقد أذعن الملك الظاهر إلى فتوى العلماء وصدرت إرادته بتنفيذ الحكم ! أيقتل أم يصلب أم يسلم إلى خصومه وأتباعهم يقطعون جسم هذا الكافر الزنديق إربا إربا ؟ يخيل إلينا أن

الملك الظاهر طلب من صديقه الفيلسوف أن يختار ميتته فطلب أن يحبس في مكان ما، ويمنع عن الأكل والشرب إلى أن يموت... وكأن السهروردي أراد أن يمتحن نفسه، وأن يحقق نزعاته الصوفية بهذه الميتة التي أرادوها له.

فحياة الصوفيين لون من العذاب، أو هي الفناء في سبيل الحقيقة العليا، وليس أحب إلى نفسه أن يمتنع عن الأكل وعن الشرب أياماً. وأن يعيش زاهداً متقشفاً إلى أن يلقى ربه.. لقد اختلفت الروايات في مصرعه. ففي رواية: أن الملك الظاهر سجنه، ثم خنقه في سجنه بقلعة حلب، وذكر القزويني في كتابه " آثار البلاد وأخبار العباد " أنه لما قبض عليه بحلب حبس في دار، فرأوا مكتوباً على جائزة لا يوصل إليها إلا بالسلاليم: ((بيت الظالم خراب ولو بعد حين))، وكان كذلك: ذهب الملك عن الملك الظاهر عن قريب وخرب بيتهم. وعن سبط ابن الجوزي في تاريخه عن ابن شداد أنه قال: ((لما كان يوم الجمعة، بعد الصلاة في العاشر من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وخمسمئة أخرج الشهاب السهروردي ميتاً من الحبس بحلب فتفرق عنه أصحابه)). وقد تأثر الملك الظاهر وندم على فعلته. وحقد كثيراً على من جروه إلى هذا المأزق الحرج الذي أودى بحياة هذا الفيلسوف الحكيم الذي تجرد عن الدنيويات، وكتب في عهد شبابه أصفى التأملات. ندم الملك، ولكن ما عساه أن يفعل انتقاماً لذكراه ؟ يقول المؤرخون: ((إنه نقم على جميع من أفتوا بقتله، فقبض عليهم ونكبهم وصادر جماعة منهم بأموال عظيمة)).

فهل أرضى بفعلته هذه أنصار السهروردي ومريديه ؟ ربما. ولكن هيهات أن يكون قد انتقم للفكر بعمله هذا، وستظل ميتة السهروردي لطخة سوداء في تاريخ الظاهر الأيوبي على ما امتاز به حكمه من حسنات.

ح - جوانب السهروردي

١ - نزعته الصوفية

في الفترة القصيرة التي عاشها السهروردي، وقد عرفنا أن دمه قد هدر وهو في السادسة والثلاثين من عمره، في هذه الفترة القصيرة استطاع أن يفتح مجرى طويلاً في حياة العقل. فقد نزع منذ صغره نزعة المتصوفين الذين يزدرون كل مظاهر الحياة، وتعزف نفوسهم عن كل

مباهجها، ويعيشون حياة الزهد والتقشف، همهم الخلاص مما هم فيه من ((شرط الوجود الإنساني الضيق المتهافت المحدود لبلوغ درجة الخلود الأبدي والعيش السرمدي ونيل رتبة كونية إلهية)).

فقد رأى صوفية الحلاج الذي اندفع وراء النور الإلهي هذه الأضواء الجميلة التي اجتذبته إلى عالمها، فسرعان ما سعى وراء هذا العالم المغلق، فلبس لباس الصوفيين مظهراً وحقيقة، وتجلبب جلبابهم وطرس على آثارهم وشغل قلبه بكل ما يوصله إلى الفيض الإلهي.((تباركت ربنا خالق النور ومبدأ الوجود، ارزقنا شوق لقائك، والصعود إلى جناب كبريائك، واجعل ذواتنا من الطاهرات الكاملات، فالفارقات العائدات إليك، إنك ولي الأيد وصاحب الطول العظيم المجيد)).

ولكن هذه الحياة الصوفية التي كشفت له الكثير من العوالم لم تشبع نهمه إلى المعرفة فقد حاول عن طريق العقل أن يصل إلى ما لم يصل إليه غيره من المتصوفين ومن الفلاسفة والمتكلمين. فعكف على دراسة حياتهم وقراءة كتبهم ومناقشة أقوالهم دراسة فهم وتدبر وتأمل، دفعته إلى أن يرفض الكثير من الآراء بعد نقدها وغربلتها. وما زال إلى أن ارتضى لنفسه نزعة جديدة وفلسفة جديدة عدها لباب الحكمة وفيضها المشرق.

ورأى في حياة الفلاسفة الذين عاش معهم عن طريق الفكر والروح الصفوة المختارة من أجناس البشر. فكانت " إنسانيته المشرقة " أبرز شيء في حياته الصوفية والفلسفية معاً. فالفلاسفة عنده " رجال أسرة واحدة وفروع شجرة مباركة بما فيها من ثمار وخيرات. فالفلسفة اليونانية التي نقلها العرب، ولاسيما المنطق الأرسطاليسي الذي ظل فترة طويلة (قانون العقل الذي لا يرد والمنهج العلمي الثابت، تعاريفه وحدوده ثابتة، وأحكامه وقضاياه مسلمة، وأقيسته منتجة لليقين وموصلة إلى العلم، وقد وقف السهروردي إزاء هذا الصراع الفلسفي موقف الباحث المفكر الذي يناقش الفكرة من حيث هي مجردة عن كل لبس وغموض، وقف من المنطق الأرسطاليسي مثلاً موقفاً مزدوجاً، رفضه أولاً، ثم وضع منطقاً ثانياً وهو بهذا قد جعل التفكير الحر أساس بحوثه، وقد دعم لون تفكيره بذوق، صوفي ((لم يحصل لي أولاً بالفكر، بل كان حصوله بأمر آخر، ثم طلبت عليه الحجة)) أي أنه حصل عليه بالذوق ثم حاول البرهنة عليه نظرياً.

لقد أقام السهروردي تصوفه على دعائم فلسفية وعلى إشراقات صوفية، فما من فكرة أو حالة عرضت عليها أعمل فيها روحه وذوقه وفلسفته، وقد سمى الكثير من أبحاثه الجديدة ((ضوابط إشراقية)) ففي كتابه " حكمة الإشراق " يقرر أن بحوثه تبدأ على سياق يبني على الذوق والكشف ومشاهدة الأنوار بخلاف سياق المشائين الذي يبنى على البحث الصرف. قرأ الفلسفة اليونانية قراءة درس وتبصر، وقايسها على غيرها من الفلسفات، وأعطاها رفيع منزلتها، ثم عكس عليها هذه الأضواء من روحه وذوقه وكشفه نزعاته، وإذا هو ينقض الكثير من أسسها ليقيم على أنقاضها فلسفة جديدة أطلق عليها أئمة الفكر من شرقيين وغربيين ((الفلسفة الإشراقية)) واعتبروا السهروردي مبدعها وواضع أسسها ومدرستها.

ما هي خطوط هذه الفلسفة ؟ هذا اللفظ اسم فاعل من الفعل أشرق والمصدر منه " إشراق " وإليه نسب فقيل إشراقيون، ومعناه يدل على طائفة من الفلاسفة. " الحكمة المشرقية " معناها حكمة الإشراقيين ويجب أن لا تترجم بما يدل على " الحكمة الشرقية ".

ط - شعره:

للشهروردي الصوفي في أدبنا العربي، لونه الخاص وجوّه الخاص، وعبيرها المسكر الذي يرتفع بالقارئ من العالم السفلي العلوي...وهو يتميز بألفاظ وتعابير واصطلاحات خلقها الصوفيون خلقاً فلبستهم ولبسوها وعبروا فيها عن ذوات أنفسهم وأنات قلوبهم وحالات الوجد والشوق والغيبوبة التي تمر بهم، وقد يتسم الكثير من شعرهم بسمة الغموض لمن لا يدرك اصطلاحاتهم، ولا يعرف ما ترمي إليه ألفاظهم وتعابيرهم، ذلك لأنهم ((يؤثرون الإشارة على العبارة ويعمدون إلى التلميح دون التصريح، ستراً لحقائقهم، وكتماً لأسرارهم وغيرة على هذه الحقائق)).

وهو لون من الشعر الرمزي الذي ساد مذهبه عند الكثيرين من شعراء هذا العصر... وربما كانت رمزية شعرنا الصوفي أدق في المبنى، وأصفى في المعنى؛ لأنه يصور حالات فلسفية تصدر عن الذات التي ترى حياتها أو خلودها في الفناء. ويصور، إلى هذا أخيلة وهواجس تتلاقى في غريب صورها عوالم الوجد والشوق والبهاء... فكلمة (السفر) عندهم هي عبارة عن القلب إذا أخذ في التوجه إلى الحق. و" المسافر " هو الذي يسافر بفكره في المعقولات

والاعتبارات. وكلمة " الأنس " هي أثر مشاهدة جمال الحضرة الإلهية في القلب، وهو جمال الجلال.

وكلمة " الوجد" ترمز إلى ما يصادف القلب من الأحوال المغنية عن شهوده وكلمة " الوجود" هي وجدان الحق في الوجد. ولا مجال لتعداد الكثير من الألفاظ والتعابير. فهي تختلف في مدلولها عما يرمز إليه الكتاب والشعراء الذين لم تدركهم مواجيد الصوفيين. وربما طالت تفسيراتهم للكلمة الواحدة، فقد فسر أحد كبار المتصوفين كلمة " الوصول " بقوله: ((إذا دلك به عليه، كنت منه وإليه، وإذا أفناك عن الإحساس، في حضرة الإيناس. وإذا كاشفك بحبه، لم تتلذذ إلا بقربه. وإذا غيبك عن شهودك تجلى لك من وجودك)).

وفي قاموس الصوفيين عشرات الكلمات ومئات الاصطلاحات، ولكل كلمة معناها، ولكل اصطلاح كما قلنا، مغزاه ودلالته على حالة من الحالات... فخمرتهم، ليست الخمرة المعصورة من كروم العنب والتي تصرع الألباب، بل هي الخمرة الإلهية التي تريهم نور الحق والتي سكروا بها من قبل أن يخلق الكرم، كما يقول ابن الفارض:

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ونور ولا نار وروح ولا جسم
تقدم كل الكائنات حديثها قديماً ولا شكل هناك ولا رسم

وليس شعر السهروردي مما يدق على الأفهام لغموض ألفاظه، بل الأمر بالعكس، فهو واضح كل الوضوح... وإن الكلمات التي جاءت في شعره أكثرها كلمات وتعابير صوفية تشير إلى وجده الشديد في بحثه عن الذات العليا، وشعره - بالرغم من إيغاله في الدراسات الفلسفية - سوانح ولمحات كان ينفس بها عن حالات الوجد التي تنتابه وما لدينا من شعره قليل، ولا يخامرنا أي ريب بأن الكثير من شعره مفقود، وليس بين أيدينا غير عدة مقطوعات وقصيدته الحائية المتداولة في أروقة الصوفيين:

أبداً تحن إليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والراح

وهي أكثر قصائده شيوعاً، ترسم بعض حالات وجده، وتصور هواجس نفسه حين يغيب عن العالم الذي يعيش في خضمه ليتصل بالذات الإلهية. وهي نفحة عبقة من الشعر

الغنائي الذي ينشده الصوفيون في خلواتهم وحلقات أذكارهم. نعم، فجو القصيدة جو صوفي، يرينا حنين العاشق وشوقه وتدلهه وتأرجح أيامه بين الوصل والهجر، وهو لا يصف ذاته فحسب، بل يرى في ذاته ذوات جميع المعذبين بالحب المكتوين بناره، فكل العشاق في محنتهم سواء:

وارحمتا للعاشقين تكلفوا ستر المحبة والهوى فضاح

إنه يريد أن يكون في معزل عن العالم، يريد أن يكتم حبه وأن لا تنمّ حالاته اللاشعورية عن وجده وحرقته وألمه... ولكن أنى له ذلك والهوى فضاح.

وتنتابه الهواجس. إنه بين أمرين خطيرين، أيبوح بحبه فيكون ثمن البوح هدر دمه، أم يكتم هذا الحب وهو غير قادر على كتمانه. ولو حاول كتمان حبه فدموعه تنم عما يقاسيه من ألم وجوى، وما ينتاب جسمه من نحول وسقام وضنى. إذن لابد له من أن يذل نفسه ويتحمل المهانة في سبيل محبوبه. ولا جناح عليه أن يخفض جناحه فنفسه مشتاقة إلى اللقاء بأي ثمن:

وبدت شواهد للسقام عليهم فيها لمشكل أمرهم إيضاح
خفض الجناح لكم وليس عليكم للصب في خفض الجناح جناح
فإلى لقاكم نفسه مشتاقة وإلى رضاكم طرفه طماح

إنه في ثورة هائجة من الألم الممض. كيف السبيل إلى لقاء الحبيب ؟ ولأسلوبه الشعري هذا الجرس الذي يتصل بجوهر النفس.

ي - آثاره:

بلغت كتبه كما ذكر تلميذه الشهرزوري (٤٩) مؤلفاً وأكثرها كتب بالعربية. وبعضها بالفارسية، وقسم ثالث يحتوي على ترجمات لمؤلفاته العربية إلى الفارسية قام بها هو نفسه، وعلى رأسها كتابه " حكمة الإشراق ".

ومن هذه المؤلفات:

١ - هياكل النور أو الهياكل النورية وهو كتاب يشتمل على أنظار فلسفية وأذواق إشراقية، كتبه بالعربية وترجمه هو نفسه إلى الفارسية.

٢ – حكمة الإشراق.

٣ – رسالة أصوات أجنحة جبرائيل: وهي رسالة فلسفية كتبها السهروردي بالفارسية بعنوان " أوازير جبرائيل ".

٤ – رسالة مؤنس العشاق وقد ذكرها الشهروزري باسم رسالة العشق، وهي بالفارسية.

٥ – مجموعة في الحكمة الإلهية، مطبعة المعارف. حوت المقدمة التي بلغت صفحاتها ٨٠ صفحة الرسائل الآتية:

أ – كتاب التلويحات اللوحية والعرشية وهو في ثلاثة علوم: في المنطق والطبيعات والإلهيات.

ب – كتاب المقاومات وهو لواحق على كتاب التلويحات، وقد جعله السهروردي بعد أن اختصره بمثابة الذيل أو اللواحق على حد تعبيره.

ج – كتاب المشارع والمطارحات وهو كتاب في المنطق والفلسفة والتصوف.

٦ – التنقيحات في أصول الفقه.

٧ – اللمحات وهو مختصر صغير في العلوم الحكمية الثلاث من منطق وطبيعيات وإلهيات.

٨ – الألواح العمادية: وهي عجالة في المبدأ والمعاد على رأي الإلهيين.

٩ – رسالة الغربة الغربية: وهي قصة رمزية تأثر فيها السهروردي بقصة " حي بن يقظان " لابن سينا.

١٠ – رسالة أصفير سيمرغ: بالفارسية.

١١ – كتاب علم الهدى وأسرار الاهتداء.

١٢ – كتاب المعارج أو رسالة المعراج وهي بالفارسية.

١٣ – بستان القلوب، وهو مختصر في الحكمة، كتبه بالفارسية لجماعة من أصحابه في أصفهان.

١٤ – الرمز الموفي.

١٥ – طوارق الأنوار.

١٦ – التنقيحات في الأصول.

١٧ – حكمة في التصوف أو مقالات الصوفيين.

١٨ – البارقات الإلهية.

١٩ – النفحات السماوية.

٢٠ – لوامع الأنوار.

٢١ – الرقم القدسي.

٢٢ – اعتقاد الحكماء.

٢٣ – كتاب الصبر.

٢٤ – رسالة در حالة طفولية. بالفارسية.

٢٥ – رسالة المعراج بالفارسية.

٢٦ – رسالة روزي إجماعت صوفيان بالفارسية.

٢٧ – رسالة عقل.

٢٨ – رسالة برتونان وهي مختصر بالفارسية في الحكمة تناول فيها السهروردي شرح بعض الاصطلاحيات.

٢٩ – رسالة لغة موران وهي حكايات رمزية كتبت بالفارسية.

٣٠ – رسالة تفسير آيات من كتاب الله وخبر عن رسول الله.

٣١ – رسالة غاية المبتدي.

٣٢ – التسبيحات ودعوات الكواكب.

٣٣ – أدعية متفرقة.

٣٤ – السراج الوهاج: ذكره الشهرزوري وشكك في صحة نسبه إلى السهروردي، وذلك إذ يقول: ((والأظهر أنه ليس له)).

٣٥ – الدعوة الشمسية.

٣٦ – الواردات الإلهية بتحيرات الكواكب وتسبيحاتها.

٣٧ – مكاتبات إلى الملوك والمشايخ.

٣٨ – كتب في السيمياء ذكرها الشهرزوري دون أن يعين أسماءها، ولم يزد غير قوله أنها تنسب إليه.

٣٩ – تسبيحات العقول والنفوس والعناصر.

٤٠ – شرح الإشارات وهو بالفارسية.

٤١ – كشف الغطاء لإخوان الصفاء.

٤٢ – الكلمات الذوقية والنكات رسالة الأبراج.

٤٣ – رسالة لا عنوان لها، لم يذكرها الشهرزوري موضوعاتها هي: الجسم والحركات والربوبية والمعاد والوحي والإلهام.

٤٤ – مختصر صغير في الحكمة: يتناول العلوم الحكمية الثلاثة من منطق وطبيعيات وإلهيات.

٤٥ – طائفة من المنظومات: ذكرها الشهرزوري تفصيلاً، وذكر أنها وردت في معجم الأدباء لياقوت.

- ثانياً -

ابن خلدون

(٧٣٢ هـ، ١٣٣٢م، ٨٠٨ هـ، ١٤٠٧ م)

أولاً - حياته ونشأته:

ولد ابن خلدون في تونس عام ١٣٣٢ م، وهو ينحدر من أسرة عربية يمانية تقلد ابن خلدون مناصب كثيرة لكتابة السر والقضاء والسفارة والوزارة في بلاط الأندلس وفارس وغرناطة، لكنه ما لبث في ربيع عام (١٣٧٥م) أن تخلى عن النشاطات السياسية كافة وتفرغ للبحث العلمي والتفكير، فكان أن شرع في تأليف كتابه الشهير "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، وقد وضع لهذا الكتاب مقدمة عرفت باسم (مقدمة ابن خلدون) وقد كان ابن خلدون واعياً لأهميتها شرح فيها منهجه في كتابه التاريخ واضعاً أسس علم جديد سماه (طبائع العمران وهو الذي نسميه اليوم " علم الاجتماع ".

وقد تعرض (ابن خلدون) بسبب هذا الكتاب لحملة اضطهاد منظمة على نطاق واسع فترك تونس عام (١٣٨٢ م) قاصداً مصر حيث تقلّد مناصب كثيرة حيناً وتعرض للاضطهاد حيناً آخر بسبب مواقفه الفكرية والسياسية، وقد ظل على هذه الحال حتى وافته المنية عام (١٤٠٧ م).

الفهرس

مقدمة: الأدب في عصر الدول المتتابعة ١١
الباب الأول: الحياة العامة في العصر المملوكي ١٣
تقديم ١٥
الباب الأول: الفصل الأول: الحياة السياسية في بلاد الشام ومصر والمغرب العربي في العهد المملوكي ١٧
الباب الأول: الفصل الثاني: الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي ٢٥
الباب الأول: الفصل الثالث: الحياة الاقتصادية في العهد المملوكي ٣١
الباب الأول: الفصل الرابع: الحياة الفكرية في العهد المملوكي ٣٥
الباب الأول: الفصل الخامس: الحياة الدينية في العصر المملوكي ٤٣
الباب الثاني: اتجاهات الشعر في عصر الانحدار وموضوعاته ٤٥
الباب الثاني: الفصل الأول: أبرز أغراض الشعر في العصر المملوكي ٤٩
الباب الثاني: الفصل الثاني: أبرز خصائص الشعر في العصر المملوكي ٥٩
الباب الثاني: الفصل الثالث: أهم المحسنات البديعية التي استخدمها الشعراء ٦١
الباب الثالث: الأدب الصوفي في عصر الانحدار ٦٣
الباب الثالث: الفصل الأول: تشجيع المماليك للصوفية ٦٥
الباب الثالث: الفصل الثاني: مذاهب شعراء الصوفية ٦٩
الباب الرابع: اتجاهات الأسلوب والبناء والموسيقا في شعر العصر المملوكي ٧١
- آ - الأسلوب ٧٣
- ب - الموسيقا الشعرية ٧٥
الباب الأول: الحياة العامة في هذا العصر ٧٩
الباب الأول: الفصل الأول: الحياة السياسية والعسكرية إبّان الحروب الصليبية ٨١
الباب الأول: الفصل الثاني: الاتجاه الإداري إبّان الحروب الصليبية ٨٣
الباب الأول: الفصل الثالث: الاتجاه الاجتماعي ٨٥

الباب الثاني: الموضوعات الشعرية إبّان الحروب الصليبية ٨٧
- ١ - شعر المناسبات ٨٩
- ٢ - شعر المديح ٩٠
- ٣ - رثاء المدن ٩١
- ٤ - شعر الغزل ٩١
- ٥ - شعر الوصف ٩٢
- ٦ - شعر الهجاء ٩٣
- ٧ - الشعر الحماسي ٩٤
- ٨ - شعر المدائح النبوية ٩٦
- ٩ - شعر الرثاء ٩٧
- ١٠ - شعر الطبيعة ١٠٠
- ١١ - شعر الوجدانيات ١٠١
- ١٢ - الشعر العابث ١٠٣
- ١٣ - شعر الألغاز والأحاجي ١٠٤
- ١٤ - الغربة والاغتراب ١٠٦
- ١٥ - الشعر التأملي ١٠٧
- ١٦ - شعر المعارضات ١٠٨
الباب الثالث: اتجاهات الشعر في عصر الدول المتتابعة ١١١
الباب الثالث: الفصل الأول: اتجاهات الشعر في عصر الانحدار ١١٣
الباب الثالث: الفصل الثاني: اتجاهات الشعر إبان الحروب الصليبية ١١٥
- ١ - الاتجاه التقليدي في الشعر ١١٥
- ٢ - الاتجاه الطبعي في الشعر ١١٧
- ٣ - الاتجاه البديعي في الشعر ١١٩
الباب الرابع: ملامح التجديد في الشعر إبان الحروب الصليبية ١٢١
الباب الخامس: السمات الفنية لشعر الحروب الصليبية ١٢٥
الباب الخامس: الفصل الأول: بناء القصيدة الشعرية ١٢٩

الباب الخامس: الفصل الثاني: معالم الرمز في شعر الحروب الصليبية ١٣١
الباب الخامس: الفصل الثالث: الصورة الشعرية عند شعراء الحروب الصليبية ١٣٣
الباب الخامس: الفصل الرابع: الموسيقا الشعرية لأدباء الحروب الصليبية ١٣٥
الباب الخامس: الفصل الخامس: المعارضات الشعرية ١٣٩
الباب السادس: أبرز الشعراء في هذا العصر ١٤١
- ١ - الشاب الظريف شمس الدين ابن عفيف الدين التلمساني ١٤٣
- ٢ - صفي الدين الحلي ١٥٢
- ٣ - التلعفري شهاب الدين أبو المكارم محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة الشيباني ١٥٥
- ٤ - الشهاب محمود بن سلمان الحنبلي ١٦٥
- ٥ - ابن نباتة المصري جمال الدين بن محمد ١٦٦
- ٦ - الشرف الأنصاري شيخ الشيوخ ١٧١
- ٧ - أبو الحسين الجزار ١٨٧
- ٨ - الوراق - سراج الدين الوراق ١٩٥
- ٩ - الحمامي نصير الدين أحمد بن علي المناوي المصري ٢٠٢
- ١٠ - العزازي شهاب الدين أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم ٢٠٣
- ١١ - مجاهد بن سليمان الخياط ٢٠٦
- ١٢ - ابن تولو المصري معين الدين أبو عمرو عثمان بن سعيد ٢٠٨
- ١٣ - قطنبة الأصفوني حسن بن محمد بن هبة الله ٢٠٨
- ١٤ - البوصيري شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري المغربي ٢٠٩
- ١٥ - مجير الدين بن تميم محمد بن يعقوب بن علي ٢١٣
- ١٦ - شرف الدين الحموي عبد العزيز بن محمد ٢١٩
- ١٧ - أيدمر المحيوي ٢٢٠
- ١٨ - ابن المرحل صدر الدين بن الوكيل محمد بن عمر ٢٢٢
- ١٩ - الوداعي علاء الدين علي بن المظفر ٢٣٢
- ٢٠ - الشارمساحي شهاب الدين أحمد بن عبد الدائم بن يوسف الكناني ٢٣٤
- ٢١ - الأسفوني علي بن أحمد ٢٣٥

- ٢٢ - السراج المحار ٢٣٦
- ٢٣ - عمر بن الوردي ٢٣٩
- ٢٤ - بدر الدين الغزي ٢٤٣
- ٢٥ - شمس الدين الخياط المعروف بالضفدع ٢٤٤
- ٢٦ - ابن مليك الحموي ٢٤٦
- ٢٧ - ابن النقيب الحسن بن شاور بن طرخان بن الحسن ناصر الدين ٢٤٧
- ٢٨ - ابن دانيال شمس الدين محمد بن دانيال الحكيم الكحال ٢٥١
- ٢٩ - الخيمي محمد بن عبد المنعم ٢٥٤
الباب السابع: النثر في عصر الانحدار وإبّان الحروب الصليبية ٢٥٧
الباب السابع: الفصل الأول: التآليف والكتب والمصنفات ٢٦١
الباب السابع: الفصل الثاني: خصائص الكتابة الفنيّة والأدبية ٢٦٧
الباب الثامن: الرسائل الرسمية والأدبية ٢٦٩
الباب التاسع: الخطابة وأنواعها ٢٧٣
الباب العاشر: المقامات ٢٧٥
الباب الحادي عشر: الموعظة التقوية ٢٧٧
الباب الثاني عشر: المناظرة ٢٧٩
الباب الثالث عشر: الوصف ٢٨٥
الباب الرابع عشر: الوصايا ٢٩١
الباب الخامس عشر: الحكم الإلهية ٢٩٧
الباب السادس عشر: الأدب الشعبي وأنواعه ٣٠١
أولاً: ماهية الأدب الشعبي وخواصه ٣٠٣
ثانياً: فن التوشيح - الموشحات ٣٠٥
ثالثاً: فن الزجل ٣٠٨
رابعاً: فن البليق ٣١٢
خامساً: فن المواليا ٣١٤
سادساً: فن الدوبيت ٣١٨

سابعاً: فن كان وكان ٣٢١
خاتمة..... ٣٢٣
الباب السابع عشر: أعلام الأدب الشعبي ٣٢٥
- ١ - شرف الدين بن أسد ٣٢٧
- ٢ - إبراهيم المعمار ٣٢٩
الباب الثامن عشر: السير الشعبية..... ٣٣١
أولاً: تعريف وماهية..... ٣٣٣
ثانياً: الشعب وحلم العدالة والتحرر ٣٣٣
ثالثاً: أهم السير والقصص الشعبية ٣٣٤
رابعاً: دوافع السير الشعبية ٣٣٤
خامساً: الخيال والبطل الشعبي في هذه القصص..... ٣٣٥
سادساً: سيرة علي الزيبق..... ٣٣٥
سابعاً: نص من سيرة علي الزيبق (وصية الرشيد إلى أولاده) ٣٣٧
ثامناً: البطل في السير الشعبية..... ٣٣٨
الباب التاسع عشر: أبرز النثّار في هذا العصر ٣٤١
- ١ - شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ٣٤٣
- ٢ - أبناء الأثير..... ٣٤٣
- ٣ - أسرة آل فضل الله العمري..... ٣٤٨
- ٤ - القلقشندي..... ٣٥٥
- ٥ - شافع بن عباس..... ٣٦٦
- ٦ - النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكري ٣٦٨
- ٧ - علاء الدين بن غانم أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان..... ٣٦٩
- ٨ - شهاب الدين محمود محمود بن سليمان بن فهد بن محمود الحلبي ثم الدمشقي ٣٧١
- ٩ - جمال الدين بن نباتة ٣٧٨
- ١٠ - الشهاب محمود ٣٨٠
- ١١ - ابن عطاء الله السكندري الحكيم الصوفي العابد..... ٣٨٧

- ١٢ - ابن غانم المقدسي ٣٩٠
الباب العشرون: القاضي الفاضل - نص أدبي - الجولة الأخيرة ٣٩١
الباب الحادي والعشرون: النقد في عصر الانحدار ٣٩٣
- أولاً - النقد الأدبي عند صلاح الدين الصفدي ٣٩٥
- ثانياً - ابن سينا ((فن الشعر)) ٤٠٣
- ثالثاً - ابن خلدون ((صناعة الشعر)) ٤٠٧
- رابعاً - النقد عند ضياء الدين بن الأثير ٤٠٩
- أولاً - موهبة وأدوات وطبع ٤٠٩
- ثانياً - نظرية النص الأدبي عند ابن الأثير ٤١١
- ثالثاً - موقف ابن الأثير بين النثر والشعر ٤١٧
- رابعاً - موقف ابن الأثير من الكتاب والشعراء ٤١٩
الباب الثاني والعشرون: أعلام النقد الأدبي في عصر الانحدار ٤٢١
- أولاً - صلاح الدين الصفدي (خليل بن أيبك) ٤٢٣
- ثانياً - ابن خلدون ٤٢٩
- ثالثاً - ضياء الدين بن الأثير ٤٣٣
الباب الثالث والعشرون: الحكمة والفلسفة العربية والإسلامية ٤٤٩
- أولاً - فلسفة السهروردي ٤٥١
- ثانياً - فلسفة ابن خلدون في المجتمع والتاريخ والدولة ٤٥٧
الباب الرابع والعشرون: أعلام الحكمة والفلسفة العربية والإسلامية ٤٦٥
- أولاً - السهروردي ٤٦٧
- ثانياً - ابن خلدون ٤٨٧